# التطوع حجر الزاوية في تحقيق المصالح


تأليف

**الأستاذ الدكتور علي الشيخ أحمد أبوبكر**

عضو مجلس أمناء جامعة مقديشو

رئيس مؤسسة شرق إفريقيا للتنمية والبحث العلمي



الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م

دار الفكر العربي

للطباعة والنشر والتوزيع

٩٤ شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٧٩٤- فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٦ أ شارع جواد حسني – ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com

info@darelfikrelarabi.com

# الإهداء

أُهدي هذا الكتاب إلى الوالدين العزيزين الشيخ أحمد أبوبكر ومعلم عبد الله أبوبكر، لقد بذلا حقا جهودا مضنية من أجل تنشئتي وتأديبي وتربيتي على الهمة العالية والخصال الحميدة، وعوّداني على السير في ركاب المتعلمين، وأقاما لي سلّمًا أوصلني إلى حب العلم والعلماء، الأمر الذي قادني إلى قناعة وجوب العمل على تحقيق المصلحة العامة.

كما أُهدي إلى زوجتي المضحية حليمة أم فاطمة الزهراء والتي هي خير معين ومرافق في رحلة حياتى الشاقة والممتعة.

# شكر وتقدير

هذا الكتاب جاء بعد ثلاثة عقود من العمل التطوعي داخل بيئة مضطربة اجتماعيًا وسياسيًا، والفكرة التي يتمحور حولها قد تكون مثيرة للجدل، ولم يكن لهذه الفكرة أن تتضح معالمها عبر صفحات الكتاب لولا توفيق الله - عزَّ وجل - ثم مساهمات الأصدقاء وزملاء العمل ورفاق الدرب.

لذا يطيب لي أن أعبِّر عن وافر الشكر وجزيل التقدير لكل من ساهم في إنجاز هذا الكتاب، سواء باقتراح أو نقد أو تعديل أو قدَّم أفكارًا عامة ساعدتني في إضاءة بعض جوانب إشكالياته، وتسهيل خروجه إلى النور، وعلى الله قصد السبيل.

ومن هذه الكوكبة سعادة الدكتور محمد إبراهيم عبدي الذي بذل جهدًا موفقًا وقدم إليّ أفكارًا نوعية جعلت الكتاب أكثر تناسقًا وانسجامًا، وكان معي حتى تقديم الكتاب إلى المطبعة. ومن بين من قدَّم إليّ إسهامًا مقدرًا الدكتور سعيد أبوبكر شيخ أحمد والسيد يوسف إبراهيم حاشي والسيد عبد ولي شيخ محمد والسيد عبد الله حاج عبد وأفراد من عائلتي الذين تحملوا عبئي دومًا، وأقول لهؤلاء وغيرهم جميعًا ممن أهدوا إليّ نصائحهم: جزاكم الله خيرًا وبارك جهودكم وتقبل منكم صالح الأعمال.

**الدكتور علي الشيخ أحمد**

# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| تقديم | ١١ |
| المقدمة | ١٥ |
| **الفصل الأول** | |
| **تعريف للأحكام الفقهية الخمسة** | |
| المبحث الأول: التطوع لغة واصطلاحا | ٢٠ |
| المبحث الثاني: الفرض والوجوب لغة واصطلاحا | ٢٦ |
| **الفصل الثاني** | |
| **التطوع في إطار الواجبات الكفائية** | |
| المبحث الأول: نماذج من أقوال المفسرين للتطوع | ٣٤ |
| المبحث الثاني:من دلالات كلمة التطوع في القرآن | ٤١ |
| المبحث الثالث: رمزية اقتران التطوع بالخير في القرآن | ٤٥ |
| المبحث الرابع: من دلالات كلمة التطوع في الأحاديث | ٤٩ |
| المبحث الخامس: ورود الفروض والنوافل معًا | ٥٥ |
| المبحث السادس:ضياع المصالح من خلال الفهم المشوه | ٦٠ |
| المبحث السابع:أوجه التشابه بين الواجبات الكفائية والتطوع | ٦٥ |
| المبحث الثامن: تعامل الصحابة مع أوامر الوحي | ٦٨ |
| **الفصل الثالث** | |
| **مركزية التطوع في الحياة الإنسانية** | |
| المبحث الأول: الإنسان مخيّر في تصرفاته | ٨٤ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| المبحث الثاني: مسؤوليات وواجبات مقابل الاختيار | ٨٨ |
| المبحث الثالث: الإيمان بالله اختيار لا إكراه | ٩٤ |
| المبحث الرابع: هل الإيمان بالله داخل في محيط التطوع؟ | ٩٨ |
| **الفصل الرابع** | |
| **التطوع في حياة الرسل والأنبياء** | |
| المبحث الأول: رسل الله هم معالم التطوع في الحياة | ١٠٤ |
| المبحث الثاني:مفهوم العمل التطوعي في دعوة الرسل | ١٠٩ |
| المبحث الثالث: مشاهد من رسل الله تجسد العمل التطوعي | ١١٥ |
| المبحث الرابع: أسباب تحريم أخذ الأجرة من الرسل | ١٣٣ |
| **الفصل الخامس** | |
| **ورثة الأنبياء** | |
| المبحث الأول: العلماء العاملون هم على خطى الأنبياء | ١٤٢ |
| المبحث الثاني: فروق بين الأنبياء السابقين وبين محمد عليهم السلام | ١٤٣ |
| المبحث الثالث: دور الورثة في حفظ الدين وتجديده | ١٤٨ |
| **الفصل السادس** | |
| **علاقة الأعمال التطوعية بالمصلحة والمفسدة** | |
| المبحث الأول: المصلحة والمفسدة لغة | ١٥٠ |
| المبحث الثاني: المصلحة والمفسدة اصطلاحا | ١٥٢ |
| المبحث الثالث: المصلحة في القرآن الكريم | ١٥٧ |
| المبحث الرابع: أنواع المصلحة حسب المنافع والاستفادة | ١٩٧ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المبحث الخامس: مسؤولية تحقيق المصالح وحفظها | ٢١٦ |


**الفصل السابع**

**العمل التطوعي تجارب من الصومال**

المبحث الأول: الدولة الصومالية نشأتها ومراحلها قبل انهيارها ٢٥٢

المبحث الثاني:العمل التطوعي في الصومال بعد انهيار سلطة الدولة ٢٦٠

المبحث الثالث: العوامل المساعدة على تخطي الصعاب والعقبات ٢٦٦

المبحث الرابع: فعالية التطوع في ذروة الأزمة ٢٧٥

المبحث الخامس: تأسيس الدولة عبر التطوع السلمي ٢٩٢

المبحث السادس: استنتاجات عن التجربة الصومالية ٣٠٣

**الفصل الثامن**

**أسباب ضمور المصلحة العامة في حياة الأمة**

المبحث الأول: نقص الوعي لدى المسلمين بقيمة المصلحة العامة ٣١٠

المبحث الثاني: عدم الالتزام بالقيم الدينية والدستورية ٣١٥

المبحث الثالث: ضعف التنسيق بين الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني ٣٢٠

المبحث الرابع:الفهم المشوّه للواجبات الدينية ٣٢٣

المبحث الخامس:عدم وجود خطة تنموية متكاملة ٣٢٦

**الفصل التاسع**

**واقع التطوع في الدول المعاصرة**

المبحث الأول: مفاهيم التطوع في علم الاجتماع ٣٣٠

المبحث الثاني: التطوع والتنمية في عصر الدولة الحديثة ٣٣٦

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

## الفصل العاشر

## العمل التطوعي مهنة العظماء في بناء الأمم

المبحث الأول: دور المتطوعين في إقامة الحضارات والدول وصناعة التاريخ ٣٤٢
المبحث الثاني: عظماء أسسوا الدول في التاريخ ٣٤٧
المبحث الثالث: سلّم عشاق التغيير هو العمل ٣٥٩
الخاتمة ٣٧٩

# تقديم

**بروفسور علي أحمد محمد بابكر**
مدير جامعة أم درمان الإسلامية
ورئيس مجمع اللغة العربية في السودان سابقًا
عضو مجمعي اللغة العربية في كل من القاهرة ودمشق
أستاذ كرسي الامتياز بجامعة أم درمان الإسلامية

**هذا الكتاب المعنون:** "التطوع حجر الزاوية في تحقيق المصالح" تأليف البروفيسور علي الشيخ أحمد أبوبكر، هو سِفْرٌ جاء في وقته، فالمسلمون اليوم في أشد الحاجة له، نظرًا للغبش والضباب الذي حال – بمرور الزمن- دون تبيّن المسلمين لمعالم هذا الجانب المشرق في توجيهات الإسلام وأحكام الشريعة.

مؤلف هذا الكتاب الأستاذ الدكتور علي الشيخ أحمد أبوبكر عرفته منذ أن كان باحثًا لنيل درجة الدكتوراه، وكنت حينها عضوًا بهيئة التدريس بالجامعة. لمست فيه حبه للعلم، واجتهاده في تحصيله، وعرفت فيه ذكاءً وعقلًا متوقدًا، ونظرت طموحًا بغير حدود لنيل العلم وبلوغ الشأو فيه. كان لا يكتفي بالإشراف على بحثه من مشرف واحد، ولكنه يتصل بالعلماء ويجالسهم، ويرتاد حلقات العلم ومجالسه، ويصاحب المكتبات، ويجتهد في اقتناء المصادر والمراجع، هذا كله بجانب تميزه بالخلق الحسن، ولين الجانب، وتوقير أساتذته، وإحسان التعامل مع صحبه من طلاب العلم، وتأدبه وتأسيه بخلق رسول الله ﷺ، وصبحه الكرام.

لذا فالأستاذ الدكتور علي خليق بأن يقدم مثل هذه الأعمال العلمية، ينير بها طريق المسلمين، ويكشف بها أسرار الأحكام الشرعية، ويحفز الأجيال لاقتحام هذه العقبات والنفوذ إلى أعماق ومرامي توجيهات هذا الدين الحنيف.

هذا الكتاب استهدف فيه الكاتب إيقاظ المسلمين وتنبيههم لركن عظيم، وقيمة عظمى من قيم الإسلام، ولبنة من لبناته التي تسد ثغرة في صرحه، وومضة تسهم في

إرشاد المسلمين لعظمة هذا الدين الذي ما ترك مصلحة للناس إلا صانها، ولا شاردة إلا أبانها.

قدم الكاتب العمل الطوعي ومكانه في الإسلام في ثوب جديد بين فيه صفحات يقف عندها المسلمون عجلين، ويتجاوزونها وكأنها أمر لا شأن له ولا أثر، ولا يعولون عليها في إصلاح شأن المجتمع وسد حاجاته .

دعا الكاتب إلى ضرورة أن يقوم بالعمل الطوعي المجتمع المسلم بجانب ما تقوم به الحكومات من جهد لتحقيق كفاية الناس وصون مصالحهم الدينية والحياتية، والتعليمية والتكاثرية والمتعلقة بأموالهم ومعاملاتهم. وأسهب المؤلف في بيان ضرورة قيام الناس بهذا الواجب.

من إشراقات هذا الكتاب اجتهاد المؤلف في ربط هذه القيمة –قيمة العمل الطوعي – بالأحكام التكليفية خاصة الواجب العام (المسمى في كتب الفقه بالواجب الكفائي) وربطها بالسنن .. إلخ لينتبه الناس إلى أهمية هذا العمل ويتجنبوا تجاهله وإهماله ويضعوه في مقامه الصحيح.

أحوال المجتمعات المسلمة كانت الدافع الأساس لتحريك عقل المؤلف، وقلبه، وقلمه ليسبر أغوار هذا الباب الغني بزاخر المعاني والتسامي، والارتقاء بمعنى الإنسانية الحق، وبالأسس الربانية التي لا عوج فيها التي تؤدي إلى الفلاح وإلى جعل المجتمع المسلم مثالًا لبقية المجتمعات البشرية.

طوّف بنا المؤلف في قضايا التطوع، بدءًا بمعانيه، وما يتصل بالمصطلح من ألفاظ، مرورًا بعلاقة مصطلح التطوع بالألفاظ الشرعية الأخرى، مما بسطه العلماء في علم الفقه وأصوله، متعرضًا لبيان معاني تلك الألفاظ، مستعرضًا دلالات لفظ التطوع في القرآن والسنة، مستصحبًا تنافس الصحابة - رضي الله عنهم - في الإيتان بأعمال الخير غير المفروضة. ومن أبرز القضايا في هذا الكتاب اتخاذ مقاصد الشريعة متكأ لتوضيح معنى التطوع، ما جعله يتعرض لبيان المصلحة الإنسانية وحفظ الشريعة لها، وما يصاحب التكاليف الشرعية من مشقة، وكيفية الموازنة بين المصالح والمفاسد، الخاصة والعامة. كما

بيّن أن العمل الطوعي يسأل عنه جميع المكلفين ولكن الذين يتصدون له عادة هم أصحاب العزائم والعلياء، كما هو الشأن في كل الأعمال الجليلة. وقد نهضت الدول بفعل مثل هؤلاء. وكأن الشاعر قد عناهم عندما تحدث عن نفسه قائلًا:

**إلى الذروة العلياء سار بي الفعلُ *** ومثلي للعلياء بين الورى أهل**

ونختم هذه المقدمة المختصرة بأننا لم نأت على الكثير مما نبه إليه هذا الكتاب، ولكنها إشارات لعمل كبير، قدمه عالم جليل عامل بعلمه هو الأستاذ الدكتور علي الشيخ أحمد أبوبكر .وندعو الله أن يوفقه لفائدة الأجيال، وندعو الله أن يقبل منه هذه الأعمال ويثيبه عليها ثوابًا جزيلًا.

# المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان متميزا عن باقي الخلائق مخيرًا لا مسيرًا، وملّكه قدرة خاصة يفرق بها بين المفاسد والمصالح، وصلى الله على رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والرسل والمبعوث رحمة للعالمين لتحقيق المصلحة العليا للإنسانية جمعاء.

إن المجتمعات الإسلامية تمر بمنعطفات وظروف حرجة للغاية، فهي تعاني قدرًا كبيرًا من الأمية والجهل ومن التمزق الاجتماعي والانحطاط السياسي والانهيار الاقتصادي والتردي الأمني، كما تعاني من حروب طاحنة بين دولها التي وصل أغلبها إلى مستوى مربع الدول الفاشلة حسب التصنيف العالمي للدول، ولقد أنتجت تلك الأوضاع المزرية وضعًا مأساويًا من الناحية الخدماتية بمعناها الشامل، ومأساة إنسانية أقلها التهجير والنزوح القصري، فما هي الأسباب الجوهرية التي خلقت هذه الوضعية الشاذة؟ وما العلاج الناجع والحل الأمثل للخروج من هذه الظروف في حالة فشل الدول بالقيام بمسئولياتها الدستورية والقانونية والأخلاقية تجاه الشعوب؟ وعلى من تقع الواجبات؟

ليس الجواب المنتظر من عقلاء المجتمع بداهة أنه لا يوجد أي حل للمشكلات المستعصية التي نعانيها، بل لابد من البحث الجاد والسير في مسلك آخر، فالبشرية في تاريخها المديد كانت تواجه متاعب ومشاكل هائلة وفي ظروف جد مختلفة وبيئات متباينة، ومع ذلك فإن المجتمعات واجهت التحديات الكبرى بصمودها القوي باستخدام الوسائل المتاحة لديها، ففشل الدول في مهامها لن يكون مبررا للتقاعس عن مواجهة الواقع والحقائق على الأرض، ونعلم جميعا أن الهياكل الحديثة للدول لم تكن موجودة في فترات تاريخية ماضية بل هي حديثة نسبيا مع أن الاحتياجات البشرية متصلة ببداية حياة الإنسان الأول نبي الله آدم عليه السلام.

لذا فإن البديل يجب أن يكون العمل التطوعي وهو ضرورة لا مناص منها، كما أنه من الأمور التي يمكن أن تقوم بها مؤسسات غير حكومية وطوعية غير ربحية، أو أفراد متطوعون يتحركون في الساحة تلقائيا بدون دوافع مادية أو انتظار قوة أخرى تدفعهم نحو العمل المنشود، وهذا أمر لا مناص منه في مثل هذه الحالات، أما أن تظل الواجبات

في طي النسيان ولا يتحملها أحد فإن نتائج هذا الفعل محسومة ومؤلمة وباهظة التكاليف كما نشاهدها اليوم.

والتاريخ البشري حافل بأدوار التطوع في إنقاذ الأمم من الضياع، أو في بناء المؤسسات الفاعلة والدول والحضارات رغم تباين القناعات الفلسفية أو الدينية أو الأعراف والتقاليد المجتمعية التي كانت تحرك القائمين على العمل التطوعي لشعوبهم في مراحل معينة من تاريخها بدوافعهم الشخصية التي يحركها استشعار داخلي نابع من التوجيهات الدينية المباشرة، أو من الفلسفات الإنسانية المرتبطة بالموطن والبيئة، أو من مصالح الإنسان وضرورات حياته المتشعبة.

صحيح إن التطورات الهائلة للبنية الهيكلية للدول في عصرنا ملأت جانبًا كبيرًا من تلك الاحتياجات لوجود أجهزة ومؤسسات ومرافق أسست لمهام خدماتية محددة مما خفف المعاناة، وأكسب المجتمع نوعًا من الطمأنينة والثقة والأمن، والاعتماد على الحكومات القائمة، ويعني ذلك أن أي تقصير أو ضعف في الخدمات تتحملها الحكومات وأجهزتها في الدول المستقرة والمتقدمة اقتصاديًا.

أما عندما تنهار مرافق الدولة وتختفي مسئولياتها المتنوعة للحكومات، وتتحول إلى دولة فاشلة تعجز عن أداء الواجبات وتفقد قدراتها بصورة كاملة كما حدث لكثير من الدول العربية والإفريقية والآسوية بصورة جزئية أو كلية فإن ذلك يعطينا الملامح والتصورات والقدرات والإمكانات للعمل التطوعي حينما نصبح بلا حكومة أو بلا حكومة فاعلة وقادرة على تقديم الاحتياجات اللازمة لأبسط ضرورات الحياة ومقوماتها الأساسية، عندها يصبح العمل التطوعي البديل الوحيد لإدارة الحياة وملء الفراغ الحاصل وواجبًا غير قابل للنقاش.

وفي مثل تلك الظروف القاسية تجبرنا ضرورات الحياة على العمل الدؤوب والشاق لحماية أنفسنا من المخاطر والمهددات المحدقة لكي نحدث التغيير المأمول من واقعنا المأساوي إلى واقع أفضل منه، من أجل خلق ظروف معيشية راقية تمكننا من تنمية مواردنا المتاحة وإيجاد وسائل جديدة للحياة من أجل تحقيق الرفاهية والرخاء المنشود، ومحاربة الفقر المدقع وشظف العيش والعوز والمعاناة، ولإعادة كرامة الأمة حريتها وكرامتها المسلوبة منذ قرون عديدة.

وفي هذا الكتاب أحاول أن أنظر إلى العلاقة بين ما نحن فيه من الأوضاع المزرية وبين تقاعسنا عن القيام بما يشبه الواجبات العينية والكفائية على حد سواء، وهل تنتقل الواجبات الكفائية من أنشطة وفروض على عموم الأمة إلى ما يشبه بالواجبات العينية التي يتعين على كل فرد غير معذور أن يساهم فيها ويقوم بأدائها مثل شعورنا إزاء ترك الصلاة والصوم والزكاة والحج؟ وشعورنا إزاء إهمال النظافة في الشوارع العامة وفي المؤسسات والمنازل مثل مشاعر ترك الصلاة والصوم والزكاة المفروضة، وشعورنا إزاء قطع الأشجار بغير الضرورة مثل شعورنا إزاء شرب الخمر بغير ضرورة؟

يسلط الكتاب الأضواء على القيمة الحقيقية للعمل التطوعي كواجب ديني ووطني وما يحمله من دلالات وأبعاد، وما يخلقه من تأثيرات في ظل عدم توفر الخدمات التي تقدمها الدول للمجتمعات، وأهمية إبراز الصورة الحقيقية للمتطوعين وما يقومون به تجاه المحتاجين والمتضررين من الحروب والكوارث الطبيعية التي تغير حياة البشر من أوضاع مألوفة إلى غير مألوفة بدون مقدمات أو توقعات من المجتمعات البشرية.

وبما أن الصومال منذ بداية انهيار الحكومة المركزية عام ١٩٨٨ قبل تسع وعشرين سنة كانت تعتمد في برامجها وأعمالها الخدماتية المتنوعة على العمل التطوعي بصورة عامة، فإننا نستطيع أن ندرك من هنا جانبًا مهمًّا من حقيقة التطوع لدى المجتمعات المنكوبة بسبب ما عايشناه في فترة زمنية غير قصيرة، ولذا أحببت أن أدرس هذا الموضوع انطلاقا من الرؤية الإسلامية من حيث نصوص القرآن والأحاديث وفهم علماء الأمة، وإلقاء الضوء على جوانب من آثار العمل التطوعي في المجتمع، كما سأذكر على عجالة أمثلة ونماذج من واقع العمل التطوعي في بعض المجتمعات في العالم وتجاربها الثرية، بالإضافة إلى ذلك فإنني أتناول التجربة الصومالية بصورة موجزة في البحث، وهي تجربة تدخل في عقدها الثالث.

أسعى في هذا الكتاب إلى التذكير بأن قوة الأمم التغييرية ليست بموظفيها الذين أنتجتهم الدولة الحديثة فقط، ولكنها تكمن أيضًا في الشرائح الواسعة من أفرادها الذين يحملون القلوب الحية والاستعدادات الكاملة للتضحية بالنفس والمال والوقت من أجل نفع الآخرين، ومن أجل تحقيق المصلحة العليا لأمتهم، والدفاع عن المواطنين وممتلكاتهم ومقدسات الأمة وحقوقها الضائعة.

وبما أن كلمة التطوع وردت في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الشريفة وشملتها التعريفات الفقهية المقننة؛ فمما لا مندوحة عنه تعريف عدد من المصطلحات الفقهية التي سيتكرر ورودها في صفحات هذا الكتاب حتى تكون الصورة واضحة لقارئه أثناء تقليب الصفحات.

**المصطلحات المستهدفة التي سأتعرض لتعريفها لتوضيح دلالاتها اللغوية والشرعية هي:**

التطوع، الواجب والفرض "العيني والكفائي"، والنافلة، والمباح، والحرام، والمكروه، والمصلحة، والمفسدة، وهي مصطلحات فقهية تدور في مختلف مجالات حياتنا الدينية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وعلى ضوئها نحدد موقع تصرفاتنا من الأحكام الخمسة في الشريعة الإسلامية. كما أذكر – إن شاء الله تعالى – معاني الكلمات التي يستلزم تعريفها وكل ما هو مناسب في موقع ورودها بجانب كلمات العنوان كلما دعت الضرورة إلى ذلك بقصد إيضاح وتبيين ما نحن بصدده مما يفيد الكتاب ويعمق الترابط بين أجزاء الكتاب.

والله أسأل أن يرشدني إلى أقوم السبل وأصوبها في هذه المحاولة المتعلقة بالبحث في العمل التطوعي.

**الأستاذ الدكتور علي الشيخ أحمد أبوبكر**

# الفصل الأول

# تعريف الأحكام الفقهية الخمسة

## المبحث الأول:

التطوع لغة واصطلاحا

## المبحث الثاني:

الفرض والوجوب لغة واصطلاحا.

## المبحث الأول

## التطوع لغة واصطلاحًا

**التطوع لغة**

تقول العرب: فلان طَوْعُ يديك، أي منقادٌ لك. وتقول: فرسٌ طَوْعُ العنان، إذا كانَ سلسًا.

**وبما أن معاجم اللغة تورد تفاصيل دقيقة عن (طوع) فإنني أختصر هنا بما أراه يليق بالمقام:**

١- طاع بمعنى لان وانقاد: وَقَالَ ابنُ سِيدَه: طاعَ يَطاعُ وأَطاعَ: لانَ وانْقادَ، وأنشدَ قول الشاعر:

**سِنانُ مَعَدٍّ فِي الحُروبِ أَداتُها *** وَقد طاعَ منهُم سادَةٌ ودَعائمُ**

**وأنشد قول الشاعر:**

**وَقد قادَتْ فُؤَادِي فِي هَواها *** وطاعَ لَهَا الفؤادُ وَمَا عَصاها**

٢- طاع له بمعنى اتسع، وأَطاع النَّبْتُ وَغَيْرُهُ: لَمْ يَمْتَنِعْ عَلَى آكِلِهِ. وأَطاعَ لَهُ المَرْتَعُ إِذا اتَّسَعَ لَهُ المَرْتَعُ وأَمْكَنَه الرَّعْيُ؛ قَالَ الأَزهري: وَقَدْ يُقَالُ فِي هَذَا المَوْضِعِ طاعَ؛ قَالَ أَوس بْنُ حَجَرٍ:

**كأَنَّ جِيادَهُنَّ، بِرَعْنِ زُمٍّ *** جَرادٌ قَدْ أَطاعَ لَهُ الوَراقُ**

٣- أطاعه بمعنى لم يمتنع:أَطاعَه إطاعَةً وأَطاعَ لَهُ: لَمْ يَمتنِع، وَيُقَال: أَمرَه فأَطاعَه، بالأَلِفِ، طَاعَة لَا غيرُ.

٤- التطوع بمعنى الزيادة والتبرع: صلاة التَّطَوُّعِ هي النّافلةُ، وكُلُّ مُتَنَفِّلِ خيرٍ تَبَرُّعًا مُتَطَوِّعٌ، قَالَ الله جل ثناؤه: ﴿...فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ...﴾ (١٨٤) [البقرة] والتَّطَوُّع: مَا تبرَّعَ بِهِ من ذاتِ نفسِه مِمّا لَا يلزَمُه فَرْضُه.

٥- المطاوعة أي الموافقة، وطاوَعَ مُطاوَعَةً وافَقَ.

٦- والاستِطاعة: الإطاقَة، وربَّما قالوا: اسْطاعَ يَسْطيعُ، ويقال: تطاوَعْ لهذا الأمر حتَّى تَسْتَطيعَهُ، وتَطَوَّعَ، أي تكلَّف اسْتِطاعتَهُ.

٧- والمُطَّوِّعَةُ: الذين يَتَطَوَّعونَ بالجهاد، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ...﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة]، وأصلها: المُتَطَوِّعينَ.

٨- ومِطْواعٌ بمعنى مُطيعٌ. وفلانٌ حسنُ الطواعِيةِ لك، أي حسن الطاعةِ لك. والجمع طُوَّعٌ.

٩- ولسانُه لا يَطوعُ بكذا أي: لا يتابعه. ويقال: جاء فلان طائِعًا غير مُكْرَهٍ والجمع طُوَّعٌ.

١٠- الطَّواعَةُ: اسمٌ مِن (طاوَعَهُ) كالطَّواعِيَةِ، ورَجُلٌ (مِطْواعَةٌ)، كمِطْواعٍ، قَالَ المُتَنَخِّلُ الهُذَلِيُّ:

**إِذا سُدْتَهُ سُدْتَ مِطْواعَةً *** وَمهما وَكَلْتَ إِلَيْهِ كَفاهُ**

١١- طوّعت: سهلت ورخصت ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ (1).

## نظرة إلى الدلالات اللغوية لكلمة (طوّع).

تشير معاني الطوع في اللغة العربية إلى جملة من الدلالات التي تعبر عن استعمالاتها في الحياة الاجتماعية، والترابط الوثيق بين معانيها المتنوعة والتي من بينها: الليونة والانقياد والزيادة، والتبرع، والموافقة، والإطاقة، والتسهيل، والرخصة، والسمح، والتوسع، والنضج، والتعود على المكاره، والطاعة.

(١) اعتمدت في نقل معاني المفردات والجمل على القواميس والمعاجم اللغوية التالية: الرازي زين الدين أبو عبد الله بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، معجم الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، وكذلك: مختار الصحاح، لنفس المؤلف، تاريخ الطباعة ١٩٩٩ الميلادي، ١٤٢٠ الهجري.
- محمد بن محمد الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، دار الهداية.
- فيروز أبادي، قاموس المحيط.
- ابن منظور، لسان العرب.
- الفارابي أبو النصر إسماعيل بن حماد، منتخب من صحاح الجوهري.

**عند النظر إلى دلالاتها فإننا نلخصها بما يأتي:**

**أولًا: السلاسة والليونة والانقياد والتسهيل والتشجيع والترخيص**: هذه الصفات تعبر عن طبيعة خالية من الركاكة والتعقيدات والصعوبات بين المتعاملين أيا كانت الأنواع والأجناس المشتركة في الأحداث، سواء كانت بين الإنسان وبين الحيوانات الأخرى والنبات، أو بين بني البشر أنفسهم، فهي تشير إلى السلاسة المطلقة في التعامل فيما بينها.

**ثانيًا: الزيادة والتبرع**: تدل على القيام بأكثر مما ينبغي اجتماعيًا، أو يجب قانونيًا في شرائع الأمم وقوانينها، وتلك صفة حميدة لا تتوفر إلا في نسبة قليلة من النفوس البشرية، وهي التي تتمتع بمستويات راقية من الشعور والفكر تمكنها من التضحية وإنكار الذات من أجل مصلحة الآخرين، إدراكًا من أصحاب تلك النفوس الحية لأهمية ذلك في حياة الأفراد والمجتمعات على حدًا سواء.

**ثالثًا: الموافقة**: وهي صفة تعبر عن الانسجام والتآلف وعدم المخالفة في المجموعة التي تشترك في مصالح معينة، وتلك هي البوابة المثلى للوصول إلى التساند والتعاون.

**رابعا: التوسع**: تقول العرب" أطاع له المرتع إذا اتسع له المرتع وأمكنه الرعي حيث يشاء".

تدل على الجهد وعناية الإنسان بثروته وخصوبة الأرض التي تعطي الراعي خيارًا في المراعي التي لا ضيق عليها ولا تحجير عنها، كما تدل على الرخاء والطمأنينة النفسية لحياته.

**خامسا: التعود على المكاره**: تقول العربُ: فُلَانٌ طَوْعُ المكارِه إِذا كَانَ مُعْتَادًا لَهَا مُلَقًّى إِيّاها، ويدل معنى الكلمة على قوة التحمل والصبر على الشدائد حيث لا يعبأ بمواجهة الأحداث، وهذا نوع من الشجاعة النادرة التي لا تتوفر لأغلب أفراد المجتمع، ولهذا فإن وجود تلك النوعية من الأفراد مهمة للغاية لمواجهة التحديات المتجددة دومًا.

**سادسا: الإطاقة**: ويقال: تطاوَعْ لهذا الأمر حتَّى تَسْتَطيعَهُ، وتَطَوَّعَ، أي تكلَّف اسْتِطاعتَهُ. ومعناها التدرب على الأمر حتى يتمكن المرء من الاستطاعة والقدرة على الممارسة العملية، وهو كما نرى عقد العزم على تعويد النفس على قبول المهام التي ينوي

صاحبها على الاشتغال بها والغوص في لججها والسير في دروبها في مستقبل أيامه وهو ما نشاهده اليوم لما للتدريب من مكانة مرموقة تسعى إلى تحقيقها كل المؤسسات الفاعلة.

**سابعا: الطاعة:** أطاعه بمعنى لم يمتنع: وَيُقَال: أَمرَه فأَطاعَه طَاعَة لَا غيرُ، وتحمل في طياتها نوعًا من الانتظام في الحياة، فهناك جهة تصدر الأوامر والتوجيهات وأخرى تتلقاها بوعي تام يؤدي إلى الطاعة والتنفيذ.

## التطوع اصطلاحا

التطوع: (ما يأتي به الإنسان من الطاعة غير المفروضة عليه)، وقال الأزهري: (التطوع ما تبرع به من ذات نفسه، مما لم يلزمه فرضه، فسمي تطوعًا لأن فاعله يفعله تبرعًا من غير أن يؤمر به حتمًا، وتنفل فعل النافلة، والنفل والنافلة الزيادة، وترادفه السنة، والمندوب والمستحب والمرغب فيه، وقال بعضهم: التطوع ما لم يثبت فيه نص بخصوصه، والسنة ما واظب عليه النبي ﷺ، والمستحب ما لم يواظب عليه، ولكنه فعله)[(١)]. (والتطوع تفعُّل من الطاعة، وهو في الشرع عبارة عن النفل)[(٢)]. وعرف أبو عبد الله الحليمي التطوع بقوله: (وحد التطوع ما يستحب فعله، ولا يكره الترخص بتركه)[(٣)].

ولدى عموم الفقهاء والأصوليين فإن كلمة التطوع مرادفة حكمًا لكلمة النافلة أو المندوب كما رأيتم في التعريف السابق، ومع وجود بعض الفروق الطفيفة ولكنها لا تؤثر في جوهر الحكم، فهي داخلة في الأحكام الخمسة التي درج عليها الفقهاء في تقسيم الأحكام الصادرة من الشارع إلى المكلفين.

ونكتفي بما يقوله الإمام أبو حامد الغزالي في تعريفه لأفعال المكلفين :[ فَاعلم أَن الألفاظ فِي هَذَا الْفَنِّ خَمْسَةٌ: الْوَاجِبُ، وَالْمَحْظُورُ، وَالْمَنْدُوبُ، وَالْمَكْرُوهُ، وَالْمُبَاحُ، فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْوَاجِبَ اسْمٌ مُشْتَرَكٌ إذْ يُطْلِقُهُ الْمُتَكَلِّمُ فِي مُقَابَلَةِ الْمُمْتَنِعِ، وَيَقُولُ وُجُودُ الله تَعَالَى وَاجِبٌ، وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿...وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا ...٣٦﴾ [الحج]. وَيُقَالُ وَجَبَتْ الشَّمْسُ، وَلَهُ

(١) عبد الرحمن بن محمد النجدي، الروض المربع، الجزء: الأول، دار المؤيد – مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، رقم الصفحة:١١٢.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، درج الدرر في تفسير الآي والسور، مجلة الحكمة البريطانية، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

(٣) الحسن بن الحسن الحليمي، المنهاج في شعب الإيمان، الجزء الثاني، المحقق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م، ص ٣٠٠.

بِكُلِّ مَعْنًى عِبَارَةٌ، وَالْمَطْلُوبُ الْآنَ مُرَادُ الْفُقَهَاءِ حَيْثُ نِسْبَتُهَا إلى خِطَابِ الشَّرْعِ فَقَطْ، فالْأَفْعَالَ تنقسم بِالْإِضَافَةِ إلى خِطَابِ الشَّرْعِ، إلى مَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ خِطَابُ الشَّرْعِ كَفِعْلِ الْمَجْنُونِ وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَالَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ يَنْقَسِمُ إلى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ عَلَى وَجْهِ التَّخْيِيرِ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ وَبَيْنَ الْإِحْجَامِ عَنْهُ وَيُسَمَّى مُبَاحًا وَإِلَى مَا تَرَجَّحَ فِعْلُهُ عَلَى تَرْكِهِ وَإِلَى مَا تَرَجَّحَ تَرْكُهُ عَلَى فِعْلِهِ، وَالَّذِي تَرَجَّحَ فِعْلُهُ عَلَى تَرْكِهِ يَنْقَسِمُ إلى مَا أَشْعَرَ بِأَنَّهُ لَا عِقَابَ عَلَى تَرْكِهِ وَيُسَمَّى مَنْدُوبًا وَإِلَى مَا أَشْعَرَ بِأَنَّهُ يُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِهِ وَيُسَمَّى وَاجِبًا. وَأَمَّا الْمُرَجَّحُ تَرْكُهُ فَيَنْقَسِمُ إلى مَا أَشْعَرَ بِأَنَّهُ لَا عِقَابَ عَلَى فِعْلِهِ وَيُسَمَّى مَكْرُوهًا، وَإِلَى مَا أَشْعَرَ بِعِقَابٍ فِي الْآخِرِ عَلَى فِعْلِهِ، وَهُوَ الْمُسَمَّى مَحْظُورًا وَحَرَامًا وَمَعْصِيَةً[1].

فما دام المتطوع هو الذي يفعل الشيء تبرعًا من نفسه، ويقوم بكل ما يفعله باختياره المحض فإن فقهاءنا الأفاضل وضعوا خانة خارجة عن الواجبات، فالفعل يأمل منه الأجر والمثوبة، أما الترك فلا عقاب على تاركه، فإن التطوع داخل في دائرة النفل ضمن التقسيم الفقهي لأفعال المكلفين والتي هي خمسة أقسام.

والسبب معروف ويأتي من ناحيتين. فمن الناحية الأولى: يعتمد الفقهاء على المعاني اللغوية لكلمة التطوع، حيث يدل بعض معاني التطوع على التبرع والزيادة عن الحد المطلوب كما سبق ذكره في الدلالات اللغوية للتطوع.

ومن الناحية الأخرى: فقد وردت كلمة التطوع في بعض الأحاديث النبوية بمعنى النفل، وأوضحها في هذا المعنى هو حديث الأعرابي المشهور الذي أورد فيها النبي ﷺ كلمة التطوع مرارًا مقابل أركان الإسلام الأربعة بعد الشهادتين.

وانطلاقا من هذا فإن الفقهاء فسروا كلمة التطوع ووضعوها في خانة الأعمال غير الواجبة، مع أن الحديث لم يورد غير أركان الإسلام، وهي الصلوات الخمسة وصوم شهر رمضان، وأداء الزكاة، وحج بيت الله الحرام .

ومن هنا عند تقسيمهم الأحكام الفقهية التي تتعلق بالمكلفين فإن النوافل قسم من أقسامها الخمسة وهو مع الواجبات من حيث الأوامر الربانية والنبوية ولكن تاركها لا

---

(١) أبو حامد محمد الغزالي، المستصفى، حققه محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، تاريخ الطباعة ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م،ص ٢٣.

يعاقب على تركها، ولم يتجاوز الفقهاء هذا الحد ولم يتطرقوا إلى أي معان أخرى تحمل التطوع خارج دائرة النوافل، وهو أمر يستحق التمعن والدراسة في واقعنا الاجتماعي والسياسي والثقافي، وهذا ما يجعلني أورد بعض التعريفات في العلوم الاجتماعية والإدارية لكي نقف على المعاني المختلفة للتطوع في الساحة العالمية في وقتنا الحاضر، ويمكننا بعد ذلك أن نقارن بين التعريف الفقهي وبين بقية التعريفات الواردة خارج دائرة الفقه الإسلامي وبين المفهوم التطوعي في العصر الحديث وما ذكره عدد من المفسرين عند تعرضهم لتفسير التطوع في القرآن الكريم.

## المبحث الثاني
## الفرض والوجوب لغة واصطلاحا

**الفرض لغة:**

١- أوجبتُ: فرضت الشَّيْءَ أَفْرِضه فَرْضًا وفَرَّضْتُه لِلتَّكْثِيرِ: أَوْجَبْتُه. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ... ﴿١﴾ ﴾ [النور].

٢- الاتفاق: الفَرِيضةُ العادِلةُ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.

٣- المؤقت: يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ... وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾ [النساء]؛ قَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ مُؤَقَّتًا.

٤- القراءة: يُقَالُ: فَرَضْتُ جُزْئي أي قرأْته.

٥- بلوغ نصاب الزكاة: والفَرِيضةُ مِنَ الإِبل وَالْبَقَرِ مَا بَلَغَ عَدَدُه الزكاةَ. وأَفْرَضَتِ الماشِيةُ: وَجَبَتْ فِيهَا الفَرِيضة، وَذَلِكَ إِذا بَلَغَتْ نِصابًا. والفَرِيضةُ: مَا فُرِضَ فِي السائمةِ مِنَ الصَّدَقَةِ.

٦- الهبة: يُقَالُ: مَا أَعطاني فَرْضًا وَلَا قَرْضًا. والفرْضُ العَطِيَّةُ المَرْسُومةُ كقوله وفرض له في العطاء وفرض له في الديوان، وَالِاسْمُ الفَرِيضةُ.

٧- الحز والقطع والأثر: الفَرْضُ الحَزُّ فِي القِدْحِ والزَّنْدِ وَفِي السَّير وَغَيْرِهِ، وفُرْضةُ الزَّنْدِ الحَزُّ الَّذِي فِيهِ. وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ رضي الله عنه: اتَّخَذَ عَامَ الجَدْبِ قِدْحًا فِيهِ فَرْض، والفَرْضُ: اسْمُ الحَزِّ، وَالجَمْعُ فُروضٌ وفِراضٌ.

٨- والفِراضُ: فُوَّهةُ النَّهرِ؛ قَالَ لَبِيدٌ:

**تَجْـرِي خَزَائِنُـهُ عَـلَى مَـن نابَـه *** جَرْيَ الفُراتِ عَلَى فِراضِ الجَدْوَلِ**

وفُرْضةُ النَّهْرِ: ثُلْمَتُه الَّتِي مِنْهَا يُسْتقى.

٩- كبر السن والضخامة: وقومٌ فُرَّضٌ: ضِخامٌ، وَقِيلَ مَسانٌّ؛ الفارِضُ الْكَبِيرَةُ الْعَظِيمَةُ(١).

(١) هذه المعاني منقولة من المصادر التالية: فيروز أبادي، قاموس المحيط. ابن منظور، لسان العرب. الفارابي أبو النصر إسماعيل بن حماد، معجم الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. وكذلك: منتخب من صحاح الجوهري لنفس المؤلف.

**الوجوب لغة:**

**أصل الفعل (وجب): عند تتبع المعاني اللغوية لفعل (وجب) من عدد من المعاجم والقواميس اللغوية وجدنا أنها تذكر المعاني التالية في مجموعها:**

١- وجب بمعنى لزم: وجبَ الشيء، أي لَزِمَ، ويَجِب وُجوبًا.

٢- وجب بمعنى استحق: أوجبه الله، واستوجبه، أي استحقّه.

٣- وجَبَ بمعنى استوفى:البيعُ يَجِبُ جِبَةً. وأوجبت البيع فوجَبَ. والوجيبة: أن توجب البيع ثم تأخذَه أولًا فأوَّلًا، فإذا فرغت قيل: قد استوفيتَ وَجيبَتَكَ.

٤- وجب بمعنى اضطرب وخفق القلب: وجب القلبُ وجْبًا ووجيبًا ووجَبانًا: خَفَقَ.

٥- وجب بمعنى أوجَبَ الرجل: إذا عمل عملًا يوجب له الجنَّة أو النار.

٦- وجب بمعنى الجبن: والوَجْبُ: الجبان. قال الشاعر:

**إِليكَ، أَميرَ المؤْمنين، رَحَلْتُها *** عَلَى الطائرِ المَيْمُونِ، والمَنْزِلِ الرَّحْبِ**

**إلى مُؤْمِنٍ، تَجْلُو صَفائِحُ وَجْهِهِ *** بلابلَ، تَغْشَى مِنْ هُمُومٍ، ومِنْ كَرْبِ**

**عَمُوسُ الدُّجَى، يَنْشَقُّ عَنْ مُتَضَرِّمٍ *** طَلُوبُ الأَعادي، لا سَؤُومٌ وَلَا وَجْبِ**

٧- وجب بمعنى السقطة: وَجُبَ الرجل بالضم وُجوبَةً. والوَجْبةُ: السَقطة مع الهَدَّةِ. وفي المثل: بجَنْبِهِ فلتكنْ الوَجْبَةُ. سقط: (وَجَبَ) الْحَائِطُ وَغَيْرُهُ (وَجْبَةً) إِذَا سَقَطَ قال الله تعالى: ﴿...فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ...﴿٣٦﴾﴾ [الحج]. ومنه قولهم: خرجَ القومُ إلى مَواجبهم، أي مَصارعهم. ووَجَبَ الميِّتُ، إذا سقط ومات. ويقال للقتيل واجبٌ. قال الشاعر:

**أطاعتْ بنو عَوْفٍ أميرًا نهاهُمُ *** عن السِلْمِ حتَّى كان أوَّلَ واجِبِ**

(و) وَجَبَ (عَنهُ: رَدَّهُ)، وَفِي نَوَادِرِ الأَعْرَاب: (وَجَبْتُهُ عَن كَذَا، ووَكَبْتُهُ: إِذا رَدَدْتَهُ عَنهُ، حَتَّى طالَ وُجُوبُهُ ووُكُوبُهُ عنْهُ.

٨- وجب بمعنى غاب: وَجَبَتِ الشمسُ أي غابت، ووجبت العين أي غارت العين.

٩- وجب بمعنى الضرب: ووَجَّبْتُ به الأرض توجيبًا، أي ضربتها به.

١٠- وجب بمعنى الإعياء: ويقال: وَجَبَتِ الإبل، إذا أعيَتْ.

١١- والمُوَجِّبُ: الذي يعود نفسه أو عائلته أو فرسه على الأكل في اليوم والليلة مرةً. يقال: فلانٌ يأكل وجبة، وكذلك إذا حلَبَ الناقة في اليوم والليلة مرة واحدة.

١٢- والمُوجِبَةُ: الكبيرةُ من الذنوبِ ومن الحسناتِ التي تُوجِبُ النارَ أو الجنة.

١٣- وجب بمعنى غارت، أو غابت: وجبت العينُ غارتْ، ووجبت الشمس غربت.

١٤- والوَجْبُ: النَّاقَةُ التي يَنْعَقِدُ اللِّبَأُ في ضَرْعِها.

١٥- والوِجَابُ: مَنَاقِعُ الماءِ.

١٦- الوُجابُ، بالضم: داءٌ يأخُذُ الإِبِل(١) .

**الفرض والوجوب اصطلاحا:**

**لقد رأينا تعريف الفرض والوجوب لغة فكان هناك نقاط تلاق واتفاق، مثل:**

اللزوم، والاستحقاق، والضخامة أو الكبر، ومنابع المياه، والاستيفاء أو أداء المهمة، وهو ما انطلق منه العلماء بالإضافة إلى ما ورد في القرآن والسنة، ولهذا نرى الفقهاء يستخدمون الكلمتين بمعنى واحد إلا في حالة نادرة انفرد بها المذهب الحنفي في تعريف الفرض والواجب من بين المذاهب الأربعة، وانطلاقا من هذا فإننا نرى أنه لا فرق بينهما من الناحية العملية.

ونكتفي في هذا التعريف ببضع عينات من تعريف الفقهاء البارزين للواجب والفرض، لتكون أمثلة توضح المقصد وتوفي الغرض هنا بدون الخوض في الإطناب والإطالة، ولأن ذكر هذا التعريف في إطار هذا البحث ضروري ولا غناء عنه، لأن أي عمل نقوم به دائما له حكم في الشريعة الإسلامية، كما أن له حكمًا في الأعراف والقوانين والشرائع التي تنظم حياة المجتمعات البشرية ودولها، لأن هذا التعريف الفقهي انبثقت وتنبثق عنه كثير من الأحكام التي حددت معالم الحياة للمسلمين وغير المسلمين بصورة

(١) هذه المعاني منقولة من المعاجم التالية: الفارابي أبو النصر إسماعيل بن حماد، منتخب من صحاح الجوهري. زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، مختار الصحاح. فيروز أبادي، قاموس المحيط. ابن منظور، لسان العرب. مصادر سابقة.

عامة منذ نشأته الأولى وإلى يومنا هذا، بالإضافة إلى ذلك فإن الواجبات ترافق الحياة الإنسانية في مختلف جوانبها الفردية والعائلية والاجتماعية أيا كانت نوعية تلك الواجبات.

**الإمام الشافعي وتعريفه للواجب :**

**لقد أورد الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في تعريفه للواجب في باب العلم، فلخص أنواع العلم بإيجاز، فقال:**

(العلمُ عِلْمان: علمُ عامَّةٍ، لا يَسَعُ بالِغًا غيرَ مغلوب على عقْلِه جَهْلُهُ. فلم يخرج أَحَدٌ وَجَبَ عليه فرْضٌ منها مِنْ أنْ يؤدِّيَ غيرُهُ الفرْضَ عن نفسه، لأنَّ عَمَلَ أحَدٍ في هذا لا يُكْتب لغيره، مثلُ الصَّلَوَاتِ الخمس، وصومَ رمضانَ، وحجَّ البيت، وزكاةَ المال، وأنه حرَّمَ عليهم الزِّنا والقتْل والسَّرِقة والخمْر، وما كان في معنى هذا، مِمَّا كُلِّفَ العِبادُ أنْ يَعْقِلوه ويعْملوه ويُعْطُوه مِن أنفسهم وأموالهم، وأن يَكُفُّوا عنه ما حرَّمَ عليهم منه)[1].

لقد أوضح الإمام في الجملة السابقة معنى الفروض العينية وأهميتها، وضرورة الفهم واستيعاب مقتضياتها، ووجوب العمل بها دومًا، والتضحية بالنفس والمال من أجل القيام بها، بجانب الابتعاد والامتناع عن المحرمات، بعد هذا أورد القسم الآخر من العلم في تعريفه الرائع والملهم فقال رحمه الله تعالى: (الثاني: ما يَنُوبُ العِبادُ مِن فُروع الفرائض، وما يُخَصُّ به مِن الأحكام وغيرها، وهو ما قُصِدَ بالفرض فيها قصْدَ الكِفاية، فيكونَ مَن قام بالكفاية مُدْرِكًا تأديةَ الفرض ونافِلَةَ الفضْل، ومُخْرِجًا مَن تَخَلَّفَ مِن المَأْثَمِ، مما ليس فيه نصُّ كتاب، ولا في أكثره نصُّ سنَّة، وإن كانت في شيء منه سنةٌ فإنما هي مِن أَخْبار الخاصَّة، لا أخبارِ العامَّة، وما كان منه يحتمل التأويل ويُسْتَدْرَكُ قِياسًا، واحتملت أن

(١) يشير الإمام من كلامه هذا إلى الواجبات العينية التي لا ينوب أحد عن الآخر في أدائها، لأن المطلوب أن يقوم بها كل فرد مكلف قادر عليها، وأرفقها المحرمات من الكبائر التي حرم الله على المسلمين في ارتكابها. وبما أن الشافعي هو إمام علم الأصول وواضع قواعده بجانب تبحره في الفقه وأدلته المتشعبة فإنه لا يرى أي فرق بين الفرض والواجب، فنجد كيف استخدم لفظي الواجب والفرض في جملة واحدة عند قوله: (فلم يخرج أَحَدٌ وَجَبَ عليه فرْضٌ منها مِنْ أنْ يؤدِّيَ غيرُهُ الفرْضَ عن نفسه).

يكون معنى فَرْضِها غيرَ معنى فَرْضِ الصلوات، وذلك أن يكون قُصِدَ بالفرض فيها قَصْدَ الكِفاية، فيكونَ مَن قام بالكفاية في جهاد مَنْ جُوهِدَ مِن المشركين مدْرِكًا تأدية الفرض ونافِلَةَ الفضْل، ومُخْرِجًا مَن تَخَلَّفَ مِن المَأْثَمِ)[١].

**الغزالي في تعريف الواجب**

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: (اخْتَلَفُوا فِي حَدِّ الْوَاجِبِ، قِيلَ: الْوَاجِبُ مَا تَعَلَّقَ بِهِ الْإِيجَابُ، وَقِيلَ: مَا يُثَابُ عَلَى فِعْلِهِ وَيُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِهِ، وَقِيلَ:مَا يَجِبُ بِتَرْكِهِ الْعِقَابُ، وَقِيلَ:مَا لَا يَجُوزُ الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِهِ، وَقِيلَ: مَا يَصِيرُ الْمُكَلَّفُ بِتَرْكِهِ عَاصِيًا، وَقِيلَ: مَا يُلَامُ تَارِكُهُ شرعًا).

بعد أن ذكر الإمام أبو حامد الغزالي اختلاف الفقهاء حول تعريف الواجب، وأكد بأن هذه التعريفات تدور حول التبعية واللزوم، وليست تعريفًا مانعًا جامعًا أورد الأقسام الخمسة للأحكام الشرعية وهي الواجب والمندوب والمحظور والكراهية والمباح، فاختار التعريف التالي للواجب فيقول رحمه الله تعالى: (الواجب مَا أَشْعَرَ بِأَنَّهُ يُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِهِ)[٢].

ثم تابع الغزالي كلامه لكي يبين للقراء ما إذا كان هناك فرق بين الواجب والفرض؟

فيقول باختصار شديد: (فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْفَرْضِ؟ قُلْنَا: لَا فَرْقَ عِنْدَنَا بَيْنَهُمَا بَلْ هُمَا مِنْ الْأَلْفَاظِ الْمُتَرَادِفَةِ كَالْحَتْمِ وَاللَّازِمِ، وَأَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ اصْطَلَحُوا عَلَى تَخْصِيصِ اسْمِ الْفَرْضِ بِمَا يُقْطَعُ بِوُجُوبِهِ وَتَخْصِيصِ اسْمِ الْوَاجِبِ بِمَا لَا يُدْرَكُ إلَّا ظنًا، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ انْقِسَامَ الْوَاجِبِ إلى مَقْطُوعٍ وَمَظْنُونٍ وَلَا حَجْرَ فِي الِاصْطِلَاحَاتِ بَعْدَ فَهْمِ الْمَعَانِي. وَقَدْ قَالَ الْقَاضِي لَوْ أَوْجَبَ الله عَلَيْنَا شَيْئًا وَلَمْ يَتَوَعَّدْ بِعِقَابٍ عَلَى تَرْكِهِ لَوَجَبَ، فَالْوُجُوبُ إنَّمَا هُوَ بِإِيجَابِهِ لَا بِالْعِقَابِ)[٣].

---

(١) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تاريخ الطباعة: ١٣٥٨ الهجري، ١٩٤٠ الميلادي، الطبعة الأولى، مكتبة الحلبي- القاهرة، ص: ٣٥٧.

(٢) أبو حامد الغزالي، كتاب المستصفى. مصدر سابق.

(٣) نفس المصدر.

**الإمام فخر الرازي في تعريفه للواجب**

فقد عرف الواجب بصيغة قريبة للغزالي، فيقول رحمه الله تعالى: (أما الواجب فالذي اختاره القاضي أبو بكر أنه ما يذم تاركه شرعًا على بعض الوجوه)[١]. وأما الاسم فاعلم أنه لا فرق عندنا بين الواجب والفرض، والحنفية خصصوا اسم الفرض بما عرف وجوبه بدليل قاطع، والواجب بما عرف وجوبه بدليل مظنون، وهذا الفرق ضعيف لأن الفرض هو المقدر لا أنه الذي ثبت كونه مقدرًا علمًا أو ظنًا كما أن الواجب هو الساقط لا أنه الذي ثبت كونه ساقطًا علمًا أو ظنًا، وإذا كان كذلك كان تخصيص كل واحد من هذين اللفظين بأحد القسمين تحكمًا محضًا [٢].

**وفي شرح مختصر الروضة ورد تعريف الواجب كما يلي:**

(فَالْوَاجِبُ: هُوَ مَا اقْتَضَى الشَّرْعُ فِعْلَهُ اقْتِضَاءً جَازِمًا، وَالتَّحْقِيقُ فِي الْوُجُوبِ لُغَةً: أَنَّهُ بِمَعْنَى الثُّبُوتِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى تَرْجِعُ فُرُوعُ مَادَّتِهِ بِالِاسْتِقْرَاءِ)[٣].

---

(١) نظرا لإيجاز التعريف وحصره في عدد من الكلمات المحدودة فإن الرازي شرح مفردات التعريف، لأن كل مفردة تحمل في داخلها معاني جمة وتختزنها كثيرًا من المسائل الفقهية الدقيقة مما استدعى إلى هذا الشرح. فيقول: **(وقولنا يذم تاركه خير من قولنا يعاقب تاركه لأن الله تعالى قد يعفو عن العقاب ولا يقدح ذلك في وجوب الفعل، ومن قولنا يتوعد بالعقاب على تركه لأن الخلف في خبر الله تعالى محال فكان ينبغي أن لا يوجد العفو، ومن قولنا ما يخاف العقاب على تركه لأن الذي يشك في وجوبه وحرمته قد يخاف من العقاب على تركه مع أنه غير واجب، وقولنا شرعًا إشارة إلى ما نذهب إليه من أن هذه الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، وقولنا على بعض الوجوه ذكرناه ليدخل في الحد الواجب المخير لأنه يلام على تركه إذا تركه وترك معه بدله أيضًا، والواجب الموسع لأنه يلام على تركه إذا تركه في كل الوقت، والواجب على الكفاية لأنه يلام على تركه إذا تركه الكل) هذا الكلام منقول من المحصول وهو جزء من تعريف الواجب.**

(٢) فخر الدين الرازي، المحصول في علم الأصول، الجزء الأول، المحقق الدكتور طه جابر العلواني، تاريخ الطباعة ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م، الطبعة الثالثة، دارالرسالة، ص: ٩٥ – ٩٨.

(٣) سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري، مختصر شرح الروضة، الجزء الأول، المحقق الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، تاريخ الطباعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧ م، ص: ٩٥ – ٩٨.

# الفصل الثاني

# التطوع في إطار الواجبات الكفائية

المبحث الأول:

نماذج من أقوال المفسرين للتطوع

المبحث الثاني:

من دلالات كلمة التطوع في القرآن

المبحث الثالث:

رمزية اقتران التطوع بالخير في القرآن

المبحث الرابع:

من دلالات كلمة التطوع في الأحاديث

المبحث الخامس:

ورود الفروض والنوافل معًا

المبحث السادس:

ضياع المصالح من خلال الفهم المشوه

المبحث السابع:

أوجه التشابه بين الواجبات الكفائية والتطوع

المبحث الثامن:

تعامل الصحابة مع أوامر الوحي

## المبحث الأول

## نماذج من أقوال المفسرين للتطوع

بما أن التطوّع هو القطب الذي تدور حوله بقية الكلمات في عنوان هذا الكتاب، والهدف الأساسي من ذلك هو معرفة دور العمل التطوعي في الإسلام وتحقيق مصالح مهمة من خلاله فإنه أصبح النظر لازما إلى مفردة "التطوع" في القرآن الكريم، والوقوف على التفسيرات المختلفة حوله بإيجاز، لمعرفة ماذا قال المفسرون عنه.

لقد وردت عبارة (التطوع )[1] في القرآن الكريم مرتين اثنتين فقط لا غير، والمرتان وردتا في سورة البقرة وحدها: أما المرة الأولى فيقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة].

وفي المرة الثانية يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة].

للوقوف على كلمة التطوع في القرآن الكريم والنظر إلى مقصودها بتمعن أحببت أن أقلب الصفحات في بعض تفاسير القرآن الكريم لمعرفة أقوال المفسرين حول التطوع ومركزه في دائرة الأحكام الفقهية من ناحية، والمقاصدية من ناحية أخرى، وأمامك طائفة من علمائنا المفسرين.

---

(١) المقصود هنا كلمة (التطوع) كما وردت في القرآن الكريم، أما أصل المادة وجذرها (طوع) فإن اشتقاقاتها وردت في القرآن الكريم عشرات المرات بصيغ مختلفة وفي عدد من سور القرآن الكريم، فعلى سبيل المثال لا الحصر أنقل بعض صيغها المتنوعة مثل: طاع (١)، يستطيع (٢)، طاعة (٣)، طوعا (٤)، أطيعوا (٥)، يطع (٦)، طائعين (١١)، يستطيعون (١٥).

يقول عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى في تفسير التطوع في تلك الآية (التطوع هو السعي بينهما عند من لم يوجبه[1]، أو من تطوع بالزيادة على الواجب، أو من تطوع بالحج والعمرة بعد أدائهما)[2].

ويقول فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى: (قال أَبُو مُسْلِمٍ: تَطَوَّعَ تَفَعَّلَ مِنَ الطَّاعَةِ وَسَوَاءٌ قَوْلُ الْقَائِلِ: طَاعَ وَتَطَوَّعَ، وحال وَتَحَوَّلَ، وَقَالَ وَتَقَوَّلَ، وَطَافَ وَتَطَوَّفَ، وَتَفَعَّلَ بِمَعْنَى فَعَلَ كثيرًا، وَالطَّوْعُ هُوَ الِانْقِيَادُ، وَالطَّوْعُ مَا تَرْغَبُ بِهِ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ مِمَّا لَا يَجِبُ عَلَيْكَ). أما علاقة (ومن تطوع خيرًا)بالسعي بين الصفاء والمروة فقال (الَّذِيْنَ قَالُوا: السَّعْيُ وَاجِبٌ، فَسَّرُوا هَذَا التَّطَوُّعَ بِالسَّعْيِ الزَّائِدِ عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالسَّعْيِ فِي الْحَجَّةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ وَاجِبَةٍ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْمُرَادُ مِنْهُ جَمِيعُ الطَّاعَاتِ وَهَذَا أَوْلَى لِأَنَّهُ أَوْفَقُ لِعُمُومِ اللَّفْظِ)[3].

أما الأستاذ رشيد رضا فيقول رحمه الله تعالى: ﴿ ...وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ... ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة] فِي هَذَا التَّطَوُّفِ وَغَيْرِهِ أو كَرَّرَ الْحَجَّ أو الْعُمْرَةَ فَزَادَ عَلَى الْفَرِيضَةِ؛ أي: تَحَمَّلَهُ طَوْعًا - كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ - فَإِنَّ التَّطَوُّعَ فِي اللُّغَةِ: الْإِتْيَانُ بِمَا فِي الطَّوْعِ أو بِالطَّاعَةِ أو تَكَلُّفُهَا أو الْإِكْثَارُ مِنْهَا، وَأُطْلِقَ عَلَى التَّبَرُّعِ بِالْخَيْرِ؛ لِأَنَّهُ طَوْعٌ لَا كُرْهَ وَلَا إِكْرَاهَ فِيهِ، وَعَلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الطَّاعَةِ بِالزِّيَادَةِ عَلَى الْوَاجِبِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ الْأَعْرَابِيِّ: (إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ) أي تزيد عَلَى الْفَرِيضَةِ (فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)أي:فَإِنَّ اللهَ يُثِيبُهُ، لِأَنَّهُ شَاكِرٌ يَجْزِي عَلَى الْإِحْسَانِ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَزَاءَ)[4].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير التطوع في الآية: (ثم يختم الآية بتحسين التطوع بالخير إطلاقًا: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾.. فيلمح إلى أن هذا الطواف

(١) هو يشير إلى الخلافات الفقهية حول السعي بين الصفا والمروة هل هي واجبة أو غير واجبة؟

(٢) عز الدين بن عبد السلام، **تفسير القرآن**، الجزء الأول، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، تاريخ الطباعة: دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م، ص: ١٧٥.

(٣) التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، الجزء الخامس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ، ص: ٢٣٩.

(٤) محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م، ص: ١١٦.

من الخير، وبذلك ينفي من النفوس كل حرج، ويطيب القلوب بهذه الشعائر، ويطمئنها على أن الله يعدها خيرًا، ويجازي عليها بالخير. وهو يعلم ما تنطوي عليه القلوب من نية وشعور، ولا بد أن نقف لحظة أمام ذلك التعبير الموحي: «فَإِنَّ الله شاكِرٌ ... » .. إن المعنى المقصود أن الله يرضى عن ذلك الخير ويثيب عليه. ولكن كلمة «شاكِرٌ» تلقي ظلالًا ندية وراء هذا المعنى المجرد. تلقي ظلال الرضى الكامل، حتى لكأنه الشكر من الرب للعبد. ومن ثم توحي بالأدب الواجب من العبد مع الرب. فإذا كان الرب يشكر لعبده الخير، فماذا يصنع العبد ليوفي الرب حقه من الشكر والحمد؟؟ تلك ظلال التعبير القرآني التي تلمس الحس بكل ما فيها من الندى والرفق والجمال)[1].

يقول محمد أبوزهرة رحمه الله في تفسير الآية ﴿ ...وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ ﴾ [البقرة]: (التطوع المبالغة في الطاعة فيما أمر الله تعالى به من فرض وواجب ومندوب، فهي المبالغة في أصل الطاعة، وإطلاقها على النفل غير المفروض والمندوبات ونحو ذلك هو من قبيل الاصطلاح الفقهي باعتبار أن النوافل والمندوبات مكملات للفرائض التي هي أصل الطاعات، والخير كل ما يكون فيه نفع للناس، وأداء لما أمر الله، وقيام بالواجبات الاجتماعية والإنسانية والدينية، ووصف طاعات الله أو المبالغة في الأداء بأنها خير؛ لأنها في ذاتها خير، ولا يكون ما يأمر الله تعالى به إلا خيرًا خالصًا، ونافعًا خالصًا، فكل أمر من الله تعالى فهو خير نافع لَا ينفع سواه). وفي تعليقه على هذه الجزئية من الآية يقول: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (وهذه الجملة السامية هي دالة على الجزاء، متضمنة له؛ لأن تقدير الجواب فله أجر يكافئ ما فعل؛ لأن الله شاكر عليم، أي مُجازٍ جزاء حسنًا على ما فعل؛ لأن الله شاكر، والتعبير بالشكر في هذا، وهو أعظم من أن يشكر عبدًا له فالكل منه وإليه، وقد وصف نفسه بأنه غفور شكور، فكيف يشكر المنعم من أنعم عليه؟! وكل ما يقدم العبد من طاعات هو شكر للمنعم جل جلاله، وشكر المنعم واجب بالعقل والنقل، فكيف يكون الله شاكرًا لأنعمه؛ ولكن عبر بذلك، تكميلا لنعمه وتفضله أولًا، كما يشكر من يقوم بالواجب تفضلًا، ولتحريض العبد على كمال الطاعة ثانيًا،

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الأول، دار الشروق، الطبعة ١٧، بيروت،تاريخ الطباعة: ١٤١٢، ص:١٤٦.

ولتعليم العبد شكر النعم ثالثًا، ولإثبات رضوان الله تعالى رضوانًا كاملًا، فإن الشكر زيادة في الرضوان، والرضوان الجزاء.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه مع الشكر الدال على الرضا بقوله: "عليم" أي وصف نفسه بالعلم؛ للدلالة على أنه عالم بمن يقوم بالطاعات فيجازيه، ومن يعمل بالمعصيه، فيجزيه بالسوء سوءا، فهو إشعار للطائع بأنه يعمل تحت رعاية الله تعالى، تحت سمعه وبصره، وهو القائم بكل ما في الوجود، وهو القادر على مكافأة كل بما يعمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر)[(١)].

يقول أبو القاسم الغرناطي رحمه الله تعالى: (وَمَنْ تَطَوَّعَ عامًا في أفعال البر، وخاصة في الوجوب من السنة أو معنى التطوّع بحج بعد حج) الفريضة[(٢)].

يقول أبو السعود رحمه الله تعالى: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ (أي فعلَ طاعةً فرضًا كان أو نفلًا أو زاد على ما فُرض عليه من حج أو عمرةٍ أو طوافٍ وخيرًا حينئذ نُصب على أنه صفةٌ لمصدر محذوفٍ أي تطوعًا خيرًا أو على حذفِ الجارّ وإيصالِ الفعل إليه أو على تضمين معنى فعل وقرئ يَطوَّع وأصلُه يتطوع مثل يطوف وقرئ ومن يَتَطَوَّع بخيرٍ. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ ﴾ أي مُجازٍ على الطاعة عُبّر عن ذلك بالشكر مبالغةً في الإحسان إلى العباد، (عَلِيمٌ) مبالغٌ في العلمِ بالأشياء فيعلم مقاديرَ أعمالِهم وكيفياتِها فلا يَنْقُصُ من أجورهم شيئًا وهو علةٌ لجواب الشرطِ قائم مقامَه كأنه قيل ومن تطوعَ خيرًا جازاه الله وأثابه فإن الله شاكر عليم)[(٣)].

وَرد في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى لهذه الآية: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ قِيلَ: زَادَ فِي طَوَافِهِ بَيْنَهُمَا عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ ثَامِنَةً وَتَاسِعَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَقِيلَ: يَطُوفُ بَيْنَهُمَا فِي حَجَّةِ

(١) محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، زهرة التفاسير، الجزء الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ص: ٤٧٨- ٤٧٩.

(٢) أبو القاسم محمد بن محمد الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، الجزء الأول، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة الأرقم بن أبي الأرقم الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ص: ١٠٤.

(٣) أبو السعود العمادي بن مصطفى، تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، الجزء: الأول، دار إحياء التراث العربي بيروت، ص:١٨١.

تَطَوُّعٍ، أو عُمْرَةٍ تَطَوُّعٍ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ تَطَوَّعَ خيرًا فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ. حَكَى ذَلِكَ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ، وَعَزَى الثَّالِثَ إلى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، والله أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: يُثِيبُ عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ (عَلِيمٌ) بِقَدْرِ الْجَزَاءِ فَلَا يَبْخَسُ أَحَدًا ثَوَابَهُ و(لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)(١).

**من أقوال المفسرين في الآية ١٨٤ :**

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة].

قوله: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ (فيه ثلاثة أوجُهٍ: أحدها: قاله مجاهد، وعطاء، وطاوس: أي زاد على مسكين واحدٍ؛ فأطعم مكان كل يومٍ مسكينين فأكثر.

الثاني: أن يطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب.

الثالث: قاله الزُّهريُّ: من صام مع الفدية، فهو خير له)(٢).

يقول أبو حيان رحمه الله في تفسيرالآية: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ (مَنْ زَادَ عَلَى مِقْدَارِ الْفِدْيَةِ فِي الطَّعَامِ لِلْمِسْكِينِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَعَلَى عَدَدِ مَنْ يَلْزَمُهُ إِطْعَامُهُ، فَيُطْعِمُ مِسْكِينَيْنِ فَصَاعِدًا قَالَهُ ابن عباس، وطاووس، وَعَطَاءٌ، وَالسُّدِّيُّ. أو جَمَعَ بَيْنَ الْإِطْعَامِ وَالصَّوْمِ، قَالَهُ ابْنُ شِهَابٍ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الْوَاجِبِ، إِذَا كَانَ يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ، خَيْرٌ مِنَ الِاقْتِصَارِ عَلَيْهِ، وَظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْعُمُومُ فِي كُلِّ تَطَوُّعٍ بِخَيْرٍ)(٣).

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، دار الطيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، تاريخ الطباعة: ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م، ص: ٤٧٢.

(٢) أبو حفص سراج الدين النعماني، اللباب في علوم الكتاب، الجزء الثالث، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت تاريخ الطباعة: ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨م، الطبعة الأولى، ص: ٢٧٢ .

(٣) أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، الجزء التاسع، المحقق: جميل صدقي محمد، دار الفكر، بيروت، تاريخ النشر: ١٤٢٠ هـ، ص: ١٥٩.

يقول عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ (بالصوم مع الفدية، أو بالزيادة على مسكين واحد)[١].

ويقول فخر الدين الرازي: (أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ فَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ أَحَدُهَا: أَنْ يُطْعِمَ مِسْكِينًا أو أَكْثَرَ، وَالثَّانِي:أَنْ يُطْعِمَ الْمِسْكِينَ الْوَاحِدَ أَكْثَرَ مِنَ الْقَدْرِ الْوَاجِبِ، وَالثَّالِثُ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: مَنْ صَامَ مَعَ الْفِدْيَةِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ)[٢].

ويقول السيوطي: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ (بِالزِّيَادَةِ عَلَى الْقَدْر الْمَذْكُور فِي الْفِدْيَة فَهُوَ أي التَّطَوُّع خَيْر لَهُ ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الْإِفْطَار وَالْفِدْيَة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَنَّهُ خَيْر لَكُمْ فَافْعَلُوهُ)[٣].

ويقول عبد الكريم الخطيب: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ ترغيب فى عمل البر والاستزادة منه، فإذا جعل الله سبحانه الفدية الواجبة هى طعام مسكين، فإنما ذلك رحمة بعباده ورفقًا بالمعسرين منهم، وتمكينًا للفقراء أن يلحقوا بالأغنياء، بتقديم هذا القربان إلى الله، وبالمشاركة فى البر والمواساة، ثم إن باب التطوع متسع مع هذا لمن تسخو نفسه بالبذل، وتسمح يده بالعطاء: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾. وفى قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ما يضبط ميزان الاتجاه إلى الإفطار عند ذوى الأعذار. فلا يميل بهم إلى التفلّت من الصوم، مع الجهد المحتمل، ومع المشقة الممكنة، فالصوم تكليف، ولكل تكليف أعباؤه ومشقاته، وإلا لما كان ثواب وجزاء.. فترجيح جانب الصوم على جانب الإفطار مع الفدية ومع قيام العذر- من شأنه ألا يجعل للأعذار الواهية مدخلا للترخص فى هذه العبادة، والتحلل منها لأقل مشقة وأقل جهد[٤].

---

(١) عز الدين بن عبد السلام، تفسير القرآن، الجزء الأول، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار بن حزم بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م ص ١٨٩.

(٢) فخر الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الخامس، دار إحياء التراث العربي بيروت، ١٤٢٠هـ الطبعة الثانية، ص: ٢٥٠.

(٣) جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ج ١، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى، ص: ٣٨.

(٤) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، الجزء الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ص: ٢٠١.

يقول أبو زهرة في هذه الآية: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (فَمَن تَطَوَّعَ) الفاء هنا للإفصاح، أي إذا كان قد كتب عليكم الصوم ويسر الله تعالى عليكم بالرخص التي رخص بها فمن تطوع خيرًا، أي فمن قصد الطاعة، وتكلفها قاصدًا الخير فهو خير يدخره له يوم القيامة، فالتطوع هنا ليس النافلة كما قال الفقهاء فإن ذلك اصطلاح فقهي لَا تخضع له عبارات القرآن في دلالاتها، بل تخضع للغة، والآثار النبوية فقط، والتطوع هنا هو المبالغة في الطاعة قاصدًا أو طالبًا خيرًا، فهو خير له وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾ تحريض على القيام بالواجب المفروض الذي كتب عليكم وعلى الذين من قبلكم ولا شك أن أداء الواجب خير عظيم، وقال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم، وما الواجب عليكم، وقد ذكر سبحانه التعليق بـ "إن" حثًّا على طلب علم الغاية من فرضية الصيام وهو تربية نفوسكم على الصبر، ولقد ورد أن الصوم نصف الصبر، والصبر صفة المؤمنين، كما أشرنا من قبل (1).

(١) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، مصدر سابق، ص ٥٥٤-٥٥٥.

## المبحث الثاني

## من دلالات كلمة التطوع في القرآن

### الدلالة الأولى: مجيء التطوع مع ركن الحج والعمرة

جاءت كلمة التطوع في الآية الأولى في خضم الحديث عن ركن من أركان الإسلام وهو الحج، وفي أداء أعمال ركن من أركان الحج، وواجب من واجباته وهو السعي بين الصفا والمروة في رأي جمهور الفقهاء، وهما من شعائر الله والتي هي أعلام طاعته والقربة إليه كما وصفهما الله جل ثناؤه تعظيمًا لشأنهما في الآية بصورة خاصة، وشعائر الله في القرآن ترد بمعانٍ عديدة، كلها تعظيم وتبجيل وهو ما يشير إليه قول الله جل ثناؤه: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج].

لقد وردت هذه الجملة القرآنية: ﴿ ...وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة] بعد الحديث عن الحج والعمرة الزاخرتين بالأنشطة التعبدية ومظاهر التجرد والإنابة إلى الواحد الأحد الجواد الكريم، والسعي إلى حصول كل الخيرات، وابتغاء فضل الله، وهي الأمور التي عبر عنها المؤمنون بالتلبية التي وحدت مشاعرهم من خلال الجمل التالية وهي: (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)، كما كونت نسقا موحدا في تصرفاتهم وأنماط سلوكهم، وقد ميزت مظاهرهم من حيث اللبس ومن حيث العلاقات بين الجنسين عن بقية الأيام انقيادا للأحكام والآداب العامة التي يقتضي بها ركن الحج، وليست هذه من ابتداع أحد أو من تفكير العباقرة والمبدعين، ولكنها من نداء رب العالمين.

وهو النداء الخالد الموجه والآمر لنبي الله إبراهيم عليه السلام أن يبلغ المسلمين إلى آخر الدهر، متمثلا في قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا

وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج]، والتطوع بالخير ينسجم مع هذه الأجواء الموحية بالهداية والخير العميم الذي لا تحده أية حدود لتمدده عبر الزمان والمكان ليعم النفع وتتحقق المصلحة بأيدي الخيرين الذين لا يملون عن التطوع والتضحية وبذل الغالي والمرتخص لنيل رضى الله من خلال إسعاد الآخرين وخدمة المجتمع الإنساني.

فلنقرأ الآيات التالية استكمالا لما سبق لنتذوق طعم المؤتمر العالمي للحج وما يحتويه من منافع للناس جميعا، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحج].

أي عظمة وتنوع لهذا الموسم الإيماني الذي تتكرر احتفالاته البهيجة مع قدوم كل سنة منذ هذا النداء المبارك الذي أطلقه أبونا إبراهيم عليه السلام استجابة لأمر الله تعالى، وأي فوائد تلك التي يجنيها الحجاج وغيرهم في مكة المكرمة وحزامها وخارجها بعد عودة الحجاج والمعتمرين إلى بلادهم في كل قارات العالمين، وجلالة هذه الأعمال تنبع أساسًا بكونها طواعية من الرغبة الشخصية.

**الدلالة الثانية: مجيء التطوع مع ركن الصوم في شهر رمضان**

جاء التطوع في وسط الحديث عن ركن من أركان الإسلام وبعد إقرار جملة من أهم أحكام الصيام والرخص الملازمة له لتخفيف المعاناة عن ضعفاء المجتمع: مثل المسافرين، والحوامل والمرضعات الخائفات على أنفسهن وعلى الأجنة في أرحامهن والرضع والحيّض والمرضى، وكبار السن العاجزين عن الصيام، وهذه الرخص ضرورية لحياتنا وهي من نعم الله علينا، إذًا فالتطوع مرتبط بركن الحج والصيام ارتباطًا عضويًا مما أعطياه وزنًا كبيرًا في نفوسنا ومشاعرنا لأنه مرتبط بأركان الإسلام.

**الدلالة الثالثة: مجيء التطوع تجاوبا مع ضرورات المجتمع ومصالحه.**

وفي الآية الثانية جاءت كلمة التطوع تتويجًا للأحكام المُحَدِّدة للحقوق والواجبات بين الميسورين والأغنياء، وبين المعسرين والمساكين في مجال ركن من أركان الإسلام، وكان ورودها في هذا الموقع الحساس الذي يمس شرائح واسعة من المجتمع وهم الفقراء والمساكين وذوو الاحتياجات الخاصة ذا أهمية كبيرة.

ومن هنا نقف على حقيقة وأدلة دامغة تبرهن كيف أن الإسلام عالج قضايا الفقر حين أوجب التلازم بين الإنفاق وبين أركان الإسلام مثل الزكاة والحج والصوم، ولقد فرض الله حقوقا ثابتة للمحتاجين على القادرين حرصًا على سلامة المجتمع والحفاظ على تماسكه وأمنه الداخلي، وتحقيقًا للأخوة الصادقة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات] والتي هي صمام الأمان ومفاتيح الاستقرار للمجتمعات البشرية، وفلاحهم في الدنيا والآخرة، ولأن معالجة الفقر مسؤولية جماعية تؤدي إلى السعادة وينبغي أن يستشعر الجميع الواجبات الاجتماعية:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإنسان] وأن نقدم على هذا العمل النبيل رغبة في تمتين أواصر الأخوة سعيا لنيل رضى الله سبحانه ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان] يحدو بنا الأمل بالنجاة من النار ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الإنسان] ولنصبح من الفائزين الذين يبشرهم الله بالنعيم الخالد يوم الجزاء، ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنسان].

فهو عمل جليل يخدم المنفق أكثر مما يساعد على الفقراء وذوو الاحتياجات الخاصة، فإهمال مثل هذه القضية لأي سبب من الأسباب يعرض حياتنا للخطر في الدنيا، ويخشى أن نعاقب عليه في الآخرة بسبب التقصير عن هذه المهمة الإنسانية الحضارية ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المدثر].

والتطوع هو المجال الأوسع لتقديم العلاج لكثير من مشكلات الناس وأزماتهم اليومية وهو رحمة للقادرين على الإنفاق أن يتطوعوا أكثر مما هو واجب شرعًا من الناحية الكمية أو العددية، كما أنه رحمة للفقراء لتغطية احتياجاتهم وضرورات حياتهم، ومع ذلك فالتطوع مجال مفتوحة أبوابه للراغبين في الاستزادة والتزود للولوج من أي باب يريدونه أو تحدده الضرورات أحيانًا، وهنا يمكن أن يشمل التطوع النوافل والواجبات الكفائية، ويمكن أن تتحول ما اشتهر كونها من النوافل في فهمنا الفقهي إلى الفروض العينية أو الكفائية بظروف وأسباب محددة.

لأن كثيرًا من الضوابط الفقهية وضعت في ظروف زمنية لها ضروراتها المعيشية وظروفها الأمنية والسياسية والثقافية والاقتصادية، ولذلك لا يمكن أن نعتمد عليها في كل الأزمنة، فالمقاصد الشرعية أوسع من الأحكام الجزئية رغم أهميتها.

# المبحث الثالث

# رمزية اقتران التطوع بالخير في القرآن

ورود كلمة "خيرًا" في الآيتين هكذا: ﴿ ...وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة] و﴿ ...فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ... ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة].

إن كلمة التطوع جاءت مقرونة بكلمة "خيرًا "في الآيتين، وأيا كانت اختلافات الفقهاء والمفسرين في حكم التطوع في الآيتين إلا أن كلمة "خيرًا" بعد كلمة تطوع تحمل معاني ودلالات ذات مغزى، وبعدًا لا يمكن تجاهله عنه أو التغاضي عن العلاقة المتينة بين التطوع والخير في القرآن الكريم، لأن الخير هو جماع أمر الإسلام كله، ويتناول كافة الجوانب الإيجابية والفضائل وكل المأمورات ابتداء من الإيمان بالله ومرورا بأركان الإسلام والعبادات الواجبة وسننها، والمعاملات التي هي أعمدة حياتنا، كما أن الخير يرد كثيرًا في معرض محاربة المنكرات والفواحش وتقبيح المظالم الاجتماعية بجانب ترغيب الفضائل بأشكالها، والحسنات بأنواعها، بالإضافة إلى هذا فإن كلمة الخير تشجع على الحياة الكريمة وتدعو إلى الفضائل والآداب العامة والتعاون والتساند بين بني البشر كافة.

وإذا تتبعنا تكرار كلمة (الخير) في القرآن الكريم وصيغها المختلفة والمفعمة بالعذوبة وسعة الأهداف والغايات، سواء كانت معرفة أو نكرة، مفردة أو جمعا، وأيا كان موقعها من الإعراب سنجد أنها وردت في القرآن الكريم ما لا يقل عن " ١٧٧ "مرة، وهي تدور حول الطاعة والاستقامة والقيم العليا والمعاملات الراقية والكرم وتشجيع كل الخصال الحميدة في مختلف مناحي الحياة بدون أن تفرق بين أنواع الواجبات" العينية والكفائية" أو بين الواجبات والنوافل، كما لا تفرق بين المحظورات والمكروهات.

**وهنا نجد صورة تقريبية توضح لنا كيفية ورود صيغها في القرآن الكريم لتسهل مراجعتها عند الرغبة في بحثها وهي كالتالي:**

خيرٌ وخيرٍ بالضم والجر معًا وردت في القرآن الكريم حوالي ١٠٩ مرة، وخيرا ٣٥ مرة، والخير ٩ مرات، والخيرات ٨ مرات، وبخير ٦ مرات، وخير ٣ مرات، وبالخير ٢

مرة، وللخير٢ مرة، وخيرات مرة واحدة، والخير مرة واحدة، وبالخيرات مرة واحدة. ويصل مجموع هذه المرات حوالي ١٧٧ مرة.

إن التطوع المقترن بالخير يكتنف جوانب الخير كلها ولا يخضع للتعريفات الفقهية وضوابطها المقيدة، كما أن صفة الخيرية وردت في القرآن الكريم لحث المكلفين على التزام القيم العليا والفضائل لهذا الدين الحنيف، والابتعاد عن المنكرات والرذائل، وتقبيح الشر كله صغيره وكبيره، وذم البخل والنفاق وإنكار كل صفة ذميمة في مختلف مناحي الحياة، فمجيء التطوع بصحبة الخير في الحديث عن ركنين من أركان الإسلام إشارة قوية إلى المعنى الحقيقي للتطوع والذي لا غناء عنه لدى أي فرد أو عائلة، أو مؤسسة، أو مجتمع، أو دولة من الدول.

**نماذج من الآيات الواردة في هذا الشأن:**

جاءت الآيتان التاليتان كشفًا لخبايا المنافقين وسوء طويتهم وذمًا لتصرفاتهم، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب]، "أشحة على الخير" ذم للمنافقين المتلونين وخطرهم على المجتمع وهم فاقدو الإيمان وكشف نفسياتهم المريضة التي ترفض الانقياد لرسالة الإسلام، وبهذا تستحق الذم والوعيد لكي يكون المجتمع حذرًا من سلوكهم الشائن.

وجاءت كلمة الخير في الآية التالية معبرة عن المعنى الإجمالي للدين القيم، الآية الثانية: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران]، والخير هنا يعبر عن الانقياد التام للأوامر والنواهي المؤدية إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، الخير هنا ما يطلبه منا الإسلام من البناء النافع والقيام بالصالحات وهو الأمر بالمعروف، وهدم الشرور وإغلاق أبوابها وإعلان حرب شاملة ضدها، واستئصال جذور الفساد والمنكرات وهو النهي عن المنكر، ولا نجد أية خصوصية لجانب من الأحكام الفقهية المتعارف عليها، بل الخير يحمل كل الإسلام.

الآية التالية توضح لنا العلاقة بين الخير والحكمة، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة]. الخير في الآية تفسير للحكمة التي لا ينال مقامها إلا أصحاب البصيرة والقلوب اليقظة والضمائر الحية الذين ينقادون لشرع الله، ويعملون حسب التوجيهات الربانية في القرآن العظيم وفي السنة النبوية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

الحكمة هي جماع الخير كله كما أشارت إليه تلك الآية، ولنقف عند هذه الآية التالية حيث يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء]. جاءت هذه الآية بعد عشر آيات من سورة الإسراء، وهي تضيء عظمة الحكمة التي هي مفاتيح الخير، وجاءت تتويجا لسلسلة من الأوامر والنواهي والتوجيهات السامية التي تكشف لنا عن الأمراض الاجتماعية المدمرة والموبقات المهلكة للأمم، وتنير لنا الطريق السالكة المؤدية إلى الفوز في الدنيا والآخرة، وهي عشر آيات ينبغي أن ننظر إلى معانيها وما تضمنته من قوانين إرشادية تقوم مقام النجوم، وكل الخرائط التي نهتدي بها من ظلمات الحياة وتعقيداتها، وتمثل قدرًا من التفسير للحكمة، والتطوع بالخير يفتح لنا أبواب الخيرات كلها والتي بدورها توصل المتطوعين إلى الحكمة بتوفيق الله جل ثناؤه، وفي هامش هذه الصفحة يمكن أن تقرأ الآيات الكريمات من سورة الإسراء(١).

الآية التالية تعبر عن التنافس المحموم في تحقيق رضى الله تعالى، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

جاءت كلمة الخيرات في مقام التضرع، والإنابة والتسابق إلى الطاعات التي ملؤها الحب في الله والأمل في نيل رضاه وقبول طاعته، كما ملؤها الخوف والخشوع حيث استجاب الله لدعاء هذه الأسرة الصالحة المتضرعة ومنّ عليها حياة جديدة من الإنجاب

---

(١) لتجد المتعة التي تربطك بالجوانب المختلفة من موضوعنا راجع الآيات العشر من سورة الإسراء، من الآية ٢٩ حتى الآية ٣٨.

وتعمير الأرض حتى رزقهم الله يحيى عليه السلام في ظرف استثنائي يدعو إلى اليأس من الإنجاب في الحياة الزوجية كما جرت العادة[١].

التطوع في القرآن الكريم يحمل دلالات واضحات، والتطوع في الآيتين يشير إلى ذلك الخير العميم، ولعل هذا الفضاء الواسع لكلمة التطوع المصاحبة لكلمة الخير في الموقعين هو الذي يصوب ما ذهب إليه البعض مثل: الحسن البصري - رحمه الله تعالى - بشأن تفسيره ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ في قوله: (الْمُرَادُ مِنْهُ جَمِيعُ الطَّاعَاتِ وَهَذَا أَوْلَى لِأَنَّهُ أَوْفَقُ لِعُمُومِ اللَّفْظِ) كما سلف ذكره ونقل عنه الرازي وغيره. ومثله قال أبو حيان: (وَظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْعُمُومُ فِي كُلِّ تَطَوُّعٍ بِخَيْرٍ) ومثله يقول سيد قطب: (ثم يختم الآية بتحسين التطوع بالخير إطلاقًا) ومثلهم محمد أبو زهرة (والخير كل ما يكون فيه نفع للناس، وأداء لما أمر الله، وقيام بالواجبات الاجتماعية والإنسانية والدينية).

---

(١) للمزيد في هذا المعنى راجع تفسير مفاتيح الغيب للرازي عند تفسير الآية ٩٠ من سورة الأنبياء.

# المبحث الرابع

## من دلالات كلمة التطوع في الأحاديث

ثبت في صحيح مسلم: (أن رجلًا أتى إلى النبي ﷺ فصار يتكلم وهو رجل كبير السن، يقول الصحابي: نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ، فإذا هو يسأل عن فرائض الإسلام وشرائعه، فقال له رسول الله ﷺ: (تشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ولا تشرك به شيئًا - وصار يمسك بأصابعه - ثم قال: أخبرني عن شرائع الإسلام؟ فقال: خمس صلوات في كل يوم وليلة.

فأمسك بإصبعه فقال: هل علي غيرها شيء؟ قال: لا إلا أن تطوع -يعني: تأتي بشيء من عند نفسك تطوعًا-، ثم قال: تزكي المال - تؤدي الزكاة - فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع.ثم قال: فماذا؟ فذكر الصوم -صوم شهر رمضان- فقال: هل علي غيره؟ قال: لا إلا أن تطوع.ثم قال: وماذا بعد ذلك؟ فقال: تحج البيت؟ فقال: وهل علي غيره؟ قال: لا إلا أن تطوع فأمسك بأصابعه وقال: والله لا أزيد عليها ولا أنقص منها شيئًا ثم ولى، فقال رسول الله ﷺ: إن صدق دخل الجنة).

لقد ذكر الحديث جانبًا من الفروض العينية للسائل وأوضح له الرسول ﷺ أركان الإسلام بصورة أخص، وهي مطلوبة من كل مسلم إقرارا باللسان، وتصديقا بالقلب، وعملا بالجوارح، وهي خمسة أركان يسهل حفظها لكل إنسان جاهلا كان أو متعلما، كما يمكن تطبيقها عمليًا لكافة البالغين غير المعذورين من الناحية الشرعية، لقد أوجز له الرسول ﷺ وأبلغه خير بلاغ لأن الرسول ﷺ قد أوتي جوامع الكلم.

أما السائل القادم من النجد فكان حكيما محددًا أسئلته المهمة التي سافر من أجلها، وقطع مئات الكيلومترات حتى وقف أمام رسول الله ﷺ فكان يضع النقاط على الحروف، يحتاط لأمره كثيرًا من البداية والنهاية مكررًا هذه الجملة " فهل علي غيرها؟" والتي تكررت مع كل جواب من رسول الله ﷺ. حتى يتأكد ما عليه من الواجبات الدينية ليرجع إلى بلاده مطمئنا وليبلغ من وراءه هذا الخير.

لقد تكررت من الحبيب رسول الله ﷺ هذه العبارة الرائعة في إجابته عن كل ركن والتي جمعت بين النفي والإثبات في آن واحد وهي: (لا، إلا أن تطوّع)، فالشق الأول من

الجواب هو: (لا) والتي تعني نفي وجود فرض زائد عما ذكره ﷺ في كل ركن من أركان الإسلام الخمسة.

وقد فهمها السائل واستوعب وعزم على تحملها وتطبيقها وعملها كما سمعها، وأقر بذلك أمام رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، فأعطى السائل أجوبة تشمل أركان الإسلام بدون الدخول في تفاصيل كل ركن من أركانه، أو عرض واجبات أخرى على السائل، ولم يكن الموقف يتحمل تفاصيل أكثر من ذلك.

ومن قويت في نفسه وسهل تطبيق هذه الأركان فما سواها أيسر وأسهل من ناحية، ومن الناحية الأخرى فإن هذه هي الأعمدة التي أراد الله جل ثناؤه أن تقام عليها بقية الشرائع، فإذا استقامت وسلمت من الضعف والخلل والاعوجاج يستقيم البنيان ويبنى عليها كل ما يستلزم من أمره.

أما في الشق الثاني من الجواب فهو: (إلا أن تطوّع) نرى الرسول ﷺ ترك الباب مفتوحًا أمام السائل والسامعين في المجلس حيث لم يكتف بكلمة (لا) ولومرة واحدة، بل في كل مرة كان يعطف عليها ويردف معها هذه الجملة: (إلا أن تطوع) وكان هذا بمثابة إشعار لهم بأن الإسلام ليس منحصرًا في الأركان، ولكنه بنيان كامل فيه الأركان وما يشبه الطوابق والأرفف والجدران والأبواب والشبابيك والسور والأثاث وغير ذلك، مما يتطلبه أي بنيان مادي في حياتنا، ولله المثل الأعلى، فمنذ نبي الله آدم ﷺ إلى خاتم النبيين كان بناء الإسلام متواصلا حتى بعث الرسول ﷺ فأكمل الله الإسلام ببعثة خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ، فهو دين شامل يقوم على الأركان واكتملت جوانبه الأخرى.

وفي "صحيح البخاري" عن أبي هريرة مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي؛ كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلّا وُضِعَتْ هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)(١).

فما دامت شرائع الإسلام شاملة شمول الحياة لمختلف المجالات، والواجبات متنوعة ومتعددة، والتوجيهات الربانية والنبوية متشعبة، ولا نستطيع أداءها كلها كما ينبغي في

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب، ورواه مسلم في كتاب الفضائل.

أعمارنا القصيرة، كما يشير الحديث: (إذا أمرتكم أمرا فأتوا منه ما استطعتم) بل تفنى الأجيال وتبقى كثير من تلك التوجيهات غير مطبقة كما ينبغي في الساحة العملية، فإن التركيز على الأركان الخمسة كفروض عينية على كل مسلم بالغ غير معذور كان تدرجًا ضروريا للبناء في بداية الإسلام وضمانا للوحدة الشعورية والعملية لكافة المسلمين[1].

والتطوع في الحديث إذا كان متعلقًا بالأركان الخمسة فيعني التطوع هنا نوافلها مثل نوافل الصلوات الخمسة ونوافل الصوم وصدقة التطوع والحج غير الواجب، أما إذا كان الأمر متعلقًا بشرائع الإسلام كلها فإن فرائضه العينية والكفائية والسنن المؤكدة غير منحصرة بأركان الإسلام التي قدم أجوبتها الرسول ﷺ إلى السائل في هذا الحديث عن أسئلته، إذًا لا يمكن أن يكون سياق الحديث أن جميع الواجبات على هذا الرجل المكلف لا تتعدى أركان الإسلام، والاحتمال الباقي هو أن التطوع هنا يعني بقية الأحكام التي وردت أو سترد مشروعيتها في الإسلام مثل أنواع الفرائض والنوافل سوى الفرئض التي أوضحها الرسول ﷺ في الحديث الذي نحن بصدده.

فالسنة النبوية تعلمنا كيف كان الرسول ﷺ يعطي الإجابة حسب الحاجة والأولوية التي يراها عليه السلام، ففي هذه المناسبة نذكر حديثا آخر رواه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: (وَعَنِ السَّدُوسِيِّ بْنِ الْخَصَاصِيَةِ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ لِأُبَايِعَهُ، فَاشْتَرَطَ عَلَيَّ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنْ أُقِيمَ الصَّلَاةَ وَأَنْ أُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ وَأَنْ أَحُجَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ وَأَنْ أَصُومَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَأَنْ أُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الله، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَمَّا اثْنَتَانِ فَوَالله مَا أُطِيقُهُمَا: الْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ مَنْ وَلَّى الدُّبُرَ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ الله، فَأَخَافُ إِنْ حَضَرْتُ تِلْكَ جَشِعَتْ نَفْسِي وَكَرِهَتِ الْمَوْتَ، وَالصَّدَقَةُ، فَوَالله مَا لِي إلا غنيمة وعشرة ذَوْدٍ هُنَّ رِسْلُ أَهْلِي وَحُمُولَتِهِمْ، قَالَ: فَقَبَضَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ ثُمَّ حَرَّكَ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ: "فَلَا جِهَادَ وَلَا صَدَقَةَ، فَلِمَ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِذًا "؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أنا أبايعك قَالَ: فَبَايَعْتُ عَلَيْهِنَّ كُلِّهِنَّ)[2].

---

(١) ولله الحكمة البالغة في استمرار نزول القرآن خلال ٢٣ سنة تقريبًا مفرقًا ومنجمًا حسب الحوادث الأمر الذي سهل حفظه وفهم معانيه.

(٢) رواه أحمد "٥/ ٢٢٤"، والطبراني في الكبير "٢/ ٤٤/ ح١٢٣٣"، والأوسط، "المجمع ١/ ٤٧" وقال الهيثمي: رجال أحمد موثوقون، ورواه الحاكم "٢/ ٧٩، ٨٠" وصححه ووافقه الذهبي.

عند التمعن في هذا الحديث نجد تشابهًا كبيرًا بين قصته وقصة حديث الأعرابي السالف الذكر، حيث يدور حول أركان الإسلام، ولكن الجهاد ورد في هذا الحديث مع أن الجهاد ليس ركنًا من أركان الإسلام وليس من الفروض العينية، ولكنه من الفروض الكفائية كما اتفق عليه العلماء قديمًا وحديثًا، ومع هذا قال الحبيب رسول الله ﷺ: (فَلَا جِهَادَ وَلَا صَدَقَةَ، فَلِمَ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِذًا).

بينما في حديث الأعرابي قال رسول الله ﷺ: (إن صدق دخل الجنة) بدون ذكر الجهاد في سبيل الله، هذه من حكمة سيد البشر فإنه يعطي كل شخص ما يتناسب مع وضعه وحالته[١].

وحتى تكون الصورة أوضح لنطلع على عدد من الأحاديث النبوية الأخرى في هذا المضمار.

عن أنس بن مالك ؓ قال: (بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، إذ دخل رجل على جمل، ثم أناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ

---

(١) يفسر لنا هذا الحديث جانبًا من حديث الأعرابي حيث تحمل كلمة التطوع معنى أوسع من التطوع في الصلاة والصوم والزكاة والحج، ويحتمل أن يشمل التطوع بقية الفروض والنوافل غير أركان الإسلام ونوافلها، فمن المعلوم أن الجهاد في سبيل الله ليس ركنًا من أركان الإسلام، وليس فرض عين على المكلفين من أفراد هذه الأمة الذين تنطبق عليهم شروط الفروض العينية، مثل فروض الصلاة والصوم والزكاة والحج أو غيرها، ومع ذلك جاء الجهاد بمعية أركان الإسلام هذه المرة شرطًا للبيعة ودخول الجنة في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى (**فَلَا جِهَادَ وَلَا صَدَقَةَ، فَلِمَ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِذًا**)، مع أن حديث الأعرابي لم يورد هذا الأمر كشرط لدخول الجنة، بل الرسول الأعظم ﷺ بشر السائل بدخول الجنة إن صدق بدون الجهاد، بينما الرسول عليه السلام عليه أرفق الجهاد مع أركان الإسلام شرطًا للبيعة ودخولًا في الجنة، ويمكن أن يعطينا الحديث تفسيرًا للتطوع الوارد في حديث الأعرابي خارج مجال التعريفات الفقهية المقننة والتي وضعت التطوع في دائرة النوافل فقط حسب التقسيم الخماسي للأحكام الفقهية.

ومن هذه الزاوية يمكن القول بأن التطوع في القرآن الكريم وفي هذا الحديث المشهور يشمل مختلف جوانب الإسلام من فروضها المتنوعة ومن نوافلها الواسعة في ساحة الحياة المتجددة وتكاليفها المستوجبة للفروض والنوافل، وليس خاصًا بنوافل أركان الإسلام أو غيرها كما ذهب عدد من العلماء في تفسير التطوع في القرآن، حيث قالوا إن التطوع الوارد في الآيتين من سورة البقرة والتي سبق شرحها أوسع من النوافل وهذا ما يساعدنا على تفسير حديث الأعرابي.

بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: "قد أجبتك" فقال الرجل للنبي: إني سائل لك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك، قال: "سل عما بدا لك" فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: "اللهم نعم" قال أنشدك بالله: الله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: "اللهم نعم" قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: "اللهم نعم" قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ "اللهم نعم" قال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأن ضمام بن ثعلبة، أخو بني سعد ابن بكر)[(١)].

وجاءت رواية مسلم هكذا: (قال أنس ﷺ: نهينا في القرآن أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، فقال: "صدق" قال: فمن خلق السماء؟ قال: "الله" قال فمن خلق الأرض؟ قال: "الله" قال. فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل" قال: "الله" قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال، الله أرسلك؟ قال: "نعم" قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: "صدق" قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: "نعم" قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: "صدق" قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: "نعم" قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا؟ قال: "صدق" قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: "نعم" قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلًا؟ قال: "صدق" قال: فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا؟ قال: "نعم" قال: ثم ولي، وقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن، ولا أنقص منهن، فقال النبي ﷺ: "لئن صدق ليدخلن الجنة")[(٢)].

هذه الروايات تفسر بعضها البعض الآخر والتركيز واضح ومنصب على أركان الإسلام والتي كان البدو الراغبون في دخول الإسلام وقتها في أمس الحاجة إليها،

(١) رواه البخاري في كتاب العلم باب ما جاء في العلم.

(٢) روى مسلم في كتاب الإيمان باب السؤال عن أركان الإسلام.

لكونها أركان هذا الدين والفروض العينية على كل مكلف غير معذور، ولسهولة حفظها عليهم، وكذلك لإبلاغها إلى من وراءهم من قبائلهم، فورود جمل مثل: (والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن، ولا أنقص منهن) ومثل: (والله لا أزيد عليها ولا أنقص منها شيئا) والتي جاءت ضمن الأحاديث النبوية الصحيحة تعبر عن مدى قوة إيمان هؤلاء واستعدادهم الكامل للعمل بما علموا من رسول الله ﷺ وإعلان الالتزام بأركان هذا الدين أمام النبي ﷺ.

وليس معنى الأحاديث أنه لا يجب عليهم غير ذلك مستقبلًا، فكلما تعلموا وتلقوا مزيدًا من أحكام هذا الدين فهم مطالبون بالعمل كغيرهم من المسلمين، ولأن أركان هذا الدين تسبق بقية الأحكام من حيث التعليم والتلقين لأهميتها القصوى من ناحية، ولكونها تتناسب مع المبتدئين الجدد على دخول الإسلام، ولكونها أعمدة هذا الدين فإنه من الضروري أن يكون لدى كل مسلم فهمًا دقيقًا لمعانيها وتطبيقًا عمليًا لأحكامها وآدابها.

فبينما لا يختلف الفقهاء حول تعريف التطوع عند التعرض لتقسيم الأحكام من الناحية النظرية إلى خمسة، إلى (واجب ومندوب ومحرم ومكروه ومباح)، وعندها يدخل التطوع في قسم المندوب، لكن الأمور تختلف عند الدخول في تفاصيل الأحكام الاجتهادية فنجد تداخلا بين التطوع الذي هو من النوافل فقهيًا وبين الفروض الكفائية من حيث التوجيهات القرآنية والأحاديث النبوية التي لا تفرق بين النوافل والواجبات الكفائية في أغلب نصوصها، فالأوامر الصريحة والتوجيهات العامة والتلميحات العديدة والصور المجازية لم تميز بين الأمرين ولم توضح بين نافلة وتطوع وبين الواجب الكفائي، وكلها تدعو وتحث على العمل والتطبيق والالتزام بما تدعو إليه، وكثيرًا ما تذكر تلك النصوص تعقيبات ومبشرات تذكرنا بعواقب الأمور والفوز والفلاح في الدارين، وهو تحقيق المصالح العليا للمؤمنين تبعًا لذلك.

# المبحث الخامس

# ورود الفروض والنوافل معًا

## آيات تشمل الفروض والنوافل

نورد هنا بعض الآيات في سياق الأوامر وطلب الفعل الذي يشمل كلا من الواجبات العينية والواجبات الكفائية، والنوافل للتدليل على ما سبق، يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة]. ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة].

ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

ويقول الله جل ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد].

هنا مجال واسع للخيرات سواء في مجال المال والثروة، أو حماية العهود وصيانة المواثيق، أوصلة الأرحام والعناية بهم، أو الصبر والتدرب عليه ابتغاء وجه الله، أو تأدية العبادات الواجبة وغير الواجبة مثل الصلوات والزكوات وغيرهما من الطاعات، كما أن الإحسان مقابل الإساءة باب من أبواب تلك الخيرات التي جاءت الشريعة من أجل تحقيقها وتنمية أصولها وفروعها بقصد جلب المصالح ودرء المفاسد قدر المستطاع للإنفاق العام والتصدق على المحتاجين أيا كانت حاجتهم وما أكثرها بدون تحديد نوع أو شكل

محدد، فدخول الزكوات هنا في المقدمة لأنها حق وفرض عين واجب على الميسورين، وليس هناك خيار للدفع أو للترك، والصلوات المكتوبة قبل النوافل كما هو المعلوم.

وتدخل الواجبات الكفائية في هذه الآيات وأمثالها، وعند حدوث ما يوجبها، مثل القضايا الدفاعية لحماية الأرض ومن فيها وما فيها، وحدوث الكوارث المؤدية إلى موت الأفراد والجماعات، وفي مثل هذه الحالات يجب على المجتمع إنقاذ ما يمكن إنقاذه الأقرب فالأقرب.

بالإضافة إلى ذلك فإن هذه التوجيهات العظيمة تتضمن أيضًا غير الواجبات العينية والكفائية، فالصدقة والإنفاق يشملان الفروض بنوعيهما والنوافل بدون تفريق بين المجالات الثلاثة، لأن الإنفاق بحد ذاته مطلوب بسبب وجود الحاجة المتجددة في الساحة البشرية، ويحقق المصلحة للمحتاجين، ويغطى جانبًا من حاجاتهم، ويعالج أزماتهم الحادة سواء كان هذا واجبا على المنفق أو كان غير واجب عليه حسب التعريفات الفقهية المتعارف عليها في المذاهب.

**البشارات وحدت مآلات الملبين**

البشارات العظيمة في ختام الآيات السابقة لم تختص بعواقب أمور تلك الأفعال النبيلة على نوع معين من الواجبات، ولا نوع آخر من النوافل والتطوع، بل هي عامة لكل هؤلاء الذين لبوا نداء الله ونفذوا أوامره، وانزجروا وانتهوا عن المنكرات، فهم بفضل الله ومنّه وكرمه ينالون هذا الفوز العظيم وهذ جزاؤهم: ﴿ ... فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾ [البقرة]: فلا حزن على الماضي ولا خوف عليهم للأوقات القادمة، بل هو مستقبل مضمون، كقوله تعالى: ﴿ ...فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ [البقرة]. عندما تكون السعادة في ذروتها يشتركون في استقبال الملائكة لهم والبهجة والسرور: وقوله تعالى: ﴿ ...وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج].

إن كبائر الذنوب معروفة فلا يغتر بها المسلمون، فهي من البديهيات عند العلماء والعوام على حد سواء، إن قتل النفس وشرب الخمور والزنى والسرقة وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات الغافلات وغيرها من الكبائر لا تخفى حرمتها على عموم المسلمين، فهي في وضوح حرمتها تشبه بوضوح الفروض العينية، وهي كما يقول الفقهاء ما علم من الدين بالضرورة.

ولكن اللبس يكون فيما سواها من المحرمات وربما يكون اللبس بينها وبين المكروهات لدى عامة المسلمين وخاصة في كثير من المعاملات والجوانب الخلقية في مجتمعاتنا، فالزواجر العامة والنواهي هي دعوة صريحة للتجنب والابتعاد عنها بصورة جازمة لا لبس ولا تأويل فيها، وفي خواتم تلك الآيات أو الأحاديث التي تورد الزجر والنهي عند الكلام عن المنكرات والفواحش نجد وعيدًا شديدًا، وتهديدًا صريحًا، وتسمية أنواع من العقاب ستصيب الذين لا ينزجرون ولا ينقادون لهذه التوجيهات الربانية والنبوية.

**آيات تشمل المحرمات والمكروهات**

ونورد هنا بعض الآيات في سياق النهي والزجر والنفي والتي تضم المكروهات والمحرمات حسب التقسيمات الفقهية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال].

المهم هنا الانقياد والاستجابة الفورية لنداء رب العالمين، وبدون ذلك فإن الإنسان الظالم وكل الذين لا يسعون إلى إزالة المظالم والمنكرات المنتشرة في مجتمعهم يمكن أن يتعرضوا للعقاب.

في قضية الجهاد في سبيل الله يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة].

سؤال تعجب واستنكار للذين لا يلبون نداء الجهاد ويستعذبون الحياة الفانية، ويعقبها وعيد بالعذاب الأليم مع خسارة مركزهم وإحلال قوم آخرين محلهم، يأتي هذا الوعيد الشامل لكل الذين اتصفوا بهذه الصفة، مع العلم بأن الجهاد فرض كفاية كما ذهب به جمهور الفقهاء ولا نجد تفريقا بين واجب عيني وآخر كفائي هنا، والمهم في مثل هذه المواقف الاستجابة الفورية لكل القادرين بغض النظر عن التقسيم الفقهي.

في التعامل مع الأموال والأولاد والأهل عموما ترد مثل هذه التوجيهات الربانية الصارمة، حيث يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾ [المنافقون]. ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾ [التحريم].

ففي مثل هذه الآيات تلخص النتائج لأعمالنا حسب علاقاتنا مع أوامر الله تعالى ونواهيه قبولًا ورفضًا وطاعة وعصيانًا، لأن الجزاء من جنس العمل، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣ ﴾ [النساء].

يقول ابن تيمية: (فإن مدار الشريعة على قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ المفسر لقوله: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ وعلى قول النبي ﷺ: (وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ) أخرجاه في الصحيحين. وعلى هذا فإن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها؛ وتعطيل المفاسد وتقليلها فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناها هو المشروع)(١).

ويقول العز بن عبد السلام (والشريعة كلهَا مصَالح، إِمَّا تدرأ مفاسد أو تجلب مصَالح، فَإِذا سَمِعت الله يَقُول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فتأمل وَصيته بعد ندائه فَلَا تَجِد إِلَّا خيرًا يحثك عَلَيْهِ أو شرًا يزجرك عَنهُ، أو جمعًا بَين الْحَث والزجر، وَقد أبان فِي كِتَابه

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المجلد ٢٨، ص ٢٨٤.

مَا فِي بعض الْأَحْكَام من الْمَفَاسِد حثًا على اجْتِنَاب الْمَفَاسِد، وَمَا فِي بعض الْأَحْكَام من الْمَصَالح حثًا على إتْيَان الْمَصَالح)[1].

ويؤكد فِي مَوضِع آخر وبجلاء أَكثر وأسلوب أوضح على هَذَا الْمَعْنى فَيَقُول: [(فائدة) التكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وأخراهم والله غني عن عبادة الكل، ولا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين بل لو كانوا كلهم على أفجر قلب رجل واحد منهم لم ينقص ذلك من ملكه شيئا، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل واحد منهم لم يزد ذلك في ملكه شيئا، ولم يبلغوا ضره فيضروه ولا نفعه فينفعوه، وكلهم ضال إلا من هداه الله، وجائع إلا من أطعمه الله، وعار إلا من كساه، وإنما سبق علمه - سبحانه وتعالى - بترتيب بعض الحادثات على بعض من غير أن يكون مقدمها موجبًا لمؤخرها ولا منشأ له بل هو المتحد بترتيب المسببات على أسبابها، وبالعقوبات على المخالفات، وبالمثوبات على الطاعات من غير أن يوجد شيء منها مما ترتب عليه، بل الكل مستند إليه، ولو عاقب من غير كفر وعصيان لكان عدلًا مقسطًا، ولو أثاب من غير طاعة، وإيمان لكان متفضلا، وقد أجرى أحكامه في الدنيا على أسباب ربط بها ليعرف العباد بالأسباب أحكامها ليسارعوا بذلك إلى طاعته واجتناب معصيته إذا وقفوا على الأسباب، فأمر المكلفين كلهم ونهاهم، ودعاهم إلى طاعته واجتناب معصيته واقتضاهم، مع علمه بأن أكثرهم يعصونه ولا يطيعونه، ويخالفونه ولا يوافقونه لسبق علمه في ذلك فيهم ونفوذ إرادته وقضائه عليهم ][2]، وَقَالَ الشاطبي: (إِن وضع الشَّرَائِع إِنَّمَا هُوَ لمصَالح الْعباد فِي العاجل والآجل معًا)[3].

---

(١) عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام، قَوَاعِد الْأَحْكَام في مصالح الأنام، الجزء الأول، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة: ١٤١٤ هـ، ١٩٩١م، ص:١١.

(٢) عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام، قَوَاعِد الْأَحْكَام في مصالح الأنام، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص: ٧٣ – ٧٤.

(٣) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، الموافقات، الجزء الثاني، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص: ٩.

## المبحث السادس

## ضياع المصالح من خلال الفهم المشوه

ففي الحياة اليومية والظروف الاجتماعية والقضايا المتجددة في مجتمعاتنا فإننا نجد صعوبة كبيرة في التفريق بين التطوع والفروض الكفائية لمواجهة هذه التحديات الخطيرة، إننا نشاهد يوميا مآس ومعاناة تتعرض لها مجتمعاتنا المنكوبة، وإن حاجتها الماسة والعوز والفقر المدقع والبطالة المذلة والمظالم الاجتماعية وما يرافقها من أمراض نفسية واجتماعية تنتج عنها القلاقل والحروب الأهلية والفوضى العارمة والتفكك العائلي في أمتنا، كما يؤدي ذلك إلى ضياع الأجيال، الأمر الذي يهدد كيان الدول واستقرارها، هذه ظروفنا القاهرة، والعقل والشرع يحتمان علينا أن نقوم بدور ما مهما صغر، فانطلاقا من هذا يريد بعضنا أن يقدم خدمة معينة يسديها إلى المحتاجين من إخوانه في الإسلام وفي الإنسانية على حد سواء.

فقبل أن يتخذ هؤلاء أية قرارات أو خطوات عملية لتقديم هذه المساعدة إلى الآخرين يسألون أنفسهم أولًا وقبل كل شيء: ما هو الحكم الشرعي لما يقومون به؟ وأين موقفهم مما يفعلونه من الأحكام الخمسة التي تندرج تحتها كل الأحكام الواردة في الشريعة الإسلامية وفي مصادرها الأصلية والفرعية المعتمدة عليها لدى جمهور الفقهاء؟[1]

أولًا: فهل مواقفهم وقراراتهم حيال تلك القضايا تصب في خانة الفروض العينية، (والتي يقتضي فعلها مع الجزم، وهو القطع المقتضي للوعيد على الترك)[2]، ليعرف كل واحد ألا خيار أمامه حسب فهمه للواجبات الدينية معتقدًا أنه بعدم الشروع في تنفيذها والقيام بكل ما يستطيع تجاه ذلك الوضع المخزي يكون آثما ويمكن أن يلحق بسبب ذلك العقاب في الآخرة، ويمكن أن يعجل الله سبحانه عقابه في الدنيا قبل الآخرة ؟.

فعند النظر إلى هذه المشاكل التي أشرنا إليها سالفا فإنها لا تدخل في حيز الفروض العينية بصورة مقننة وموضحة ومشروحة في كتب أصول الفقه حسب ما قرره الفقهاء في

(١) إن مصادر التشريع المعتمدة من قبل المذاهب الأربعة **هي من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ثم الإجماع، والقياس.**

(٢) راجع شرح مختصر الروضة لسليمان بن عبد القوي الصرصري الجزء الأول، ص ٢٦١.

أمهات كتب المذاهب الأربعة، ولهذا فإن ما أشرنا إليه من أحداث وأقضية خطيرة والتي تحدث في بلداننا ليست مقاومتها والكفاح من أجل إزالتها أو وقف انتشارها في حدود أركان الإسلام، كما أنها ليست من الواجبات العينية المشهورة مثل العناية بالشئون العائلية مثل إطعام الوالدين عند عجزهم والأطفال والأزواج، أو ما شابه ذلك من الأقضية العينية المعروفة.

حسب الفهم الشائع لدى أغلب الشرائح الاجتماعية في عالمنا الإسلامي فإن الفروض العينية لا تتجاوز هذه المسائل، وعلى هذا فإن هذه المشاكل المعيقة لحياة الفرد والمجتمع والدولة لا تجب على أعيانهم حسب الفهم الشائع، وبالتالي ليسوا من ترك فعلها بآثمين ولا مذمومين من قبل الشرع في نظرهم، وبهذا لا يحسون بالندم حيال الواجبات المضيعة.

من الجانب الآخر فإن تلك العوامل المهددة لاستقرارنا التي تسعى إلى اجتثاث كينونتنا لا تدخل في حيز الفروض الكفائية المعروفة والمستقر فهمها في أذهاننا بأنها من الفروض الكفائية، فعند تصفح كتب الفقه المشهورة فنجد أن أكثر الأمثلة للفروض الكفائية هي: دفن الموتى وإنقاذ الغرقى والجهاد في سبيل الله [1].

**ثانيًا**: وهل مواقفهم وقراراتهم حيال تلك القضايا تصب في إطار الفروض الكفائية الأكثر شهرة والتي أجمع الفقهاء على تعريفها وهي التي: (إذا قام به البعض سقط عن

---

(١) مفهوم الجهاد في كتبنا الفقهية هو كالتالي: الجهاد في سبيل الله هو فرض كفاية بصورة عامة إذا كان جهاد الطلب، ويكون فرض عين إذا كان العدو احتل بلدًا من بلاد المسلمين، وهو ما يسميه الفقهاء بجهاد الدفع، ويحدد هذا الأمر الخليفة أو السلطان أو الوالي؛ انظروا إلى هذه المصطلحات، أين نحن منها اليوم، لا وجود لها حسب الأساليب التي تعرضها كتبنا الفقهية على أجيالنا المتعاقبة وأطفالنا بصورة أخص بسبب التغيرات الجذرية لمفهوم السلطة والدولة والألقاب السياسية والوظائف الإدارية، لأنها ألفت في وقت غير وقتنا واستخدموا مصطلحات غير المصطلحات السائدة في الوقت الحاضر، ومفهوم الأمة في زمانهم غير مفهوم الأمة في زماننا، وبلاد المسلمين في ذلك التاريخ غير بلاد المسلمين في زماننا هذا، وبهذه الاعتبارات كلها نحن في أمس الحاجة إلى إعادة النظر في فهمنا للإسلام بصورة أكثر شمولية، وأن نقرأ الفقه الإسلامي قراءة جديدة تنسجم مع الواقع حتى لا نظلم فقهاءنا العباقرة الذين سطروا لنا هذه المكتبة العملاقة ونقلوا إلينا فهمهم لدينهم حسب الظروف والبيئة التي كانت تحيط بهم في عصرهم.

الباقين ) ليدركوا عندها أن القيام بهذه الفروض الكفائية ضرورية وهامة، ولكنها ليست مسؤولية وواجبات تقع على أشخاصهم بصورة خاصة، بل هي واجبات مفروضة على المواطنين من أفراد هذه الأمة القادرين على ذلك بدون تعيين، ومن أجل هذا فإنهم يعتقدون أنهم متساوون من حيث التكليف مع بقية الأفراد من أعيان هذه الأمة.

فما الحل إذا؟ في نظرهم يبقى التنفيذ والقيام بواجبات الفروض الكفائية مرهونًا بالآخرين وهم جماهير الأمة، فكل واحد ينتظر من غيره أن يقوم بالأمر الواجب على الأمة، والمبرر هو كونه فقط فردًا من مجموع هذه الملايين، وكأن الأمر لا يعنيه ولا يخصه، لأن الغير سيتكفل بهذه المهمة، وكأن الأفراد يقولون ما دام الأمر مرتبط بملايين البشر من المسلمين وغير المسلمين الذين تجمعهم الأوطان والجنسيات الوطنية للدول الإسلامية فإن الأمر لا يستحق أن نشغل به أنفسنا، فيتحقق المثل القائل: (إذا عمت خفت)، وهذا تصور عام عند جماهير الأمة عامتها وخاصتها، وهو متأصل وراسخ في أعماق النفوس، مما أدى إلى إهمال الواجبات الكفائية وخلق ذلك نوعًا من التواكل والتكاسل واللامبالاة لدى الجماهير الغفيرة من المتعلمين وغير المتعلمين إلا من رحم ربك وقليل ما هم.

والواضح هنا فإن الغالبية العظمى من شعوبنا تقنع نفسها أن هناك من ينفذ الفروض الكفائية نيابة عنها، وهم الذين يمثلون فعل الشرط في التعريف الفقهي للفروض الكفائية الذي هو: (إذا قام به البعض) فما دام القيام بالفروض الكفائية مضمونا في الأذهان فإن الغالبية تشعر بالارتياح فلا شعور بالحرج أو الخوف من العقاب بسبب التفريط في الفروض الكفائية، ولهذا فهم يحجزون مقاعدهم في زحمة الحياة ومسيرتها في إطار التعريف الفقهي ليكونوا دومًا مع جواب الشرط الذي هو:"سقط عن الباقين" الذين يزول عنهم الإثم بسقوط الواجب الذي قام به البعض المجهول حسب الفهم في النصف الأول من القاعدة الفقهية.

وبدوره فإن هذا (البعض) المجهول ينتظر من (الباقين) المجهولين أن يقوموا بالواجبات حتى يسقط عنهم الإثم، وهكذا دواليك، فنحن أمام الدور والتسلسل، لأننا لا نعرف من يقوم بالفروض الكفائية ومن هم الباقي، لأن الجميع أو الأغلبية الساحقة ينتظرون أن يقوم بهذا العمل أخرون غير معروفين.

ثالثًا: فهل مواقفهم وقراراتهم حيال تلك المشاكل والأحداث تصب في مربع المندوب والتطوع والنافلة؟ وليس خافيًا عليكم أن التعريف الفقهي للتطوع أو المندوب كما سبق هو: (ما تبرع به الإنسان من ذات نفسه، مما لم يلزمه فرضه)، فعندما ينظر المسلم إلى الاحتياجات المختلفة في الساحة من زوايا النوافل المجردة والتطوع غير الملزم فإنه يجد وسعا فيما يفعله، ويتخير بما يقوم به إن أراد ذلك، أو يترك الفعل ما دامت الأمور غير واجبة عليه أصلا من الناحية الشرعية.

فالخيار متروك له أصلا، صحيح أن أي خدمة يقدمها الإنسان إلى المجتمع فضيلة يحصل على الأجر بسببها بفضل الله تعالى حسب المأمول، ولكنه من الناحية الأخرى لو ترك فعلها ولم يقدم أي جهد في قضايا يعتقد أن فعلها أو تركها سيان بكونها من النوافل فإنه يعتقد أن ذلك جائز له ولا يلحقه الذم والإثم بسبب تركه وعدم قيامه بتلك الأفعال بكونها من النوافل غير المفروضة، فهو بهذا الفهم مخير في فعلها وتركها.

الغريب في الأمر أنه لا أسئلة تثار ولا مناقشات تطرح حول هذا التعريف المقتضب الذي وضعه الفقهاء قبل مئات السنين في ظروف جد مختلفة عن التي نعيش فيها، فعلى الأقل ينبغي أن يكون هناك بعض الاستفسارات لمجرد طلب التوضيحات الضرورية لأجزاء تعريف الفروض الكفائية مثل: (إذا قام به البعض)؟ ما معنى هذا الكلام؟ وما هو مقياس القيام بالواجبات الكفائية؟ وهل القيام بها دفعة واحدة يجزئ عن المهمة فتخرج الأمة عن المآثم؟ وهل القيام بهذا الفرض مرة واحدة في كل زمان يكفي؟ أو نحن أمام واجبات تتجدد كتجدد الليل والنهار وكتجدد المواليد الذين يحملون معهم مشاكلهم اليومية إلى قيام الساعة، أليست حياتنا تواجه الكوارث الطبيعية والحروب والأزمات الاقتصادية والأمراض الفتاكة وغير ذلك من القضايا والأحداث التي لا تزال تحدث بصفة دائمة أو دورية في عالمنا؟

ومن هؤلاء البعض الذين يقومون بهذه الواجبات الثقيلة التي تمثل الأكثرية من الأوامر والنواهي والتوجيهات في القرآن الكريم والسنة النبوية؟ هل هم العلماء والمثقفون والمفكرون من أفراد أمتنا؟ أو هم الأغنياء وأصحاب الثروات الطائلة؟ أو هم المزارعون الذين يوفرون السلة الغذائية للأمة؟ أو هم الحرفيون المهرة الذين يتقنون بعض الصناعات الصغيرة؟ أو هم أصحاب المصانع الكبيرة الذين ينتجون مختلف الصناعات

الثقيلة بما فيها الأسلحة وكل ما له علاقة بالتكنولوجيا الحديثة؟ أو أن هذه الفروض الكفائية تقع على الدولة وأجهزتها المتنوعة بحيث تبرؤ ذمة بقية المسلمين من الإثم الناتج عن التفريط في الواجبات؟ أو أن تلك الواجبات على رقبة مؤسسات المجتمع المدني؟ أو المسئولية تتحول إلى كل فرد من أفراد هذه الأمة كل حسب طاقته وإمكاناته وقدراته المالية والعلمية والجسدية والعلاقاتية؟ ومن الذي يحدد نوعية القائمين بالفروض الكفائية حتى ننظر ونراقب لنعرف هل يؤدون واجباتهم أو لا يؤدونها؟، فإذا تم تحديد الجهة التي تتحمل هذه المسئولية فيسهل عندها معرفة النتائج والانتقال إلى الجهة التالية ثم التي تليها لتتم محاسبتهم من قبل المجتمع ومؤسساته.

أما جواب الشرط الذي هو: "سقط عن الباقين" فهو جملة قصيرة في ألفاظها كبيرة في معانينها لشمولها أغلب فروض الإسلام وتمس كل مسلم مكلف غير معذور في حياته اليومية ومعيشته وأمنه وفي أخراه، فأمرها أكثر صعوبة ومشقة، لأن مصيرنا مرتبط بهذه الجملة القصيرة حتى نكون أو لا نكون في حياتنا الدنيوية، ونذهب إلى الحياة الأخرى غير آثمين.

ما معنى سقط عن الباقين؟ كيف ذلك؟ متى يسقط الإثم عن المكلفين القادرين على القيام به؟ وما هو معيار القيام حتى يسقط عنا الإثم؟ هل هناك حدود للواجبات الكفائية حتى نخمن إمكانية القيام به وسفوط الإثم عنا؟ أو هي مفتوحة وغير متناهية كأنفاسنا المتتابعة، وإذا قام به البعض ولم يعلم الآخرون ما تم به القيام من طرف آخرين وماتوا على ذلك فهل يشفع لهم ذلك ويسقط عنهم الحكم؟ وإذا لم يحاول بعض القادرين على القيام بالواجبات الكفائية مع علمهم بأمر الفرض وقدرتهم على القيام بذلك فما الحكم في تفريطهم المتعمد إذا فارقوا الحياة وهم في تلك الحالة؟

إنها أسئلة تتطلب منا أجوبة محددة تعالج الغموض وسوء الفهم الذي يسود عقولنا ووعينا وعواطفنا مما عطل كثيرًا من الواجبات في الساحة الإسلامية منذ فترة طويلة وخلق لبسًا شديدًا بين التطوع والواجبات لدى الفقهاء والعلماء قبل عوام الناس وجهالهم الذين يقلد كل واحد منهم عالما أو فقيها في حياته الدينية.

# المبحث السابع

# أوجه التشابه بين الواجبات الكفائية والتطوع

إن هناك تشابهًا واضحًا بينهما، (فالمندوب هو مَا أَشْعَرَ بِأَنَّهُ لَا عِقَابَ عَلَى تَرْكِهِ )، أما الفروض الكفائية فإنها لا تقع على الأشخاص بأعيانهم، فجميع أفراد الأمة القادرين على القيام بالواجبات الكفائية إن وضحت لهم الفرضية أصلًا فهم على مسافة واحدة منها، ولذا فإن عامة المسلمين لا يستشعرون المسئوليات الملقاة على عاتقهم تجاه الفروض الكفائية بصورة عامة، ومن أجل هذا الفهم الشائع لدى كافة المستويات والشرائح الاجتماعية فإن الغالبية العظمى لا تجد فروقًا تذكر بين النوافل وبين الفروض الكفائية في أذهانهم.

فعمل الواجبات الكفائية يخضع لرغبات وميول الأفراد حسب القوة الإيمانية أو القناعة الشخصية التي تدفع إنسانا ما نحو عمل يبتغي به وجه الله سبحانه وتعالى خارج الفروض العينية المحددة المعروفة لديه، والعمل التطوعي كذلك يخضع بدوره لرغبة الأشخاص وحبهم لفعل الخير.

والدافع المشترك بينهما هو القناعة أو الإيمان الأمر الذي يحرك الأشخاص لإنجاز عمل خيري يتقربون به إلى الله سبحانه استجابة للتوجيهات القرآنية والنبوية خارج مجال الواجبات التي يتعين عليهم فعلها كفرض من فروض هذا الدين في الفهم الذي نحن بصدده، وانطلاقًا من هذا الواقع فإنه يصعب على عموم المسلمين أن يعاينوا ويميزوا الفروق الجوهرية والحدود الفاصلة بين الأمرين بسبب الدقة التي يتصف بها الأمر.

إذا كانت الجهابذة من فقهائنا الذين عاشوا خلال القرون المفضلة من حياة هذه الأمة قد اختلفوا في هذا الأمر ولم يجدوا حدًا فاصلًا بينهما بصورة لا لبس فيها، فكيف نتوقع من الناس في عصرنا هذا أن يستوعبوا الحقيقة وأن يصنّفوا التوجيهات القرآنية والنبوية تصنيفًا دقيقًا بين ما هو فرض كفائي وما هو تطوع في مواجهة الأحداث المتلاحقة في حياتهم اليومية؟.

وحتى تكون الصورة أكثر نصاعة وندرك أبعاد القضية وصعوبة فهمها تعالوا نسترشد بأقوال إمام علم الأصول وتقعيداته الإمام الشافعي في كتابه الجليل – الرسالة –

عند كلامه عن الفرض الكفائي ومدى صعوبة إدراك حقيقته لدى عامة الناس، يقول رحمه الله تعالى: (وهو ما قُصِدَ بالفرض فيها قصْدَ الكِفاية، فيكونَ مَن قام بالكفاية مدْرِكًا تأديةَ الفرض ونافِلَةَ الفضْل، ومُخْرِجًا مَن تَخَلَّفَ مِن المَأْثَم، مما ليس فيه نصُّ كتاب، ولا في أكثره نصُّ سنَّة، وإن كانت في شيء منه سنةٌ فإنما هي مِن أَخْبار الخاصَّة، لا أخبارِ العامَّة، وما كان منه يحتمل التأويل ويُسْتَدْرَكُ قِياسًا)، ويشرح الإمام الشافعي الفقرة السابقة بقوله:( هذه درجةٌ مِن العلم ليس تَبْلُغُها العامَّةُ، ولم يُكَلَّفْهَا كلُّ الخاصَّة، ومَن احتمل بلوغَها مِن الخاصة فلا يَسَعُهُمْ كلَّهم كافةً أنْ يُعَطِّلُوهَا، وإذا قام بها مِن خاصَّتِهم مَنْ فيه الكفايةُ لم يَحْرَجْ غيرُه ممن تَرَكَها، إن شاء الله، والفضْل فيها لمن قام بها على مَنْ عَطَّلَهَا)[١].

فبما أن الفروض الكفائية في أغلبها من الأمور الاجتهادية التي تخضع لفهم العلماء المتبحرين والمجتهدين الأكفاء فقط لا غير فإنه يصعب التفريق بين الفروض الكفائية والنوافل بشكل كامل إلا في بعض الحالات التي كثر ورودها في كتب الفقه المختلفة كأمثلة للفروض الكفائية مثل دفن الموتى، والجهاد في سبيل الله، ورد التحية، وإنقاذ الغريق وما شابه ذلك[٢] لتحقيق المصلحة العامة، الأمر الذي يوجب على القادرين القيام بهذا الوجب الكفائي، أما أن يقتنع الإنسان بأن ما عدا الفروض العينية واجبات عليه ويستحق بتركها العقاب في الآخرة فيقوم بهذا العمل من تلقاء نفسه انطلاقا من هذا الفهم فهو أمر مستبعد في الأغلبية الساحقة من المسلمين[٣].

---

(١) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، مصدر سابق، ص: ٣٥٧.

(٢) كان يحدث هذا وقتما كانت المجتمعات الإسلامية وحكامها في ظلال الشريعة الإسلامية وأجوائها بصورة عامة، وكانت لدى المجتمع قناعة راسخة بأن توجيه الحكام والأمراء منسجمة مع روح شريعتهم منقادين لأوامر الله مجتنبين نواهيه. والغالبية العظمى من المسلمين مستقيمون على النهج وملتزمون دينيًا، وكانت النصوص الدينية والواقع الاجتماعي في اتجاه واحد وفي انسجام قوي إلى حد كبير، فمن السهل حقًا في مثل تلك البيئة أن تقوم الخلافة بالفروض الكفائية باستخدام أفراد المجتمع وأموالهم وتستجيب الأمة بتوجيهات المسئولين بدون التردد. ومن الناحية الأخرى فإن هذه التعريفات الفقهية لم تكن بهذه الصورة التي وضعت الحواجز السميكة بين النصوص، بل الفهم كان مختلفًا في القرون المفضلة الثلاثة، لكون الأمة قريبة من عهد البعثة النبوية وفهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

(٣) والسبب هو أن الفروض الكفائية ليست موجودة في كتب المذاهب الفقهية إلا بصورة ضبابية غير مسعفة للجمهورليست مقننة مبوبة فهي ترد كضرب للأمثلة فقط، ولذا فالواجبات العينية وعلى=

فالتطوع والفروض الكفائية في ذهنية مسلمي العصور المتأخرة تقع في خانة واحدة عند من سمع بوجود الفروض الكفائية، فعندما يعمل أحدهم عملًا خارج أركان الإسلام وقلة من المسائل الأخرى يراها فروضًا عليه فهو لا يرى القيام بها واجبًا حتميًا عليه دون غيره من الناس، بل ينظر من خلال زاوية التطوع الاختياري ونافلة يؤديها، وهنا تكون المحصّلة النهائية ناتجة من الدوافع النفسية من أجل تحقيق التقرب إلى الله دون الاعتبارات الفرضية.

ويمكن القول إنها تحقق بعض المصالح العامة للبشرية، ورغم ذلك فإنها أعمال ناقصة وغير مكتملة الأدوار، لأن منشأها من الأفهام المشوهة والمشتتة والخاضعة للاختيارات الشخصية البحتة، مما يضعف الجهود ويشل الفاعلية في نهاية الأمر، وبهذا لا يمكن أن ترتقي إلى المستويات المطلوبة التي تحتم على الأمة التكاتف والتساند من أجل تنفيذ الواجبات سواء كانت عينية أو كفائية، ومن هنا ندرك الهوة السحيقة بين عصورنا وعصر الصحابة رضي الله عنهم.

---

=رأسها (أركان الإسلام) هي الواجبات الدينية المستقرة في أعماق القلوب وبها يتقرب المسلم إلى ربه سبحانه، فإذا أتى بهذا الواجب بطريقة ترضيه فهو لا يشعر بأن عليه واجبات أخرى يأثم بتركها ويستحق العقاب في الآخرة.

## المبحث الثامن
## تعامل الصحابة مع أوامر الوحي

### تنافس الصحابة في غير الفروض العينية

عند تتبع سيرة الصحابة أثناء نزول الوحي لا نجد تلكم النقاشات والجدليات البيزنطية العقيمة والتعقيدات التي نشأت في العصور المتأخرة والمبنية على الضوابط، التي وضعها المجتهدون من فقهاء الأمة حسب تقسيم الأوامر والتوجيهات الربانية والنبوية والتي تعرضت لكثير من التقنين والتفنن في وضع معايير وقواعد تفقد النصوص أحيانًا المقاصد الشرعية الكبرى، وتحشر فيه قدرًا كبيرًا من التنطع والفرضيات التي يضيع من خلالها رونق النصوص القرآنية والنبوية وجلالها وهيبتها في النفوس.

جيل الصحابة رضي الله عنهم تميز بالحرص المتفاني والجهد المتواصل وبذل الوسع من أجل فهم النصوص القرآنية والعمل بمقتضاها بدون تردد، وتلك الاستجابة الفورية كانت تمهيدًا للعمل والتطبيق المطلق والتقيد بتوجيهات الوحي الإلهي، قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كانَ الرجل مِنَّا إذا تعلَّم عَشْر آياتٍ لم يجاوزهُنّ حتى يعرف معانيهُنَّ، والعملَ بهنَّ)، وعن عطاء، عن أبي عبد الرحمن، قال: (حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا: أنهم كانوا يستقرِئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْر آيات لم يخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعًا).

### نماذج من الصحابة رضي الله عنهم:

نجد نماذج فريدة من أصحاب رسول الله ﷺ في حرصهم على حفظ كتاب الله وفهم معانيه والعمل على ما يقتضيه.

لم يقل أحد من العلماء بفرضية حفظ جميع سور القرآن الكريم من قبل كل مكلف، بل الواجب العيني هو حفظ البعض الذي يستلزم صحة الفروض العينية مثل الصلوات، ولكن حفظ كل القرآن من الفروض والواجبات الكفائية على الأمة، ومع ذلك فإن حب الصحابة رضي الله عنهم لكتاب الله عز وجل جعل الكثيرين يبذلون أكبر جهد من أجل حفظه عن ظهر الغيب ابتغاء وجه الله جل جلاله.

انظر إلى الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود ﷺ كيف يذهب في حبه للحفظ والوقوف على أدق التفاصيل في كتاب الله جل ثناؤه إلى أبعد المدى وأبلغه حين يقول: (والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[(١)]. وفي رواية أخرى قال مَسْروق قال عبد الله: (والذي لا إله غيره، ما نزلتْ آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلتْ؟ وأينَ أنزلت؟ ولو أعلم مكانَ أحدٍ أعلمَ بكتاب الله مِنّي تنالُه المطايا لأتيته)[(٢)]، ويقول علي بن أبي طالب ﷺ وهو على المنبر:"سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل"[(٣)].

ففي مجال التطبيق العملي لا يختلف تفاعلهم مع القرآن ومع التوجيهات النبوية، فلننظر كنموذج إلى موقف أصحاب رسول الله ﷺ عندما نزل قول الله جل ثناؤه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران]. (رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ الله لِي حَائِطٌ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ أَحَبُّ أَمْوَالِي إلى أَفَأَتَصَدَّقُ بِهِ؟ فَقَالَ ﷺ: «بَخٍ بَخٍ ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله، فَقَسَّمَهَا فِي أَقَارِبِهِ، وَيُرْوَى أَنَّهُ جَعَلَهَا بَيْنَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا).

يَقُولُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ،: (كَانَ أَبُو طَلْحَةَ الأَنْصَارِيُّ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بِيرُحَاءٍ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَدْخُلُهُ وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهِ طَيِّبٍ) قَالَ أَنَسٌ: لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ قَالَ: قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إلى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ يَا رَسُولَ الله، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) صحيح البخاري باب القراء من أصحاب النبي ﷺ: الجزء السادس، ص: ١٠٢.

(٢) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١، المحقق: محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠ م،، ص: ٢٤.

(٣) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الجزء الثاني، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م، ص: ١٨٧.

يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلى بِيرُحَاءٍ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، أَرْجُو بِرَّهَا، وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: " بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ "، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَسَّمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ، وَبَنِي عَمِّهِ)[١].

لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ قَالَ: (جَاءَ زَيْدُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي أُسَامَةَ بِفَرَسٍ يُقَالُ لَهُ: سَبَلٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا، فَقَالَ: هِيَ صَدَقَةٌ، فَقَبِلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهَا أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَرَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاكَ فِي وَجْهِ زَيْدٍ، فَقَالَ لَهُ: (إِنَّ اللهَ قَدْ قَبِلَهَا مِنْكَ)[٢].

(وروي عن عمر بن عبد العزيز، أنه كان يشتري أعدالًا من السُّكَّر، ويتصدق بها. فقيل له: هلا تصدقت بثمنه؟ فقال: لأنَّ السُّكَّر أَحبّ إلى، فأردت أن أتصدق مما أحب، وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقرأ في مصحف مذهب، فلما انتهت إلى هذه الآية باعته، وتصدقت بثمنه)[٣]، وهناك أمثلة عديدة لا حصر لها تروي عن تصرفات الصحابة رضي الله عنهم وعن التابعين رحمهم الله تعالى تعبر عن قوة التأثر بهذه الآية الكريمة ومثيلاتها، وسرعة التجاوب معها حتى سعى كل واحد منهم إلى أن يتصدق بأغلى ما عنده بدون تردد أو تسويف.

لم يسأل أحد من هؤلاء عن نوعية البر والمقصود في حقيقته اللغوية ولم يلجؤوا إلى أي تأويل أو تفسير للبر في هذه الآية الكريمة غير ما يدل عليه ظاهرها، بل إنهم تسابقوا من أجل أن ينفقوا خير ما يملكون وأن يتصدقوا بأجود أموالهم وأفضلها وأعمقها حبا في نفوسهم لكي يقدموه قربة إلى الله لنيل رضاه والفوز بالجنة، أما الذين لا تسعفهم الثروة ولا يملكون ما ينفقون فكان يصيبهم حزن قاتل وحسرة مرهقة بسبب فقدانهم ما يتصدقون به للوصول إلى مرتبة البر والمشاركة في السباق المحموم إلى الخيرات.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، ورواه مسلم في صحيحه.

(٢) نظام الدين الحسن النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الجزء الثاني، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العربية، الطبعة الأولى، بيروت: ١٤١٦هـ، ص ٢٠٨.

(٣) أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، الجزء الأول، ص: ٢٣٠ .

بينما نجد مختلف التفسيرات والتأويلات لكلمة البر ومعناها في الآية الكريمة في العصور المتأخرة، هل البر صدقة التطوع؟ أو الزكاة؟ أو الجنة؟ أو الثواب ؟ أو الطاعة؟ أو التقوى؟ أوغير ذلك، حتى قال بعضهم إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة، وهذا ما لم يحصل من الصحابة عند نزول الآية أبدا، حيث انحصر جهدهم وهمهم كله في التطبيق العملي وإنفاق أفضل الأموال للوصول إلى درجة البر، علمًا بأن الصحابة هم خير فقهاء الأمة وأكثرهم تعمقا للدلالات اللغوية لكلمة البر أو أية لفظة أخرى وردت في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، بالإضافة إلى ذلك فهم تلامذة رسول الله ﷺ.

## الأعمال التطوعية مقياس التفاضل في المجتمع

التفاضل بين الناس هو التقوى في ميزان الإسلام كما تدل عليه هذه الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات]، ولكن كما تدل عليه النصوص فإن التقوى ناتجة عن قوة الإيمان والالتزام بالواجبات التي فرضها الله على العباد ابتداء من الفروض العينية والكفائية وانتهاءً بالنوافل.

**أما حقيقة التقوى فلا يعلمها إلا الله جل ثناؤه وعن طريق رسله عليهم السلام، ولا يمكن أن ندرك كنهها، أو نفرق بين التقي وغير التقي باجتهادنا المحض بأسباب معلومة منها:**

**أولًا**: عدم معرفة ما في النفس البشرية من الأمور الغيبية عند الآخرين، فللإنسان قدرة هائلة على إخفاء كثير من أسرار نفسه من غيره، ولقد بين لنا رسول الله استحالة معرفة التقوى لأنها تتعلق بالقلوب، فقال ﷺ في هذا الحديث الذي جمع كثيرًا من الأمور المنهية ومن الأمور المأمورة: (لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَهُنَا يُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَّحِيحِهِ[1]. وفي الحديث المتفق عليه بين البخاري ومسلم قال ﵇: (إنّ الله لا ينظر إلى

(١) (التقوى ههنا) معناه أن الأعمال الظاهرة لا تحصل بها التقوى وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته، شرح السيوطي لصحيح المسلم، الجزء الخامس، رقم الصفحة ٥٠٨.

أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، التّقوى ههنا، التّقوى ههنا، التّقوى ههنا ويشير إلى صدره) رواه البخاري ومسلم.

كل ما نقوم به من أعمال العبادات فروضًا كانت أو نوافل فهي مظاهر وأمارات للتقوى ولا تدل على حقيقتها فإن ذلك في علم الغيب عند الله وحده. وعندما نأتي للتفاضل بين المسلمين في نظرة المجتمع فإنه لمن المعلوم حقًا أن أداء الفروض العينية المشهورة وعلى رأسها أركان الإسلام لم تكن داخلة في التفاضل بين المسلمين في عصر الصحابة والعصور المفضلة والتي يشير إليها رسول الله ﷺ (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم إنها تَخْلُفُ من بعدهم خُلُوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)[1].

في تلك العصور التي هي نموذج يحتذى به من حيث الفهم والتطبيق العملي والتمسك بحبل الله المتين كما أمره الله تعالى سبحانه فإن أداء هذه الأركان الإسلامية وبقية الفروض العينية لم تكن تدخل في إطار التفاضل لأنها من الفروض التي لا يجوز تركها أبدا، ومن ثبت أنه تارك للصلاة أو الزكاة أو الحج أو الصيام على سبيل المثال فإنه كان يتعرض للمسائلة والمحاسبة من السلطات أو من المجتمع، وكانت تصل أحيانًا العقوبة لإعلان الحرب ضدهم كما حدث بعد وفاة الرسول ﷺ حيث حورب مانعو الزكاة.

**ثانيًا**: المسلمون متساوون أمام الفروض العينية من حيث الوجوب، وبهذا فإن التفاضل بين الناس في المقاييس الشرعية لا يظهر جليا من خلال أداء هذه الواجبات، لأن الفروض العينية محدودة ومعروفة ومطلوبة من كل شخص مكلف غير معذور، وتتعلق بأعمال ظاهرة محسوسة، وهي مما علم من الدين بالضرورة، فتركها مع القدرة على أدائها لا مبرر له، بل يصبح المسلم غير مستقيم في أمر دينه ويدخل بإهماله بعض تلك الفروض العينية في دائرة النقاشات والخلافات الفقهية بين علماء المذاهب، هل يبقى تارك أحد أركان الإسلام مسلمًا أو هو مرتدًا خارجًا عن الدين الإسلامي، إذًا فهو معروف في المجتمع بأنه آثم ويتعرض للمحاسبة وتتغير نظرة المسلمين تجاهه، وإذا أدى هذه

(١) رواه المسلم في صحيحه في كتاب الإيمان.

الواجبات فإنه أدى الواجبات المفروضة عليه والتي قبل بمستلزماتها ومقتضيات الإيمان بها كبقية المسلمين، ولهذا لا توجد هنا ميزة يستحق بسببها أي فرد منا فضلًا أكثر من غيره في نظرة الناس فهو يتساوى مع غيره في شأنها.

فمثلا من استدان مالًا من شخص معين فقضى الدَين كما ينبغي فهو يستحق الشكر لأنه أدى الأمانة. ولكن هذا ليس أمرًا يجذب انتباه الناس ويخلدون ذكره لأنه أمر طبيعي في الظروف العادية وفي النفوس السوية المنقادة للفطرة والشرائع السماوية والأعراف والقوانين، وإذا تخاذل عن سداد الدين أو أنكر ورفض فيتحول عندها إلى درجة الخيانة وتلك صفة ذميمة لا يرضى عنها أي إنسان سوي يحترم نفسه.

ومن هنا نفهم أن التميز يتضح من خلال الواجبات الكفائية والنوافل، وهي تتم بواسطة الأعمال التطوعية الاختيارية، وفي ساحاتها تبرز القدرات الإبداعية، ويحدث التفاوت بين شخص وآخر، لأن هذ المجال هو مجال السباق الذي يصنع الفرق بين البشر، حيث يقوم البعض بتصرفات ينفردون بها عن غيرهم ويسجلون مواقف لا قدرة للغالبية العظمى من أجيالهم أن يبلغوا هذه الدرجة الراقية في مختلف المناسبات التي تَجِدّ فيها الأحداث المؤثرة والتطورات المتلاحقة والتي تمثل كبرى التحديات وتهدد حياتهم.

تسمو النفوس وترتقي عندما تتقدم إلى ساحات العمل بصفة طوعية لا إجبار فيها من خلال إنفاق الإنسان وقتًا وفكرًا ومالًا غير واجب عليه بصورة عينية لمساعدة الجهات المحتاجة أفردا كانت أو مؤسسات. فبقدر ما يمتاز في تلك الساحة، ويتقدم في هذا السباق على غيره يحظى بتقدير المجتمع واحترامه، ويثبت له الفضل ويثني عليه الخيرون بسبب أفعاله النبيلة وتفانيه على بذل الجهود من أجل إيجاد حلول مرضية للمشكلات التي تواجه مجتمعه، ويكون قدوة للأجيال المتعاقبة، وتظل مآثره تروى عبر الأزمنة والدهور، وبهذا يساهم المتطوعون في البناء الحضاري باستمرار وبدون انقطاع بفضل ما قاموا به في حياتهم القصيرة، إنهم العظماء الذين كتبوا فصول التاريخ بجهودهم المتنوعة حتى حازوا درجة الأستاذية لمن جاء بعدهم من بني البشر.

**أمثلة حية في التنافس على الأعمال التطوعية:**

قال زيد بن أسلم عن أبيه: (سمعت عمر بن الخطاب يقول: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال فجئت بنصف

مالي، فقال رسول الله ﷺ: أأبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر: ما أبقيت لأهلك، قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: والله لا أسبقه إلى شيء أبدًا )[١].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالنفقة عليهم فى سبيل الله والحسبة، وأنفقوا احتسابًا، وأنفق رجال غير محتسبين، وحمل رجال من فقراء المسلمين، وبقي أناس. وأفضل ما تصدق به يومئذ أحد عبد الرحمن بن عوف، تصدق بمائتي أوقية، وتصدق عمر بن الخطاب بمائة أوقية وتصدق عاصم الأنصاري بتسعين وسقًا من تمر، وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله إنى لا أرى عبد الرحمن إلا قد احتوب، ما ترك لأهله شيئا. فسأله رسول الله ﷺ هل تركت لأهلك شيئا؟ قال: نعم، أكثر مما أنفقت، وأطيب، قال: كم؟ قال: ما وعد الله ورسوله من الرزق والخير)[٢].

ثم قال ابن إسحاق: ثم إن رجالًا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد، أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعمرو ابن حمام بن الجموح، أخو بني سلمة، وعبد الله ابن المغفل المزني- وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني- وهرمي بن عبد الله، أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري. فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون. قال ابن إسحاق: فبلغني أن ابن يامين بن عمير بن كعب النضرى لقي أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان، فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه، فأعطاهما ناضحًا له، فارتحلاه، وزودهما شيئا من تمر، فخرجا مع رسول الله ﷺ)[٣].

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، ورواه أبو داود.

(٢) أبو محمد عبد القادر بن حبيب الله السندى، الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك، الجزء الأول، مطابع الرشيد، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية ،ص: ١٩٣.

(٣) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثاني، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م، ص ٥١٨.

(وأما علبة بن زيد فخرج من الليل فصلى ما شاء الله، ثم بكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو عرض. ثم أصبح مع الناس فقال رسول الله ﷺ: "أين المتصدق هذه الليلة"؟ فلم يقم أحد. ثم قال: "أين المتصدق؟ فليقم". فقام إليه فأخبره. فقال رسول الله ﷺ: "أبشر، فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة)[1].

ومع أن الجهاد من الفروض الكفائية بصورته العامة ولكن جاء أمر رسول الله ﷺ هذه المرة جازما بالخروج إلى العدو ولم تتخلف إلا قلة استأذنت أو قبل الرسول ﷺ أعذارهم بعد انقضاء مدة انتظروها، إلا أنه ﷺ من الناحية الأخرى لم يفرض على مجتمع الصحابة مقدارًا محددًا من المال لتغطية حاجة الغزوة الملحة، بل ترك الأمر مفتوحًا لرغبتهم كل حسب قدرته المالية وحسب قوة الإيمان لديه واستعداداته النفسية، وهنا تظهر القيمة العليا للتطوع، لأن استشعار المسئولية والإحساس الداخلي للأفراد هي العوامل التي تحرك الجموع عندما يصل مستوى التربية الإيمانية مداه، ويدرك المرء بأن مصلحته في الدارين مرتبطة بمصالح الآخرين.

**انظر إلى هذه الشريحة التي تتحدث عنها الآية التالية عن أعذارهم:**

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة]. ومع فقدانهم القدرة المالية التي تمكنهم من الإنفاق على أنفسهم، ولكن رغبة الخروج طاغية عليهم بل تحاصرهم من كل جانب، ونجد من يتصدق لحمل العاجزين عن الإنفاق بدون وجوب هذا العمل عليهم من الناحية الشرعية كما فعل يامين بن عمرو: عندما لقي أبا ليلى وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان بتخلفهما عن الغزو، ونجد أصنافًا تتصدق بقسط كبير من مالها أوكل مالها لتلبية

(١) شمس الدين الحافظ الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني، حققه مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ص ٢٣٣-٢٣٥.

نداء الرسول ﷺ وتغطية جزء من من التكاليف الكبيرة المترتبة عن هذه الغزوة الهامة للدفاع عن بيضة الأمة وعقيدتها مثل عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق وغيرهم.

**قصة عثمان بن عفان نموذجا:**

(عن عبد الرحمن بن خباب، قال: شهدت رسول الله ﷺ وحث على جيش العسرة، قال: فقام عثمان رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. قال: ثم حث ثانية، فقام عثمان فقال: يا رسول الله، عليّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثم حض، أو قال: حث، الثالثة، فقام عثمان فقال: يا رسول الله، عليّ ثلاث مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. قال عبد الرحمن: أنا شهدت رسول الله ﷺ وهو يقول على المنبر ما على عثمان ما عمل بعد اليوم أو قال بعدها. رواه أبو داود الطيالسي وغيره، عن السكن بن المغيرة وقال بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان، إذ هم معه في جيش العسرة؛ وهي غزوة تبوك. وذكر الحديث)[1].

إن عثمان بن عفان ﷺ من حفظة كتاب الله جل جلاله، ومن المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن المهاجرين إلى الحبشة، وتزوج بنتين لرسول الله ﷺ وممن استحيت منهم ملائكة الرحمن، وفضله لا يعد ولا يحصى، ولا شك أنه استحق هذا بقوة إيمانه وتضحياته الجسام ومع ذلك لم تجعله خلة واحدة من تلك الخلال الجميلة مثل هذا التميز الذي أعطاه موقفه التطوعي من غزوة العسرة لأنها كانت قضية تمثل ذروة المصلحة العامة وقتها ومحورية أمن الأمة وحماية بيضة الإسلام من المهددات الخارجية، ولهذا نال مرتبة عالية من التزكية النبوية لم ينلها غيره من الصحابة والتي تنتقل مع كل مولود في هذه الأمة لتظل مدرسة تربوية متكاملة يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله فيما فعل، فنعم الموقف موقفه التطوعي، ونعم الرجل عثمان بن عفان ذلك الشهم الشجاع الذي هزم الشح والأنانية باختياره وفرج كرب المسلمين وأدخل السرور إلى قلب رسول الله ﷺ.

(١) رواه البخاري ومسلم.

هذه المواقف غير مفروضة عينيًا على الصحابة حسب الضوابط الفقهية التي نتصرف على ضوئها اليوم، بل كانت اختيارية تخضع للشخص وشعوره بالمسؤولية الفردية وقراره، ولكن الغالبية من الصحابة مدركون أبعاد القضايا ومآلات الأحداث وسلامة المسيرة لمجتمعهم، إنهم لم يكونوا أفرادًا يعيشون لذواتهم في جزر معنوية معزولة بعضها عن بعض، وفي حياة تحكمها الأنانية والشهوات وعبادة الذات، وإنما كانوا جيلًا ينقادون لأمر الله وأمر رسوله ﷺ دومًا، وهذا هو سر نجاحهم وتميزهم عن غيرهم، فالصحابة هم القدوة في التعامل مع النصوص في المقام الأول، لأنهم قاموا بهذه الأعمال الجليلة في حياة رسول الله ﷺ، ولأن فهمهم لمعاني النصوص هو فوق فهم من جاءوا بعدهم، لأن لهم في استيعاب نصوص القرآن والسنة وفهمهم لمقاصد الإسلام قدمًا راسخًا وذوقًا راقيًا لا يضاهيهم في ذلك غيرهم، ويكفيهم قوة وشرفًا وعلوًا في المقام بأنهم عاشوا مع خاتم النبيين والرسل محمد بن عبد الله خير البرية ﷺ.

**والأسباب كثيرة ومنها:**

**أولًا:** هم أصحاب رسول الله ﷺ عاشوا معه ورباهم رسول الله ﷺ، علمهم النصوص والفهم والعمل معًا، راقبوا أعماله وتطبيقاته للنصوص واستمعوا إلى خطبه ومواعظه وتوجيهاته المباركة والتي هي جوامع الكلم، وجهوا إليه الأسئلة للاستفسار عما صعب أو استشكل عليهم، عاش كثير منهم منذ البعثة وحتى أن اختاره الله إلى جواره، وهي بضع وعشرون عامًا، فلا تتوفر هذه الفرصة الثمينة لأي جيل آخر في التاريخ، إنه جيل فريد في نوعه شرفه الله بمرافقة رحلة المصطفى خير البرية وخاتم الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

**ثانيًا:** أنزل الله القرآن الكريم بلغتهم العربية فهم يعرفون دقائق المعاني وأسرارها، (وَقَدْ جَعَلَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ مُعْجِزَاتِ القرآن حَيْثُ كَانَتِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ تَنْصَرِفُ إلى عِشْرِينَ وَجْهًا وَأَكْثَرَ وَأَقَلَّ وَلَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي كَلَامِ الْبَشَرِ. وَذَكَرَ مُقَاتِلٌ فِي صَدْرِ كِتَابِهِ حَدِيثًا مَرْفُوعًا: "لَا يَكُونُ الرَّجُلُ فَقِيهًا كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَرَى لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا كَثِيرَةً". قُلْتُ: هَذَا أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَوْقُوفًا وَلَفْظُهُ: "لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ ": وَقَدْ فَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الْمُرَادَ أَنْ يَرَى اللَّفْظَ

الْوَاحِدَ يَحْتَمِلُ مَعَانِيَ مُتَعَدِّدَةً فَيَحْمِلَهُ عَلَيْهَا إِذَا كَانَتْ غَيْرَ مُتَضَادَّةٍ وَلَا يَقْتَصِرُ بِهِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ)[1].

يقول جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى: (ولا شك أن علم اللغة من الدِّين، لأنه من فروض الكفايات، وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنة. أخرج أبو بكر بن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة. وأخرج أبو بكر بن الأنباري في كتاب الوقف عن طريق عِكْرِمة عن ابن عباس قال: إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب. وقال الفارابي في خطبة ديوان الأدب: القرآن كلام الله وتنزيله، فَصل فيه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، مما يأتون ويَذَرُون، ولا سبيل إلى علمه وإدراك معانيه إلا بالتبحر في علم هذه اللغة)[2]، وهم حفظة شعرها ودواوينها الشعرية وآدابها اللغوية في المقام الأول فاستحقوا كل الشرف والتقدير.

وعن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أنه ما فسر آية إلا نزع فيها بيتًا من الشعر، وأنه كان حريصًا على الشعر الجاهلي، وأنه كان يحث الناس على تعلمه وطلبه لتفسير القرآن الكريم، وأنه كان يقول: "إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب، فقال عمر ﷺ: "يا أيها الناس: عليكم بديوانكم، قالوا: وما ديواننا، قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم.

يقول الله جل ثناؤه في تأكيد عربية القرآن: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]، ويقول جل ثناؤه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف] ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الرعد]. ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الجزء الثاني، مصدر سابق. ص: ١٤٤.

(٢) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، الجزء الثاني، المحقق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م، ص: ٢٦٠-٢٦١.

ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى]، ففي هذا الأمر هم أئمة الهدى الذين لا يشق لهم الغبار، وكل من جاء بعدهم عيال عليهم وتلامذتهم، وفهمهم هو الفهم الصحيح واجتهادهم في بحر النصوص القرآنية والسنة النبوية الشريفة هم الأصوب والأقرب إلى جادة الحق والصواب.

عند ما ننظر إلى فهم العلماء في القرون الأولى لكلمة: (ومن تطوع خيرًا) فإنه يدل على العمل الشامل بدون أن يحددوه بقسم خاص من أقسام التشريع، فيمكن للمرء أن يزيد في طاعته بفعل بعض الواجبات من الفرائض العينية والكفائية في المجالات التي تقبل الزيادة والتعدد، أو النوافل بأقسامها أو المباحات بساحاتها وتنوعها، لأن كلمة الخير التي جاءت مع التطوع في القرآن الكريم تعطي هذا المعنى الغني الواسع الذي تتجلى فيه كافة الفضائل وأعمال البر وهو غير مقتصر بزمان أو مكان أو خاص بأمة دون غيرها، إنه مزرعة تنتج أطايب الثمار وأجود الفواكه إلى يوم الدين.

وهذا السياق ينسجم مع أوامر الله الموجهة إلى الأمة المسلمة، وهي توجيهات ربانية تطلب منا جميعًا أن نتوجه إلى ساحة الخيرات والفضائل والمعروف جميعها للعمل بمقتضاها حسب استطاعتنا وإمكاناتنا المتاحة، كما تطلب منا بصورة جازمة أن نجتنب الشرور والسيئات والمنهيات جميعها، يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: ( فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)(١).

وترد الآيات القرآنية في هذا المعنى بكثرة يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران].

---

(١) إن اجتناب كل ما نهى الله عنه لأمر ممكن حقًا لأنه ليس عملًا يتطلب منا جهدًا فكريًا أو عضليًا أو ماليًا، وإنما المطلوب هو عدم ارتكاب المنكرات فقط، ويحتاج منا هذا إلى قدر من العزيمة القوية بلجم الشهوات، وعند استعمال العقل فإنه ببساطة شديدة نجد ألا فائدة من وراء الوقوع في الأعمال الإجرامية والخبائث بل هي مصيدة شيطانية تدمر مستقبل الإنسان. أما إتيان الفضائل والمعروف ومكارم الأخلاق وكل ما يأمرنا الله سبحانه لهو أمر جميل وشرف لهذا الإنسان، ولكن ذلك غير ممكن لكثرتها وتنوعها، وبما أنها ليست كلها من الواجبات العينية أو الواجبات الكفائية بل منها السنن غير الواجبة فإن الله رحم بنا ويسر أمرنا ولم يفرض علينا كل ذلك، لأن الخالق يعلم قدراتنا وإمكاناتنا، وفي هذا يقول معلم البشرية (اعملوا فكل ميسر لما خلق له).

ويقول جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج]. وهذه النصوص لا تضع حدًا فاصلًا بين معروف وآخر، أو بين خير وخير آخر، أو عمل طيب وآخر، فالتفاضل بين أنواع المعروف والخيرات بعد الفروض العينية المحددة مرتبط بحسب ما تحققه من مصالح ومنافع وفوائد للناس، أو بقدرما يزيل ويدفع المفاسد والمضار والشرور عن المجتمع، فما يقدمه درهم واحد من منافع في زمن الحروب والأزمات والكوارث غير ما يقدمه مائة ألف درهم أو أكثر في زمن السلم والظروف الطبيعية، كما أن الأمر يتعلق بأحوال المتصدق فقرًا وغنىً، وصحةً ومرضًا، وهو ما ينطبق على الحديث الذي رواه النسائي قال رسول الله ﷺ: (سَبقَ دِرهَمٌ مائةَ ألفِ دِرهَم، قيلَ: وكيفَ ذلكَ يا رسول الله؟ فقال: رجلٌ لهُ دِرهمَانِ أي لا يملِكُ غَيرَهُما فتَصدّقَ بأَحدِهمَا، ورَجُلٌ تَصدَّقَ بمائةِ أَلفٍ مِن عُرضِ مَالِهِ).

من هنا ندرك أن الفروض العينية لا يمكن أن تكون معيارًا للتفاضل بين أفراد المجتمع ما دام المسلمون يؤدونها كما أمروا، لأنها هي أعمال يتساوى الجميع أمامها من حيث الطلب الشرعي، ولا يستحق أحد المدح والثناء بسبب أداء ما يطلب الشرع تأديته فرضًا عليه، فهذا من المسلمات في المجتمع الإسلامي في الظروف العادية، وإنما المعايير التي بموجبها يتفوق البعض على البعض الآخر هو الأعمال الاختيارية التطوعية وتتمثل في النوافل والفروض الكفائية وهذا هو مجال التنافس والتسابق.

أما الفروض العينية فهي الأركان التي يقوم عليها الدين والأسس التي ينبغي أن تكون راسخة وقوية في نفوسنا، وعليها نبني ما سواها من بقية الواجبات والنوافل، وكلما قويت بقوة الإيمان واليقين تنقاد نفوسنا لتلبية نداء رب العالمين، ويصبح التنافس على كافة المجالات والساحات قويًا بين المؤمنين ومفتوحًا على مصارعه لنيل رضى الله والتقرب إليه بالنوافل والواجبات الكفائية التي أصبحت في غالبيتها العظمى منسية ومهملة لدى مسلمي هذا العصر، ونحن في أمس الحاجة إلى إحيائها حتى نعود إلى التدين السليم والاستقامة الحقة والتي هي عزنا ومجدنا وشرفنا في هذه الحياة وفي دار البقاء والخلود.

وحريّ بنا أن نتلمس طريق الهداية دومًا لنجبر كسرنا ونقوّم ما اعوج من أمور حياتنا المتجددة، وما أجمل إجابة رسول الله ﷺ عن سؤال ذلك الصحابي العبقري رضي الله عنه والباحث عن المجد الخالد وعن الحكمة التي تشمل الإسلام من معلم البشرية رسول الهداية عليه السلام قائلا: (يَا رَسُولَ الله قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَال: قُلْ آمَنْتُ بالله ثم استقم)[1].

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام.

# الفصل الثالث

# مركزية التطوع في الحياة الإنسانية

**المبحث الأول:**

**الإنسان مخيّر في تصرفاته**

**المبحث الثاني:**

**مسؤوليات وواجبات مقابل الاختيار**

**المبحث الثالث:**

**الإيمان بالله اختيار لا إكراه**

**المبحث الرابع:**

**هل الإيمان بالله داخل في محيط التطوع؟**

# المبحث الأول
# الإنسان مخيّر في تصرفاته

ويلخص لنا القزويني هذه المسألة في كتابه "عجائب المخلوقات" فيقول: اعلم أن الإنسان مجموع مركب من النفس والبدن، وأنه أشرف الحيوانات وخلاصة المخلوقات. ركبه الله تعالى في أحسن صورة روحًا وبدنًا. وخصه بالنطق والعقل سرًا وعلنًا. وزين ظاهره بالحواس والحظ الأوفى، وباطنه بالقوى ما هو أشرف وأقوى. وهيأ للنفس الناطقة الدماغ وأسكنه أعلى محل وأوفق رتبة. وزينه بالفكر والذكر والحفظ. وسلط عليه الجواهر العقلية لتكون النفس أميره والعقل وزيره، والقوى جنوده، والحس المشترك مريده، والأعضاء خدمه، والبدن محل مملكته، بالحواس يسافرون في جميع الأوقات في عالمهم، ويلتقطون الأخبار والموافقة والمخالفة، ويعرضونها على الحس المشترك الذي هو واسطة بين النفس والحواس. وهو يعرضها على القوة العقلية لتختار ما يوافق، وتطرح ما يخالف، فمن هذا الوجه فالإنسان عالم صغير. ومن حيث إنه يتغذى وينمو قالوا نبات. ومن حيث إنه يحس ويتحرك قالوا حيوان. ومن حيث إنه يعلم حقائق الأشياء قالوا ملك. فصار مجمعا لهذه المعاني.

فإذا صرف همه إلى جهة من هذه الجهات ليلتحق بها فإن كان قد صرف همته إلى الجهة الطبيعية فيكون راضيا من أمر دنياه بالتقوى وتنقية الفضول. وإن كان إلى الحيوانية فيكون إما غضويًا كسبع، أو أكولًا كبقرة، أو شرهًا كخنزير، أو جزعًا ككلب، أو حقودًا كجمل، أو متكبرًا كنمر، أو ذا روغان كثعلب. أو يجمع هذا كله فيكون شيطانًا مريدًا. وإن كان صرف همته إلى الجهة الملكية فيكون متوجهًا إلى العالم الأعلى، ولا يرضى بالمنزل الأسفل والمربع الأدنى. فيكون مرادًا من قوله عز وجل في سورة الإسراء: ﴿...وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[1].

هذه الجملة تعبير عن الصفتين البارزتين لهذا المخلوق – أبناء نبي الله آدم وحواء عليهما السلام، والصفتان هما الخير والشر، فما يشرحه القزويني هو شيء من التفاصيل

(١) محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، عالم الكتب، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص: ١٦٧-١٦٨.

المتفننة وهو يريد أن يعطينا صورة تقريبية إلى الأذهان، فأينما اتجه هذا المخلوق فهو يتفوق على غيره بمستوى الخبائث والمنكرات، ففي الشر يمكن أن يأتي بشرور تضعه في خانة الشياطين وكأنه من فصيلتها، ولعل الآية التالية خير تعبير في مثل هذا الموطن، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام].

أما إذا قرر أن يتطهر ويرتفع عن سفاسف الأمور ورذائل الأعمال فإن بمقدوره أن يتخذ فضائل الأعمال وحسناتها سلّمًا يصعد به إلى المعالي وينتقل من مرحلة خير إلى مراحل أخرى أفضل من سابقتها حتى يحقق مبتغاه هو التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وبلوغ رضى رب العالمين، فإن سلوكه هذا سيدفعه نحو العلى وتقوده الحرية الممنوحة له إلى الانتصار على نفسه وشهواته، وتلك مرتبة راقية تشبه الملائكية ومن خلالها يحقق بعضا مما تشير إليه هذه الآيات.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء].

هذا الإنسان مكرّم من خالق الكون، ومن أعظم ما منحه الله تعالى هو حرية الاختيار، وتلك هدية خاصة به دون سائر المحلوقات، وعلى هذا الضوء فهو يتخذ قراراته في إطار السنن الكونية عن طواعية بدون إكراه أو إجبار، وتلك ميزة تميز بها عن غيره، وبهذا فهو يتحمل المسؤولية كاملة في حياته على ضوء قراراته واختياراته.

إن الحياة تحكمها القوانين والسنن الإلهية التي لا تتخلف أبدًا، وإن كل جزئية من تصرفات الكائنات الحية وما تقوم به كافة المخلوقات ما نعلمه وما لا نعلمه تنتمي إلى عالم كليّ بديع خاضع لإرادة الخالق الحكيم، غير قادرة على الانفلات أو الخروج من هذا النظام والنطاق المحدد لها، ولا تضارب أو تعارض بين الجزئيات، والكل يدور في فلكه المقدر.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] ويقول الله جل ثناؤه:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠ ﴾ [يس]. هذا هو الانقياد للقوانين الكونية والخضوع التام.

والإنسان هو المخلوق الوحيد في هذا الكوكب الذي أعطاه الله حرية القبول أو رفض الانقياد والخضوع التام لأوامر الله سبحانه وتعالى في قضية الإيمان والكفر من بين سائر المخلوقات، وهذه الخصوصية تدل على ما أودعه الله فيه من قدرات عالية على التفكير وتحديد منهج وفلسفة الحياة باختياره البحت دون إجباره، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ... ٢٩ ﴾ [الكهف] والآية التالية تعلمنا كيف يختلف الإنسان عن غيره في بعض المسائل حيث يمكن أن يتصرف أحيانًا بطريق مخالفة لأوامر الله باختياره المحض دون غيره وهو ما ينفرد، هذا ما أعطاه الله بإرادته وبحكمته، وفي النهاية يتحمل عواقب تصرفاته شرًا وخيرًا، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨ ﴾ [الحج].

إننا نجد هنا إشارة واضحة إلى الوضع المتميز للإنسان في بعض الجوانب، ومع أنه خاضع لله كغيره من المخلوقات في حياته العادية وحاجاته الضرورية البيلوجية الأساسية، كالأكل والتنفس والتناسل والصحة والأمن وغير ذلك، فلديه وضعه الخاص في تصرفاته في مجال الإيمان وعدمه، واتخاذ ما يهواه من القرارات التي يريد اتخاذها في جوانب معينة من حياته.

إن الإنسان في الأرض هو السيد، والبقية مسخرة له ولخدمته، وهذا هو الفرق بين الإنسان المكرم خليفة الله في الأرض، وبين كثير من مخلوقات الله الموجودة لخدمته ومصلحته، وتمرده أحيانًا ناتج عن هذه الميزة القوية. وهذا هو ما تشير إليه الآية السابقة، فوحده استثنت الآية من الخضوع المطلق الذي ثبت للأجناس الأخرى، لأن الإنسان هو الذي حدد موقعه المخالف من بقية الأجناس المذكورة في هذه الآية الكريمة من حيث

الخضوع الكامل، فأعطاه الله ما أراد، وفي هذا المعنى توضح هذه الآية التالية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]. (وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ يعني: الفرائض على السموات والأرض والجبال. فقال لهن: يأخذن بما فيها. فقلن: وما فيه يا رب؟ قال: إن أحسنتن جوزيتن. وإن أسأتن عوقبتن. فقلن: يا رب إن تعرضها علينا فلا نريد، وإن أمرتنا بها فنحن نجتهد. وعرضت على الإنسان يعني: آدم- عليه السلام- فقبلها وحملها)[1].

في المقابل يتحمل هذا الإنسان المسئولية الكاملة أمام خالقه سبحانه وتعالى نجاحًا وفشلًا، إكمالًا وتقصيرًا في الأداء، مقابل هذا التكريم والتفضيل، والحرية النسبية المتاحة له والنعم الممنوحة له والتي ينفرد بها عن باقي المخلوقات المعروفة لدينا، لأن النعم لها ما يقابلها، ولأن الله أعطاه عقلا فريدًا في نوعه يمتاز به ويبدع ويعرف الخير من الشر، ويميز بين الحسن والقبح، وبين ما ينفعه وما يضره، فإذا انقاد على ما يدله الشرع والعقل ينجو ويكون من الفالحين، وإذا اختار غير تلك الطريق فإنه سيواجه ما يستحقه، أحيانًا يتعرض للعقاب في هذه الحياة، ويحاسبه الله في الآخرة إن شاء عذبه وإن شاء عفى عنه.

---

(١) أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص: ٧٦.

## المبحث الثاني

## مسؤوليات وواجبات مقابل الاختيار

تعني كلمة المسئولية في حياتنا عقدًا بين طرفين اثنين أو أكثر، طرف أصلي مالك يفوض بعض مصالحه الحيوية إلى طرف آخر يرعى تلك المصالح ويسهر عليها مقابل منافع مادية أو معنوية حسب مقتضى شروط محددة، وهو عقد يحظى برضى الطرفين، وسواء كانت العقود مكتوبة أو غير مكتوبة فإن هناك التزامات وواجبات تترتب عن هذه المسئولية.

لهذا يقع على الإنسان عبء ثقيل ناتج عن مركزه في هذا الكون، فإذا كان يتمتع بميزات عديدة يستفيد منها ولا تتوفر لغيره، وتخضع له كثير من المخلوقات المسخرة لمصلحته ليستمتع بها وفي بحرها يسبح دومًا ومن منافعها يتلذذ فإن عليه واجبات يجب أن يقوم بها، والتزامات بعينها يتعين عليه أن ينفذها، والمطلوب منه دومًا أن يتولى رعاية ما استرعاه الله تعالى، فالغنم بالغرم، والجزاء من جنس العمل.

وبما أنه لا يوجد تميز أو تفوق بلا تبعات، فإن الحرية التي حصل عليها هذا الإنسان وتكريمه بمركز الصدارة وهو خلافته في الأرض يقابلها تحمل التبعات والمراد منه قوة استشعاره لواجباته، وحسن إدارتها وأدائها من خلال تطوع وقته وفكره وقوته المادية والمعنوية، وعندما يدرك ثقل ما عليه من المسئوليات المتنوعة فوقتها فقط يدرك كيف يواجه هذه المهمة الصعبة، ويرتب شؤون حياته ليقوم بالأمر بكفاءة عالية تؤدي إلى الازدهار والتقدم في رحلة الحياة، ومدركًا أنه سوف يتعرض للمحاسبة والمساءلة والعقاب أو الثواب في الحياة الآخرة. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام]، ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف]،﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء].

أما في الدنيا فإنه مسئول عن تصرفاته وقصوره، وكما أنه يستطيع أن يعيش بطريقة تخدم مصالحه وتصون كافة المقاصد الشرعية الكبرى، ويحافظ على سلامة مجتمعه وبيئته ليستمتع بجمالها ويستخدم خيراتها الوفيرة، فإنه كذلك يستطيع أن يدمر مصالحه بسبب

أنانيته وحب ذاته والجشع، حيث يحاول البعض الاستحواذ على كنوزها، مكدسًا ثروات طائلة وأموالًا خيالية، مما يعرض الملايين من البشر لمخاطر الفقر والجهل والمرض.

ونتيجة للممارسات الخاطئة والاستغلال الفاحش لخيرات الطبيعة تتغير ظروف الحياة بالتغيرات المناخية الخطيرة والتلاعب بالأغذية الضرورية وإنتاج الأسلحة الفتاكة ونشر الأوبئة والأمراض المعدية القاتلة من خلال تجارة الفواحش والمخدرات وكل ما يسيء إلى حياتنا.

إنه الإنسان صاحب القدرات والخيالات الهائلة، يبني ويهدم، يعمّر ويخرّب، ويبدع بعقله المدهش ويرتكب الحماقات ليشبع شهواته المسعورة، يخالف أوامر الله سبحانه ويخون أماناته، يستقيم ويرتقي إلى الدرجات العليا لينال رضى الله جلت قدرته، ينجب الأطفال ليعمر الكون بنسله، ولكنه بسوء حظه يبيد الملايين من أبنائه الأبرياء وإخوانه وأخواته لأسباب تافهة في أغلب الأحيان، فقصة ابني آدم ﷺ تعبر عن جانب مرّ من الحقيقة في هذا الإنسان.

الضعف النفسي من الأحقاد والحسد والخضوع للهوى يجعل البعض لا يستطيع العمل بشرف وكرامة وقبول التنافس مع الآخر بكفاءة وعلى قدم المساواة، ولسوء الحظ يبذل كل جهد ممكن لينال ما يريده ليجني الثمار بأقصر الطرق وأرذلها، ولكن تكلفتها باهظة بالنسبة له ولبقية البشر من إخوانه، وهذا المسلك ليس أمرا نادر الحدوث بل يتكرر مع كل الأجيال بطريقة أو بأخرى ابتداء من التاريخ السحيق منذ حياة أبناء آدم وحواء عليهما السلام، كما يقص لنا القرآن الكريم بأسلوب يصور جانبي القوة والضعف لهذا الإنسان، وكيف أنه يرتكب الجرائم بحماقاته وغروره ظنًا منه أنه ينتصر لنفسه ليسحق ويدمر حياة أخيه، وكيف أن الحقيقة تنكشف أمام ناظريه ليدرك بعض اليقين أنه يخسر حياته وسعادته عندما يعتدي على الأبرياء.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ
أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ
إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن
تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ

أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة].

هذه الجملة البغيضة "لأقتلنك" لا يوجد أي مبرر آخر استوجبها، غير أن أخاه حاز على رضى الله سبحانه وسبقه إلى الخير فتقبل الله منه، فبدل أن يتوجه إلى الله ويتوب ويغير سلوكه مضى في طريقه فارتكب الجريمة: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة].

من مثل هذه الدوافع والأمراض النفسية تبدأ الشرارة الأولى للخلافات بين الأفراد والشعوب والدول، ثم تؤدي إلى اندلاع الحروب المدمرة وتراق الدماء بغزارة في كل العصور، مما يبرهن على خطورة هذا الإنسان وجبروته عندما ينحرف عن الجادة المستقيمة وتقوده أنانيته البغيضة، وفي هذه القدرة يكمن ضعفه وقلة حيلته، لأنه بتدبيره ومؤامراته المتواصلة يخرب البيئة التي خلقها الله لخدمته وسعادته، وهذا يمثل سوء استخدام السلطات والإمكانات المتوفرة لديه.

الآية التالية تعبر عن قدرات هذا الإنسان الفاسد ودوره في تخريب الحياة، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى]، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تقدمت لكم ﴿ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ أي: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ ... ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر] وفي الحديث الصحيح: (والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها)[1].

أما الآية التالية فهي تتحدث عن غزوة أحد، وأحداثها تتعلق بأفضل البشر بعد الرسل عليهم السلام وهم جيل صحبة رسول الله ﷺ، ومع هذا فقد خالفوا أوامر القائد

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء السابع، مصدر سابق، ص: ٢٠٧.

الأعلى للقوات المسلحة. وهو رسول الله ﷺ، فبعد أن عين خمسين صحابيًا ووضعهم على جبل الرماة وأعطاهم أوامر صارمة قائلا: (احموا ظهورنا، لا يأتونا من خلفنا، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم)، وفي رواية قال لهم رسول الله: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم أو ظاهرناهم وهم قتلى فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)، فعندما خالفوا هذه التوجيهات الصريحة والصارمة حلت الهزيمة بسببهم هذا وقتل العشرات وجرح العشرات، فأنزل الله تعالى عليهم آيات من القرآن الكريم وهذه واحدة منها، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ ﴾ [آل عمران].

﴿ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ لا تفرق العدالة الإلهية بين إنسان وآخر، أو بين قومية وأخرى في الصفات الضرورية لإدارة الحياة وسيادة هذا الإنسان على كوكبنا، هذا الخطأ حدث من أفضل الأجيال من حيث الالتزام والتمسك بقواعد الشريعة، ومع ذلك وفي قيادة رسول الله الأعظم ﷺ وأوامره التي لا تقبل الاجتهاد تصرف معظم أفراد الكتيبة على جبل الرماة حسب ما بدى لهم، ظنًا منهم بأن المشركين قد هزموا فطمعوا في المشاركة في الغنيمة مع بقاء القائد وبضعة أشخاص على مواقعهم تنفيذًا لأمر سيد البشر عليه السلام واستشهدوا جميعا رحمهم الله تعالى.

إنه الإنسان وإرادته يخالف الصواب طمعًا في تحقيق ما يظن أنه مصلحته الشخصية وهذا ما عبرت عنه الآية التالية في غزوة أحد: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢ ﴾ [آل عمران]، يشترك بنو آدم في القدر الكافي من المواهب والقدرات لمواجهة المصاعب والتحديات التي تمر به، فيتخذ القرارات والمواقف باختياره هو، فعلى هذا الأساس لابد أن يتحمل عواقب الأمور سلبًا أو إيجابًا لكونه سيد نفسه وصاحب السلطة العليا في الأرض، فالخلافات بين شخص وآخر أو بين المجموعات البشرية المختلفة هي أمر واقع

يتكرر في شتى الأزمان والدهور، ولأسباب مختلفة لا يعلم كثير منها إلا الله سبحانه وتعالى. ومع ذلك، فإن مواجهة تلك المشاكل وإيجاد الحلول المناسبة لها، وتقديم التنازلات المتبادلة أو تلك التي تكون من جانب واحد في بعض الحالات لهو أمر واقع يتكرر أيضًا ما دام هناك عقلاء من البشر على قيد الحياة!.

إن الضرورة تجبر الإنسان على البحث عن الأمن والاستقرار والسعادة، فإذا كانت الحروب والخلافات في أغلب الأحيان ناتجة عن الشهوات وإشباع رغبة إنسان ما في حب الهيمنة والتعالي على الآخرين وفرض رأيه عليهم عبر العاطفة الهوجاء والاندفاع الساذج، فإن الحكمة والعقل يحدّان من عنفوان تلك العاطفة، ويسيطران على الموقف، خصوصا إذا أدرك الجميع حجم الخسارة الفادحة التي لحقت بالأنفس والممتلكات والقيم، جرّاء الجفوة التي صارت بين الأحباب والأشقاء والأصهار والجيران، ودماء الأبرياء التي أريقت، والأعراض التي اعتدي عليها.

إن التاريخ البشري يتبادل الأدوار في قضايا السلم والحرب، وفي العنف والرفق، وفي الظلم والعدالة، وفي البؤس والهناء، وفي الفقر والغناء، يقول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن]. ويقول ﷺ: (من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين)، ليس هناك حالة دائمة في الدنيا، هكذا نجد في القرآن والسنة، كما يرشدنا إلى ذلك العقل والمنطق والتجارب البشرية الغنية. فكما لا يدوم الحزن في حياتنا فإن النعم لا تدوم أيضًا، بل تتغير تبعًا لتصرفاتنا الخاطئة وعصياننا لرب النعم، ومخالفتنا للسنن الربانية التي لا تتبدل بل هي ثابتة. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال].

ويقول تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]. يقول الشيخ متولي الشعراوي – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآيات: (إذًا، فذرية آدم بدأت أولًا بتغيير نعمة الإيمان إلى الكفر، ومن شكر النعمة إلى جحودها، فجزاهم الله تعالى بالطوفان وبالصواعق وبالهلاك؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم، ولو أنهم عادوا إلى شكر

الله وعبادته؛ لأعاد لهم الله نعَم الأمن والاستقرار والحياة الطيبة. ويلفتنا المولى سبحانه وتعالى إلى أن اتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها، فيقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف].

إن الإنسان الذي هو سيد هذه الأرض وخليفة الله في الكون، يتحرك في إطار السنن الكونية العظمى، ويتحمل نتائج أعماله، إن حسنًا وإن قبحًا، وإن طاعةً وإن تمردًا، فهو المسؤول عن المصائب التي تحدث في هذا الكون من أصغرها إلى أكبرها، ابتداءً بالمظالم الصغيرة التي تحدث بين البشر، ومرورًا بالمصائب التي حدثت وتحدث جراء التلاعب بالمقدرات العلمية المتاحة للإنسان، كتغيير جينات الكائنات الحية، وانتهاءً بثقب الأوزون والمخاطر البيئية الكبرى المترتبة على ذلك. فهو بقوة تفكيره وتفوقه على بقية الأجناس الأخرى التي تعيش معه يجد الفرصة لإخضاعها وهيمنتها وتوظيفها لخدمته هو، لأنه مخير يستطيع التصرف بطوع إرادته منقادًا في هذا الأمر لهواه ولإرضاء أنانيته وشهوته، أو للحق وعدالته لإرضاء خالقه وخدمة المصالح العامة والتي تتضمن مصالحه الخاصة.

إن المعاني اللغوية والشرعية للتطوع والتي سبق شرحها في المحور الأول كانت تشير إلى جملة من المعاني اللغوية: منها الليونة والانقياد والطواعية والتوسع والتشجيع والتسهيل والخضوع، والمعنى الشرعي ليس بعيدًا عن المعاني اللغوية، كيف يبتعد عن ذلك وهي الأصل المعتمد في المصطلحات الشرعية، والتعريف الأسهل والأقرب إلى رأي الجمهور هكذا أتي في كتب الفقه والأصول: (ما يأتي به الإنسان من الطاعة غير المفروضة عليه، أو هو ما تبرع به من ذات نفسه، مما لم يلزمه فرضه)، ويعني هذا الأمر أن أي عمل تطوعي منشؤه وبدايته وباعثه الأول هو رغبة داخلية تجعل الإنسان يتحرك ليعمل ما يريده هو باختياره لا بأي ضغوط خارجة عن إرادته تجبره على فعل ما لا يشتهيه، وانطلاقا من المعانى اللغوية فقد انبثقت منها التعريفات الأخرى في الفقه وأصوله وفي تفسير القرآن، ويعني ذالك أن هناك اتفاقًا على تعريف التطوع اصطلاحًا لدى عموم العلماء الذين تعرضوا لشرح التطوع في مختلف المصادر.

## المبحث الثالث

## الإيمان بالله اختيار لا إكراه

من الأمور المسلمة أن الإنسان مخلوق متميز، وأن خالقه هو خالق الكون بكل ما فيه من مخلوقات متنوعة لا نعلم عنها وعن الكون إلا قليلًا، يملك قدرات هائلة بفضل الدماغ والقلب والعواطف والنطق والتفكير وخلقته الرائعة وسعيه الدؤوب والمستمر وغيرها، هذه القدرات هي التي تشير إليها الآيات التالية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء]، ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين]، ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة].

وكما سبقت الإشارة إليه فإن الله سبحانه وتعالى اختار هذا الإنسان من بين الخلائق فجعله خليفته في الأرض بدون منافس له فيها، ولقد عظم شأنه منذ البداية وقبل مجيئه إلى ساحاتها الواسعة حين سجدت له الملائكة بأمر الله سبحانه بعد الحوار بين الله وبين الملائكة بشأنه، إذ يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة]. حدث ذلك بعد أن أخبر الله ملائكته المكرمة بحدوث تطورات جد هامة تتعلق بمستقبل الأرض وقيادتها الجديدة مما أوجد استغرابًا وتساؤلًا من قبل الملائكة، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

حتى تستقيم الحياة ويعم فيها الخير ويصبح بنو آدم على هدى وعلى بينة من أمرهم جعل نسله من نبي الله آدم عليه السلام وحواء، وبين فترة وأخرى تتجدد الرسالة الربانية عبر

أنبياء الله ورسله عليهم السلام، يبعثهم الله سبحانه إلى مناطق معينة، وإلى أقوام محددين بعينهم تمشيًا مع الضعف الذي يعتريه في مسيرة حياته من نسيان، وطول المدة التي تفصل بين نبي وآخر، أو مع اغتراره بقدراته وإمكاناته المادية، أوطغيانه وتجبره، وفي هذا يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل].

ومنهم من أرسل إلى جميع البشر مثل بعث محمد بن عبد الله ﷺ رسولًا إلى العالمين، وإلى كافة بني البشر، لأنه خاتم الأنبياء والرسل عليهم السلام، ولا نبي بعده، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنبياء]. وتأكيدًا لهذا المعنى يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ]، ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر].

فلقد ذكر لنا رسول الله ﷺ من بين ما خص الله به عن سائر الأنبياء ما رواه البخاري: (وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة)، ومما رواه البخاري ومسلم: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة)، ووردت بعض روايات الحديث: (كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس أجمعين]، وأوردت إحدى الروايات هذه الصيغة: (كان النّبيّ يبعث إلى قومه ولا يعدوها وبعثت إلى النّاس ] حتى لا يتوهم أحد أن لهم امتدادات أخرى خارج أقوامهم كما يفعل بعض أتباع الرسل في الوقت الحاضر. انظروا إلى الألفاظ: عامة، وكافة، وأجمعين، وكل، دلالاتها متقاربة وتكاد تكون بمعنى واحد، فقد ورد ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، قال الله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف]، وهذه الآية بدأت بنداء قوي إلى الناس كل الناس ليبلغ بأنه رسول الله إلى الناس كلهم أجمعين.

لقد توالى ابتعاث الأنبياء والرسل لتجديد الإيمان في الأمم المختلفة، فكلما ابتعدوا عن الصراط المستقيم وحدثت فيهم الفواحش والمنكرات وعبادة الأوثان والأصنام يبعث الرسل من جديد ليستقيموا على الجادة وليعودوا إلى حظيرة الإيمان، هكذا توالت حلقات النور بلا انقطاع، واستمرت دعائم الهداية البشرية بلا توقف بشارة ونذارة عبر القرون والأحقاب المتتالية، وهذا من تكريم الله للإنسان.

### مسلمات في الحياة الإنسانية:

**أولًا: البشر ليسوا على منوال واحد في تصرفاتهم:** فمن سنن الله في الحياة ألا يكون البشر على منوال واحد ووتيرة واحدة، لأنه ليس من طبيعة هذا الإنسان أن يسلك الجميع مسلكًا واحدًا من الهداية والضلالة، من الاستقامة والاعوجاج، مصداقًا لهذا يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾ [هود].

يريد الله للبشر الهداية والخير والتمسك بحبل الله المتين، ولا يريد لهم الشر والضلالة والدخول في أوحال الرذائل وعبادة الهوى واتباع خطوات الشيطان، يريد لنا الرحمة والسعادة كما يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]، ولكن خلقتنا وطبيعتنا لديها قابلية للشر والخير بأوسع معانيهما كما تشير الآية: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾ [البلد].

**ثانيًا: تنوع في مستوى الاستجابة:** إن جميع بني آدم لا يستجيبون لنداء الحق المحمول من رسل الله تعالى، بل كما يشهد التاريخ والواقع وتسانده النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة فإنهم متفرقون لا يجمعهم فكر موحد ولا تسوقهم رغباتهم إلى غاية واحدة، فمنهم من يختار طريق الهداية والرشد، ومنهم من يتبع هواه ﴿ ...بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ... (٥٠) ﴾ [القصص] فيضلّ عن الجادة المستقيمة: ﴿ ... فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ... (٢٥٣) ﴾ [البقرة].

**ثالثًا: الإنسان مخلوق مخير:** من مشيئة الله وقدرته ولحكمة يعلمها فإن الله جل جلاله خلق هذا الإنسان من التراب ومن ماء مهين ومن علقة ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة، خلق

من هذا ويمر بمراحل ضعف لا حدود لها، ومع هذا فإنه مكرّم ومعزز ومخير يختار ما يشاء غير مكره فيما يفعله طوال حياته المعقدة ومراحلها المتنوعة، وهذه الميزة الخطيرة تدل على عظمته عند الله، وبها يختلف عن بقية الحيوانات التي يشترك معها في الاحتياجات البيلوجية، وبفضل الله تعالى يتمتع بقدر غير يسير من الحرية والاستقلالية والقدرات العقلية والإبداعات الفكرية، وهذه الصفات الجليلة هي التي تمكنه من دور القيادة في هذه الحياة، وتعطيه الإمكانات الهائلة لمواجهة التحديات الكبرى والمخاطر المتجددة، إنه مخلوق مخير وصاحب إرادة حرة، ويقوم ما يقوم به طواعية بدون إجبار أو إكراه في تصرفات حياته، يلتزم بما يريده، ويرفض التزام بما لا يريده.

**رابعا: الإنسان يتحمل كامل المسؤولية في تصرفاته:** انطلاقا من هذه الحرية الممنوحة له فإنه يضع المسؤولية الكاملة على عاتقه في جميع تصرفاته أمام خالقه سبحانه يوم الحساب والجزاء، الإيمان أو عدمه، قرار يتخذه الشخص بنفسه مدركًا أن وراء هذا القرار تبعات يتحمل نتائجها تبعًا للعقد الملزم بحماية الواجبات والحقوق حسب ما تقتضيه بنود الاتفاقية التي تنص ما على الإنسان فيما اتخذه من القرارات، سواء دخل في الإسلام أو بقي خارجه.

## المبحث الرابع

## هل الإيمان بالله داخل في محيط التطوع؟

بما أن الإنسان مخيّر في أفعاله وليس مسيّرًا كما هو رأي جمهور العلماء فإن الإيمان بالله داخل في الحرية وفي دوائر التطوع بدون أدنى شك، لأن الله تعالى قد أعطى كافة بني البشر حرية عامة في حياتهم، فهو الذي يفكر في تحديد مستقبله، وهو يسعى لبناء معيشته وتغيير أطر العمل ووسائله، وكيف يتعامل مع المجتمع أفرادًا وجماعات، هذه الحرية تنعكس على شعب الحياة وأقسامها بصورة شاملة.

من هنا نجد توفر الحرية في مسألة هي أقدس المقدسات في ديننا الإسلامي وهو الإيمان بالله تعالى، فالإنسان هو صاحب القرار في اعتناقه الإسلام وفي دخول ساحاته الواسعة، أو عدم دخوله فيها، فهو الذي يقرر مسألة الإيمان أو عدمها غير مكره بل تطوعًا من عند نفسه، فالله يقول جل ثناؤه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ﴾ [البقرة].

قال فخر الرازي في تفسير الآية السابقة: (معناه أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكن والاختيار، ثم احتج القفال على أن هذا هو المراد بأنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر، قال بعد ذلك: إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان، ونظير هذا قول الله جل ثناؤه: ﴿ ... فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ... ٢٩ ﴾ [الكهف].

وقال جل ثناؤه: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ ﴾ [يونس] [(١)]، ويقول الشيخ علوان في الآية (لا إِكْراهَ أي لا

(١) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء السابع، مصدر سابق، ص: ١٥.

جبر ولا تهديد ولا اضطرار ولا إلجاء فِي الدِّينِ والانقياد بدين الإسلام والإطاعة له بعد ما ظهر الحق إذ قَدْ تَبَيَّنَ وتميز الرُّشْدُ والهداية مِنَ الْغَيِّ والضلالة)(١).

من خلال النصوص القرآنية وتعامل الرسول ﷺ مع مختلف أصحاب الأديان في الجزيرة العربية وفهم العلماء لمعاني النصوص حول الموضوع تبين أن الإيمان بالله وبالرسل لا يعتمد على القسر والإجبار واستخدام العنف، بل هو يأتي طواعيةً ورغبةً واختيارًا، وهذ ينسجم مع مقام الإنسان ودوره الحيوي في هذه الحياة، لأن الإكره يتنافى ومقامات الحرية الأساسية لسعادتنا، وممارسة القهر ومصادرة حرية الرأي تتنافى مع القيم العليا المشعة بأضوائها في كل ركن من أركان حياتنا، وتفتح أبواب الاسترقاق والاستعباد، فلينفذ الإنسان ما هو مقتنع به ويعشقه قلبه بدل أن يصبح مقهورًا ثم ينافق لغيره بعد ذلك للذين أذلوه مدى الحياة، يقول الله جل ثناؤه لنبيه الكريم: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس].

قال المراغي في تفسيره: (هذه الآيات الثلاث تكملة لما قبلها، وبيان لسنن الله تعالى فى الأمم مع رسلهم، وفى خلق البشر مستعدين للإيمان والكفر والخير والشر، وفى تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله وأفعال عباده ووقوعها وفقها)(٢)، أي إِنَّ هَذَا لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ، وَلَا مِنْ وَظَائِفِ الرِّسَالَةِ الَّتِي بُعِثْتَ بِهَا أَنْتَ وَسَائِرُ الرُّسُلِ؛ ﴿...إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ ...﴿٤٨﴾﴾ [الشورى]،﴿ ...وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ ...﴿٤٥﴾﴾ [ق]، وَهَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي أَنَّ الدِّينَ لَا يَكُونُ بِالْإِكْرَاهِ أي لَا يُمْكِنُ لِلْبَشَرِ وَلَا يُسْتَطَاعُ، ثُمَّ نَزَلَ عِنْدَ التَّنْفِيذِ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ...﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة] أي لَا يَجُوزُ وَلَا يَصِحُّ بِهِ، وَذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِنَا سَبَبَ نُزُولِهَا، وَهُوَ عَزْمُ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْعِ أَوْلَادٍ لَهُمْ كَانُوا تَهَوَّدُوا مِنَ

(١) نعمة الله الشيخ العلوان، الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للحكم القرآنية والحكم الفرقانية، الجزء الأول، دار الركابي للنشر، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص: ٧٨.

(٢) أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، الجزء: ١١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥ هـ- ١٩٤٦م، ص: ١٥٦.

الْجَلَاءِ مَعَ بَنِي النَّضِيرِ مِنَ الْحِجَازِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ يُخَيِّرُوهُمْ وَأَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ إِيمَانَ الْمُكْرَهِ بَاطِلٌ لَا يَصِحُّ[1].

وضحت الصورة وبان لنا الأمر أن الإيمان عملية تطوعية اختيارية تنبع قناعته من أعماق النفوس قبولا أو رفضا، ولكننا نواجه إشكالية أخرى مرتبطة بهذه القضية الحساسة، ألا وهي: كيف نوفق بين إيمان ينتج عن رغبة تطوعية اختيارية من غير إكراه، وبين الواجبات والفروض الدينية والتي تحتم الشريعة علينا فروضًا عينية تجب على كل مسلم مكلف غير معذور، كما توجب علينا فروضًا كفائية على كل المسلمين المكلفين غير المعذورين حسب التعريفات الفقهية، وتلك واجبات لابد من القيام بها وتطبيق أحكامها والقيام بها؟

إن أصل الإيمان بالله وبالرسل مبني على اختيار الشخص من غير إكراه كما مر بنا، فدخول المرء في الإسلام بإراته الحرة هو بيعة وعقد يلتزم بموجبها بكثير من الحقوق والواجبات المترتبة على ذلك كغيره من العقود المبرمة بين طرفين أو أكثر، فقبل أن يدخل الإنسان في شراكة مع الآخرين في قضية من قضايا الحياة السياسية والتجارية والاجتماعية مثل عقود النكاح أو البيع أو أي اتفاقية أخرى مع طرف ما، ربما تكون القضية بين الدول أو بين الشركات أو بين شخصين أو بين مجموعة ومجموعة أخرى، فهذا الكائن (الطرف) في خلو من أي التزامات، لأن ذمته خالية من أي شيء يثقل كاهله ويجبره على تصرفات محددة، لأنه يعيش برائته الأصلية.

أما إذا وقّع الإنسان بكامل عقله وإرادته ورغبته الاتفاقية مع أطراف بعينها، فإن تلك الأطراف الداخلة في هذه الاتفاقيات أوالعقود والمواثيق تخضع لقوانين تحدد بنودها لكل طرف من الأطراف ما يكون له من حقوق وواجبات واضحات حسب بنود الاتفاقيات أو العقود المبرمة والمواثيق كما توضح ما يكون على الطرف الآخر من الحقوق والواجبات حسب بنود الاتفاقيات، والعقود، ويوقّع كل طرف على الوثائق الموجبة للحقوق والواجبات والفترات الزمنية التي تستغرقها إن كان ذكرها لازمًا، ويعني ذلك أن ما يتم في هذا الإطار يحدث بمعرفة كاملة من جميع الأطراف المشتركة في الاتفاقيات والعقود والمواثيق، وعلى ضوئها يتم التوقيع عليها.

---

(١) محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الجزء ١١، مصدر سابق، ص: ٣٩٥.

إن العقد أو بيعة الإيمان المؤدية إلى الدخول في الإسلام تختلف عن أي بيعة أو أي عقود أخرى وكافة الاتفاقيات بين بني البشر، طبعا "ولله المثل الأعلى". فعندما يدخل الإنسان البيعة الكبرى مع الله ويدخل في الإسلام طواعية، وبحرية لا نقص فيها، وهو يدرك تمام الإدراك معنى هذه البيعة، وماذا يعني دخوله في هذا الدين الحنيف؟ فإنه يقدم على أمر جلل، فبموجب هذه البيعة التي تنص على وحدانية الله رب العالمين أعلن تقيده ببنود البيعة وما تضمنته من شروط وأركان وواجبات في الحياة، فكل تصرفاته بعد البيعة تختلف بصورة جذرية عن تصرفاته قبل البيعة، إنه يولد من جديد.

بهذا الموقف الفريد في نوعه ينسلخ من ماضيه من حيث العقيدة الدينية، ويكفر بكل ما يخالف أصول هذا الدين أيا كان مصدره سواء من الأديان الأخرى أو من التقاليد والأعراف والعادات المجتمعية والمهيمنة على كيانه وأنماط حياته والتي لا تنسجم مع التعليم الجديد والمقاصد العليا التي يحملها الإسلام، وبالتدرج ينتقل إلى منهج جديد في الحياة يحمل رؤية تختلف عما ألفه قبل إسلامه.

إذًا ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ...﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة] تعني عدم إجبار الناس على الدين وإتاحة حرية الاختيار لهم، فإذا دخلوا فيه وقال كل فرد: (أشهد ألّا إله إلّا الله وأشهد أن محمدا رسول الله) وقبل أركان الإسلام فإن المطلوب منه كبقية المسلمين بدون تفريق أن يكونوا عند مقتضى البيعة، ويوفي كل واحد ما يتطلبه ذلك العقد المبرم بينه وبين شرعة الله ومنهاجه، وهذا هو ما يستوجبه العقل والمنطق السليم.

بقية الآية الكريمة تسلط الأضواء على النهج الذي ينبغي أن يسلكه المسلمون بعد إسلامهم وإيمانهم، والاستمساك بالعروة الوثقى هو توجيه مباشر لحث المسلمين على التمسك بالتعاليم الشرعية وهو ما يستلزم بموجبه الإيمان والمطلب الأساسي لمن يؤمن بالله تعالى وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ...قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة].

فالحرية والتطوع في المحيط الإيماني أمر عظيم حقًا، لأن توفير هذه الحرية للإنسان في مجال هو أقدس المقدسات في حياته يمثل مركزية في بقية حياته، ومع القيمة العليا للإيمان وبكونه الضمان الوحيد لسلامة مستقبل بني آدم وسعادتهم في نهاية المطاف يوم ينتقل إلى

الحياة الأخرى مجبرًا، إلا أن عظمة الإسلام والإيمان به تتنافى مع ممارسة الإجبار والقهر للإنسان عند عرض الإسلام عليه، ومن هنا يصبح الإنسان المسلم أمام مسئولية عظيمة تلازم حياته كلها، وهو أن يدرك تمام الإدراك معنى الحرية والاختيار في معتقداته، وأن يوظف طاقاته الضخمة للعمل التطوعي بدون أن ينتظر الأوامر والتوجيهات من الآخرين، لتكتمل إنسانيته وتكون جميع أنشطته في اتجاه واحد، وهذا هو الطريق الوحيد لسعادته، وإسعاد الإنسانية عبر بوابة الحرية التي تقوده إلى الأعمال التطوعية النابعة من سويداء قلبه للمشاركة في بناء نهضة المشاريع الوطنية، وإنقاذ الأمة التي تواجه ما يشبه الأعاصير المدمرة.

# الفصل الرابع

# التطوع في حياة الرسل والأنبياء

المبحث الأول:

رسل الله هم معالم التطوع في الحياة

المبحث الثاني:

مفهوم العمل التطوعي في دعوة الرسل

المبحث الثالث:

مشاهد من رسل الله تجسد العمل التطوعي

المبحث الرابع:

أسباب تحريم أخذ الأجرة من الرسل

# المبحث الأول

## رسل الله هم معالم التطوع في الحياة

لقد أرسل الله الرسل والأنبياء إلى هداية البشر قاطبة ليعتصموا بحبل الله المتين، وهذا هو المنهج الرباني الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله والشهداء والصالحين من عباده ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وليرفعوهم من حضيض الأرض إلى العلياء السامقة والدرجات الرفيعة والمقامات الزكية، من أجل تحقيق المصالح العامة والخاصة للبشر وللكون كله: إنسانا، وجنّا، وحيوانا، ونباتا، وبيئة، وكل ما خلقه الله لمصلحة هذا الإنسان.

كما أرسل الله الأنبياء والرسل إلى البشرية في هذا الكوكب من أجل تجنيبهم من مزالق الجرائم والموبقات، ومن أجل محاربة المفاسد المدمرة ومحاربة المنكرات أو تقليلها بقدر الاستطاعة لخلق أجواء من السعادة والتقدم والأمن الاجتماعي والاقتصادي، فالأنبياء والرسل بعثوا من أجل تحقيق المصالح وجلبها أو تنميتها، ومحاربة المفاسد ودرئها أو تقليلها.

أرسلهم الله سبحانه وتعالى من أجل إنشاء قاعدة ثابتة تحتكم إليها الحياة ومدرسة مستقلة خالدة لم تبدعها العقول البشرية ولا تخضع لنزواتها ورغباتها المتنوعة، بل إن مناهجها وشرائعها وآدابها الفردية والجماعية تستند إلى الوحي الرباني، ويشمل هذا المنهج جوانب الحياة كلها من انتشار العدالة في ربوع العالم ليعم الخير في أرجائها، كما لا تغيب القوة الفاعلة لتحمي الحقوق البشرية من العبث والتخريب، والآيتان التاليتان تجملان الأهداف الأساسية من بعث الرسل والأنبياء إلى البشرية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد]. فمنهم مهتد وما بعدها تعبر عن حقيقة واقع الإنسان(١).

(١) إن الجزئية الأخيرة من الآية الكريمة ٢٦ في سورة الحديد تعبر عن أمر يختص به الإنسان من بين سائر الخلائق في الكون الفسيح مع أن الإنسان ذرة صغيرة من عالم المجرات الهائلة والتي مجموعتنا=

كما أن الأحاديث النبوية الشريفة وحِكَمها الكبيرة وتوجيهاتها هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، يأتي إجماع الأمة والقياس بعد ذلك، ويتواصل اجتهاد العلماء الذي ينطلق من القرآن والسنة أساسًا ويستنير بعمل الصحابة وفهم التابعين والأئمة من علماء هذه الأمة الذين يجددون هذا الدين جيلا بعد جيلا.

إن المصادر الأصلية والفرعية كليهما هي عوامل متساندة لفهم الإسلام بصورة شاملة، القرآن يفسر بعضه بعضًا والأحاديث تفسر القرآن كما يفسر بعضها البعض الآخر، ويأتي دور العلماء واجتهاداتهم لتوضيح الأمور وتفسير غوامض القرآن الكريم من حيث اللغة والمعاني، كما تبين النص والظاهر، العام والخاص، والمطلق ومقيده، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وغير ذلك مما يتعلق بكتاب الله، كما تتكفل توفير الاجتهادات الفقهية والفتاوى الضرورية لما يستجد من الأقضية في كل زمان ومكان معتمدين على المصادر الأصلية بجانب استعانتهم بالمصادر الفرعية.

إن الأنبياء والرسل جاءوا للتغيير الجوهري في النفس البشرية ابتداءً من المعتقدات والأفكار والأساليب وطريقة الحياة، ومرورًا بالعادات والتقاليد، وانتهاء بالنظرة الكلية إلى مجمل الحياة، حياة الكون، ومنشئها وخالقها المدبر لشؤونها. إذًا مجيء الرسل هو للتغيير الشامل وليس للتغيير الجزئي، إنه يمس كافة جوانب الحياة وفق ما جاءت به النصوص القاطعة، ودلائل الشريعة الغراء وتعاليمها في الدين الإسلامي، مثل قول الله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام].

والتغيير المشار إليه يبدأ في الخطوة الأولى في مشروعه في الفكر والقناعة بأركان هذا الدين وأعمدته الثابتة التي يقوم عليها دومًا، فإذا تغيرت الأفكار حيال المعتقدات فإن ما

=الشمسية جزء صغير منها، إلا أنه المخلوق الوحيد – حسب علمنا القليل– الذي لديه قدرة مؤقتة للتمرد على التعليمات الإلهية في الطاعة والإيمان، وتلك قدرة خلقها الله فيه مع أنه لا يستطيع الخروج من ملكوت الله ولكنه يعصي الله ويصطدم مع القوانين العامة، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة في سورة الحج يقول الله جل ثناؤه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج].

سواها هين، بل هو تلقائي وسريع الانجذاب نحو قطبه الأساسي وهو توحيد الله جل جلاله، فبحدوث هذا أصبح الأمر محسوما، فلن يكون التردد أو الإيمان الجزئي مقبولًا بعد أن اختار المرء طريق الحياة والممات معًا باعتناقه الإسلام، كما تشير إليه الآية الكريمة، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ [البقرة]، فالإنسان بعد الإيمان الاختياري التطوعي يستطيع إحداث التغيرات الضرورية الكبرى في مسيرة الحياة المجتمعية.

ولقد بذل الأنبياء والرسل جهودا ضخمة متواصلة لنقل الحقائق إلى أقوامهم كما هي، مستخدمين - لتوكيد إيصالها إلى المستهدفين - كافة قدراتهم الإبداعية، لأن هذه هي الرسالة ومنطلقاتها القوية وأسسها المتينة، من أجل تقويم الحياة ولتدور عجلة حياتنا كلها مع مسيرة الكون الهائل والتي نحن مسمار صغير جدًا، وجزء يسير منه، وهم مفوضون لإحداث التغيرات الإيجابية والمؤثرة حسبما جاءت بها الأوامر والنواهي والتوجيهات العامة والخاصة والإرشادات الهادفة واللطائف الجميلة.

وكون هذا الإنسان خليفة الله في الأرض فهو المسئول عن القيادة والإدارة لهذه الأرض، فعندما تقتنع مجموعات من بني البشر بما جاءت به الرسل وتؤمن بهذا المنهج الخالد وبنوا حياتهم على ضوء ما تقتضيها الأحكام والقيم الأخلاقية والتصورات العامة عن الكون كله، فإنهم قادرون بتوفيق الله تعالى أن يحدثوا التحولات المهمة في المجتمع البشري، لأن المنهج الرباني يوجهنا إلى التفكير العملي من خلال تعمق الفهم والاستنباط لمعاني القرآن الكريم، لتقوية عوامل النهضة والتقدم وترقية الحياة، وتنمية مقومات الحضارة الإنسانية، يقول الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ ﴾ [محمد]. والإيمان يكشف فوائد التدبر والتعلم ويرشدنا إلى أفضل السبل وأحسنها، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ﴾ [إبراهيم].

في التاريخ محطات مهمة ومفاصل تؤرخ لأحداثها، ووراء كل حدث جاذب للانتباه عادة فرد من الأفراد، وقلما تكون مجموعة من البشر وراء فكرة واحدة، فالتطورات المهولة

في خطورتها من حيث ضخامة التحولات التي خلقتها وأوجدتها في واقع معين لم تحدث بصورة عفوية كما هو المعروف في الحقب المختلفة، فالبشر هم الذين يصنعون التاريخ بدرجات متفاوتة لا التاريخ يصنع البشر، فهم وراء الأمجاد والمفاخر والانتصارات الخالدة، وهم وراء المخازي والمآسي البشرية والهزائم الشنيعة للمجتمعات، الإنسان صاحب الإمكانات الهائلة في النهضة والتخريب، وفي التعقل والتآمر.

فمن أرحام الأمهات وأصلاب الرجال خرج الأنبياء والرسل كنوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وموسى وعيسى ومحمد عليهم صلوات الله وتسليمه وغيرهم، كما نجد الحواريين من أنصار عيسى عليهم السلام، وأصحاب رسول الله ﷺ، كما نجد نماذج من أكارم البشر من النساء والرجال اختاروا معالي الأمور رغم المخاطر والمثبطات التي كانت تحيط على حياتهم، فهذه امرأة فرعون وتلك ملكة سبأ، وهناك مريم العذراء هن مشاعل كالنجوم يهتدي بمواقفهن الحيارى من بني البشر، كما خرج من أرحام الأمهات وأصلاب الرجال أمثال فرعون وهامان وقارون ونمرود وأمثالهم في كل عصر، وهنا من بني آدم من وصفهم الله بالشياطين، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ...شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ... ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام].

فأيا كانت نماذجهم وأصنافهم فإن العظماء في التاريخ هم رموز للمجتمعات البشرية، فهم يقدمون إلى الأجيال ما يعجز عنه الناس العاديون في فترة حياتهم بسبب تفوقهم في الإنجازات المشهودة لهم، فالذين يضحون من أجل المجتمع البشري بصنعة من الصناعات أو بكشف علم من العلوم، أو يسعون سعيًا حثيثًا لإنقاذ المجتمعات من المخاطر والمنكرات والمهددات أيا كان نوعها، أو يبذلون قصارى جهدهم لإسعاد الآخرين وإزالة الأحزان والكربات عن إخوانهم في الدين والبشرية، هم أولئك الذين يستحقون بجدارة لقب العظماء في تاريخ شعوبهم، وبعض هؤلاء يصبحون تاريخيًا عالميين لقوة اشتهارهم، الأمر الذي أوصل أسماءهم إلى المناطق والشعوب المختلفة، لتظل دائمة الحضور في الساحة الدولية، وهم بهذا يتجاوزون الحواجز الاجتماعية والدينية والقومية والحدود.

عندما نتتبع المشاهير في التاريخ البشري فسنجد أن العظماء غير الأنبياء ترتبط شهرتهم بموضوع بعينه، أو زاوية من زوايا الحياة، أو من اشتهر في منطقة محددة لخدماتهم المتميزة،

فهم يستحقون منا كل التقدير والتبجيل بسبب ما قاموا به من خدمة لغيرهم أيا كان وزنها، وهذه صورة إجمالية تشمل في بعض جوانبها العظماء في المجتمعات من الأنبياء والرسل وغيرهم ممن تقلدوا وسام الشرف في مجتمعاتهم بغض النظر عن الفوارق بينهم والفواصل التاريخية.

ففي الجزئية التالية نتكلم عن موضوع الأنبياء عليهم السلام الذين بعثهم الله لحمل دين الله إلى الناس في العصور المختلفة وفي مختلف المناطق والأقوام المتنوعة، ودورهم في القيادة البشرية من خلال نقل رسالة رب العالمين إلى البشر عبر بوابة العمل التطوعي الذي ليس له في المقابل جوائز مالية تدفع إليهم، أو أي عوض آخر ينتظرونه من البشر أيا كان نوعها بسبب تلك الجهود الجبارة التي يستميتون من أجلها.

# المبحث الثاني

# مفهوم العمل التطوعي في دعوة الرسل

وبما أن الأنبياء والرسل عليهم السلام هم الذروة السامية، وهم السادة في القافلة البشرية بإرادة الله سبحانه، وقد شرّفهم وعظّم قدرهم ورفع مقامهم فوق جميع بني البشر، إنه اصطفاء واختيار فئة من سائر بني البشر لحكمة يعلمها هو، وفي هذا يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ٧٦ ﴾ [الحج]. أجمل الله في هذا وأدخل كل الأنبياء والرسل في صفة الاصطفاء، كما نجد اصطفاء الله للأنبياء جميعا في موضع آخر من القرآن، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ ﴾ [آل عمران]. ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٢٦ ﴾ [الحديد]. فكل الأنبياء والرسل داخلون في هذا الاصطفاء بصورة عامة لأنهم من ذرية هؤلاء النبوة وفي مقدمة المصطفين الأخيار. ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٩ ﴾ [النمل] وكما سبق فإن الآية التالية تذكر اصطفاء بعض الأنبياء، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ٤٧ ﴾ [ص].

وعلى هذا الأساس فإن ما يقومون به ليس أمرًا عاديًا يخص مصالحهم ومنافعهم الدنيوية، أو يخضع لرغباتهم ولا يقودهم حب الأمجاد والظهور، أو أي أمر آخر يتعلق بالأهواء البشرية وشهواتهم المسعورة، بل إن كل ما يقومون به هو تنفيذ لأمر الله جل جلاله واتباع المنهج الذي يريد الله أن يسود بين الخلائق لإخراج الناس من الجاهلية العمياء والسير في ركاب الظالمين، من خلال معرفة الواجبات والتمسك بمنهج الله الصافي من أنواع المكدرات.

وهم جاءوا لتعريف وتوضيح كافة الحدود الشرعية بين العباد، ومن يعيش وما يعيش في كوكبنا، وتنظيم شؤون حياتهم، جاءوا لتعليم بني الإنسان ليعرقوا العلاقة بينهم بين الله، ليقف الجميع عند تلكم الحدود الفاصلة بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل، وبين العدالة والظلم، وبين الاستقامة والانحراف، وبين السعادة والشقاء، لينتشر الخير والرخاء في الحياة الدنيا وتعم السعادة الدائمة في الآخرة، وتقل بذور الشر أو تنعدم، وهذا هو الذي يحدد مصير الإنس والجن، فإما إلى جنة يخلدون في نعيمها، وفيها كل الخير كما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف]. وإما إلى جهنم وبئس المصير كما تشير إليه هذه الآية الكريمة: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس].

إن هذا المقام مقام نقل الرسالة الربانية إلى الإنس والجن سعيًا لتحقيق الهداية والاستقامة في الأرض للوصول إلى بر السلام وتأمين مستقبلهم في الدنيا والآخرة هو مهمة الأنبياء والرسل، وهي مقدسة قدسية من بعثهم وأودع في نفوسهم هذه القابلية والقدرة على تحمل هذه الأعباء الجسام. هذه المسئولية التي أشفقت منها السماوات والأرض تختلف عن بقية المهام في الحياة البشرية، ومن هنا نجد أن هذه الصفوة من الخلق المكلفين بحمل هذه الأمانة الثقيلة يتصفون حتمًا بصفات تختلف عن بقية البشر بطبيعة الحال، لست هنا بالحديث عن صفات الأنبياء والرسل، وهذا الأمر جد مرهق، ويتطلب مجلدات وجهودًا ليس هذا مكانها، والذي يهمنا في هذه المقام هو العلاقة بين ما يقوم به الأنبياء والرسل وبين الأعمال التطوعية - وهي رسالتهم إلى البشر بطبيعة الحال- الذي هو موضوع بحثنا لكي نقف على مفهوم التطوع في الإسلام، وربما هذا يساعدنا على حقيقة التطوع وموقعه من الأحكام الإسلامية المختلفة بصورة تختلف نوعًا ما عما ألفناه في التعريفات الفقهية.

فالأنبياء مؤهلون لهذ العمل التطوعي، اصطفاهم الله بعلمه وهو يعلم سرائر الأمور وخفايا النفوس، إنهم منزهون عن كل نقيصة وضعف، ويتصفون بجميع الخصال التي

يحتاج إليها البشر في حياتهم، فهم يمثلون القمة، ومعصومون من كل صفة تتنافى مع مقامهم العالي، لأنهم أمناء الوحي وحاملو رسالة رب العالمين، بالإضافة إلى ذلك فإنهم من البشر ويبعثون في بيئات تعرف أنسابهم وذواتهم وحقيقة حياتهم وسلوكياتهم في المجتمعات، وطبيعة أنشطتهم المختلفة، فأي عيب بل أي خدش في سمعتهم تضر دعوتهم وتصد الناس عن قبول ما يدعون إليه، ولذلك لم يكونوا يطلبون أبدا أي مساعدة مادية من الآخرين في حياتهم الخاصة بجانب عظمة أخلاقهم وبقية صفات الكمال والرقي .

معنى ذلك أن الأنبياء كان لديهم الاكتفاء الذاتي، متزودين بكنز القناعة والرضى بما قسم الله لهم من أرزاق، معتمدين ومتوكلين على الله سبحانه، فلم يكونوا يطلبون من أقوامهم أية مساعدة مادية مع أنهم كانوا متفرغين لأداء هذه المهمة الثقيلة، وحتما كان عليهم ما يكفي أن يشغلهم عن أعمالهم الخاصة ويحول بينهم وبين كسبهم الشخصي ومواصلة حرفهم التي كانوا يمارسونها قبل البعثة كما تؤكد ذلك الأحاديث النبوية الشريفة حيث يقول رسول الله ﷺ: (وما من نبي إلا رعى الغنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[1]، وفي رواية قال ﵇: (إن داود ﵇ كان يأكل من كسب يده) [2].

وقصة كليم الله موسى ﵇ معروفة مشهورة، وهي تعبر بوضوح عن الشرف المروم المتمثل برعاية الأسرة الكريمة والعناية بأموالها، والذي استغرق ثمانية أعوام على الأقل كما تخبرنا الآية الآتية عن الحوار الهادف بين الرجلين شعيب وموسى: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص]، ومن المعلوم أن هذا الخير كانت بدايته من خلال العمل التطوعي الذي بادر به موسى ﵇ بكلمة (ما خطبكما)؟ وعندما انكشفت له حالة بنتي شعيب وعجزهما عن سقي الغنم، وأنه ليس

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة.

معنى (القراريط) في المعاجم اللغوية هو جمع قيراط وهو معيار في الوزن، وفي القياس هو نصف الدانق أو سدس الدرهم، والقيراط جزء من أربعة وعشرين من أجزاء الشيء.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع.

أمامهما إلا الانتظار حتى يخلو لهما الجو أبت نفسه إلا أن يتحرك بسرعة مذهلة وتولى عملية السقاية، وعن قصته النبيلة يروي القرآن، يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص].

كان مطاردًا من قبل الجبابرة ومسافرًا وغريبًا في المنطقة ومع ذلك قام بما لم يفكر به أحد ممن كانوا في المنطقة، ولربما بعضهم يعرف شعيب وبناته، ولكن موسى تطوع وتبرع من تلقاء نفسه بدون أي داع آخر غير تأدية العمل الإنساني الذي تفرض عليه فطرته السوية ونفسه الأبية، وتلك طبيعة الأنبياء قبل البعثة وبعدها، إنها تهيئة أعدت في أنفسهم من خالقهم كما أنها صفة النبلاء من بني البشر الذين يملكون القدرة الأخلاقية ويستريحون أثناء خدمة الآخرين.

انظروا كيف أن الله استجاب دعوته بعد أن أدى واجبه: ﴿...ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص] فسرعان ما جاءت الدعوة إليه بعد أن كسب ثقة شعيب وبناته بما قام به وبقوته وجلده وأخلاقه وحيائه ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص]، وبعدها تطورت القضية حتى بلغ الأمر إلى معاهدة ومصاهرة بين موسى وبين آل شعيب حتى بعث الله موسى رسولًا في نهاية المطاف.

إننا نوقن جميعًا أن الأنبياء من البشر، وأنهم مثل أصناف البشر في احتياجاتهم الضرورية، ولكنهم لم يكونوا مأسورين بهموم أنفسهم، ولم يكونوا موظفين يتقاضون الرواتب والأجور والعلاوات من أثرياء مجتمعاتهم ومؤسساته، كما جرت العادة في مسيرة الحياة مقابل الخدمات التي يؤديه الشخص العامل لصالح الآخرين ولتحقيق مصالح المجتمعات، أما الأنبياء فإنهم يسهرون لخدمة أمتهم، ولديهم الجاهزية الكاملة للمواظبة بدون كلل، ويواصلون ليلهم بنهارهم وهم راضون، والشعار المشترك بينهم في مختلف

الحقب الزمنية هو القول: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ وهمهم التأكد من إبلاغ الرسالة إلى المبلغين، كما قال رسول الله ﷺ: (اللهم هل بلغت اللهم فاشهد). إنهم موظفون ولكن عند من لديه مفاتيح الأرزاق كلها، فليسوا بحاجة إلى غيره.

وانطلاقا من القيم العليا للعمل التطوعي لدى الأنبياء والرسل المبني على الاستغناء عما في أيدي الناس من الإمكانات المادية فإن القرآن الكريم يتحدث عن هذا الموضوع باستفاضة وعمق كبيرين، وهو يستعمل ويورد هذه الجملة أو ما في معناها: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ بلسان الأنبياء في تأكيد هذا المعنى باختلاف مواقعها من حيث الإعراب والصيغ الواردة معها في القرآن الكريم، كما يستعمل كلمة "المال" للتدليل على عدم أخذ أي عرض من أعراض الدنيا مقابل الجهد الكبير الذي يقومون به لإبلاغ هذه الرسالة إلى الناس منذ بدء الدعوة، ذكره الأنبياء والرسل بصورة جازمة حتى لا تخطر في البال الوساوس النفسية.

ويهدف تكرارها من البداية إلى النهاية بهدف استيعابها، ولكي يستقر هذا المعنى الجليل في نفوس كل الأجيال المتعاقبة في مسيرة النبوة، وهو أمر لافت للنظر حقا كيف يستخدم العبارة نفسها كل هذا العدد من رسل الله جل جلاله رغم تباعد الأزمان والأحقاب، ومع تنوع الأقوام والأمم، واختلاف العادات والتقاليد في تلك البيئات!، وهو ما يؤكد وحدة دين الله وأصول شرائعه، وأنه من مشكاة واحدة، وفي هذا يقول الله جل ثناؤه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران].

لقد أوضح الرسول هذا الأمر بجوامع الكلم، وما أروع التمثيل وأبلغ ما أفصح عنه رسول الهدى حين وضع أمام القارئ مجسمًا متكاملًا لمبنى غاية في الجمال والروعة يندهش عنده الرائي ويقف العقلاء من أجناس البشر أمام ساحته الفريدة في نوعها منتظرين بفارغ الصبر وقت استكمال المشروع، ويسألون أنفسهم بكل استغراب ودهشة: متى ينتهي هذا البناء وتكتمل صورته البهية ليكون هو المعلم البارز للحضارة الإنسانية فيما بقي من

عمرها، جاء هذا المعنى في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم قال رسول الله ﷺ: (مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنَة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين).

# المبحث الثالث

# مشاهد من رسل الله تجسد العمل التطوعي

## ركائز الأعمال التطوعية متجسدة في دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام

هناك عدد من الأنبياء وردت على ألستهم عبارات عدم أخذ الأجور من البشر مقابل الجهد الذي يقومون به لإبلاغ أوامر الله ونواهيه، بل جهودهم لله سبحانه، وهو الذي ينتظرون منه الأجر والمثوبة، وأذكر نماذج منهم، لأنهم كما أشرت إليه في الصفحات الماضية هم المعالم في تقوية الفضائل والقيم وتنميتها، وفي تحجيم المفاسد وتقليل شرورها ودفنها، وذكر هذه الأمثلة يبرز لنا ضخامة الجهود وقوة المنطق واستقامة وبساطة المنهج الرباني مقابل فجاجة المشركين وبعدهم عن العقلانية، وشراسة المعركة بين الطرفين، وانتصار الحق الدائم وهزيمة الباطل من الناحية العلمية في نهاية المطاف، ونتتبع آثار الرسل لنحاول الاقتداء بهم في هذه المسيرة الصعبة.

### أولًا: نبي الله نوح عليه السلام

لقد مكث عند قومه طويلًا، فواجه صنوف المتاعب والخصام الظالم في تلك الملحمة التاريخية والتي تربو عشرة قرون متواصلة، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت].

إن ما ورد في سورة نوح يمثل تصويرًا دقيقًا ينقلنا إلى ساحة المعركة بين رسول الله نوح وبين قومه طوال تلك الأحقاب لنشاهد جانبًا مما بذله الرسول من جهد وتضحية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ [نوح]، وبعد أن ذكرهم ببركة الغفران والنعم التي تأتي إليهم من رخاء وقوة في المال والولد، وأخبرهم بقدرة الله على الخلق والإبداع كان جوابهم حاسمًا ومعاندًا للرسول ورسالته، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ

وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح].

**المشهد الأول في قصة رسول الله نوح** ؛ وفي الأجواء المليئة بالتحديات والجهود المضنية من نبي الله نوح كان سيد الموقف بينه وبين قومه، وفي المقابل عناد وفجور في الخصومة وسخرية لاذعة لا تنقطع، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس].

الشيء بالشيء يذكر فإن رفض المشركين وعلى رأسهم قريش رسالة التوحيد وإعلان الحرب ضد محمد الأمين واتهامه بالكذب والكهانة والشعر وغير ذلك يشبه قصة نبي الله نوح مع قومه ومن هنا كانت مناسبة تذكيرهم بقصص الماضين. فلقد عبر نوح عن مشاعره الفياضة المحزنة تجاههم والجهد الكبير الذي بذله من أجل إنقاذهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، ورفضهم المتكرر خلال عشرة قرون متوالية، فأبلغهم بالمصير القاتم الذي ينتظرهم، وأنهم وشركاءهم لا يضرونه في شيء، فافعلوا ما شئتم فإنني على الله متوكل. ولم يكتف بذلك بل أخبرهم بالعلاقة بينه وبينهم وسبب هذه الجهود التي ليست لطلب عوض يثقل عليهم، وإنما هو منهم، ما أقوم به واجب شرعي أؤديه للهداية والتبليغ فقط غير مقترن بأي أجور أتقاضاها منهم خلال هذه المدة الزمنية الطويلة.

[فإن توليتم أيها القوم عني بعد دعائي إياكم، وتبليغ رسالة ربي إليكم، مدبرين، فأعرضتم عمّا دعوتكم إليه من الحقّ، والإقرار بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، وترك إشراك الآلهة في عبادته، فتضييعٌ منكم وتفريطٌ في واجب حق الله عليكم، لا بسبب من قبلي، فإني لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرًا، ولا عوضًا أعتاضه منكم بإجابتكم إياي إلى ما دعوتكم إليه من الحق والهدى، ولا طلبت منكم عليه ثوابًا ولا جزاءً (إن أجري إلا على الله) إن جزائي وأجر عملي وثوابه إلا على ربي، لا عليكم، أيها القوم، ولا على غيركم (وأمرت أن أكون من المسلمين)، وأمرني ربي أن أكون من المذعنين له بالطاعة،

المنقادين لأمره ونهيه، المذللين له، ومن أجل ذلك أدعوكم إليه، وبأمره آمركم بترك عبادة الأوثان][1].

ولقد علق فخر الرازي على الآية السابقة مفسرًا طبيعة المنحرفين المنهمكين بالشهوات والهاربين من سماع الحق المتلذذين بما تعودوه من القبائح فيقول رحمه الله تعالى: (واعلم أن الطباع المشغولة بالدنيا الحريصة على طلب اللذات العاجلة تكون شديدة النفرة عن الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والمنكرات، قوية الكراهة لسماع ذكر الموت وتقبيح صورة الدنيا ومن كان كذلك فإنه يستثقل الإنسان الذي يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر)[2].

**المشهد الثاني في قصة رسول الله نوح عليه السلام:** في قصص رسول الله نوح عليه السلام نجد مشهدًا من مشاهد التجرد للدعوة وعدم أخذ العوض عن الجهود الدعوية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ ﴾ [هود].

وهذه وقفة أخرى مع نوح عليه السلام في موضوع التطوع المتنافى مع أخذ العوض والأجرة في مهمة الأنبياء والرسل، جاءت هذه الآية في خضم صراع مرير مع المشركين، وفي ذروة التحاور بين الطرفين، نبي جاء إليهم ليخرجهم من المستنقع الآسن من عبادة الأوثان إلى عبادة الله لينجو من العذاب المهين، ومن الرذائل الخلقية إلى الأخلاق الفاضلة، ومن المظالم الاجتماعية وعدم إقرار حقوق الآخرين إلى الإنصاف وقبول المساواة بين بني البشر، وهناك طرف لا يقبل عبادة الخالق وكافة القيم والمثل العليا، فجاءت الآية في وسط هذا الوضع ليضع أمامهم حقائق مذهلة خاضعة للمنطق والعقل السليم، وهم يعلمون أنه صادق فيما يقول لهم لأنه فعلا لم يأخذ منهم مالا أو أية أجور مقابل ما يعمل لهدايتهم وترك عبادة الأصنام.

فلم يكتف هؤلاء المتكبرون المترفون برفض الدعوة بل شنوا حربًا لا هوادة فيها ضد الفئة المؤمنة المساندة للرسول وما يدعو إليه، فهم لم يؤمنوا به ولا يريدون أحدًا من قومه

---

(١) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء الثاني، حققه: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠م، ص:١٥٢.

(٢) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء ١٧، مصدر سابق، ص:٢٨٣.

أن يتبع هذه الدعوة، ويطلبون منه عليه السلام أن يطردهم من مجالسه ولا يقبلون دعوة الخير ما دامت لا تقرلهم بالطبقية والتفرقة العنصرية وأنهم هم السادة ومن سواهم عبيد وأتباع، إنه منطق معوج غير لائق وهو التدخل فيما لا يعنيهم لأن تلك التصرفات من طبيعة المستكبرين المتعودين على مصادرة حريات الآخرين في الحياة البشرية وهم يعيشون في عالم مليء من الغرور والدجل وتحكمهم الأوهام.

حكاية عن ضلال هؤلاء يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود]. فهم غاضبون لحدوث ذلك، ويتمنون طردهم وإبعادهم عن مجلس نوح مع أنهم ليسوا ممن يرتادون مجالس الرسول عليه السلام. فأي جريمة ارتكبوها؟ هذا هو منطق المتكبرين "الملأ" في التعبير القرآني، ومع أن حجج نوح وبراهينه قوية وناصعة إلا أنهم لا يؤمنون به وبرسالته ولا يستسلمون لمنطق الحق، بل يسألونه أن ينزل عليهم العذاب إذا كان قادرًا على ذلك غير مبالين بعواقب الأمور، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود]، كان الجواب جاهزًا وبدهيًا لنبي الله نوح عليه السلام في هذه الآية وما بعدها من آيات: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [هود].

(يا قوم لا أسألكم على نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، مالًا أجرًا على ذلك، فتتهموني في نصيحتي، وتظنون أن فعلي ذلك طلبُ عَرَضٍ من أعراض الدنيا ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾، يقول: ما ثواب نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى ما أدعوكم إليه، إلا على الله، فإنه هو الذي يجازيني، ويثيبني عليه ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وما أنا بمقصٍ من آمن بالله، وأقرّ بوحدانيته، وخلع الأوثان وتبرأ منها، بأن لم يكونوا من عِلْيتكم وأشرافكم ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾، يقول: إن هؤلاء الذين تسألوني طردهم، صائرون إلى الله، والله سائلهم عما كانوا في الدنيا يعملون، لا عن شرفهم وحسبهم)(١).

(١) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء ١٥، مصدر سابق، ص: ٣٠٠-٣٠١.

**المشهد الثالث في قصة رسول الله نوح** عليه السلام: وفي معنى التطوع الذي نحن بصدده نجد مشهدًا ثالثًا بين نوح عليه السلام وبين قومه المعاندين، يقول الله جل ثناؤه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)﴾ [الشعراء].

قوم نوح لم يكذبوا نوحا فقط، ولكنهم كذبوا المرسلين. فالرسالة في أصلها واحدة، وهي دعوة إلى توحيد الله، وإخلاص العبودية له. فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين، فهذه دعوتهم أجمعين، والقرآن يؤكد هذا المعنى ويقرره في مواضع كثيرة، بصيغ متعددة، لأنه كلية من كليات العقيدة الإسلامية، تحتضن بها الدعوات جميعا وتقسم بها البشرية كلها إلى صفين: صف المؤمنين وصف الكافرين، على مدار الرسالات ومدار القرون. وفي نظر المسلم فإن الأمة المؤمنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هي أمته، منذ فجر التاريخ إلى شروق شمس الإسلام دين التوحيد الأخير. والصف الآخر هم الكفار في كل ملة وفي كل دين. وإذا المؤمن يؤمن بالرسل جميعًا، ويحترم الرسل جميعًا، لأنهم جميعهم حملة رسالة واحدة هي رسالة التوحيد.

إن البشرية لا تنقسم في تقدير المسلم إلى أجناس وألوان وأوطان، إنما تنقسم إلى أهل الحق وأهل الباطل، وهو مع أهل الحق ضد أهل الباطل في كل زمان وفي كل مكان. وهكذا يتوحد الميزان في يد المسلم على مدار التاريخ كله وترتفع القيم في شعوره عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن، والمعيار الحقيقي هو الذي على ضوئه يحاسب به الجميع، ويقوّم به الجميع في ميزان هذا الدين.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾ [الشعراء]. هذه هي دعوة نوح التي كذبه فيها قومه- وهو أخوهم- وكان الأليق بالأخوة أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق. ولكن قومه لم يأبهوا لهذه الصلة، ولم تلن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم: (أَلا تَتَّقُونَ)، وتخافون عاقبة ما أنتم فيه؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته؟ وهذا التوجيه إلى التقوى مطرد في هذه

السورة. فهكذا قال الله عن فرعون وقومه لموسى وهو يكلفه التوجه إليهم. وهكذا قال نوح لقومه، وهكذا قال كل رسول لقومه من بعد نوح: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٠٧﴾، لا يخون ولا يخدع ولا يغش، ولا يزيد شيئا أو ينقص شيئا مما كلفه الله سبحانه من التبليغ.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .. وهكذا يعود إلى تذكيرهم بتقوى الله، ويحددها في هذه المرة، وينسبها إلى الله تعالى، ويستجيش بها قلوبهم إلى الطاعة والتسليم، ثم يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها، فما له فيها من أرب بدعوتهم إلى الله، وما يطلب منهم أجرًا جزاء هدايتهم إليه، فهو يطلب أجره من رب الناس الذي كلفه دعوة الناس. وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر يبدو أنه كان دائما ضروريا للدعوة الصحيحة، تمييزًا لها مما عهده الناس في الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد، وقد كان الكهنة ورجال الدين المنحرفون دائمًا مصدر ابتزاز للأموال بشتى الأساليب.

فأما دعوة الله الحقة فكان دعاتها دائمًا متجردين، لا يطلبون أجرًا على الهدى. فأجرهم على رب العالمين، وهنا يكررون عليهم طلب التقوى والطاعة، بعد اطمئنانهم من ناحية الأجر والاستغلال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

**ثانيًا: نبي الله هود عليه السلام**

**المشهد الأول لرسول الله هود عليه السلام:** يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ٥٠ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٥١ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ٥٢﴾ [هود].

وفي قصة نبي الله هود مع قومه ترد هنا معاني الربط بين توحيد الله وترك عبادة الأوثان وبين عدم أخذ الأجرة والتعويضات المادية من قومه، وهو ما مرّ بنا مع قصة نوح عليه السلام، ويبدو أن هذا الترابط بين الجانبين ضرورة ملحة حتى لا يتسرب إلى النفوس أي شكوك أو ريبة تقف حجر عثرة أمام رسالة الأنبياء والرسل، فبمجرد أخذ المال من الناس الذين يتلقون التوجيهات الربانية من الأنبياء وأنصارهم، أو ظهور علامات على ذلك ممن يتولون هذه المهمة، فإن ذلك سينعكس سلبًا على استجابة المجتمع لما يحمله أصحاب الدعوة في مختلف العصور والمواقف.

فالتطوع والرغبة الصادقة للقيام بمثل هذه الأعمال النبيلة في المجتمعات البشرية هي بمثابة المفتاح السحري للتغيير الإيجابي والقفزة النوعية للتقدم إلى الأمام لتحقيق الطموحات التي تتناسب مع مركز هذا الإنسان في هذا الكوكب، فالأنبياء هم النموذج المثالي لأنصارهم وأتباع دياناتهم، وهم يقومون بعمل جد نبيل، يجمع بين تنفيذ الواجبات التي أمرهم الله بإبلاغها للبشر وبين تدريبنا المستمر على العمل التطوعي، فهم القدوة والمنارة وهم الأساتذة الأوفياء لإخوانهم في الإنسانية قاطبة، كما أنهم بجانب هذا الجهد التطوعي غير المألوف وما يلاقونه من العنت والحرب والإهانة لا يملون من إسداء النصائح العطرة لقوم يجمعون السلاح للفتك بهم: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود] وكأن شيئا لم يكن. انظر إلى جوابهم الركيك وغلاظة الألفاظ وقسوتهم: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [هود].

(يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله وخلع الأوثان والبراءة منها، جزاءً وثوابًا ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ ﴾، يقول: إن ثوابي وجزائي على نصيحتي لكم، ودعوتكم إلى الله ليس إلا على الذي خلقني: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾، يقول: أفلا تعقلون أني لو كنت أبتغي بدعايتكم إلى الله غير النصيحة لكم، وطلب الحظ لكم في الدنيا والآخرة، لالتمست منكم على ذلك بعض أعراض الدنيا، وطلبت منكم الأجر والثواب؟)[1].

**المشهد الثاني في قصة رسول الله هود** عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الشعراء].

إن كلمة "أخوهم هود" بداية قوية تستجيش عواطف القوم فرغم اختلافهم في العقيدة حيث يدافعون عن الشرك وعبادة الأوثان إلا أن لفظة (أخوهم) تحمل نسبة من

---

(١) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء ١٥، مصدر سابق، ص: ٣٥٧.

العلاقات والمودة بين الأقارب في الأعراف العادية والظروف الطبيعية في مختلف المجتمعات البشرية، وجملة "إني لكم رسول أمين" تمهيد يتناسب مع الأمانة التي يحملونها من الله، وكون هود أخاهم فإن قوله "أمين" أمام قومه تعبر عن الثقة المطلقة في نفسه لأنهم يعرفونه جيدًا ولا يستطيعون أن يقدموا أي دليل قاطع على كذبه بعد البعثة، فجاء النصح بعد هذه الجملة.

فبعد هذه التوطئة الجامعة لعدة نواحٍ، المؤثرة عاطفيًا واجتماعيًا جاءت الحجة الدامغة أمامهم، لأن منطق العقلاء لا يبيح أن يتجشم الإنسان الصعاب والمخاطر وبذل الجهود المضنية بلا مقابل يعود عليه بالنفع، فكيف يقوم مثل هذا العمل شخص يعرفون عقله وتوازنه منذ صغره، وتلك هي حجة لا يجدون لمواجهتها أي مبررات أو مسوغات: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، كان من المفترض أن يسألوا أنفسهم ماذا يستفيد من هذه المواجهة والمعركة ضدنا؟ أما الجحود فهو منطق العاجزين؛ منطق معوج لا يمنح الطمأنينة النفسية ولا السعادة لأصحابه دومًا، لأنهم يعرفون أنهم جاحدون غير صادقين فيما يقولون أو يعملونه.

### ثالثًا: مشهد لرسول الله صالح عليه السلام

﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الشعراء]، تشابه كامل مع ما سبق في قصة هود.

### رابعًا: مشهد من قصة رسول الله لوط عليه السلام

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الشعراء].

### خامسًا: مشهد من قصة رسول الله شعيب عليه السلام

﴿ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾ [الشعراء].

نجد هنا تطابقًا شبه تام في قصص أنبياء الله صالح ولوط وشعيب عليهم السلام، فهي تكرار لما سبق ذكره في قصة هود ونوح، وهذا يدل على وحدة أصول الأديان وثوابتها التي لا تتغير عبر الزمن، وأن مطلع شمسها واحد وأن الهدف هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومع ذلك فإن كل نبي بجانب الدعوة إلى عبادة الله وحده يعالج أمرًا يتعلق بالكليات الشرعية أو المقاصد الكبرى للرسالة الإلهية، ويتولى وقف انتشار الأمراض الشائعة في مجتمعه وتكون عادة انحرافات أو مظالم تفتك وتدمر بنية المجتمعات، وتبعد الناس عن العبادة الحقة وطهارة النفس، وتورطهم في المنكرات وتساعد على إشاعتها، وهذا يتنافي والهدف من خلق الإنسان المكرم: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧﴾ [الذاريات]، وهذه الرسالة هي ما جاءت بها الأديان وبعث الرسل تباعا من أجلها.

فعقر الناقة كان عصيانًا ورفضًا واضحًا وعدم شكر لهذه النعمة الكبيرة، لأنها جاءت بطلب منهم وكان النصح التحذير من العقاب مرافقًا للناقة المعجزة: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ، أما قلب الموازين في العملية الجنسية وإتيان الرجال بدل النساء فقد كان قضية القضايا لنبي الله لوط عليه السلام لأنه ليس مجرد ذنب بل هو محاولة خبيثة غير مسبوقة، ولو استمرت وعمت كانت ستنسف الوجود الإنساني من أساسه لأنها ببساطة ضد الإنجاب والتناسل وتعمير الأرض، وهو منكر أحدثه قومه وانحراف ضد الفطرة السوية كما نص عليه القرآن الكريم: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف].

أما البخس ونقص الكيل والميزان وتطفيفهما فقد اشتهر في قوم شعيب عليه السلام فكان خطابه مركزًا على محاربة هذا الداء الذي يعم ظلمه الصغير والكبير والرجل والمرأة والقوي والضعيف لأنه يمس لقمة العيش وضروريات الحياة في كل لحظة من لحظات الإنسان، كما يسبب الكراهية والعداوة بين شرائح المجتمع عندما تتكدس الأموال لدى

فئة قليلة تستطيع الاحتكار وحيازة معظم الثروات الوطنية ظلمًا وعدوانًا، وتخلق معاناة لا حدود لها وغير محسوبة العواقب، فكان هذا الظلم الشنيع منتشرًا في قوم نبي الله شعيب فكفروا بالنعم الوفيرة والرخاء الواسع والقوة العددية كما تنص مثل هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأعراف].

### سابعًا: مشاهد من قصة نبي الله محمد ﷺ

**المشهد الأول من قصة رسول الله محمد ﷺ:** ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يوسف]. (وما تسأل، يا محمد، هؤلاء الذين ينكرون نبوتك، ويمتنعون من تصديقك والإقرار بما جئتهم به من عند ربك، على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك، وهجر عبادة الأوثان وطاعةِ الرحمن (مِنْ أَجْرٍ)، يعني: من ثواب وجزاء منهم، بل إنما ثوابك وأجر عملك على الله. يقول: ما تسألهم على ذلك ثوابًا، فيقولوا لك: إنما تريد بدعائك إيّانا إلى اتباعك لننزلَ لك عن أموالنا إذا سألتنا ذلك. وإذ كنت لا تسألهم ذلك، فقد كان حقًّا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إلى ما تدعوهم إليه، اتباعًا منك لأمر ربك، ونصيحةً منك لهم، وأن لا يستغشُّوك)(1).

(وهذه سنّة الله- سبحانه- مع أنبيائه حيث أمرهم بألا يأخذوا على تبليغ الرسالة عوضًا ولا أجرًا، وكذلك أمره للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام - بألّا يأخذوا من الخلق عوضًا على دعائهم إلى الله، فمن أخذ منهم حظًا من الناس لم يبارك للمستمع فيما يسمع منه فلا له أيضًا بركة فيما يأخذ منهم فتنقطع به)(2).

(١) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء ١٦، مصدر سابق، ص: ٢٨٤.

(٢) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات تفسير القشيري، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ص:٢١١.

(ولقد كان الرسول ﷺ حريصًا على إيمان قومه، رغبة في إيصال الخير الذي جاء به إليهم، ورحمة لهم مما ينتظر المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة. ولكن الله العليم بقلوب البشر، الخبير بطبائعهم وأحوالهم، ينهي إليه أن حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان، لأنهم - كما قال في هذه الآيات - يمرون على الآيات الكثيرة معرضين. فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة في الآفاق. وإنك لغني عن إيمانهم فما تطلب منهم أجرًا على الهداية، وإن شأنهم في الإعراض عنها لعجيب، وهي تبذل لهم بلا أجر ولا مقابل.

**المشهد الثاني من قصة رسول الله محمد** عليه السلام: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سبأ]. إنها دعوة إلى القيام لله، بعيدًا عن الهوى، والمصلحة، وعن ملابسات الأرض، وعن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب، فتبعد به عن الله، بعيدًا عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة، والمؤثرات الشائعة في الجماعة، دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط، لا مع القضايا والدعاوى المطاطة، التي تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة، دعوة إلى منطق الفطرة بعيدا عن الضجيج الذي يحجب صفاء الحقيقة.

وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة يعتمد على التجرد من الرواسب والمؤثرات، وعلى مراقبة الله وتقواه. وهي (بِواحِدَةٍ) بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون. ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾، مثنى ليراجع أحدهما الآخر، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ، وفرادى مع النفس وجها لوجه في تمحيص هادئ عميق: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ لمحة تصور العذاب الشديد وشيكا أن يقع.

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .. دعاهم في المرة الأولى إلى التفكر الهادئ البريء "ما بصاحبكم من جنة"، ويدعوهم هنا أن يفكروا ويسألوا أنفسهم عما يدعوه إلى القيام بإنذارهم بين يدي عذاب شديد، ما مصلحته؟ ما

بواعثه؟ ماذا يعود عليه؟ ويأمره أن يلمس منطقهم ويوقظ وجدانهم إلى هذه الحقيقة في صورة جلية:

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ خذوا أنتم الأجر الذي طلبته منكم! وهو أسلوب فيه تهكم، وفيه توجيه، وفيه تنبيه: ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ هو الذي كلفني، وهو الذي يؤجرني، وأجره هو الذي أتطلع إليه فحسب، ومن يتطلع إلى ما عند الله فكل ما عند الناس هين عنده هزيل زهيد لا يستحق التفكير.

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾، يعلم ويرى ولا يخفى عليه شيء، وهو عليّ شهيد فيما أفعل وفيما أنوي وفيما أقول. (المعنى: قل أيها النبي للمشركين: أحذركم عاقبة السوء، وآمركم بخصلة أو قضية واحدة: وهي التأمل والنظر في حقيقة النبوة، وعبادة الله تعالى، وفي طاعته، إما مثنى (اثنين اثنين) وإما فرادى (واحد واحد) لأن الاجتماع الكثير يشوش الفكر، وينشر الغوغائية، وحينئذ تعلمون أن صاحبكم ليس بساحر ولا مجنون، وإنما هو نبي مؤيد من عند الله بالمعجزات المصدقة له، وأنه منذركم ومخوفكم ما ينتظركم من عذاب شديد على النفوس يوم القيامة.

وقل أيها النبي أيضًا للمشركين: لم أطلب منكم أجرا ولا عطاء على أداء رسالة الله عز وجل إليكم، فما ثوابي أو أجري إلا على الله تعالى، والله مطلع على كل شيء، وعالم به، من صدقي بتبليغ الرسالة، وإعلامكم بالنبوة. وهذا أمر من الله تعالى بالتبرؤ من طلب الدنيا وطلب الأجر على الرسالة، وتسليم كل دنيا إلى أهلها والتوكل على الله في الأجر، والإقرار بأنه شاهد على كل شيء من أفعال البشر وأقوالهم وغير ذلك. إن ربي عالم الغيب والشهادة يصطفي للنبوة من يشاء ويرسل جبريل بالوحي إلى من يشاء من عباده)[(١)].

**المشهد الثالث من قصة رسول الله محمد** ﷺ: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، تفسير الوسيط، الجزء الثالث، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى- ١٤٢٢هـ، ص: ٢١١٦.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشورى].

عرضت الآية ٢٢ المصير المحتوم للمؤمنين والكافرين بصورة تهز النفس وتحرك المشاعر، لأنه واقع حياتنا ومآل البشرية، والمستقبل المنتظر، وجاءت الآية ٢٣ من هذه الجزئية تذكرنا بعظم بشارة من لبى نداء الرسل، ثم أعقبتها بالقضية الجوهرية لمسلك الرسل أمام المدعوين وهو عدم جواز أخذ المال أو أي عوض وإن قل مقابل الأنشطة الدعوية وما يقومون به من تبليغ رسالة رب العالمين حتى لا يجدوا أي حجة يتمنطقون بها أو يحتمون بلغطها وهريفها كما اعتاد المعاندون.

لقد جاءت: ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ ﴾ وفي ظاهرها استثناء من المبدأ الكلي حول امتناع الرسل عن أخذ المال أو أي عوض آخر من قبل من يدعونهم إلى عبادة الله وهجر عبادة الأصنام من دون الله مقابل دعوتهم، وكأنها نوع من أنواع العوض يطلبها الرسول ﷺ من قومه، ولم يفسر أحد من العلماء الجزئية الاستثنائية من الآية الكريمة بجواز أخذ الرسول ﷺ الأجرة لكنها جملة تحمل في طياتها معاني اجتماعية مهمة للغاية في ظروف الجزيرة العربية حينها، فالمجتمع العربي لم يكن يختلف حول قيمتها ولا قوة تأثيرها في نفوس القبيلة والأفراد.

فبها يتساندون عند الأهوال والملمات الصعبة، وبها يتعاونون ويساعد بعضهم بعضًا عند ما يتعرضون للعدوان الخارجي أو تبرز الحاجة إلى الدفاع، وكانت القرابة المتمثلة في البطون المختلفة تقوم مقام الدول والسلطات الحاكمة، فالنصرة للقرابة كانت من أولى الواجبات لدى القبائل، كما أن الخذلان وعدم الوقوف بجانب المظلوم ورد الظلم والعدوان عنه كان يؤدي إلى إهانة أبناء القبيلة، أما أن يقع الظلم على شخص من أبناء القبيلة أو الحلفاء والأصهار أو من في جماعتهم فهو أشد إيلاما.

إنه خطاب موجه إلى المشاعر والعواطف والنخوة العربية، وهذا ما جعل حمزة عم الرسول يدخل في الإسلام عندما استشعر أن ابن أخيه محمدًا تعرض للإهانة والضرب من أبي جهل، فعندما علم بذلك توجه فورًا إلى نادي أبي جهل فضرب رأسه، وهو في وسط جمهرة بني مخزوم قائلا: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟! فرُدّ عليَّ ذلك إن استطعت؟

والاعتزاز للدفاع عن أبناء القبيلة ومن أجارته القبيلة، وهذا ما يشير إليه شعر وفاء سموأل بن عاديا حين يقول:

**تعيرنـــا أنّـــا قليـــل عديـــدنا *** فقلـــت لهـــا إن الكـــرام قليـــل**

**ومـا قـل مـن كانـت بقايـاه مثلنـا *** شـباب تسـامى للعـلا وكهـول**

**ومــا ضرنــا أنّــا قليــل وجارنــا *** عزيــز وجــار الأكثــرين ذليــل**

ولذا لا نستغرب عندما يبدي طرفة بن العبد في معلقته الشهيرة تذمره من ظلم أقاربه قائلا:

**وظلم ذوي القربى أشد مضاضـة *** على المرء من وقـع الحسـام المهنـد**

إن تلك الجملة في الآية تتكلم عن العرف والتقاليد المشهورة في البيئة العربية وقتها، وهي تستحق الوقوف عندها مليًا، فالرسول ﷺ يسأل الحق الطبيعي بين الأقارب وأبناء القبيلة وهو حق لا يستطيع إنكاره أحد من القرشيين، وهو أمر يوجب عليهم في الظروف العادية الأمور التالية:

**أولًا**: الوقوف بجانبه ونصرة ما يحمله من الحق بسبب القرابة بينه وبينهم، وهم أولى الناس باتباع الرسول ﷺ وتصديقه بسبب العشرة والقرب والمعرفة الدقيقة بحياته، وقد نزل القرآن الكريم لإنذارهم قبل غيرهم، ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ ﴾ [الشعراء]، انظر كيف أن الوحي أعطاهم وأقر لهم حق القرابة قبل غيرهم لأنهم من المفترض أن يكونوا مهدًا وحصنًا له، وكان الرسول شديد الحريص على إيمانهم وكان يقول لهم (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا).

**ثانيًا**: أن يدافعوا عنه ما يتعرض له من اعتداء خارجي وهذا حق له ﷺ حسب الأعراف العربية والتي كانت سائدة وقتها.

**ثالثًا**: أن يكفوا عن أذاه ويمتنعوا عن ضره إن عجزوا عن نصرته أو الدفاع والذود عنه فليس أقل من أن تكونوا مسالمين له وتخلوا بينه وبين الآخرين، وهذا هو شرف لكم.

إن خلاصة ما قاله العلماء في تفسير هذه الجزئية من الآية: ﴿ إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ هو ما نقله إلينا سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام في تفسيره "تفسير القرآن الكريم".

(إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) تودُّوني في نفسي لقرابتي منكم لأنه لم يكن بطن من قريش إلا بينه وبين الرسول ﷺ قرابة، أو إلا أن تودوا قرابتي، أو إلا أن تودوني فتؤازروني كما تودون ذوي قرابتكم، أو إلا أن تتوددوا إلى الله - تعالى - وتتقربوا إليه بالعمل الصالح، أو إلا أن تودوا قرابتكم وتصلوا أرحامكم)(١).

**المشهد الرابع من قصة رسول الله محمد** عليه السلام: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ ﴾ [الفرقان].

بعد ذكر عدم جواز أخذ العوض من القوم تنفيذا لأمر الله جل جلاله كما ورد في الآيات السابقة جاء هذا الاستثناء في هذا الموضوع: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾، ولكنه ليس استثناء يبيح للرسول عليه السلام أي أجرة من المدعوين إلى هذا الدين، ولكنه ينبه القوم إلى قاعدة مهمة للبشر وهو الإنفاق وبذل المال في مختلف مناحي الحياة قربة إلى الله وليس دفعا إلى الرسول عليه السلام، وهذا طبعا ممنوع منه كغيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام كما رأينا في مختلف الآيات القرآنية.

**المشهد الرابع من قصة رسول الله محمد** عليه السلام: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨ ﴾ [ص]. في تفسير البحر المحيط لجملة: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ( أي المتصنعين المتحلين بما ليسوا من أهله، فانتحل النبوة والقول على الله. أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته، لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة. قال مسروق: أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: يا أيها الناس من علم شيئا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش](٢). أما تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية جاء فيه ما يلي: (قل يا محمد لمشركي قومك: ما أسألكم على ما جئتكم به من القرآن ثوابًا وجزاءً، وما أنا ممن

(١) عز الدين بن عبد السلام، تفسير القرآن، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص: ١٤٢.

(٢) أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تفسير البحر المحيط،الجزء التاسع، ص: ١٧٧.

يتكلف القول من عند نفسه ويتخرصه، وما هذا القرآن الذي جئتكم به من عند الله إلا ذكر من الله يتذكر به جميع الخلق من الجن والإنس)[1].

**المشهد الخامس من قصة رسول الله محمد ﷺ:** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠ ﴾ [الأنعام].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾: (هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه، والعمل بما فيه من أمر الله، والانتهاء عما فيه من نهيه، فوفقهم جل ثناؤه لذلك، فبهداهم اقتده، يا محمد، أي: فاعمل، وخذ به واسلكه، فإنه عمل لله فيه رضًا، ومنهاجٌ من سلكه اهتدى)[2].

**المشهد السادس لرسول الله محمد ﷺ:** ﴿ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠ ﴾ [الطور]. يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: أتسأل هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم يا محمد على ما تدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته ثوابًا وعوضًا من أموالهم، فهم من ثقل ما حملتهم من الغرم لا يقدرون على إجابتك إلى ما تدعوهم إليه. عن قتادة، قوله: ﴿ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴾ يقول: هل سألت هؤلاء القوم أجرا يُجهدهم، فلا يستطيعون الإسلام)[3].

(وهم كانوا يستثقلون دعوة النبي لهم إلى الهدى وهو يقدمه لهم خالصًا بريئًا، لا يطلب عليه أجرًا، ولا يفرض عليهم إتاوة. وأيسر ما يقتضيه هذا العرض البريء أن يستقبل صاحبه بالحسنى، وأن يرد بالحسنى إذا لم يقبلوا ما يقدمه لهم ويعرضه عليهم.

---

(١) أبو محمد مكي بن أبي طالب الأندلسي القرطبي المالكي، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن، الجزء العاشر، مجموعة البحوث للكتاب والسنة، الطبعة الأولى، الشارقة: ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، ص: ٦٢٩١.

(٢) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء ١١، مصدر سابق، ص: ٥١٨-٥١٩.

(٣) محمد بن جرير الطبري، المصدر السابق، الجزء ٢٢، ص: ٤٨٣-٤٨٤.

وهو هنا يستنكر مسلكهم الذي لا داعي له يقول: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ أي مثقلون من الغرم الذي تكلفهم إياه في صورة الأجر على ما تقول! فإذا كان الواقع أن لا أجر ولا غرامة، فكم يبدو عملهم مسترذلًا قبيحًا، يخجلون منه حين يواجهون به؟)(١).

جاءت هذه الآية على شكل سؤال موجه إلى رسول الله ﷺ مع أن الله يعلم كل شيء بل أمر رسله ألا يسألوا أجرًا مقابل العمل الدعوي ثم يخبرنا عن النتيجة لو حدث أن سأل الرسول ﵇ أجرًا، فهم لن يتمكنوا من الاستجابة بثقل التكاليف المالية التي ستطالبهم بها، وهذا يدل على تنوع في التعبير القرآني حول الامتناع عن أخذ الأموال أو التعويض مقابل جهد الهداية، وهذه الأساليب المختلفة في ألفاظها وعباراتها تقرب الفهم إلى السامع، وهو تهكم يصيب المقتل من أعداء هذا الدين ومعانديه في كل عصر.

**مشهد لرجل يسعى لإنقاذ بعض رسل الله من قومه**

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يس]. (وذلك أن أهل المدينة هذه عزموا واجتمعت آراؤهم على قتل هؤلاء الرسل الثلاثة فيما ذكر، فبلغ ذلك هذا الرجل، فقال اتبعوا من لا يسألونكم أموالكم على ما جاءوكم به من الهدى، وهم لكم ناصحون، فاتبعوهم تهتدوا بهداهم وهم على استقامة من طريق الحق، فاهتدوا أيها القوم بهداهم)(٢).

ومما قاله الرازي في تفسير هذه الآيات: (فقوله: من أقصى المدينة فيه بلاغة باهرة، وذلك لأنه لما جاء من أقصى المدينة رجل وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة، وثانيهما: أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلية لقلبه، وذكره سعي المؤمنين في تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا، ووصول الجزاء الأوفى إليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد، وقوله: يا قوم اتبعوا المرسلين فيه معان لطيفة، الأول: في قوله: يا قوم فإنه ينبئ عن إشفاق عليهم، فإن إضافتهم إلى نفسه بقوله: يا قوم يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيرًا. وهذا في غاية الحسن وذلك من حيث إنه لما قال: اتبعوا المرسلين

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن،الجزء السادس، مصدر سابق، ص: ٣٤٠٠.

(٢) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن،الجزء ٢٠، مصدر سابق، ص: ٥٠٠-٥٠٦.

كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لا شك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين، إما مغالاة الدليل في طلب الأجرة، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين، أليسوا بمهتدين، فاتبعوهم)[1].

(١) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء ٢٦، مصدر سابق، ص: ٢.

## المبحث الرابع

## أسباب تحريم أخذ الأجرة من الرسل

لماذا التلازم بين دعوة الرسل لأقوامهم إلى الإيمان بالله وإلى عبادة الله وحده لا شريك له، وبين كون ما يقومون به عليهم السلام واجبًا يؤدونه بدون كسب مادي ينالونه من أقوامهم أو ممن يعرضون دعوة الله عليهم؟.

### أولًا: خلق انطباع إيجابي لدى المستمعين تجاه الرسل والرسالة

تنطلق جهودهم من الأساس الإيماني وبلا مقابل مادي أو أي نوع من التعويضات المالية، هذا الربط المتكرر في القرآن الكريم يحمل دلالات مهمة، ويبرز ما للاكتفاء الذاتي من قيمة معنوية في النفس البشرية، لأن استعمال الرسل مثل هذه الجمل الواضحة "لا أسألكم عليه أجرا" و"وما سألتكم من أجر فهو لكم" و"وما أسألكم عليه مالا" أثناء عرض الدين على البشر يعطي السامعين انطباعًا عن المتكلم بأنه شخصية مرموقة يمتلك قوة مادية ولو أن المظاهر لا تشير إلى ذلك، وبهذه الطريق تتقوى القناعة الذاتية لدى المستمعين بأن هؤلاء البشر لديهم ما يكفيهم من الأموال، وليسوا بحاجة إلى أية مساعدة أخرى يستعينون بها على قضاء حاجاتهم الضرورية في الحياة اليومية.

### ثانيًا: استقلالية الرسل لدعوتهم

هذه الصفة تعطي الأنبياء ومن هم على نهجهم قدرًا كبيرًا من الاستقلالية المطلقة لمشروعهم التغييري العالمي، فالاستقلالية المالية والاعتماد على النفس من الناحية الاقتصادية يوفر لأصحاب المبادئ أجواء من حرية الكلمة والقدرة على شرح وعرض ما يحملونه من الأفكار بدون تردد أو خوف على الأرزاق.

### ثالثًا: حاجة الرسل إلى عونهم مدعاة للتحقير

ومن المعلوم أن البشر لا يحترمون الذين يمدون أيديهم للحصول على مساعداتهم المالية أو غير المالية، بل هم في كثير من الأحيان يحتقرون المحتاجين إليهم بمجرد معرفة ذلك، فلك أن تتخيل عندما يتعلق الأمر بقضية الرسل والرسالة الإلهية التي يراد لها أن تحدث أكبر تحول في التاريخ البشري، وما بالك عندما تجتمع الدعوة مع طلب المساعدة

من المدعوين؟ فكان واضحًا لو حدث ذلك كيف سيصبح موقف المشركين والمدعوين من رسل الله بصورة عامة؟

**رابعا: تناسب مع غريزة حب المال**

ليس خافيا علينا مدى قوة غريزة حب المال لدى الإنسان وتمسكه به حتى أصبح المال من أقوى شهواته الطاغية عليه، لأن المال عصب الحياة والسبب الأساسي لقوته وجبروته مصداقًا لقول الله جل ثناؤه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر]، وغالبًا ما يكون أبوابًا مشرعة للفتن وسببًا جوهريا للإفساد في الأرض في مختلف العصور: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق].

وبهذا يمكن أن يكون هلاكًا في الدارين عند سوء الاستخدام وهذا ما يشير إليه قول الله جل ثناؤه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف]. ومن الناحية الأخرى فإن المال بفضل الله يصبح طريقًا إلى الجنة عند إنفاقه على وجهه المشروع، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة].

كثيرًا ما نجد أن له دورًا خطيرًا في المذلة والإهانة التي تلحق بالعلماء والدعاة وأصحاب الأفكار، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف].

لقد حمى الله دعوته من القيل والقال منذ البداية وامتنع الرسل عن أخذ الأجور مقابل ذلك حتى يكون شروق شمس الدعوة صحوا لا غبار عليها، والآية السابقة تعبر عن خطورة المال وقدرة مالكيه على شراء الذمم لتحريف دين الله عن منهاجه المستقيم.

ولقد أحسن أبو الحسن الجرجاني عندما خاطب العلماء وحذرهم من مغبة السقوط في مستنقع الطمع والتنازل عما يدعو إليه العلم من الحرية الفكرية والتسامي عن سفاسف الأمور حتى يتمكنوا من أداء واجباتهم لأنهم ورثة الأنبياء في هذا الحقل، فالطمع مما في

أيدي الناس من أكبر العقبات أمام المبادئ، وخاصة تلك التي هي مرتبطة بالقيم الدينية والوحي الإلهي، فهو يحذر من هذا الخطر، فيقول في هذا المعنى قصيدة رائعة لقيت رواجًا واستحسانًا من قبل الكثيرين.

**يقولــون فيــك انقبــاض وإنــما *** رأوا رجلا عن موقف الـذل أحزما**

**أرى الناس من داناهم هان عندهم *** ومــن أكرمتـه عـزة الـنفس أكرمـا**

**ولم أقض حق العلم إن كـان كلـما *** بــدا طمــع صــيرته لي ســلما**

**أأشــقى بــه غرســا وأجنيــه ذلــة *** إذا فاتبـاع الجهـل قـد كـان أحزمـا**

**ولو أن أهـل العلـم صـانوه صـانهم *** ولــو عظمــوه في النفــوس لعظــما**

**ولكــن أهــانوه فهــان ودنســوا *** محيــاه بــالأطماع حتــى تجهــما**

إذًا بجانب ما تقدم من القوة المتمثلة بعدم الحاجة إلى ما عند هؤلاء الناس فإن الرسل أثبتوا للمدعوين بأن لديهم رسالة من رب العالمين، وليست من عند أنفسهم، وهو الذي يعتمدون عليه بصورة كلية وبصفة دائمة.

"إن أجري إلا على رب العالمين" وهذه قوة معنوية هائلة جعلتهم في موقف يعرضون على السامعين شرعة متكاملة يريدون ممن أرسلوا إليهم أن يؤمنوا بها ويعملوا بكل ما فيها بدون أن يدفعوا أموالهم مقابل الجهد المبذول، وهما قوتان متساندتان متعاونتان تخلق بيئة ترجح كفة الرسل وتزودهم بأقوى الحجج والبراهين في الحوارات بين الطرفين، وبهاتين القوتين أصبح الأنبياء والرسل أساتذة العالم من حيث المعرفة العلمية والتطبيق العملي، وهم يتولون إرشاد الخلائق حاملين راية التوحيد وشرعة واضحة لا غبار عليها، لأنهم متسلحون بسلاح الحق الذي آمنوا به قبل غيرهم، ومكلفون بإبلاغ الأقوام وكافة البشر رسالة رب العالمين لهدايتهم إلى طريق الحق والاعتصام بحبل الله دون أن يثقلوا كواهلهم بأخذ أموالهم أو مجرد السؤال عنها.

عند تتبعِ الآيات في هذه القضية الجليلة والتي تقدم ذكرها في الفقرة نلاحظ استعمال الرسل جملاً متقاربة إن لم تكن متشابهة في الامتناع عن أخذ الأجرة أو العوض مقابل جهودهم الدعوية الهادفة إلى هداية الإنس والجن ليعبدوا الله وحده لا شريك له، ولقد

اخترنا تلك الجمل من القرآن الكريم للتدليل على الأساليب التطوعية عندما يؤدون واجباتهم المفروضة عليهم من ربهم ليبلغوا رسالة رب العالمين إلى أقوامهم وإلى البشرية قاطبة، جمعناها هنا لنلقي نظرة عابرة عليها ونتدبر معانيها:

نبي الله نوح: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس].

نبي الله نوح: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [هود]، نبي الله نوح: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الشعراء].

نبي الله هود: ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هود].

نبي الله هود: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء].

نبي الله صالح: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء].

نبي الله لوط: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء].

نبي الله شعيب ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء].

نبي الله محمد ١ ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يوسف].

٢: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سبأ].

٣: ﴿ ...قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشورى].

٤: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الفرقان].

٥: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص].

٦: ﴿ ...قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام].

٧: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الطور].

٨: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القلم].

لقد وردت هذه المعاني على لسان رسول الله خاتم النبيين ﷺ ثماني مرات في القرآن الكريم، ووردت تلك المعاني ثماني مرات على ألسن جميع الرسل الآخرين عليهم السلام في القرآن الكريم، وهي ١٦ مرة، ولله في قرآنه المنزل حكم بالغة لا يعلم كنهها إلا هو.

ووردت على لسان رجل ينذر قومه ويحثهم على اتباع المرسلين بدل تكذيبهم ومحاولة قتلهم: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يس][1].

**والخلاصة: أن** هذه الآيات تحتوي على جملة من المعاني المهمة تستوجب أن نشير إلى بعضها:

**أولًا:** هم حملة رسالة رب العالمين، وهم أنبياء الله ورسل رب العالمين لقيادة الموكب البشري ليهتدوا إلى منهج الله جل جلاله وليس ما يحملونه من عند أنفسهم كما هو معلوم لكل من لديه إلمام بهذا الدين.

---

(١) لقد وردت هذه المشاهد في القرآن الكريم كما يلي: وردت ثلاث مرات في دعوة نوح عليه السلام، ومرتين اثنتين في دعوة هود عليه السلام، ومرة واحدة في كل من دعوة صالح ولوط عليهم السلام وكذلك في دعوة الرجل الصالح، ووردت ثماني مرات في دعوة محمد ﷺ.

**ثانيًا**: فهم أمناء لهذه الرسالة. فالأنبياء آمنوا بهذه الرسالة قبل غيرهم، فهم أمناء على هذه الرسالة التي يحملونها إلى الإنس والجن فلا يمكن أن يخونوا الأمانة أو يخالفوا الوحي الإلهي ومقتضياته، فهم ملتزمون بكل ما فيه وصدقهم وأمانتهم معروفة قبل البعثة فكيف يكذبون على الله.

**ثالثًا**: لا ثقل على المدعوين من دفع الأجور للرسل، لا يسألون أقوامهم أجرا أو أي عوض مقابل جهودهم التي يقومون بها من أجل هدايتهم ليعبدوا الله وحده حتى لا يحسوا بالتكاليف المالية الثقيلة ويظنوا أن الرسل يبذلون كل هذه الجهود المضنية من أجل الحصول على عوض مادي يأخذونه من أقوامهم.

**رابعا**: إن الوحي لا يوجب القطيعة بيننا وبينكم. فلسان حال الرسل ولسان مقالهم يقول: إن هذا الوحي الذي جئنا به من عند الله العليم الخبير لا يوجب القطيعة بيننا وبينكم فأنتم إخواننا وأقوامنا وأرحامنا، فالعلاقات الاجتماعية المبنية على مختلف الوشائج الاجتماعية مثل الأنساب قائمة كما كانت قبل إرسالنا إليكم، فلا قطيعة للأرحام بل واجب وصلها وتقويتها دومًا من جانبنا، ولذا فإن لفظة: (يا قوم) وردت في القرآن الكريم بلسان الأنبياء ما يربو على خمسين مرة، كما قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ [نوح]. كما نجد لفظة "أخ" وتعني نبيا من الأنبياء والمضاف إلى ضمير القوم وردت في القرآن الكريم حوالي اثنى عشرة مرة مثل قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤﴾ [الشعراء].

﴿...قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ... ٢٣﴾ [الشورى]، هذه الجملة أوضحت أكثر فأكثر بأن الأعراف القائمة في المجتمع ليس منبوذة كلية، بل ما هو موافق للفطر السليمة سيبقى إلى الأبد، قال ﷺ: [بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ]، وعلى هذا الأساس جاءت: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ تذكيرا للمشركين بالحقوق القائمة بين الأقارب، فالرسول ﷺ يستحق من قومه أن يحترموه ويراعوا المودة التي تستوجبها القرابة في النسب بمختلف جوانبها.

**خامسا:** عالمية دعوة الرسل. إنها دعوة ورسالة عالمية، فتكذيب رسول واحد هو تكذيب لجميع الرسل والأنبياء عليهم السلام: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الشعراء]،﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الشعراء]،﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الشعراء]،﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة].

فرغم أن الرسل قبل محمد ﷺ كانوا يرسلون إلى أقوامهم إلا أن الرسل كلهم يدعون إلى التوحيد والإسلام: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران]،﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام]،﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس].

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج]،﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر].

**سادسا:** معالجة الرسل الأمراض الاجتماعية لدى أقوامهم: فمن الواضح أن كل رسول كان يعالج ويحارب أخطر الأمراض الاجتماعية الأكثر فتكًا في مجتمعه والمظالم الشائعة المشتهرة في عصره، فهناك قوم اشتهروا بالعتو والبطش كعاد، وقوم اشتهروا بإتيان الرجال بدل النساء وهم قوم لوط، واشتهر آخرون بتطفيف الكيل والغش في التجارة وهم قوم شعيب، وهناك من اشتهر بإبادة الرجال في مجموعات عرقية محددة كما فعل الفرعون مع بني إسرائيل وهذا دواليك. ولكن هناك قضية مركزية يشترك فيها كل الأنبياء والرسل ألا وهي عبادة الله الواحد الأحد ونبذ عبادة الأصنام والتوبة من الشرك، وجميعهم يشتركون في تلك النقطة المحورية لدين الله منذ بداية الخليقة إلى بعثة نبينا محمد خاتم الأنبياء والرسل.

بما أن البشر يسعون بدأب لا يعرف الكلل للوصول إلى أعلى مراتب المصالح والمنافع في حياتهم فإن الأنبياء والرسل في عملهم المتواصل المبني على الجهود المبذولة من أجل إبلاغ الرسالة الربانية الهادية إلى كافة البشر، وهي أعمال جبارة لا تقابلها أموال يتسلمونها أو انتظار جزاء من أفراد مجتمعهم ممن يقدمون إليهم تلك الخدمات المقدسة وتفوقوا على الجميع في عملهم، فقد حققوا أعظم إنجاز بشري عن طريق العمل التطوعي الذي آمنوا به قبل غيرهم، وضربوا في هذا الأمر أروع الأمثلة في التضحية ونكران الذات والتفاني فيما يقومون به من خير عميم للبشرية قاطبة.

صحيح أنهم يؤدون واجبًا مأمورًا واصطفاهم الله لهذه المهمة والتي ليست مثل المهمات الأخرى، ولكنهم كلفوا بهذا الواجب بدون مقابل مادى يدفعهم نحو هذا الاتجاه أو رغبة في الملك والتاج أو حبًا للشهرة والألمعية واختطاف الضوء، وهم المنارات والأعلام خلقًا وفضلًا، وهم القدوة لبقية بني الإنسان في دوحة الحياة بتنوع مجالاتها، وهم أساس الأنشطة والأعمال التنموية الإنسانية عبر بوابة التطوع، فالمؤمنون بالله وبالرسل يسلكون سبيلهم متأثرين بمن بعثهم الله من الأنبياء والرسل عليهم السلام، ويبذلون كل غال ومرتخص لاتباع شرعتهم وآثارهم التي لا تزول بل تتجدد في الذاكرة عبر الزمن، لأن هذا هو الطريق الوحيدة الموصلة إلى السعادة عبر خدمة الآخرين في حياتنا الدنيوية، وهو الأمر الذي يحقق لنا الأمل المتجدد ويضمن لنا سلامة المآلات وحسن الختام إن شاء الله، وهذا ما يرجو به المؤمنون أن يوصلهم إلى سفينة النجاة لتبحر بهم عباب المحيطات وترسوا بهم بساحة رضى الله والفردوس الأعلى مصداقا لقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف].

# الفصل الخامس

# ورثة الأنبياء

المبحث الأول:

العلماء العاملون هم على خطى الأنبياء

المبحث الثاني:

فروق بين الأنبياء السابقين وبين محمد عليهم السلام

المبحث الثالث:

دور الورثة في حفظ الدين وتجديده

# المبحث الأول

# العلماء العاملون هم على خطى الأنبياء

## من هم ورثة الأنبياء؟

**نجد الجواب في الحديث النبوي التالي:**

قال رسول الله ﷺ: (من سلك طريقا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقا إلى الجَنَّةِ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإِن فضل العالِمِ على العابِدِ كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياءِ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ)(١).

هذا الحديث يحمل معاني جمة عن العلم وفضله، والقيمة التي يحملها طالب العلم، وإن العالم يفوق فضله بقية البشر بمن فيهم الزهاد، - طبعًا عدا الأنبياء والرسل - والحديث رفع شأن العلماء إلى درجة عالية لا ينالها إلا المجدون الأتقياء والعاملون الأتقياء، فبموجبها أصبحوا أقرب الناس من الأنبياء الذين اصطفاهم الله تعالى.

فالوراثة تذكرنا بموت الأنبياء عليهم السلام وفقدهم، لأنها لا تأتي إلا بعد الوفاة، فلا خلود لأحد من المخلوقات، ومع فضل الأنبياء والرسل إلا أنهم يموتون كما يموت أي بشر، يقول الله جل شأنه لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر]، ويقول جل ثناؤه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [آل عمران]، ويقول الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء]، هذه من المسلمات التي لا يختلف حولها البشر، ولقد كتب على المخلوقات جميعها الموت.

---

(١) رواه مسلم والترمذي وأبوداود وابن ماجه وأحمد والدارمي.

## المبحث الثاني

## فروق بين الأنبياء السابقين وبين محمد عليهم السلام

**الفرق الأول**: الرسل قبل محمد عليهم السلام بعثوا إلى أقوامهم خاصة، ومحمد ﷺ بعث إلى البشرية جمعاء. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس].

أما محمد بن عبد الله ﷺ فقد بعث إلى البشرية جمعاء، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ]، ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

**الفرق الثاني**: تتابع بعثة الرسل إلى أقوامهم للدعوة من جديد، فكلما مات نبي بعث الله نبيًا آخر أو أكثر لتجديد الدين فيهم مما ضمن للدين الاستمرارية والبقاء، أما بعثة محمد ﷺ فكانت خاتمة الرسائل فلا نبي بعده، ولا رسالة بعدها.

**الفرق الثالث**: وبما أن حياة الأنبياء والرسل قصيرة فقد حفظ الله تعالى دينه في الأمم السابقة بواسطة تتابع الرسل، فكلما مات نبي بعثه الله تعالى نبيا آخر أو أكثر من واحد، وهذا الأمر تكفل بتصحيح ما طرأ من الانحرافات عن الدين، بالإضافة إلى ذلك فإن كل نبي يحمل شرعة خاصة به ليكمل شرائع من كان قبله مع أن توحيد الله تعالى كان أمرًا ثابتًا لدى جميع الأنبياء مما خلق انسجاما وتناغما كاملًا في المسيرة الدعوية في مراحلها المتنوعة وأزمانها المتباعدة، وهذا هو الذي حفظ الدين الإسلامي وضمن التجديد المستمر، وكان للمؤمنين وأتباع الأنبياء والرسل دور مهم لتحمل المسئولية بعد الأنبياء، ولكن كلما طالت المدة تبدلت الشريعة لدى الأمم السابقة وحل محلها الشرك وعبادة الأصنام والأوثان في فترات الشرائع السابقة، ومع أن المؤمنين كانوا يبذلون الجهود المتواصلة إلا أن مسيرة دعوات الرسل في الأمم السابقة كانت تشهد حدوث انحرافات خطيرة والابتعاد عن الدين السليم، وهذا هو سبب إرسال الرسل بصورة دائمة.

إنها عملية متواصلة وصراع بين الحق والباطل تسعد أمم بسببها ذلك وتشقى بسببه أمم أخرى، وهذا ما تشير إليه الآيات التالية يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [الشعراء]، ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنعام]. أما في بعثة خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله ﷺ فقد تكفل الله بحفظ دينه بعاملين اثنين:

**العامل الأول**: حفظ الله القرآن الكريم: يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]، وحفظ الله تعالى هذا الكتاب من عبث العابثين ومن أي تبديل أو تحريف يحدث له: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت]، وهذا ما لم يتوفر للشرائع السابقة، بل أسندت مهمة الحفظ فيها إلى علمائها وأتباع الأنبياء، وهو فرق جوهري يتناسب مع المسيرة الدعوية، ففي هذه المناسبة يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة].

**العامل الثاني**: العلماء المجددون "ورثة الأنبياء": فعلى هذا الأساس من الضروري وجود علماء يخلفون الأنبياء في مهمتهم ويتولون تفهيم أحكام الدين وتوضيح معانيه ونشره وإبلاغه إلى البشرية، لأن بعثة محمد ﷺ وضعت حدًا لبعثة الأنبياء كونه خاتم الأنبياء والرسل فلا نبي بعده، والرسالة المحمدية رسالة خاتمة خالدة، وأن عمر الرسول عليه السلام محدود كغيره من البشر وليس بخالد كما هو معروف.

إنهم يرثون عن الأنبياء العلم والعمل معًا، وعندما ننظر إلى الأدوار المتميزة للعلماء في حياتنا فإننا نجد بسهولة ويسر أن أقوى المحفزات لما يقومون به هو فهمهم الدقيق لمعاني القرآن والسنة، وهذا هو ميراث الأنبياء الذي يشير إليه الحديث النبوي الشريف بكل وضوح وصراحة، وهو أغلى ما يمكن أن يملكه الإنسان. يقول رسول الهدى عليه السلام: (وإن العلماء ورثة الأنبياءِ، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه

أخذ بحظٍ وافر)، لم تكن مهمة الأنبياء جمع الأموال وتنميتها وكنزها لأنفسهم ولأغراضهم الشخصية، ولكن مهمتهم نشر العلم وتشجيعه بكل الوسائل الممكنة لأنه أبقى وأدوم وأنفع لحياة الأمم وتقدمها أفرادا وجماعات.

لقد ورث العلماء كذلك أساليب العمل وطرائقه وعلى رأسه العمل تطوعًا، لا ينتظرون الأجر والعوض من الآخرين، وهذا هو من واجبات العلماء الربانيين في ديننا الحنيف، وهو أمر جوهري في حفظ الدين لأنهم أصحاب التأثير الحاسم في مسيرة الحياة وما يقومون به يمثل العملية المركزية التي تحدث التغيرات الإيجابية في الحياة البشرية.

فالرغبة في التعلم والتعمق في فهم وإدرك ما يرنو إليه الدين الخاتم من المقاصد الكبرى هو المفتاح الذي يوصل العلماء إلى الإيمان العميق بضرورة القيام بما يعجز عنه الآخرون بمحض إرادتهم الحرة وطوع اختيارهم، وبدون إكراه من أحد أو تحقيق طمع عرض من أعراض الدنيا. هذه الرغبة الصادقة المبنية على الجهد المتفاني والإخلاص في السعي هي التي توصل أفرادًا من الأمة إلى الدرجات العليا في الغوص في فنون المعارف والعلوم، والتضحية من أجل حمل الأمانة التي ورثوها من الأنبياء والرسل جيلًا بعد جيل.

حفظ الله الدين بالعلماء العاملين الذين هم ورثة الأنبياء بعد أن تكفل الله بحفظ القرآن بنفسه، فبجهود ورثة الأنبياء تم حفظ السنة النبوية الشريفة، وقد بذلوا جهودًا ضخمة لحفظها وحمايتها وتنقيحها من كل العلل الواهية والدسائس الماكرة التي تعرضت لها السنة عبر الزمن، واستطاعوا تمييز الصحيح من السقيم، حتى سلمت في النهاية من التخريب والتبديل، لأن السنة مفسرة للقرآن الكريم ومفصلة لأحكامه وهي رديفة له، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾ [البقرة].

فقد ورد في تفسير الحكمة في هذه الآية بأنها السنة النبوية الشريفة، وذهب بعض العلماء إلى أنها الفقه في الدين، ولا تناقض بين التفسيرين لأن فقه الدين وفهمه لا يمكن أن يتم بدون وجود الأحاديث النبوية السليمة، لأن القرآن والسنة مترابطان دومًا، ومن هنا ندرك الأهمية القصوى لدور العلماء واستماتتهم في حمل هذا الدين بعد رسول الله ﷺ.

في تفسير ورثة الأنبياء ورتبتهم ومقامهم ذكر الإمام ابن القيم الجوزية جملة من اللطائف والنفائس فيقول: (ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بعثوا به علمًا وعملًا، ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم. وهذه أفضل مراتب الخلق، بعد الرسالة والنبوة، وهي مرتبة الصديقية. ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾ [النساء]، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة. وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأمته. فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه. وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ ... ١٩﴾ [الحديد]، قيل: إن الوقف على قوله: (هُمُ الصِّدِّيقُونَ) ثم يبتدئ (وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فيكون الكلام جملتين، أخبر في إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل، والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه)(١).

قال الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله في تفسير قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة]، (أي لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك زواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، سئل سفيان عن قول علي ﷺ: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾، قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسا. قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين)(٢).

---

(١) محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، طريق الهجرتين ودار السعادتين، الجزء الأول، دار السلفية- القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٩٤هـ، ص: ٣٥١.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء السادس، مصدر سابق، ص:٣٧١ -٣٧٢.

لهذا استحقوا نيل هذه التزكية العظيمة والوفيرة في نوعها، قال رسول الله ﷺ: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي)[1]. وقوله عليه السلام: (وإِن فضل العالمِ على العابِدِ كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب) ولما لأهمية الفقه في الدين قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله).

هذه المرتبة الرفيعة والمقام السامي لا يمكن أن يرتقي إليها بدون التبحر في بحار العلم، وهو مقام العلماء الربانيين الذين يستطيعون أن يقوموا بترجمة عملية للدين وأحكامه، وآدابه وأخلاقه وفضائله، ويسوسون بها البشر في الساحات التي تمكنهم من السباق الجاد، وتوجيههم نحو ما تقتضيه أوامر الله ليأتوا بها ونواهيه ليجتنبوها، وتلك هي المهمة التي بعث الله لأجلها الرسل وسخر لها ورثتهم من العلماء للذود عن الحق إلى يوم الدين، ينتظرون الأجر والمثوبة من رب العالمين على غرار ما كان شأن جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هود].

---

(١) رواه الترمذي.

## المبحث الثالث

## دور الورثة في حفظ الدين وتجديده

إن خلود هذا الدين وبقاءه في الحياة مع موت خاتم النبيين والأنبياء يعني وجود خلفاء يقومون مقامه ويؤدون وظيفته بدون انقطاع، هؤلاء الخلفاء هم العلماء الذين وصفهم الرسول ﷺ بأنهم ورثة الأنبياء والرسل غير أنهم لا يوحى إليهم، بل يرثون العلم من رسول الله ﷺ: ويتولون مهمته عبر التجديد والاجتهاد، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويصلحون ما أفسده الناس، هم ضياء الحياة ورونقها، والأئمة المهتدون الذين ينيرون للناس طريقهم حتى لا يضلوا عن الجادة المستقيمة والصراط القويم بواسطة العلم والمعرفة، وحقًا هذا هو الحظ الوافر الذي حقق للعلماء العاملين كل السبق والتفوق في مسيرة الحياة والأحياء كما قال الصادق الأمين رسول الله ﷺ: (وإن العلماء ورثة الأنبياءِ، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر)، فهم يبذلون أقصى ما لديهم لأداء المهمة الصعبة، يتحملون الأذى ويتعرضون دومًا للتحديات من خصومهم وأعداء الرسالة الإلهية ولكنهم يصبرون ولا يبالون بما يصيبهم من المشقات والمصائب مستبشرين ومرددين قول الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة]، وقول الله جل ثناؤه: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة].

# الفصل السادس
# علاقة الأعمال التطوعية بالمصلحة والمفسدة

**المبحث الأول:**

**المصلحة والمفسدة لغة.**

**المبحث الثاني:**

**المصلحة والمفسدة اصطلاحا.**

**المبحث الثالث:**

**المصلحة في القرآن الكريم.**

**المبحث الرابع:**

**أنواع المصلحة حسب المنافع والاستفادة.**

**المبحث الخامس:**

**مسؤولية تحقيق المصالح وحفظها.**

# المبحث الأول

## المصلحة والمفسدة لغة

**المصلحة لغة**

(الصَّلَاح: ضِدُّ الفَسَادِ وَقد يُوصف بِهِ آحادُ الأُمّةِ، وَلَا يُوصَف بِهِ الأَنبياءُ والرُّسلُ عَلَيْهِم السّلام.

الصُّلُوح: بالضّمّ. وأَنشد أَبو زيد:

**فَكَيْـفَ بـأَطْرَافِي إذا مَـا شَـتَمْتَني *** وَمَـا بَعْدَ شَـتْمِ الوَالِـدَيْنِ صُـلُوحُ**

وَقد صَلَحَ: كَمنَعَ، وَهِي أَفْصَحُ، لأَنّها على القِيَاس، المَشْهُورَة، وَهُوَ مُصْلِحٌ فِي أُمورِه وأَعمالِه. وَقد أَصْلَحه الله تَعَالَى: وَالجمع صُلَحاءُ وصُلُوحٌ. وأَصْلَحه: ضِدّ أَفْسَدَه، وَقد أَصْلَحَ الشَّيْءَ بعدَ فَساده أَقامَه. ومن المجَاز: أَصْلَحَ إِليه، أَحْسَن. يُقَال: أَصْلَحَ الدّابَةَ: إِذَا أَحْسَنَ إِليها فصَلَحتْ. وَفِي التّهذيب: تَقول: أَصْلَحْتُ إِلى الدَّابّةِ، إِذا أَحسنْت إِليها. ورأى الإِمَام المَصلحَة فِي كَذَا، وَاحِدَة المَصَالح، أي الصّلاح. وَنظر فِي مصَالح النَّاس. وهم من أهل المَصَالح لَا المَفَاسد.

الصَّلاحُ: ضِدُّ الفَسادِ، كالصُّلوحِ. صَلَحَ، كمَنَعَ وكَرُمَ، وهو صِلْحٌ، بالكسر، وصالِحٌ وصَليحٌ. وأصْلَحَه: ضِدُّ أفْسَدَه، واستصلح: نقيض استفسد[(١)].

**المفسدة لغة**

فَسَدَ، يَفْسُد ويَفسِدُ وفَسُدَ: كنَصَر، وعقَدَ، وكَرُمَ الأُولَى هِيَ المشهورةُ المعروفَةُ، فَسادًا، وفُسُودًا بالضّمِّ، مصدر ضِدُّ صَلَحَ، فَسَد الشيءُ، بَطَلَ واضْمَحَلّ، وَيكون بمعنى تغَيَّرَ، وَمن الأَوّلِ عِنْد الأَكثَر: ﴿ لَوْكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء]. فهُوَ فاسِدٌ وفَسِيدٌ فِيهَا مِن قَوْمٍ فَسْدَى، كسَكْرَى. كَمَا قَالُوا: ساقِطٌ وسَقْطَى. قَالَ سِيبَوَيْهِ: جَمْعُوه جَمْعَ هَلْكَى، لتقارُبِهِمَا فِي المَعنَى. والفَسَادُ: أَخذُ المالِ ظُلْمًا بِغَيْر حَق، هكذا فَسَّر مُسْلِمٌ البطينُ قولَه تَعَالَى: ﴿ ...لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص].

وَيُقَال: أَفْسَدَ المالَ يُفْسِدُه إِفْسادًا وفَسَادًا. ﴿ ...وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة]. وقولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ... ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم]. الفسادُ هُنَا: الجَدْبُ فِي

(١) الفيروز أبادي، تاج العروس وجواهر القاموس، مصدر سابق.

البرِّ، والقَحْطُ فِي البَحْرِ، أي فِي المُدُنِ الّتي على الأَنهارِ، وهذا قولُ الزَّجّاج. والمَفْسَدةُ ضِدُّ المَصْلَحَةِ، وَقَالُوا: هذا الأَمْرُ مَفْسَدةٌ لِكَذا، أي فِيهِ فَسادٌ. قَالَ الشَّاعِر:

**إِنَّ الشَّبَابَ والفَرَاغَ والجِدَهْ *** مَفْسَدةٌ للعَقْلِ أي مَفْسَدهْ**

وفَسَّدَه تَفْسِيدًا أَفْسَدَهُ وأَبارَهُ، قَالَ أَبو جُنْدَبٍ الهُذَلِيُّ:

**وقلتُ لَهُمْ قَدْ أَدْرَكَتْكُمْ تِيبَةٌ *** مُفَسِّدَةُ الأَدبارِ مَا لمْ تُخَفَّرِ**

أي إِذا شَدَّت على قَوم قَطَعَتْ أَدْبَارَهم، مَا لم تُخَفَّرِ الأَدْبَارُ، أي مَا لم تُمْنَع. وتفاسَدُوا: قَطَعُوا الأَرْحَامَ وتَدَابَرُوا، قَالَ:

**يَمْدُدْنَ بالثُّدِيِّ فِي المَجاسِدِ *** إِلى الرِّجَالِ خَشْيَةَ التَّفَاسُدِ**

يَقُول: يُخْرِجْنَ ثُدِيَّهُنَّ، يَقُلْن: نَنْشُدُكُم اللهَ إِلَّا حَمَيْتُمُونَا، يُحَرِّضْنَ بذلكَ الرِّجالَ.

واسْتَفْسَدَ فلانٌ إِلى فلانٍ: ضِدُّ استصْلَحَ [1]. و(فسد: الفسادُ: نَقِيضُ الصَّلَاحِ، فَسَدَ يَفْسُدُ ويَفْسِدُ وفَسُدَ فَسادًا وفُسُودًا، فَهُوَ فاسدٌ وفَسِيدٌ فِيهِمَا، وَلَا يُقَالُ انْفَسَد وأَفْسَدْتُه أَنا. وَقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ ﴾ نَصبَ فَسَادًا لأَنه مَفْعُولٌ لَهُ أَراد يَسْعَوْن فِي الأَرض لِلْفَسادِ. وَقَوْمٌ فَسْدَى كَمَا قَالُوا ساقِطٌ وسَقْطَى، قَالَ سِيبَوَيْهِ: جَمَعُوهُ جَمْعَ هَلْكى لِتَقَارُبِهِمَا فِي المْعْنَى. وأَفْسَدَه هُوَ واسْتَفْسَد فُلَانٌ إِلى فُلَانٍ. وتَفَاسَدَ القومُ: تدابَرُوا وَقَطَّعُوا الأَرحام؛ قَالَ:

**يَمْدُدْنَ بالثُّدِيِّ فِي المَجَاسِدِ *** إِلى الرجالِ، خَشْيَةَ التَّفاسُدِ**

يَقُولُ؛ يُخْرِجن ثُدِيَّهُنَّ يَقُلْنَ: نَنشدكم الله أَلا حَمَيْتُمُونا، يُحَرِّضْنَ بِذَلِكَ الرِّجَالَ. وَاسْتَفْسَدَ السلطانُ قائدَه إِذا أَساء إِليه حَتَّى اسْتَعْصَى عَلَيْهِ. والمَفْسَدَةُ: خِلَافُ المصْلَحة. والاستفسادُ: خِلَافُ الِاسْتِصْلَاحِ. وَقَالُوا: هَذَا الأَمر مَفْسَدَةٌ لِكَذَا أَي فِيهِ فَسَادٌ؛ قَالَ الشَّاعِرُ:إِنَّ الشبابَ والفَراغَ والجِدَهْ مَفْسَدَةٌ للعَقْلِ، أَي مَفْسَدَهْ)[2]. (فَسَدَ، كنَصَرَ وعَضدَ وكَرُمَ، فَسادًا وفُسودًا: ضِدُّ صَلُحَ، فهو فاسِدٌ وفَسيدٌ من فَسْدَى، والفَسادُ: أخْذُ المالِ ظُلْمًا، والجَدْبُ. والمَفْسَدَةُ: ضِدُّ المَصْلَحَةِ. وفَسَّدَه تَفْسيدًا: أفْسَدَه. وتَفاسَدوا: قَطَعوا الأَرْحامَ. واسْتَفْسَدَ: ضِدُّ اسْتَصْلَحَ)[3].

---

(١) الفيروز أبادي، تاج العروس وجواهر القاموس، مصدر سابق.

(٢) ابن المنظور، لسان العرب، مصدر سابق.

(٣) الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مصدر سابق.

## المبحث الثاني

## المصلحة والمفسدة اصطلاحا

عند الحديث عن المصلحة في المجالات الفقهية أو الأصولية أو الفهم العام لديننا فإن ما يتبادر إلى الأذهان هو كلمة المصلحة المضافة إلى لفظة "المرسلة" وتلك العبارة قديمة قدم التطورات الفقهية منذ عصر التابعين، ولعل الإمام مالك هو أول من استخدمها، ولذا فإن كثيرًا من العلماء في المذهب المالكي وفي المذاهب الأخرى يعتبرونها من الأدلة الشرعية المقبولة إذا لم تتوفر بقية الأدلة المتفق عليها في عموم المذاهب مثل الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

ولقد ذكره الزركشي: (فيما جهل، أي سكت الشرع عن اعتباره وإهداره، وهو المعبر عنه بالمصالح المرسلة. ويلقب بالاستدلال المرسل، ولهذا سميت مرسلة أي لم تعتبر ولم تلغ. وأطلق إمام الحرمين وابن السمعاني عليه اسم الاستدلال، وعبر عنه الخوارزمي في الكافي بالاستصلاح، قال: والمراد بالمصلحة: المحافظة على مقصود الشرع بدفع المفاسد عن الخلق. وفسره الإمام الغزالي بأن يوجد معنى يشعر بالحكم مناسب له عقلًا، ولا يوجد أصل متفق عليه، والتعليل المصور جار فيه. وفسره ابن برهان في الأوسط بأن لا يستند إلى أصل كلي ولا جزئي. وفيه مذاهب)[1].

يقول الإمام الغزالي في تعريف المصلحة: (أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة، وإذا أطلقنا المعنى المخيل والمناسب في كتاب القياس أردنا به هذا الجنس وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع في رتبة الضرورات، فهي أقوى المراتب في المصالح)[2].

---

(١) أبو عبد الله الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، الجزء الثامن، دار الكتبي ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص: ٨٣.

(٢) أبو حامد الغزالي، المستصفى، الجزء الأول، مصدر سابق، ص: ١٧٤.

ويشرح الغزالي معنى مقاصد الشرع في المصالح، ويحدد بوضوح مرجعيتها ومصادرها، فيقول رحمه الله تعالى: (ومقاصد الشرع تعرف بالكتاب والسنة والإجماع. فكل مصلحة لا ترجع إلى حفظ مقصود فهم من الكتاب والسنة والإجماع وكانت من المصالح الغريبة التي لا تلائم تصرفات الشرع فهي باطلة مطرحة، ومن صار إليها فقد شرّع كما أن من استحسن فقد شرع، وكل مصلحة رجعت إلى حفظ مقصود شرعي علم كونه مقصودًا بالكتاب والسنة والإجماع فليس خارجًا من هذه الأصول، لكنه لا يسمى قياسًا بل مصلحة مرسلة، إذ القياس أصل معين، وكون هذه المعاني مقصودة عرفت لا بدليل واحد بل بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسنة وقرائن الأحوال وتفاريق الأمارات تسمى لذلك مصلحة مرسلة، وإذا فسرنا المصلحة بالمحافظة على مقصود الشرع فلا وجه للخلاف في اتباعها[(١)] بل يجب القطع بكونها حجة)[(٢)].

وقال الشاطبي: (المصلحة ما فهم رعايته في حق الخلق من جلب المصالح ودرء المفاسد على وجه لا يستقل العقل بدركه على حال)[(٣)]. وقال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور المصلحة: (وصف للفعل يحصل به الصلاح، أي النفع منه دائمًا أو غالبًا للجمهور أو للآحاد، وأما المفسدة فهي ما قابل المصلحة. وهي وصف للفعل يحصل به الفساد، أي الضر دائمًا أو غالبًا للجمهور أو للآحاد)[(٤)] .

يعتقد عز الدين بن عبد السلام بأن الهدف الأساسي لديننا الإسلامي ومقاصده الكبرى التي لا يحيد عنها هو مصلحة الإنسان فيقول: (وقد أمر الله تعالى بإقامة مصالح متجانسة وأخرج بعضها عن الأمر، إما لمشقة ملابستها وإما لمفسدة تعارضها، وزجر عن مفاسد متماثلة وأخرج بعضها عن الزجر إما لمشقة اجتنابها، وإما لمصلحة تعارضها، ويعبر عن المصالح والمفاسد بالخير والشر، والنفع والضر، والحسنات والسيئات؛ لأن المصالح كلها خيور نافعات حسنات، والمفاسد بأسرها شرور مضرات سيئات، وقد غلب في القرآن استعمال الحسنات في المصالح، والسيئات في المفاسد.

(١) ما يشير إليه هنا هو الخلاف بين العلماء في مسألة حجّية المصالح المرسلة.

(٢) أبو حامد الغزالي، المستصفى، الجزء الأول، المصدر السابق، ص: ١٧٩ .

(٣) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص: ٩

(٤) محمد طاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، الجزء الثالث، حققه محمد الحبيب الخوجة، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – دولة قطر١٤١٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص: ٢٠٠-٢٠١.

ويقول: ومعظم مصالح الدنيا ومفاسدها معروف بالعقل وذلك معظم الشرائع؛ إذ لا يخفى على عاقل قبل ورود الشرع أن تحصيل المصالح المحضة، ودرء المفاسد المحضة عن نفس الإنسان وعن غيره محمود حسن، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن، وأن درء أفسد المفاسد فأفسدها محمود حسن، وأن تقديم المصالح الراجحة على المرجوحة محمود حسن، وأن درء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن، واتفق الحكماء على ذلك. وكذلك الشرائع على تحريم الدماء والأبضاع والأموال والأعراض، وعلى تحصيل الأفضل فالأفضل من الأقوال والأعمال. وإن اختلف في بعض ذلك فالغالب أن ذلك لأجل الاختلاف في التساوي والرجحان، فيتحير العباد عند التساوي ويتوقفون إذا تحيروا في التفاوت والتساوي)[١].

تأكيدا للمعاني السابقة الموضحة لاشتمال الشريعة على كافة معاني السعادة يضيف شيخنا الجليل عز الدين إلى ما سبق إضافة جديدة تجلي معاني المصالح وتفسر غاياتها المثلى مما يعطيها وضوحا وجمالا ورونقا، فيقول رحمه الله تعالى: (والشريعة كلها مصالح إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: (يا أيها الذين آمنوا): فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيرًا يحثك عليه أو شرًا يزجرك عنه، أو جمعا بين الحث والزجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثًا على اجتناب المفاسد وما في بعض الأحكام من المصالح حثًا على إتيان المصالح)[٢].

وفي هذا الموضوع يقول العلامة ابن تيمية: (إن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وأنها ترجح "خير الخيرين وشر الشرين"[٣] وتحصيل

---

(١) عز الدين بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، الجزء الأول، ص: ٥- ٦.

(٢) نفس المصدر، ص: ١١.

(٣) (خير الخيرين وشر الشرين) هو تعبير في غاية الروعة لأنه يعبر عن حياتنا المليئة بالأفراح والحبور والبهجة إلى جانب المنغصات والعوامل التي تكدر صفوها وجمالها، فمن البداية لا بد أن نربي أنفسنا وننشأ على تلك الحالة الأجيال المتعاقبة في مجتمعاتنا الصاعدة حتى يكون لدينا الجاهزية الكاملة المادية والمعنوية، ونصبح قادرين على مواجهة التحديات والصعوبات التي نواجهها باستمرار، فالكفاح من أجل التنمية والتقدم والرخاء وزرع الخير بأنواعه ضرورة لديمومة حياة سعيدة، كما أن محاربة الشرور وكافة عوامل الهدم والتخريب والمثبطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية ضرورة ملحّة حتى نقلل من المخاطر التي تعيق تقدمنا وتعرقل مسيرة حياتنا.

أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما فنقول: قد أمر الله ورسوله بأفعال واجبة ومستحبة؛ وإن كان الواجب مستحبًا وزيادة. ونهى عن أفعال محرمة أو مكروهة والدين هو طاعته وطاعة رسوله وهو الدين والتقوى؛ والبر والعمل الصالح؛ والشرعة والمنهاج وإن كان بين هذه الأسماء فروق. وكذلك حمد أفعالًا هي الحسنات ووعد عليها وذم أفعالًا هي السيئات وأوعد عليها وقيد الأمور بالقدرة والاستطاعة والوسع والطاقة، فقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ... ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن] وقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ ... وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ... ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق]، فالتعارض إما بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما؛ فتقدم أحسنهما بتفويت المرجوح وإما بين سيئتين لا يمكن الخلو منهما؛ فيدفع أسوأهما باحتمال أدناهما. وإما بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما؛ بل فعل الحسنة مستلزم لوقوع السيئة؛ وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة؛ فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة)(١).

ولقد أعطانا الدكتور أحمد الريسوني في كتابه القيم "نظرية المقاصد عند الشاطبي" ملخصًا مفيدًا لتعريف المصلحة والمفسدة وما يدخل فيهما بعد أن استعرض أقوال العلماء والتنوع الوارد في العبارات المستخدمة عند تعريفهما لدى طائفة من علمائنا الأجلاء في فترات زمنية متباعدة، فقال: (وبناء على كل ما تقدم من تعريفات، فإن مفهوم المصلحة والمفسدة عند العلماء المسلمين يدخل فيه: المصالح الأخروية ووسائلها وأسبابها- والمفاسد الأخروية ووسائلها وأسبابها.

وحقيقة المصلحة: هي كل لذة ومتعة، جسمية كانت أو نفسية أو عقلية أو روحية، وحقيقة المفسدة هي كل ألم وعذاب، جسميا كان أو نفسيًا أو عقليًا أو روحيًا، فالتعبير عن المصلحة باللذة والمتعة، لا يعني -أبدًا- أن المصلحة منحصرة في تلبية الشهوات وإشباع الغرائز الجسمية، وإنما هي لذات ومتع ومنافع متعددة الوجوه والأبعاد. ومثل هذا يقال عن المفاسد.

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المجلد ٢٠، ص: ٤٨- ٥١.

ولتفادي أي تضييق أو التباس في مفهوم المصلحة: نص الشاطبي على أن المصالح الحقيقية، هي التي تؤدي إلى إقامة الحياة لا إلى هدمها، وإلى ربح الحياة الأخرى والفوز فيها، يقول: "المصالح المجتلبة والمفاسد المستدفعة" إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى. لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها العادية، فالشريعة إنما جاءت لتخرج المكلفين من أهوائهم حتى يكونوا عباد الله. وهذا المعنى إذا ثبت، لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشريعة على وفق أهواء النفوس، وطلب منافعها العاجلة)[1] .

(١) الدكتور أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الشاطبي، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، الطبعة الثانية، ص: ١٣٥.

## المبحث الثالث

## المصلحة في القرآن الكريم

### أمثلة من مجالات الصلاح والإصلاح في القرآن الكريم:

استشعارًا بثقل الواجبات التي يحتمها علينا ديننا من أجل تحقيق المصالح وجلبها، وصعوبة ما نواجه من ضخامة المسئوليات والواجبات من أجل درء المفاسد وتقليل انتشارها، ومقاومة شرورها ومحاولة محو آثارها وسيئاتها من داخل أنفسنا وبيوتنا، ومن داخل مؤسساتنا ومجتمعاتنا ودولنا، وفي كل الأمكنة في العالم الواسع التي يمكن أن يكون لنا فيها أثر فيه فإنه من المستحسن أن ننظر إلى المصلحة في القرآن من خلال جذر كلمة المصلحة وفعلها الثلاثي الذي هو:(صلح) ونختار من مشتقاتها المتعددة ما يناسب موضوعنا هنا.

فنأخذ كلمة "الصالحات" والتي كثر ورودها في القرآن الكريم مع صحبة الإيمان والعمل في رحلة سياحية ممتعة تنتقل من محطة إلى أخرى، ومن مجال إلى آخر، ومن سورة إلى أخرى، لتشمل كافة جوانب الحياة وساحاتها المختلفة في خمسين مرة، تبدأ من سورة البقرة، يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة]، وتقف عند سورة العصر، يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر]. إنها مجرد نموذج لمشتقات مادة "صلح" التي منها جاءت المصلحة، وتجنبا من الإطالة فإننا سنختار من عدد محدود من المجالات المتنوعة التي تشخص أمراض المجتمع ومشاكله، وتضع لتلك المشاكل الحلول والعلاجات المناسبة من خلال الآيات القرآنية.

لقد سجل كتاب الله العزيز الجملة ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خمسين مرة، وهي تتناول مختلف القضايا في مجالات جد متنوعة تشمل التوحيد، والعبادات، والمعاملات، والمشاكل الاقتصادية، والأخلاقية، والمعرفة والثقافة، والإصلاح الاجتماعي الشامل،

ومحاربة الربا والفساد المالي، والتركيز على التمسك بمنهج الشريعة في مختلف دروب الحياة، كما تعالج شؤون الأسرة كبارًا وصغارًا، أزواجًا وزوجات، وتخاطب الفرد والجماعة، وتشير بقوة إلى الاستخلاف والتمكين وتنظيم الحياة، فهي كما سنرى في نهاية هذا الموضوع، وهي حاوية شعب الحياة في الدنيا، كما تعرض لنا صورًا عديدة في نعيم الآخرة لتقريب ما أعد الله للمؤمنين للأذهان في جنات خالدة لا فناء لها أبدا، وبهذا فهي تحقق للإنسان أكبر متعة ولذة لا تزول، يقول الله جل ثناؤه:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ
وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ
وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ
وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزخرف].

إن الحياة البشرية كلها تحتاج إلى العمل الإيجابي المتواصل، والصلاح والإصلاح هو البوابة الوحيدة لاستقامتها، والواجبات التي ينبغي أن يشترك الجميع في تحقيقها لكونها ضرورة للبقاء ولابد من التشبث بخيوط المعيشة وضمان سلامتها وعدم انهيارها وتصدعها بتصرفاتنا الساذجة. ولهذا فإن العمل في إطار الصلاح والإصلاح ضرورة في كافة المجالات، ونحن نختار من القرآن الكريم أمثلة تحمل أهمية قصوى في حياتنا من حيث المصالح العامة والخاصة لنتناول بعد ذلك ما هي أنواع الواجبات والفروض المطلوبة لتحقيق مصالحنا في الحياتين الأولى والآخرة، وما هي الأصناف البشرية التي يطلب منهم الشرع تحقيق المصالح في الأرض.

بإذن الله تعالى وتوفيقه سأذكر عددًا من النماذج في القرآن الكريم والتي تتحدث عن مجالات وردت فيها مشتقات كلمة "صلح" وهي كثيرة، ومن بينها المصلحة والصالح والصلاح والإصلاح والصلح والصالحات وغير ذلك، وسوف نركز على كلمة "الصالحات" كما أشرنا إليه سابقا، وما نختاره من الأمثلة هنا لا يمثل بحثًا شاملًا ولا استقصاء في الموضوع، بل مجرد أمثلة تهدف إلى استكشاف أهمية المصلحة في ديننا وتنوع المجالات التي يتحدث عنها القرآن باستفاضة وهي تعبر عن دلالات كلمة: صلح" واشتقاقاتها الثرية في كتاب الله جل ثناؤه.

**أولاً: التلازم بين الإيمان والعمل لتحقيق المصالح:**

يقول الله جل ثناؤه: ﴿... فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام]. قال ابن تيمية رحمه الله: (والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور]، فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان)(١).

قال ابن القيم عن أعمال القلوب: (إن الكلام في مسألة النية شديد الارتباط بأعمال القلوب ومعرفة مراتبها وارتباطها بأعمال الجوارح وبنائها عليها وتأثيرها فيها صحة وفسادا وإنما هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبع ومكملة ومتممة، وأن النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء، الذي إذا فارق الروح فموات، وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث. فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها)(٢).

وقال ابن تيمية: (ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت، فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب"، وقال أبو هريرة: "القلب مَلِكٌ والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خَبُثَ الملك خبثت جنوده"، فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملاً قلبيًا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول

---

(١) ابن تيمية، كتاب الإيمان، الجزء الأول، المكتب الإسلامي، عمان- الأردن، الطبعة الخامسة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ص: ١٧٥.

(٢) محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، الجزء الثالث، دار الكتاب العربي، لبنان- بيروت، ص: ١٨٨.

الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد)[1].

لقد قرن الله الإيمان بالعمل الصالح بصورة ملفتة للنظر مجملة أو مفصلة مما يدل على العلاقة التلازمية بين العنصرين، فالتلفظ بالشهادتين مع الإيمان القلبي ثم الإيمان بأركان الإسلام، وأركان الإيمان هي البداية السليمة للدخول في الإسلام والانضمام إلى موكب المسلمين المؤمنين من أتباع رسول الله ﷺ، ولكنه من المعلوم أن الله أوجب على المسلمين أعمالًا لا يجوز تركها أو التساهل في أدائها مثل الصلوات المكتوبات وصوم شهر رمضان ودفع الزكاة وحج بيت الله الحرام.

إذًا هناك تلازم لا انفكاك فيه بين الإيمان والعمل الصالح، وهذا الطريق طريق الإيمان وعمل الصالحات معًا هو المؤدي وحده إلى الفلاح والنجاة والأمن من الخوف ومن الأحزان في الدنيا والآخرة، فإقرار الشهادتين وبقية أركان الإسلام بدون الأعمال الصالحات الواجبات هو مجرد ادعاء لا دليل يدعمه على حقيقته وصدقه، أما العمل بدون الإيمان بالله الخالق وعدم الانطلاق من شريعته هو اتباع الهوى وليس عملا صالحا في نظر الشريعة الإسلامية، ولا يخدم أي عمل خارج عن الشرع المقاصد الكبرى لهذا الدين. ولعلّ الآية التالية تشير إلى بعض هذه المعاني: يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ ﴾ [البقرة].

والترابط المحكم الدقيق بين الإيمان والعمل الصالح هو الذي يرفع مقام العاملين إلى درجات عالية ومقامات رفيعة قريبة للمقامات التي يتمتع بها الرسل والأنبياء والأولياء، وهي مرتبة الصالحين، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩ ﴾ [العنكبوت]. فالصالحات في المفهوم القرآني تعني القيام بالواجبات والنوافل المأمورة وغرس الخيرات والفضائل وجميع أنواع البر مع الاجتناب عن المحرمات والمنكرات المنهيات ومحاربة الفاسدين في الأرض، ولزوم التوبة والإنابة إلى الله

(١) ابن تيمية، كتاب الإيمان، مصدر سابق، ص: ١٤٩ .

كلما ارتكب الإنسان ذنوبًا مهما صغرت، وعلى هذا الأساس استحق هؤلاء العاملون رتبة الصالحين وهي الرتبة التي مجد الله الأنبياء بها، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء].

وفي قصة نبي الله يونس ﷺ ذكر الله نعمتين عظيمتين أعطاهما إياه، أولاهما الاجتباء، وثانيهما الصلاح، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القلم].

أما الآية التالية فهي تؤكد معنى التلازم بين الإيمان والصلاح حيث يأمر الله الرسل والأنبياء بالعمل الصالح مع العلم أنهم المبعوثون رحمة للعالمين، فهم خير من يقومون بالواجبات لأنهم أرسلوا لتبليغ رسالة رب العالمين، ولكن مثل هذه التوجيهات موجهة إلينا أكثر من الرسل لأننا في حاجة ماسة دومًا إليها بينما الأنبياء معصومون من الوقوع في الذنوب والمنكرات، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال].

### ثانيًا: إصلاح مجالات المعرفة:

العلم أساس النهضة للشعوب والدول، وهو المقياس لمدى التقدم أو التأخر والغنى والفقر، ومن الفضل والسبق في الدين الإسلامي أن كانت أول كلمة نزلت من القرآن الكريم " اقرأ" يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق].

وأي تقصير في خدمة العلم والمعرفة والثقافة سيؤدي إلى تجهيل الأجيال المتعاقبة وطمس معالم الحضارة والمكتسبات التاريخية للأمم والشعوب، وهو بمثابة إنذار لمقومات البقاء وانهيار المصالح لأي أمة سلكت هذا المسلك المظلم في مسيرة حياتها.

ومما يشكل الخطورة المحققة تعطيل أسباب المعرفة وعدم نشر فنون العلوم في وقتها وتوفيرها للأجيال المتعاقبة، كما أن كتمانها أو تشويه صورتها بقصد أو غفلة أو عن جهل سيؤدي إلى تجهيل الناشئة وموروثات الأمم، أما العجز عن مواكبة التطورات المعرفية والسير مع الثورة المعرفية المعاصرة جنبًا إلى جنب على أقل التقدير فإنها عوامل تجعلنا في ذيل القافلة البشرية، وتفرض علينا التبعية والذوبان في ثقافة الأمم الأخرى، والاستمرار في هذا المضمار هو في النهاية ما سيخرجنا تماما من الحياة الكريمة وستلفظنا الدنيا وترمينا خارج أسوار العالم. وفي هذا يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة].

يبين الله في الآيات السابقة ما يعنيه ذلك ويستحق أصحابها بموجبها لعنات الخالق ولعنات مخلوقاته، وهذا ذروة العقاب في القرآن الكريم، وسوف تظل اللعنات تطاردهم حتى يتوبوا ويفيقوا من غفلتهم ويقوموا بواجب نشر العلم بين الناس الذين يحتاجون إليه، علمًا بأن الناس كل الناس هم في أمس الحاجة إلى التزود من مختلف المعارف ليصبحوا من البشر، ومن الضروري بذل أكبر الجهود في تقوية البحث العلمي ورصد الميزانيات المناسبة له في جامعاتنا وشركاتنا وكافة مؤسساتنا وفي دولنا لمواكبة التطورات العلمية، والإسهام في الابتكار والتجديد والاجتهاد لوضع الحلول للمتطلبات التي تدعو إليه حاجاتنا المتجددة دومًا.

### ثالثًا: إصلاح القضاء ونشر العدالة في الأمة:

العدالة قوام الحياة البشرية والتي بدونها تخلو الحياة من الأمن والاستقرار، لأن سيادة المظالم الاجتماعية والاعتداء على حقوق الآخرين تفقد الحياة معانيها، ويحل الخوف والقلق والاضطراب المستمر في النفوس، ومن هنا ندرك ضرورة خلق العدالة الاجتماعية، وهذه المهمة من الواجبات على أفراد المجتمع كل بحسب قدرته المتاحة في

الموقع الذي يشتغل فيه. تأكيدًا لهذا المعنى الجليل الذي هو قوام الحياة والركن الركين للدول والمجتمعات والأسر والأفراد تأتي التوجيهات الربانية في مثل الآية التالية، إذ يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص].

## رابعا: أهمية إصلاح شؤون العائلة

**المصلحة العامة تحقق المصلحة الخاصة**، إن خدمة المصلحة العامة تحقق المصلحة الخاصة، لقد هيأ الله موسى عليه السلام فرصة إسداء خدمة جليلة لبنتي شعيب بدون معرفة سابقة أو ترجي أية مصلحة دنيوية أو علاقة قرابة بينه وبينهما حين رأى عجزهما عن سقي الغنم وتخلي الآخرين عنهما، فعلى لسانه يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص].

فترتب على ذلك خير عميم ساقه الله إلى موسى وأوله الأمن من الخوف ووظيفة مشرفة ضمنت له حياة كريمة، وبناء أسرة شريفة واستقرار نفسي وهي العوامل التي كانت جزأ من التهيئة والإعداد والتربية المطلوبة لاستقبال النبوة والرسالة، خطوة مباركة تلتها أحداث كبيرة غيرت مجرى التاريخ، في رحلته التاريخية فبعد أن سقى الغنم وجلس تحت الشجرة، وسرت قصته في آل شعيب رحمه الله تعالى تم تكريمه واستضافته ومكافأته وتمت المفاهمة بينه وبين شعيب حول ما جرى لموسى كانت أول جملة نطق بها شعيب: ﴿ ...لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص].

وكانت الخطوة الثانية أن لبى شعيب رأي بنته العاقلة الحازمة التي كشفت قدرات هذا الرجل من القوة البدنية والخلقية، وكان مدخل العلاقة بين الطرفين هو رغبة الاستئجار: ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص] وهي الخطوة التي أدت إلى المرحلة الثالثة وهي عرض الزواج عليه مقابل

عمله وخدمته للعائلة الكريمة، يقول الله جل ثناؤه على لسان شعيب: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص].

**الإصلاح هو العمود الفقري لتماسك الأسرة وبقائها:** بما أن الخلافات في الحياة البشرية لأمر واقع بأسباب متنوعة، والأسرة معرضة لمثل هذه الحالات كغيرها من المؤسسات فإن للإصلاحِ في الأسرة دورًا بارزًا من أجل الحفاظ على استقرارها وضمان التجانس بين الزوجين وتوفير الطمأنينة لجميع أفرادِها قبل بلوغ وضعها إلى مرحلة تفاقم أزماتها واستحالة الحلول المناسبة التي يعقبها التصدع وانهيار البنيان على الرؤوس، وفي هذا الأمر يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء].

والصلح هو صمام الأمان للأسرة لأنه يبقي خصوصية الأسرة وأسرارها في طي الكتمان، ويتحمل الزوجان مسئوليتها وحل مشكلاتهما أولًا بأول قبل أن يضطرا إلى محيطهما الخارجي للتحكيم، وهو ما تتحدث عنه الآيات القرآنية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء].

ونلاحظ هنا كيف أن الإصلاح ضرورة للحفاظ على مصلحة الأسرة وعدم التفريط في أمرها مهما بلغ الخلاف بين الزوجين، وأنه لا ينبغي أن تنهار الأسرة وينتهي العقد المقدس بالطرق العاطفية والانفعالات والغضب الفجائي الناشئ أحيانًا من الأسباب التافهة، أما إذا أخذت الأمور مجراها الطبيعي من الجهود الداخلية والخارجية واستنفدت كافة المراحل عبر المصالحة ولم يتفق الطرفان بعد هذه الجهود فإنهاء العقد بعدها يكون

ضرورة لا مناص منها وباتفاق الطرفين والتراضي كما يقو الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء].

**بر الأبناء ناتج عن صلاح الوالدين:** يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات]، رغم أنها نبيان ولكننا نستأنس هنا مستوى البر والطاعة والتوافق بين الأب والابن في مسألة مصيرية مرتبطة بالحياة نفسها، إنها ناتجة عن البيئة التربوية المستقيمة والانقياد التام للوحي، فالمدخل السليم للتربية هو اللجوء والتضرع إلى الله في الدعاء لأن يرزقك الله أبناء صالحين ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فحضور الشورى بين الوالدين وبين الأبناء في أحلك الظروف تعلمنا كيفية التعامل مع أفراد العائلة فجملة ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ هو المفتاح السحري للأمن العائلي وهو المؤدي إلى بزوغ روح التعاون بين الأفراد وهذه من النتائج المباشرة المتوقعة من الأبناء الصالحين ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ ﴾ .

**بر الوالدين مع الاختلاف في المعتقدات من الصالحات:** يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [العنكبوت]، مجيء الصالحات بعد أمر الله ببر الوالدين المختلفين مع الأبناء في العقيدة مع الاحتفاظ بالاستقلالية التامة في الأفكار والمعتقدات، هي تلميحة قوية بقيمة الوالدين وضرورة برهما في جميع الظروف والأحوال، وإن عملًا كهذا يدخل في صميم الأعمال الصالحة للحفاظ على كيان الأسرة رغم الاختلاف.

**من الصلاح شكر النعم عليك وعلى والديك:** بعد أن سمع نبي الله سليمان عليه السلام خطاب النملة المحذرة لبقية النمل يقول الله جل ثناؤه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل] وحين فهم ما لا يفهمه الناس الآخرون رق قلبه حتى تبسم وتذكر نعم الله عليه وعلى والديه، يقول الله جل ثناؤه حكاية عن نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن

قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل].

**لقد تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثة أمور حيوية:**

**أولها**: تذكره نعم الله عليه وعلى والديه والتي منحها إياهم وسؤله الله تعالى أن يوفقه إلى شكرها.

**ثانيها**: يسأل الله تعالى أن يوفقه ويلهمه بالعمل الصالح الذي يرضاه الله تعالى عنه في هذه الحياة.

**ثالثها**: يسأل الله أن يدخله بفضله ورحمته في موكب عباده الصالحين وهم الفالحون الفائزون.

**صلاح الوالدين من أسباب حفظ الذرية ومصالحهم**: يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف].

الآباء والأمهات يملكون محبة لأبنائهم لا يعلم كنهها ووزنها وعمقها إلا الله الذي يعلم السر وأخفى، الخالق العليم الخبير بحقيقة هذا الإنسان، فهم يضحون من أجلهم ويقتحمون المخاطر لتوفير احتياجاتهم الضرورية والكمالية، والفاسدون من الآباء والأمهات يرتكبون المحرمات والمنكرات لإسعادهم وإدخال السرور في نفوسهم على حساب أبناء الآخرين، وتلك ظاهرة معروفة في مختلف المجتمعات البشرية.

وهنا لفتة جميلة ترشدنا الآية السابقة إليها، وهي أسهل الطرق وأحسنها وأكثرها ضمانا لحفظ مصالح أبنائنا الضعاف من مختلف الآفات وأنواع المظالم عندما نعجز نحن أولياء أمورهم عن مساعدتهم أيا كانت الأسباب، إن هذا الطريق الأيسر هو أن نبذل كل جهد ممكن في حياتنا من أجل مساعدتهم عبر الاستقامة على الحق والديمومة في عمل الصالحات مثل نصرة المظلومين ومساعدة المحتاجين، والكسب الحلال وتربيتهم تربية صالحة، وتلك التصرفات هي المحبة الحقيقية غير الوهمية، وهي التي تنقذ أبنائنا من المذلة

والمهانة والإذلال في حياتنا وبعد مماتنا، ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ هنا يمثل صلاح الأب من أقوى الأسلحة للدفاع عن الكنز المدفون، ولعل مات الأب الصالح قبل أن يخبر الكنز المدفون تحت المنزل المتهالك أحدًا، ولكن الله حفظه فأرسل لكشفه العبد الصالح الذي قاد نبي الله موسى في رحلتهما العجيبة ليبني الجدار الذي سيحفظ كنز اليتيمين إلى أن يبلغا سن البلوغ وتحمل المسؤولية وهذا بتوفيق الله لحفظ أبناء الصالحين رحمة من ربنا.

فلننظر كيف حفظ الله كنز اليتيمين الضعيفين من أيدي الظالمين العابثين بسبب صلاح الوالد واستقامته على النهج الرباني، فبسقوط الجدار كان الكنز سينكشف للناس، وهذا ما لم يكن لصالح اليتيمين وكنزهما، فأرسل الله هذا العبد الصالح ليمنع انهيار الجدار بفضل الله تعالى ويبقى على حاله إلى ما شاء الله تعالى.

كم نعرف من الآباء الظالمين الذين جمعوا المال الحرام واعتدوا على حقوق الناس ونهبوا أموالهم لإشباع رغباتهم الشيطانية ليصبح أبناؤهم أغنياء مدى الحياة، فسبحان مغير الأحوال ومدبر شؤون خلقه، فقد تحولت حياتهم إلى جحيم لا يطاق كما تحول أبناؤهم إلى حياة شقية وفقر مدقع، أو الأمراض الفتاكة وتمزق عائلي حتى شاهدناهم وهم يعتمدون في حياتهم على إعانات غيرهم بكل مذلة ومهانة.

**الصلاح يصنع الأسرة المثالية:** يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحقاف]، هنا عدد من الإشارات المهمة.

**أولًا:** التذكير ضرورة للتوبة والعودة إلى جادة الصواب، والآيات فتحت لنا باب استحضار المشقة التي مرت بها أمهاتنا من الحمل والولادة والتنشئة حتى سن التكليف وبلوغنا سن الرشد والقيادة وتحمل كامل المسؤوليات الأسرية وغير الأسرية.

**ثانيًا:** بعد انتهاء دور الوالدين الصالحين في تربية أطفالهم وأبنائهم وبعد أن اكتملت قوة الأبناء يتذكر الابن في هذه الآية نعم الله الواسعة عليه وعلى والديه، ويسأل الله أن

يوفق شكرها وأن يسدد خطاه في الحياة حتى يظل في محيط الأعمال الصالحة بدون انقطاع إلى أن يحقق رضى الله، وهي غاية الغايات للمسلم لأنها تمثل الضمان الأكيد لمستقبلنا، وعلى رأس تلك النعم الكبيرة نعمة الحياة وأسبابها والإيمان والتربية الناجحة والصحة والأرزاق المتنوعة والأمن وغيرها، وهي خارجة عن الإحصاء والتعداد كما نجد بعض جوانبها فيقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

**ثالثًا**: من أجل انتقال الصلاح من جيل إلى جيل لحماية المكتسبات لبقاء هذه الأمة قوية بقوة إيمانها واستقلالية منهجها في الحياة بدأ الابن الراشد يدرك موقعه في الحياة، إنه جاهز لقيادة مسيرة الحياة، وتوجه إلى الله واهب الحياة بكل تضرع بهذا الدعاء: ﴿ ... وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف].

**رابعًا**: الاعتزاز بالمبدأ الذي يؤمن به المرء سر قوة القيادة الناجحة، فبانعدام وجود عقيدة راسخة لدى الإنسان فإنه لن يستطيع أن يحدث التغيير المنشود في نفوس الآخرين، والمنتصرون في كل المعارك هم الذين يؤمنون بعقيدة النصر وأنهم يستحقونه هذا بكل جدارة واقتدار، فمجاهرة هذا الابن الراشد بدينه وعقيدته هو الدافع الأكبر لإصراره وتمسكه بالمنهج القويم الذي لا يتزحزح عنه مهما واجه الصعاب، فكلما أخطأ عن الطريق المستقيم فلديه القدرة على العودة إليه لأن لديه الخارطة المفصلة للاهتداء والعودة إلى الصواب، إنه يجاهر بدين الأنبياء جميعا ويفتخر بهذا أمام البشر جميعا.

هناك جملة من العوامل والأسباب والصفات التي تساهم في تزكية الأزواج ورفع مقامهم عند الله سبحانه، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

عندما تتحد المفاهيم والقيم بين الآباء والأمهات في منازلنا، وتنطلق تصرفاتهم من قناعة راسخة يوجهها منهج واحد في حياتهم دومًا مع أنفسهم ومع أبنائهم، ومع من يعيش في محيطهم يستطيعون أن يضحوا أوقاتهم وأفكارهم وأموالهم وجميع الإمكانات المتاحة لهم، واتخاذ كافة القرارات المناسبة لتربية أطفالهم تربية سليمة تكسبهم المناعة الكافية والضرورية لمواجهة التحديات، وبهذا الجهد والتعاون بين الزوجين تنشأ الأجيال ويقوى عودها بعيدين عن الانحرافات والموبقات المؤدية إلى الخسران الدنيوي والعذاب الأخروي، وهو يأمر به الله المؤمنين وهو أولى الواجبات العينية على الوالدين، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم].

إن الآباء والأمهات الذين يسلكون هذا المسلك التربوي الصعب هم الفائزون إن شاء الله تعالى في الدنيا والآخرة، لأنهم استجابوا لنداء الحق، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال].

وبسبب ما قاموا به من العناية والرعاية لأبنائهم فهم يساهمون بشكل مباشر في بناء المصلحة العامة وصناعة القيادة المستقبلية للأمم والأوطان، لأن المجتمعات بقدر ما تنجح في المجال التربوي فهي ترفع شأنها في مختلف المجالات بما فيها الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعرفية، لأن أي نجاح في الحياة مرهون بوجود قيادة صالحة، ولا قيادة صالحة بدون وجود بيئة تربوية حاضنة مشبعة بحكم ينابيع الأسر المستقيمة والمناهج الهادفة.

ولقد أكرم الله كل إكرام هؤلاء الآباء والأمهات وهم أولياء الأمور الذين قاموا بهذا الدور المثالي في زحمة الحياة وتعقيداتها المتزايدة، حيث جازاهم خير الجزاء عندما جعل الأعمال الصالحة التي يقوم بها أبناؤهم وذرياتهم الذين تربوا على هذا النهج القويم تلحق بأعمالهم وكأنهم قاموا بها بأنفسهم في حياتهم، وتضاف إلى ميزان أعمالهم بدون أن ينقص من أجور العاملين شيئا كما قال المفسرون في تفسير الآية التالية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا

كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور]:، وقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم].

**خامسا: إصلاح المجتمع**

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ [الطلاق]، يقول رسول الرحمة والهداية محذرا من تمادي الظالمين بظلمهم في المجتمع (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده).

إن العمل الصالح المصاحب للإيمان هو الذي يعين المجتمعات لتصحيح أوضاعهم وتغيير حالتهم البائسة إلى حالة مغايرة، فالضلال والجهالة والمظالم الاجتماعية والأنانية والجشع والاستغراق في المصلحة الشخصية لا تساعد على إصلاح المجتمع للوصول إلى المصلحة العامة التي تخدم الفرد والجماعة بصورة متوازنة، وإن عدم العناية بقضايا الأمة تمثل الظلمة والعتمة التي تمسح معالم الحضارة وتدمر المسلمات والمعتقدات وتغير القناعات الراسخة السليمة حتى تسود المنكرات والرذائل الممقوتة ويحل الانهيار على كافة المرافق الحيوية في الحياة.

يوضح إخراج المؤمنين المنهمكين في الأعمال الصالحة من الظلمات إلى النور كيف أن مجرد الإيمان بدون القيام بالواجبات وتنفيذ أوامر الله ورسوله واجتناب ما نهى الله عنه لا يضمن أبدا الحياة الكريمة التي تشير إليها لفظة " النور" في الآية، وعدم التحرك الجماعي لتحقيق المصلحة العامة والركون إلى الاتكالية القاتلة هي العوامل التي تبقى مجتمعاتنا في الظلمات بكل ما تعنيه هذه الكلمة، والإيمان والعمل لا ينفكان، ولا إيمان بلا عمل ونية خالصة حسب التعريف الفقهي المتعارف عليه لدى علماء أهل السنة والجماعة: (وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن

راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن علي وأبو جعفر الطبري ومن سلك سبيلهم فقالوا الإيمان قول وعمل، قول باللسان وهو الإقرار، اعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الإخلاص بالنية الصادقة، قالوا وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة فهو من الإيمان والإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملي الإيمان من أجل ذنوبهم وإنما صاروا ناقصي الإيمان بارتكابهم الكبائر)(١).

فالإيمان المطابق على هذا التعريف والفهم الدقيق للسلف الصالح رضي الله عنهم هو الذي غير تفكير مشركي العرب ونظرتهم للحياة والأحياء حتى أحدثوا ثورتهم المشهورة بقيادة القرآن والتوجيهات النبوية، مما كان له أبلغ الأثر في العالم كله. فوجود هذا الإيمان الصحيح ومعه العمل الصالح الجاد هو الوسيلة الوحيدة لإحداث إصلاح مكتمل الأركان في المجتمع المسلم والذي لا يسمح بعدها بسهولة لأصحاب القلوب المريضة الساعين إلى الإفساد والتخريب أن يبثوا سمومهم في البيئة النظيفة الصحية، لأن مقومات الحياة واستعداد الناس للمقامة الشرسة كفيلة بأن تسد أبواب المفاسد، ولا تعطيهم الفرص للتخريب والعبث بمصائر الناس، فبوجود الأقوياء الصالحين العاملين في الساحة بكل جدية واقتدار، وينظرون بوعي وعلم وفهم بفقه المقاصد والمصالح العامة ينظر إلى مآلات الأمور وعواقبها لا يمكن أن يتعشعش الفساد في البيوت والمجتمع، وينخر عظام الدولة ومرافقها ومؤسساتها المهمة.

فمن سنن الله تعالى في الحياة البشرية ألا تخلو من الصنفين، صنف المصلحين وصنف المفسدين فهما متضادان ومؤثرين في مجالات الحياة وساحاتها الواسعة، ولكن الفرق بين الفريقين شاسع بطبيعة أفكارهم وتوجهاتهم وممارساتهم، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

الآية تضع الإيمان والعمل الصالح مقابل إفساد الأرض، ثم أتبعتها مقارنة أخرى ربما تفسر لنا جانبًا من الصراع في دروب الحياة وهي وجود طائفة من المتقين مقابل الفجار،

---

(١) أبو عبد الله يوسف بن عبدالله بن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية المغرب ١٣٨٧ الهجري، الجزء التاسع، رقم الصفحة: ٢٤٣.

ونفهم أنه من الممكن أن يحدث الإفساد في الأرض من ادعاء الإيمان من المسلمين أنفسهم الذين يعلنون إسلامهم ولا يلتزمون بتعاليمه وآدابه وأخلاقه ومعاملاته الواجبة على المسلمين أفرادًا وجماعات، ويمكن أن يأتي الفساد من غير المسلمين عندما يتقاعس المسلمون عن القيام بالواجبات ويشغلون أنفسهم عن الهموم الكبيرة والقضايا المصيرية بالأمور التافهة الأمر الذي يجعلهم في مؤخرة الأمم إن لم يصبحوا أحيانًا خارج الحياة.

وفي موضوع آخر يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [غافر]، ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر]، ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد].

فضرورة الإصلاح الجاد ووجوبه علينا وخطورة الإفساد ووجوب درئه علينا ومقاومته المستمرة تفسر لنا بوضوح هذه الآية الكريمة، فالعمى يعني أن الأمة التي لا تجدد حياتها وتقوم بالإصلاح الشامل ولا تقف ضد الفساد بأنواعه وأشكاله بدون كلل ولا تعب ستدفع الثمن غاليا، لأن النتيجة هي التخلف والفوضى العارمة وحرمانها من أن تهتدي إلى أسباب التقدم والرقي.

وفعلًا ما نحن فيه اليوم نتيجة منطقية بسبب فقدان استراتيجية ورؤية واضحة مبنية على سياسات متوازنة ومناهج هادفة في مختلف مناحي الحياة، وخطط اقتصادية مدروسة، وبرامج أمنية تحمي مكتسباتنا من المرتزقة ومن أعدائنا، وإن دفاعاتنا لا تقوى أبدًا ما دامت العدالة الاجتماعية غائبة وكذلك الإنصاف وتداول السلطة على رأسها، وهذا الأخير هو الضوء الذي يبدد الشكوك ويخلق الطمأنينة والثقة النفسية عند المواطنين.

ينبؤنا القرآن العظيم بقصص الأمم السابقة المنحرفة عن الطريق بصورة مهولة وبتكرار لافت للنظر، فيها التنبيه والتحذير لأمتنا حتى لا يكون مصيرنا مثل مصيرها القاتم، ويؤكد القرآن أن المصائب والهلاك الذي حل على الأمم البائدة كان يحدث لها

عندما تفقد عوامل البقاء، وأساسها الصلاح والإصلاح، فهي تتمرد على الحق وترفض توجيهات المصلحين ونصائحهم، وتسكت عن المنكرات ولا تستنكرها، وتقرب المفسدين وتحتضنهم بدل أن تمسك أياديهم لتردعهم، أو هي تشارك في نشر الفساد وتباشر أفعاله. وعندما تصل أحوال الأمم إلى مستوى الدرك الأسفل من استمراء الفساد والتعود عليه وعلى أهله والتمادي على الباطل يعاقبها رب العالمين بإنزال عليه المؤلم عليها وهلاكه الموجع، لتصبح عبرة للمعتبرين بسبب ما كسبت أيديها.

**نتائج الإصلاح الاجتماعي وجودًا وعدمًا:** يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود]، إن مثل هذه الآيات دلائل واضحات مثل وضوح الشمس على المسؤوليات العظام تجاه تحديد مصيرنا في الدنيا والآخرة، فالربط المحكم بين هلاك الأمم وإهمال واجبات الإصلاح الاجتماعي لأمر يجعل المسلم الواعي في دائرة القلق والخوف من اتهام نفسه بإهمال الواجبات المفروضة عليه، أو بالتقصير في أحسن الأحوال في مهمة الإصلاح التي تتحدث عنه هذه الآيات وأمثالها، والتي تورد جملة من القصص المرعبة الأكثر تفصيلا والمعبرة عن طبيعة الصراع بين الحق والباطل، والمواجهة وبين الأنبياء والرسل وبين المعاندين لدعوة الرسل الذين يسعون في الأرض فسادا.

**قال الثعلبي رحمه الله تعالى في تفسير الآيات السابقة:**

(تجبّروا في الملك وعتوا عن أمر الله،وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ "بظلم منه لهم" وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ في أعمالهم غير مسيئين، لكنه يهلكها بكفرهم وإتيانهم السيئات، وقيل: معناه لم يكن ليهلكهم بشركهم وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون، ويتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين، وإنّما يهلكهم إذا ظلموا)[1].

---

(١) أحمد بن محمد الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، حققه الإمام أبي محمد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، ١١٤٢٢ الهجري، ٢٠٠٢ الميلادي الطبعة الأولى، الجزء الخامس، رقم الصفحة: ١٩٤.

وحتى ندرك خطورة اللامباة التي تتصف بها أمم وشعوب في بعض الفترات التاريخية وعواقب المظالم المتراكمة وشدة العقاب، انظروا كيف كان جواب النبي ﷺ في حديث أبي جحيفة رضي الله عنه قَالَ: (قالُوا: يَا رَسُولَ الله قَدْ شِبْتَ، قَالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا)(١)، إنه رسول الهداية والمبعوث رحمة للعالمين الذي أدى الأمانة كما أمره ربه سبحانه، ومع هذا إنه يخاف لأمته أن يصبح مصير أمته مثل مصائر الأمم السابقة.

فما بالنا ونحن ندرك أننا في وضع يرثى له. حقا إن عملية القيام بالواجبات التي يتطلبها الإصلاح الشامل في المجتمعات لتحقيق المصالح والاستمرارية على هذا النهج هو الالتزام العملي بالتعاليم الإسلامية والاستقامة الدائمة على أمر الله حتى تؤتي العملية أكلها كل حين بإذن ربها، وهو أصعب شيء وأثقله على النفس الإنسانية الضعيفة والمتقلبة، وهو تحد بحد ذاته، علمًا بأن ما واجه الأنبياء والرسل من تكذيب وسخرية واستخدام كل الوسائل للنيل منهم وحشد الطاقات لقتلهم والتخلص من أتباعهم لنصرة معتقداتهم الفاسدة هي أمور تكررت مع أتباع محمد عليه السلام الذين يواجهون أنواعا من المخاطر والمشقات التي رافقت الإسلام منذ عهد سيدنا نوح عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والرسل، وهي أحوال وظروف قاسية وأي تقصير من جانب هذه الأمة لمواجهة هذه التحديات الكبرى ستكون نتائجه وخيمة.

إن الشر والخير متجاوران في النفس البشرية كما يقول جل ثناؤه: ﴿ ...إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ [الإنسان] و﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ [البلد]، وإن غلبة أحدهما على الآخر يرتبط بالجهود البشرية، ومدى قوة أنصاره وحسن تنظيمهم لما يتوفر لديهم من الإمكانات المادية والمعنوية، ومقدار تضحياتهم لمبدئهم والجلد والصبر والثبات أمام العواصف الناتجة عن المتغيرات في الساحة الدولية.

تلك طبيعة الصراع التي لا تتغير في حياة المجتمعات البشرية، إن الإصلاحات الضرورية تتطلب القيام بالواجبات اللازمة المفضية إلى بناء قوة ذات وزن كبير تؤثر في مجريات الأحداث بصورة إيجابية تقوي جانب الخير في المواجهات المحتومة، ونظرًا للحقائق في هذه الأرض وخطورة المترفين المستكبرين الذين يعملون لإشباع شهواتهم

---

(١) صحيح، صحيح الجامع الصغير.

وطموحاتهم الشخصية، ووجود علاقة وثيقة بين الترف والإجرام المتصاعد فإن هذا العمل لا يمكن أن ينجح وينتصر الخير على الشر وتتحقق المصلحلة التي جاء الإسلام من أجلها إلا بتظافر الجهود واستنفار القدرات المكنونة في المجتمع للوصول إلى بر الأمان، ولكن إذا لم تدرك الأمة حجم التحديات الهائلة التي تتربص بها من كل حدب وصوب فإن معادلة المواجهة لن تتحقق.

وبهذا فقط يمكن أن تتوفر سلامة المجتمعات البشرية والأقوام من الفتن والانهيار، فبدون ذلك يغلب الشر على الخير ويهيمن الفاسدون والمفسدون على مقاليد الأمور ويشرعون راية التخريب كما يحدث اليوم في كثير من بقاع العالم وعلى رأسها الأوطان الإسلامية التي لا تسر أحوالها صديقًا.

إن الواجبات ثقيلة، وإن ما أصاب مجتمعاتنا من تفكك وتناحر وانقسامات داخلية، وتفشي المظالم الاجتماعية في كل ركن من أركان ساحتنا لأمر جلل، وإن تصحيح مثل هذه الأوضاع الحرجة لا يمكن أن يتم بالجهود التقليدية التي يقوم بها فرد هنا وآخر هنالك، وإن من أوجب الواجبات إحداث وعي شامل يوقظ القلوب عن طريق معنى الواجبات وعلى من تقع الفروض والواحبات، ومن الضروري إعادة شرح الأعمال التطوعية كونها قضية داخلة في الواجبات العينية في هذه المرحلة على الأقل، وتوضيح الواجبات الكفائية لعامة الناس حتى نعمق المفاهيم القرآنية في النفوس تمهيدًا للشراكة الواسعة من أوجب الواجبات، لأن هذا الأمر استحضار لشمولية هذا الدين، ووجود قدرة كل فرد من أمتنا على المساهمة في نهضة شعوبنا من جديد، كل في موقعه وتخصصه وإمكاناته، فالرجال والنساء والكبار والصغار والأصحاء والمرضى يستطيعون القيام بالواجبات الكفائية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لو استطعنا غرس حقيقة الواجبات في النفوس عبر مناهجنا وأساليبنا التربوية تتقدم الجموع إلى الصفوف الأمامية لمعركة البقاء، وهذا يتطلب منا جهدًا غير عادي يوصلنا إلى اقناع أنفسنا ثم إقناع عامة الناس بأننا اليوم في مرحلة تتساوى كل الواجبات، وتنعدم الفروق بين الواجبات العينية والكفائية التي أسأنا فهمهما منذ قرون عديدة حتى تحول الدين إلى قوالب جاهزة، وقواعد فقهية تحفظ، وطقوس شبه خالية من القيم والفضائل الجليلة، وتعميق وجوب الانقياد للأوامر والنواهي لتحقيق المصلحة العامة من خلال المقاصد الكبرى للشريعة.

## سادسا: الإصلاح في مجال المنازعات

إنَّه بدون إصلاح المنازعات بأنواعها المختلفة لا يمكن أن تتحقق المصالح الحقيقية في المجتمعات، وينبغي أن يكون هذا إصلاحًا شاملًا غير ناقص، وعادلا غير منحاز يجمع بين المتنافرين المتخاصِمين، ويقرِّب بين المتشاكسين المتباعدين، ويَمْحُو الشحناءَ من الأفراد والجموع التي فرقتهم العداوات، وينبغي أن يبدأ من النقطة الإرتوازية الحساسة والعمود الفقري لجمالنا حياتنا المتمثلة في الأهل والأقرباء. فالأنسابَ والجيرانَ والخِلاَّن والإخوان إلى أن ينتهي الأمر بعموم الناس على اختلاف مشاربهم وطبائعهم بلا تساهل أو تخاذلٍ أو تهاونٍ أو نسيان، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ [البقرة].

**معنى هذه الآية في التفاسير إجمالا:**

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ [البقرة]. نهى عن الجراءة على الله بكثرة الحلف به، لأن من أكثر ذكر شيء في معنى من المعاني فقد جعله عرضة له يقول الرجل: قد جعلتني عرضة للومك، وسبب نزول الآية أن الرجل كان يحلف على ترك الخيرات من صلة الرحم، أو إصلاح ذات البين، أو إحسان إلى أحد أدعيائه ثم يقول: أخاف الله أن أحنث في يميني فيترك البر إرادة البر في يمينه فقيل: لا تجعلوا ذكر الله مانعًا بسبب هذه الأيمان عن فعل البر والتقوى هذا أجود ما ذكره المفسرون (١).

يعني ذلك أنه لا ينبغي أن يكون هناك مانع أو حائل بينك وبين أعمال البر والإحسان وإصلاح الخلافات التي تعكر صفو الحياة وتفرق بين الناس، ولو كان سبب ذلك هوالحلف بالله الذي صدر منكم بطرق غير مناسبة مع أنه أعظم شيء يقوله الإنسان بلسانه، ومن هنا جاء منع الحلف بالله بالأمور الدنيوية التافهة والعاجلة لتوثيق صدقك أمام الناس، فإكثارها لا يجوز، ومع هذا لا يتوقف مرتكبوا هذه الخطيئة عن فعل البر والخيرات وأعمال الصالحات ما دام هناك أفضل مما حلفوا بالامتناع عن فعله فهذا خير

(١) مفاتيح الغيب، المؤلف: فخر الدين الرازي، الطبعة الثانية، الجزء السادس، رقم الصفحة: ٤٢٥.

له. وقد فسر هذا المعنى الحديث النبوي الشريف: قال رسول الله ﷺ (من حلف على شيء فرأى خيرًا منه فليحنث وليكفر)[1].

فالمصالحة في شريعتنا تنطلق من الفهم المشترك ومن الأسس والثوابت التي لا يختلف الناس حولها كثيرًا مما يمهد للقبول والبحث عن المصلحة العليا، ويسهل التنازل بعدها عن بعض الحقوق لصالح الوفاق ومنع انهيار الأسر والمؤسسات والعلاقات بين الأفراد، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات]. في هذه الآية كانت البداية قوية بما فيه الكفاية لأنها خاطبت المشاعر والضمائر الحية ومهدت بطريقة نفسية جميلة من أجل الدخول في عملية المصالحة بعاملين مأثرين، وهما: العامل الأول: الإيمان بالله والرسل رمز أقوى الأسس العلاقاتية وأرفعها شأنا بين بني البشر، والعامل الآخر هو الأخوة الناتجة عن الإيمان والتي وصلت في مرحلة من مراحل تاريخ المسلمين إلى التوارث بسبب الأخوة الإيمانية بدون أرحام تجمعهم كما قال كثير من المفسرين في هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال].

وجاءت كلمة "الأخوين" بعد كلمة "فأصلحوا" والآية تذكرنا بنعمة الأخوة الإيمانية مرة أخرى، وهو تذكير قوي ومؤثر لأن هذه الصفة الحميدة لا تزول بسبب الخلافات والمنازعات بين بني البشر، ثم جاء تذكير المتخاصمين بتقوى الله وهي الطريق الوحيدة لتأمين مستقبلهم ونجاتهم من النار، والفوز في الجنة ورضى الله سبحانه، كما أن ورود كلمة "ترحمون" في نهاية الآية هي مسك الختام، ولفتة جميلة ولطيفة تحببنا المصالحة المشمولة على الرحمة والتيسير وعدم التعسير، كما قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرَّحْمَن، ارحموا من فِي الأَرْض يَرْحَمكُمْ من فِي السَّمَاء)[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الأيمان.

(٢) رواه التِّرْمِذِيّ وقال هَذَا حَدِيث حسن صَحِيح انْظُر: جَامع التِّرْمِذِيّ بشرحه تحفة الأحوذي، أَبْوَاب الْبر والصلة، بَاب ما جاء فِي رَحْمَة النَّاس.

وأيا كانت أقوال المفسرين حولها لكنها تنقلنا فجأة إلى التراحم والمحبة والتعاطف الإنساني، وهي جملة تناسب المصالحة بين الناس، (فإن الصلح هو سيد الأحكام) كما قال الفقهاء قديما، لأنه ينزع فتيل الخصومات الخطيرة ويتوقف به النزاع وتعود الأمور إلى طبيعتها المعهودة، وتتجدد الاتصالات والتعاون بين البشر.

في موضوع آخر ننظر إلى الإصلاح بصفته قمة العظمة والخيرية واستثناء مشرفًا يكسي القائمين عليه حلّة خاصة تكون تكريمًا لهم، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء]، الآية تتحدث عن النجوى التي ورد فيها النهي في الشريعة بصورة عامة لما يمكن أن تسبب في النفوس من ريب وشكوك يولد الشقاق بين الناس بدون مقدمات كافية أو مبررات منطقية، فهي تحدث آثارا سيئة تخدش الكرامة الإنسانية وتشعر البعض بالدونية، وعندما يتصرف البعض بما يمكن أن يفسر بالأنانية وتهميش الآخرين فإن العلاقات الاجتماعية تتضرر، وهذا بحد ذاته يعكر صفو المجتمع كأفراد وكقيادات. فالنجوى تمثل الجيوب المتآمرة في الدول والمنظمات والمؤسسات، والابتعاد عنها ظاهرة صحية تحمي البيئة العائلية والدول وغيرها من شرور كثيرة وشكوك لا ينبغي أن تحدث.

وإذا كانت الضرورات للمناجاة أمرًا لا غناء عنه لدى المسؤولين أو من يريد أن يتصرف بعيدا عن الجمهور بسبب من الأسباب، فعلى الجميع عند ذلك أن يراعوا مشاعر هؤلاء وأن يلتزموا بالمنهج الأخلاقي والسياسات العامة في مجال عملهم، وفي مثل هذا المجال يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المجادلة]، وفي مناسبة المناجاة نفسها قال رسول الله ﷺ: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس؛ من أجل أن ذلك يحزنه)(١).

فمجيء كلمة "الإصلاح" بين الناس في الاستثناء الوارد في الآية الكريمة: ﴿ ...إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ... ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء] يدلنا على الأهمية

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم.

القصوى للإصلاح، لأنها داخلة في أعمال البر والتقوى المستثنى من أعمال المناجاة المخالفة للتوجيهات الربانية والتي عبر عنها القرآن بكون النجوى من الشيطان، إذًا هناك نجوى غير داخلة من تلك التي هي من الشيطان، فلا مانع من القيام بواجبات الإصلاح بين الناس تحت أي ظرف من الظروف، لأن ذلك من الضرورات الشرعية، لأن إفساد ذات البين من المهالك الكبرى للبشر والتي عبر عنها رسول الله ﷺ في الحديث الذي في السنن فقال: (ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا: بلى يا رسول الله، قال إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)(١).

نستشف من الحديث النبوي الشريف أن الاستقرار والطمأنينة والحياة السعيدة كلها تكمن في التفاهم والوفاق بين أفراد المجتمع، لأن الفرد مع فرد آخر تتكون منهما الخلية الأولى وهي الأسرة والتي لديها قابلية الانشطار، فتنتشر جزئياتها وتتكاثر، فإذا لم يكن ثمة انسجام بين هذه الخلايا في المجتمع فإن الصراع هو البديل والتصادم هو أمر محتوم، وهذا هو بداية الشرارة الأولى التي تتحول إلى الحرائق الهائلة والحروب الأهلية بل الحروب العالمية التي تريق الدماء بغزارة حتى تأكل الأخضر واليابس، ويخسر إثرها الجميع، فمعظم النار من مستصغر الشرر، كم لفظة عابرة أوفلتة لسان قتلت صاحبها بل وأزالت الملك، وكم قضية تافهة كان بإمكاننا تجنبها أو علاجها بأقل تكلفة تحولت إلى شجار فحرب فدمار.

يقول الشاعر:

**لا تحقـــــرن صـــــغيرة *** وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ**

ولله در الشاعر:

**كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ *** إن الجبـال مـن الحصـى**

**كَمْ نَظْرَةٍ فَعَلَتْ فِيْ قَلْبِ فَاعِلِهَا *** فِعْلَ السِّهَامِ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وَتَرِ**

**وَالْمَـرْءُ مَـا دَامَ ذَا عَـيْنٍ يُقَلِّبُهَـا *** فِيْ أَعْيُنِ الْعِيْنِ مَوْقُوْفٌ عَلَى الْخَطَرِ**

**يَسُـرُّ نَـاظِرُهُ مَـا ضَرَّ خَـاطِرَهُ *** لاَ مَرْحَبًا بِسُـرُوْرٍ عَـادَ بِالضَّـرَرِ**

---

(١) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وقال: "هذا حديث صحيح". البخاري في الأدب المفرد.

إن الآيات والأحاديث الواردة في مجال الإصلاح كثيرة، وكلها ترمي إلى أمر واحد وهو منع الشقاق والخلاف ومنع حدوثه من البداية أو منع انتشار حرائقه وتقليل أضراره، فسواء كان هذا بين شخصين عاديين من أفرد الأمة، أو بين أفراد الأسرة الواحدة وعلى رأسهما الزوجان، أو داخل المؤسسات المختلفة في المدينة الواحدة وفي الدولة الواحدة، أو في المنازعات بين الشركات والدول في الساحة العالمية الشاسعة، لأن أي خلاف من هذا النوع يمكن أن ينتقل بسهولة إلى الجيران، فتصيب ألسنة اللهب أشخاصا بل أمما ودولا متباعدة: (فأصلحوا بين أخويكم) هما مجموعتان من الأمة، فبدون حل خلاف المجموعتين أو الفردين أو الدولتين فإن هذه الخلافات يمكن أن تتفاقم وتتعقد وتؤثر سلبًا أعدادًا غفيرة من البشر.

لو نظرنا إلى الحرب العالمية الثانية فإن التحقير والخلافات بين شخاصيات قيادية في أوروبا هي التي أشعلت فتيل تلك الكارثة العالمية، والتي راح ضحيتها أكثر من خمسين مليونًا معظمهم من الأبرياء، ومع أنني ولدت بعد نهاية الحرب بثماني سنوات إلا أنني شخصيا أصبت ببعض شرور هذه الحرب التي دارت بين التحالفات الأوروبية، كنت ألعب مع الأطفال في قريتنا فكنا نلعب ببقايا أجسام الطائرات التي أسقطت فوق بلادنا فانجرحت يدي اليسرى من جراء ذلك، لقد قتل فوق خمسين مليونًا من البشر لأسباب تافهة ناتجة عن الخلافات الشخصية الطائشة والطموحات المجنونة والتي لم تجد وقتها الحل المناسب. كم من الأطفال وكبار السن والمرضى ماتوا بدون جريرة ارتكبوها في هذه الحروب الظالمة أو أصابتهم الإعاقة الدائمة؟

لقد سلك الإسلام كل مسلك لمنع توتر العلاقات بين الناس حتى أباح ما لم يبح لغيرها أبدا، قال سيد الخلق رسول الرحمة والهداية ﷺ: (ليس الكذاب الذي يصلح بين اثنين أو قال بين الناس فيقول خيرًا أو ينمى خيرًا)، إن الصلح والإصلاح والمصالحة مترادفات من فعل واحد، فهي تمثل العمق المقاصدي لهذا الدين الذي جمع بين الثوابت التي لا تتغير أبدا وبين الاجتهاد الذي يراعي روح الشريعة ومقاصدها الكبرى الأمر الذي يحقق التوازن والتجديد في حياة الفرد والجماعة، ومع أن الذين يسعون إلى حل الخلافات يستخدمون كل السبل المؤدية إلى تحقيق المصالحة بين المتخاصمين في نهاية الأمر فإن الإسلام يبيح لهم أن يستعملوا بعض الأساليب التي ظاهرها الكذب من أجل إقناع الناس وتقريب وجهات النظر بينهم.

وحتى لو قال المصلح ما يجافي الحقيقة كلها مع سلامة المقصد وإرادة الخير والإحسان والإخلاص فيما يقوم به من أعمال فإن ذلك لا يضعه في دائرة الكذب والمخالفة الشرعية، بل وضعها الإسلام في ذروة أعمال البر التي لا ينافسها شيء كما سبق ذكرها في الحديث النبوي الشريف حيث ذكر بأن الإصلاح بين الناس أفضل من درجة الصلاة والصدقة والصيام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أمر ملفت للنظر، فالصلاة والصدقة والصيام من الفروض العينية، أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما صفتان استحقت الأمة المسلمة في كل عصر من العصور بموجبهما أن تحتل المرتبة الأولى في الخيرية، ومع ذلك يأتي عمل الإصلاح فوق هذا كله.

ليس هذا بمستغرب؛ لأن الفتن التي تحدث بين الناس والمجتمعات تدمر المصلحة العامة والخاصة وتقوض الأمن والاستقرار، وتوصل الحياة إلى طريق مسدود يعرقل مسيرة الحياة مما يمنع ممارسة الشعائر الدينية، أو يضعفها، فلا صلاة ولا صيام ولا تعليم في فترات الحروب والفتن، يقول رسول الله ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ البَيْنِ فَإِنَّهَا الحَالِقَةُ)، ومعنى أنها تحلق الدين أي أنها تتسبب موت الدين الذي يمكن أن يحدث بأسباب مختلفة مثل الحروب والانهيار الاقتصادي والفوضى الناتجة عن تقويض السلطة المركزية، ومن بين هذه الأسباب أن يتولى زمام الأمور الفاسدون وضعاف النفوس الذين لا يملكون القدرات القيادية والرغبة الصادقة في تطبيق العدالة وسد أبواب الفتن والمنازعات.

الواضح أن أهمية الإصلاح بين الناس تفوق التصورات السائدة، وهناك قصور في الفهم حيالها، ولذا فإن التساهل مع البرامج الإصلاحية أدى إلى ما نحن فيه اليوم من التخلف والانحطاط، ووضعنا الحالي هو نتيجة التراكمات التاريخية حتى غاصت امتنا في بحر من الجهل والفقر والتبيعة للغير والحروب الأهلية وأصبحت اليوم حديث العالم.

إن أمرًا خطورته بهذا الحجم لا يمكن أن يقوم بواجباته الأفراد، بل يتطلب إلى جهود جماعية جبارة ومنظمة وإمكانات مادية ومعنوية هائلة، الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق عبر الجهود الفردية أو الأعمال العشوائية، والأخطر من هذا هو نظرتنا إلى مسألة الإصلاح أيا كان مستواها أو مجالاتها، حيث لا نضعها في مكانها المناسب من الشريعة، مما عمق الانحراف حول الفهم العام لتحقيق الإصلاح لدى الأغلبية الساحقة من المسلمين حيث يرون أن العمل من أجل الإصلاح والتصدي للمنكرات أمر ثانوي في الدين ولا

يدخل لديهم في نطاق الواجبات والفروض عليهم، وهو سوء فهم استقر في العقول ردحا من الزمان مع المسلمين بالأسباب التالية:

**أولًا**: تسطيح واجب الإصلاح في كتب الفقه التي لم تبرز أهميته عند تعرضها لشرح الأحكام الفقهية.

**ثانيًا**: الجهل والتخلف الشنيع الذي أخرج أمتنا المسلمة من ركب الحضارة والتقدم العلمي.

**ثالثًا**: عدم وجود مراكز ومؤسسات متخصصة في القضايا التصالحية منعًا لحدوثها، أو حلًا لمشاكلها، أو تقليلًا لسلبياتها وآثارها على الأقل.

إن تقزيم قضايا المصالحة واختفاء دورها الإيجابي في تحقيق المصالح العامة والخاصة ليس سببه تراجع قيم العمل والإنتاج، بل ضعف فهمنا للواجبات الدينية، وبهذا اختفت النظرة الشمولية للأوامر والنواهي الربانية حول القضايا العامة والمقاصد الكبرى للأمة، فبدلًا من ذلك أصبح التركيز على الجزئيات والقضايا الهامشية والمصالح الفردية، ويجب إزالة هذه المفاهيم المعوجة التي أدت إلى إحداث شرخ أجهض القدرات البناءة وتقويم شأنها حتى نتمكن من معالجة الأزمات الكبرى والنكسات المتتالية والمتشابهة في مختلف الأوطان في الساحة الإسلامية.

### سابعا: الإصلاح الاقتصادي والمالي في الأمة

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٧٨
فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا
تُظْلَمُونَ ٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ٢٨٠ ﴾ [البقرة].

هنا وردت كلمة "الصالحات" في معرض الحديث عن المال والاقتصاد، وتتحدث الآية عن الربا الذي يمثل استغلالًا سيئا لحاجة الناس وأكل أموال الناس بالباطل، وهو من كبرى المحرمات في الإسلام، وبجانبها الزكاة التي تمثل التضحية من أجل إخراج

الناس من الفقر والعوز وحل مشاكلهم بدون مقابل، وهي تساهم في التنمية الاقتصادية، وتلك صورتان واقعيتان في حياتنا، إحداهما تدمر وتخرب والأخرى تبني وتنمي.

فمن واجبات المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن يصلحوا الاقتصاد والقضايا المالية بصورة جادة، لأن استغلال حاجة الناس وعدم مراعاة ظروف معيشتهم من بين الأمور التي تحدث الخلل في التوازنات والعلاقات الاجتماعية وتخلق الأحقاد والبغضاء في النفوس وتسبب المشاحنات والحروب الأهلية، ولذا أوجب الله الزكاة على المسلمين الأغنياء لتؤخذ منهم وترد على الفقراء كما قال رسول الله ﷺ في حديث معاذ الذي شمل أركان الإسلام: (فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)[١].

إن الإسلام بفرضه علينا الزكاة يقدم حلولا جذرية لأخطر معضلة تتصل بحياة الإنسان ومعيشته وضروراته اليومية، فالبؤس والشقاء الناتج عن الفقر لا حدود له لأنه ينعكس على مختلف جوانب الحياة، لكونه من العقبات الكؤودة التي تمنع الحركة والنشاط، بل يصبح مجرد التفكير السوي أمرًا بالغ التعقيد، فالفقير جائع منهك القوى، وهو مريض بطبيعة الحال، وتنعدم لديه الطمأنينة والأمن العام والخاص بسبب انتشار المجاعة والمرض، فيصبح فاقد التوازن بفعل الخلل الذي يحدث لتلك الأسباب، ومن أجل ذلك لا يمكن أن يتصرف بطريقة سوية، فالفقر يدمر القوى الجسمية والعقلية والروحية والمعرفية فيسجن الفقير في سجن الفاقة والعوز وبهذا تنتفي المصالح ويتضرر الجميع.

فبما أن هذا يجعل تفكير الإنسان مستغرقا فقط في كيفية الخروج من محنته القاسية؛ محنة فقدان ضروريات الحياة وأساسياتها الأولى والتي بدونها لن يقدر المرء على القيام بأي مهمة أخرى في وقته، فإن كافة المصالح تتعطل ويصبح الحديث خارج هذه الدائرة ضربًا من الأوهام، وفي مقدمة الأعمال الصالحات المقترنة بالإيمان بناء اقتصاد قوي خال من الاستغلال والطفيليات القاتلة، الاقتصاد الذي ينبغي أن يوصل كل إنسان في المجتمع إلى مستوى محترم من الحياة الكريمة يوفر له الضروريات أولًا وقبل كل شيء، وعلى رأسها:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، ومسلم في كتاب الإيمان، ورواه الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

الأمن والاستقرار الاجتماعي، وتحقيق الأمن الغذائي والسكن المناسب، وتوفير العلاج اللازم للمحتاجين، وتشييد البنى التعليمية عبر المناهج الهادفة، وتوصيل المعرفة والثقافة إلى كافة أفراد المجتمع للخروج من الجهالة والظلمات إلى آفاق رحبة من نور المعارف وضياء الثقافة.

**الهدف من الإصلاح الاقتصادي**: الهدف من إصلاح الشؤون المالية هو بناء اقتصاد قوي ومتوازن يخلق حياة سعيدة لأفراد المجتمع في حياتهم مع وجود ضوابط شرعية تحدد الوسائل التنموية وطرق كسب الأموال وكيفة الإنفاق وتوضيح ذلك ومراعاة التوازن وتقديم العلاجات الضرورية لمشاكل الفقر وإفرازاته، مما يضمن سلامة الشعوب من الأحقاد والحسد والتنافر الناتج عن فوارق الطبقات، وهذا النهج الحيوي هو الذي يؤدي إلى الفوز في الدنيا والآخرة.

فعلى سبيل المثال جعل الله الزكاة من أركان الإسلام والتي بدونها لا يكون الإنسان مسلمًا بإجماع العلماء قديمًا وحديثًا، ومن أنكرها يخرج عن الملة، ومن منع دفعها تحارب الدولة حتى يسلم الزكاة كاملة غير ناقصة، فاثنان ونصف من مجموع أموال المسلمين هي الزكاة التي يجب دفعها لمستحقيها التي ذكرتها سورة التوبة بتفصيل لا غموض فيه، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾ [التوبة].

فلو دفعت هذه النسبة من أموال المسلمين وأديرت عبر استراتيجية اقتصادية وتنموية شاملة مبنية على عدالة التوزيع لاختفت مظاهر الفقر والتخلف الاقتصادي والتنموي، ولاستطعنا محاربة الفقر في العالم خدمة لبقية إخواننا في الإنسانية، ولهذا فإن الله حرم الاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل أيا كانت الأسباب، كما حرم كنز الأموال وتجميعها وادخارها بدون دفع الزكاة كما أمر، وحرم الاحتكار ومنع الأموال من الإستثمارات، يقول الله جل ثناؤه:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة].

فتفسيرا لهذه الآية وأمثالها في القرآن الكريم يقول رسول الرحمة والعدالة ﷺ: (نعم المال الصالح للرجل الصالح، ما أدّيت زكاته فليس بكنز وإن كان باطنا، وما بلغ أن يزكى ولم يزك فهو كنز وإن كان ظاهرا)(١).

لقد أجاب الحديث عن أي استفسار أو استفهام أو غموض حول معنى هذه الآية الكريمة وحدد معنى الكنز، وانطلاقا من هذا يكون المال صالحًا وحلالًا طيبًا فقط بعد أداء الزكاة عنه، ويكون صاحبه مسلمًا صالحًا إذا أدى زكاة ماله على وجهها، وسواء كان المال باطنًا أو ظاهرًا فمعيار الكنز الذي ورد التهديد بشأنه في الآية السابقة هو ما لا يدفع عنه الزكاة، أما من يدفعون الزكاة فسيدخلون إن شاء الله تعالى في دائرة الذين يبشرهم الله تعالى في هذه الآية الكريمة، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [البقرة].

وفي المقابل نجد النقيض في الآية التالية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [فصلت]، هنا وردت الزكاة بين الشرك والكفر مما يشير إلى الخطورة العظيمة في منعها حتى قال بعض العلماء في تفسير هذه الآية: إن مانع الزكاة أيا كانت الأسباب يخرج من الملة ويكون كافرًا.

ولعل هذا ما جعل أبابكر الصديق رضي الله عنه يشن الحرب الضروس ضد مانعي الزكاة بلا تهاون وبدون أن يبحث في الأسباب أو المبررات لدى مانعي الزكاة، رغم أن جل الصحابة وقفوا موقفًا معارضًا للحرب كما هو مبين في كتب السيرة والأحاديث، قَالَ أَبُو

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، وابن ماجه في كتاب الزكاة.

بَكْر ﷺ: (والله لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، والله لَوْ مَنَعُوْنِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّوْنَهَا إِلَى رَسُوْلِ الله ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا. قَالَ عُمَرُ: فَوَالله مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ؛ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ)(1)، إن عزيمة أبي بكر على قتال مانعي الزكاة مع المرتدين وإجماع الصحابة على ذلك وتأييدهم موقف أبي بكر يحمل دلالة قوية على مركزية الزكاة في الإسلام، وكيف أنها العمود الفقري للحياة الاقتصادية وسبيل تضييق الفوارق بين الطبقات مما يساعد على تقليل الأحقاد بين الأغنياء والفقراء ويقوي استتباب الأمن والاستقرار، وهذه هي البوابة الأساسية والدعامة الضرورية لبناء مجتمع يتمتع بالكرامة والحرية والحياة السعيدة.

**المال الصالح ودوره في علاج الفقر في المجتمع**: إن دور المال الصالح والحرب المستمرة ضد الفقر في الأمة قضية بارزة في الشريعة الإسلامية، ونجد هذا التوجه في القرآن المكي والقرآن المدني على حد سواء، فأهمية ذلك تبرز لكونها ترد جنبًا إلى جنب مع التوحيد، وتضع مانعي الزكاة والذين لا يساعدون الفقراء والمساكين والأيتام وجميع المحتاجين في الأمة بجانب المشركين والكفار المحاربين، وتهدد الآيات القرآنية هذا الصنف من الناس بتعجيل العقاب في الدنيا وبالعذاب الشديد يوم القيامة.

وللتوضيح فقط نأخذ أمثلة من القرآن الكريم حيال هذا الموضوع وخطورته يقول الله جل ثناؤه: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ [الماعون]، والملفت هنا في الآية السابقة أن يرد تكذيب يوم الدين بجانب المعاملة العنيفة والسيئة لليتيم أومنع حقوقه أيا كان نوعها، وعدم مراعاة ما يستحقه من التلطف وإبداء الحنان والحب والرحمة له، بالإضافة إلى إنكار عدم حث إنفاق المساكين والسعي إلى حل مشاكلهم بصورة عامة، وكأن الذين يتصفون بتلك الصفات الخبيثة ليسوا بمؤمنين بهذا الدين حقا.

وتوضيحًا لسبب دخول صنف من الناس في النار يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحاقة]، ففي الحج ومناسكه يقول

(١) رواه البخاري ومسلم.

الله جل ثناؤه: ﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج].

وفي الظهار يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [المجادلة]، وفي جزاء الصيد يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة].

يمدح الله طائفة من المسلمين على سعيهم الدؤوب لتخفيف محنة المحتاجين، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان].

وفي السياق نفسه يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾ [البلد]، ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة].

وفي مجال الرخص الرمضانية للمعذورين وما يترتب على ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة]، وفي تشنيع من قرروا حرمان المساكين من حقوقهم وسوء عاقبتهم في الدنيا قبل الآخرة يقول الله جل ثناؤه: ﴿ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القلم].

ومن أسباب دخول النار - أعاذنا الله منها - يقول الله جل ثناؤه: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المدثر]، وهي إذًا عدم أداء فريضة الصلاة أيا كانت الأسباب، وكذلك عدم إطعام المساكين، وهذا تنبيه قوي وإنذار لنا جميعًا مفاده أيها المسلمون لن تأمنوا من دخول النار إلا إذا أديتم فريضة إطعام المساكين ومسح آثار الحاجة والعوز وتلك من الأمور التي لا ينتبه إليها كثير من المسلمين في الوقت الحاضر، مع أنها تمثل محورية الحياة التي بدونها لا يمكن أن تنعم شعوبنا ومجتمعاتنا وأمتنا والعالم بالأمن والاستقرار ورغد العيش.

إن الاستحواذ على الثروات الطائلة وتجميع كنوزها واحتكار خيرات الأرض يتناقض وما يتطلب ويدعو إليه الإيمان، ولهذا فإن الإصلاح الاقتصادي والمالي بكل أشكاله من الفروض الدينية التي بدونها لا تقوم للدين قائمة، فالمال ملك للجميع كما أوجب الله، وهو نعمة من الله تعالى أنعمها الله على الإنسان، ووجد أصلًا للمنفعة العامة، ومع أن الملكية الخاصة أمر جائز في الدين الإسلامي ولكنها ملكية مقيدة، وأحد وجوه التقييد هو الزكاة بجانب عشرات الواجبات الأخرى التي تجبر المالكين على دفع قسط من أموالهم فرضًا لا اختيارًا، وتصل الأمور أحيانًا إلى مستوى سلب الملكية وحجر تصرفات المالكين بصورة جزئية أو كلية، وكثير من هذه الحالات في ظروف الحرب والسلم وفي شؤون المصلحة الخاصة المتعلقة بالأفراد والعائلات والمصلحة العامة المتعلقة بالمجتمع والدولة والوطن.

ولن يسلم أحد من العقاب إلا من أدى حقه حسب ما أمر به الله وأوجبه علينا كما قال رسول الله ﷺ: (يا أبا ذر قال: قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ما أحب أن أحدا ذاك عندي ذهب أمسى ثالثة وعندي منه دينار إلا دينار أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا حثا بين يديه وهكذا عن يمينه وهكذا عن شماله قال ثم مشينا فقال: يا أبا ذر، قال قلت لبيك يا رسول الله، قال: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا، مثل ما صنع في المرة الأولى)(١)، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب المكثرون هم المقلون. ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة.

ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود].

## ثامنا: إصلاح الأدب والشعر

إن حياتنا متشابكة لا انفصال بين أجزائها، فهي تتكون من الأجزاء التي يساند بعضها بعضا، وتحقيق المصلحة والمتعة الحقيقية التي نسعى إليها دومًا مرتبط بتوفر الصلاح والإصلاح المستمر في جميع مجالات الحياة. فالصلاح ضرورة للكلمة التي نستخدمها، فهي البوابة للتفاهم والتعامل بين بني البشر، فالأدب نثرًا كان أو شعرًا هو الذي بواسطته نعبر عما نريد نقله إلى أبنائنا وأحفادنا جيلًا بعد جيل، فبدون ذلك لا علم ولا حضارة ولا تفاهم بيننا أصلًا، فألسنتنا مخولة بهذه المهمة الصعبة، وتسمية سورة من القرآن الكريم بالشعراء دليل على خطورة الأدب وخاصة الشعر في حياة الأمم، فهم يساهمون في الإصلاح والإفساد حسب فكر الشاعر وما يحمله من أفكار ومعتقدات وعادات وتقاليد، والتي يرثها بطبيعة الحال من مجتمعه وما يسود فيه من قيم وتراث ينبع من بيئة حياة الأجداد، وما يغرسه الدين من فضائل وأخلاقيات ترثها الأجيال عن الآباء بصورة دائمة.

وفي هذه المناسبة يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء].

تصوير بديع يجسد قوة الشعر والشعراء وما يمثل ذلك في الصراع الدائر بين الحق والباطل وبين الاستقامة والاعوجاج وبين أتباع الإسلام أو خصومه، فلقد استخدم المشركون الشعر فهجوا رسول الله ﷺ، وكان الشعر أقوى سلاح يملكونه، وكذلك كان المؤمنون يردون هذا الهجوم بمثله، ولكن المنطلقات كانت مختلفة تمامًا، فأمثال حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة من شعراء الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يستخدمون الشعر للدفاع عن الدين والرسول ﷺ والقيم والفضائل التي أتي بها الإسلام، وانتقلوا من شعراء يقولون ما يريدون حسب ما تدعو إليه الحاجة وقتها إلى شعراء يتقيدون ويلتزمون بما يأمر به الإسلام، وأصبح شعرهم يدافع عن المبادئ والأحكام.

فهذا حسان بن ثابت ﷺ يقول للمشركين بقيادة أبي سفيان في غزوة الأحزاب:

ألا أبلــغ أبــا ســـفيان عنـــي *** فأنــت مجــوف نخــب هــواء

بـــأن ســـيوفنا تركتـــك عبـــدا *** وعبـــد الـــدار ســـادتها إمـــاء

هجــوت محمــدا فأجبــت عنــه *** وعنـــــد الله في ذاك الجـــــزاء

أتهجــوه ولســت لــه بكـفء *** فـــشركما لخـــيركما الفـــداء

هجــوت مباركــا بــرا حنيفــا *** أمـــين الله شـــيمته الوفـــاء

فمــن يهجــو رســول الله منكــم *** ويمدحـــه وينصـــره ســـواء

فـــإنَّ أبي ووالـــده وعـــرضي *** لعــرض محمــد منكــم وقــاء

وحلـف الحـارث بـن أبي ضرار *** وحلـــف قريظـــة منـــا بـــراء

لســاني صــارم لا عيــب فيــه *** وبحـــري لا تكـــدره الـــدلاء

وأحســن منــك لم تــر قــط عــين *** وأجمــل منــك لم تلــد النســاء

خلقــت مــبرأ مــن كــل عيــب *** كأنــك قــد خلقــت كــما تشــاء

كان الشعر مبنيا على العصبية القبلية الضيقة وتمجيدها والدفاع عنها بكل الوسائل الممكنة، ونلاحظ كيف غير الإسلام المفاهيم لدى العرب، فأبو سفيان كان وقتها قائد المشركين الذين جاءوا لقتل رسول الله ومعه مئات المهاجرين من أقرب الناس إلى أبي سفيان ليقطعوا شجرة الإسلام ويجتثوا نبتته قبل أن تتعمق جذورها في طبقات الأرض وتتحول أغصانها إلى أشجار سامقات، ولكن حسان يدافع عن الرسول ﷺ وصحبه بدافع العقيدة والإيمان، وينتقص من أبي سفيان واصفًا إياه أنه ليس بكفء لمحمد رسول الله ﷺ، لأن الإسلام فرق بينهما، مع العلم أنهما من أصل واحد من قبيلة قريش من حيث النسب والعشيرة، وانطلاقًا من هذا فإنه كان من الضروري أن يدخل الشعر في الحرب الدائرة بين الفريقين بقوة لأنه في قمة الهرم من حيث التأثير الاجتماعي والتخاطب في الأوقات التي تدعو إليه الحاجة وخاصة لحظة المواجهات السياسية الساخنة ووقت اشتداد الحروب.

وقد كان من الأسلحة الفتاكة المستخدمة ضد المؤمنين والرسول ﷺ، وبه يهجو المشركون ويسبون الدين وأتباعه، ولهذا أمر رسول الله ﷺ باستخدام الشعر، بل أكثر من ذلك أباح لشعراء الإسلام هجاء أعدائهم الذين يهجون الرسول والمؤمنين، والساعين إلى هدم الأمة ودينها قبل أن يقوى عودها، وهذا الأمر هو من باب الجزاء من جنس العمل والبادئ أظلم، والضرورة تبيح توفير كل الأسلحة المناسبة المؤدية إلى كبح جماح المشركين وحسم المعركة وتحقيق النصر لتمكين دين الله في الأرض.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال عمر بن الخطاب لحسان بن ثابت رضي الله عنهما: (أنشدك الله. أسمعت رسول الله ﷺ يقول: (أجب عنى، اللهم أيده بروح القدس قال: اللهم نعم)، وعن البراء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: "اهجهم أو هاجهم. وجبريل معك" رواه مسلم، كما قَالَ رَسُولُ الله، ﷺ لحسان (اهْجُهُمْ، أو هَاجِهِمْ، وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ)[1]، وقال ﷺ لكعب بن مالك: (اهجهم، فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل)[2]، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة، يقول الله جل ثناؤه:

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة]، وعن كعب بن مالك (أن رسول الله ﷺ قال له: اهجهم، فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل)، ويقول ﷺ لحسان ابن ثابت: (قل وروح القدس معك).

كان الشعراء في ذلك العصر يقومون بما تقوم به اليوم أقسام رفع معنويات فرق الجيوش الوطنية، وتلك مهمة صعبة تتطلب مهارة فنية ومعرفة نفسيات الأفراد والقيادة معًا، وهو نوع من أنواع الأسلحة التي هي ضرورة ملحة لتحقيق النصر،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب المكثرون هم المقلون. ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند، والبيهقي فى السنن، وعبد الرزاق فى المصنف، وصححه ابن حبّان ولفظه: أنه قال للنبى ﷺ: إن الله قد أنزل فى الشعر ما أنزل، فقال ﷺ: (إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل)، وأخرج مسلم فى (فضائل الصحابة، باب فضل حسان بن ثابت من حديث السيدة عائشة: اهجوا قريشا فإنه أشدُّ عَلَيْهِمْ مِن رَشْقِ النبال).

فقول الرسول ﷺ: (اهجهم، فإن كلامك أشدُّ عليهم من رَشْق النِّبال) تحمل دلالة خطيرة لمعنى القتال، وكيف أن كسر معنويات العدو من خلال استخدام الشعر يماثل الصواريخ والطائرات والرصاص الحي، ومع أن الهجاء في الظروف العادية ممنوع في الشريعة إلا أنه يجوز في الحرب ما لا يجوز في السلم.

نظم الشعراء في صدر الإسلام في مدح للرسول ﷺ الافتخار به وببعثته كثيرًا من القصائد للرد على المكذبين، وبهذا أصبح الشعر وسيلة لنشر الإسلام والاعتزاز به، وهو نوع آخر من المقاومة الشرسة ضد المكذبين الضالين المبالغين في التكذيب وتشنيع صورة الدين. لقد قال عبد الله بن رواحة في مثل هذه المناسبة:

**إن الذوائب من فهر وإخوتهم *** قد بينوا للناس سنة تتبع**

**يرضى بها كل من كانت سريرته *** تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا**

**قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم *** أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا**

**سجية تلك منهم غير محدثة *** إن الخلائق فاعلم شرها البدع**

**ويقول في مدح الأنصار ومن معهم بسبب طاعتهم للرسول ﷺ:**

**أعفة ذكرت في الوحي عفتهم *** لا يطمعون ولا يرديهم الطمع**

**كم من صديق نالوا كرامته *** ومن عدو عليهم جاهد جدعوا**

**أعطوا نبي الهدى طاعتهم *** فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا**

**إن قال سيروا أجد السير جهدهم *** أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا**

**ويقول بجير بن زهير بعد إسلامه في قضية التوحيد ورفض الشرك:**

**إلى الله لا إلى العزى ولا اللات وحده *** فتنجو إذا كان النجاء وتسلم**

**لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت *** من النار إلا طاهر القلب مسلم**

إن الشعر كغيره يحتاج إلى الإصلاح لأنه جزء أساسي من منهج التعليم والثقافة العامة، فإذا اعوج سيساهم في إفساد الحياة وخاصة التربية والذوق الاجتماعي وتنشئة الأطفال،

ومن هنا جاء الاستثناء في سورة الشعراء بعد أن ذكر الصورة القبيحة للشعراء الذين عادة لا يميزون بين الحق والباطل وبين الغث والسمين، بل هم في كل واد يهيمون، وهو فاصل جد دقيق في الحياة الفوضوية للشعراء الذين يجنحون إلى المبالغة والتهويل بل إلى الكذب والتلفيق، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء].

**تاسعا: استقلالية منهج الحياة والحفاظ على الثوابت**

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية].

كثر ذكر الإصلاح والمصلحين في القرآن الكريم، في مقابل ذم الإفساد والمفسدين؛ لتكتمل الصورة الربانية التي يريدها الله رب العالمين للبشر والمجتمعات البشرية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]. يقول سيد قطب رحمه الله: (غير أن الآية تبقى - من وراء ذلك التعريض - مُطْلَقة، تعطي مدلولها كاملًا، لكل جيل ولكل حالة. إن الصيغة اللفظية: ﴿ يُمَسِّكُونَ ﴾ تصور مدلولًا يكاد يُحس ويُرَى. إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجِد وصرامة. الصورة التي يحب الله أن يُؤخذ بها كتابه وما فيه في غير تعنُّت ولا تنطُّع ولا تزمُّت، فالجِدُّ والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنطع والتزمُّت شيء آخر. إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسر، ولكنها تنافي التميع، ولا تنافي سعة الأفق ولكنها تنافي الاستهتار، ولا تنافي مراعاة الواقع ولكنها تنافي أن يكون «الواقع» هو الحكم في شريعة الله، فهو الذي يجب أن يظل محكومًا بشريعة الله!

والتمسك بالكتاب في جِدٍّ وقوة وصرامة، وإقامة الصلاة - أي شعائر العبادة - هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة. والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقرونًا إلى الشعائر

يعني مدلولًا معيَّنًا؛ إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس؛ فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس، ولا تصلح بسواه. والإشارة إلى الإصلاح في الآية: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ يشير إلى هذه الحقيقة، حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملًا، وإقامة الشعائرِ عبادةً هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين.

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني؛ ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس؛ وترك العبادة التي تُصلِح القلوب فتطبِّق الشرائع دون احتيال على النصوص كالذي كان يصنعه أهل الكتاب، وكالذي يصنعه أهل كل كتاب حين تفتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله.

إنه منهج متكامل يقيم الحكم على أساس الكتاب، ويقيم القلب على أساس العبادة. ومن ثَّم تتوافى القلوب مع الكتاب؛ فتصلح القلوب، وتصلح الحياة. إنه منهج الله، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجًا آخر إلا الذين كتبت عليهم الشقوة وحق عليهم العذاب)[1]، وقد علَّق رب العالمين عدمَ إهلاكه للناس بوجود المصلحين، الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون.

## عاشرا: الإصلاح مقترن بالعمل التطوعي

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشورى].

التطوع والتضحية من ركائز الرسالة الربانية بقيادة الأنبياء والرسل، ولقد كانوا يوضحون للمدعوين أنهم لا يريدون منهم أجرًا ولا عوضًا، بل كل ما يقومون به من عمل تطوعي مأمورون به من الله ونحن ننتظر منه الأجر والمثوبة، ومع الفروق الكبيرة بين الأنبياء وبين أتباعهم إلا أن الواجبات تقع على عاتق العلماء والمصلحين والمجددين، فيجب عليهم أن يقوموا بإبلاغ هذه الرسالة الربانية إلى الناس متطوعين غير مقيدين

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، الجزء الثالث، ص: ١٣٨.

بتلقي الأجور المادية وعندها ستصبح كلمتهم مسموعة وستظل صورتهم في أعين الناس ناصعة غير ملوثة.

## حادي عشر: التمكين والاستخلاف في الأرض

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [آل عمران]. وقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور].

هذه الآية تضع لنا بوضوح شروط الاستخلاف والتمكين، فبعد الإيمان بالله ورسوله يأتي أول واجب على المؤمنين وهو العمل الصالح، أي القيام بالواجبات التي تؤدي إلى إصلاح شؤون المجتمع ونشر ألوية الفضائل التي تمكنهم من هزيمة الفاسدين وتمنح المصلحين استحقاق القيادة والسيطرة وإدارة دفة الأمور.

وتلك سنة الله في حسم الصراع الدائر في الأرض بين حملة الرسالة الإلهية وبين معانديها ومحاربيها، وتلك هي الطريقة الوحيدة التي يعطي رب العالمين بها أتباع الحق القوة والأمن والتقدم، كما أن الخروج من هذا المنهج سيؤدي إلى الخسران والمذلة.

والملاحظ أن إتيان الآية التالية بعد شروط التمكين والاستخلاف تحمل دلالة قوية على الترابط الوثيق بين الواجبات الدينية، فإقامة حكم وسلطة قوية توفر الأمن العام للمجتمع وتمنح لأفراده حرية العمل والعبادة ناتجة عن القيام بالواجبات الكفائية المطلوبة من أفراد الأمة بصورة عامة، وفي مقدمة ذلك نشر منهج الرسالة بمختلف جوانبها المعرفية والجهاد في سبيل الله للدفاع عن البيضة، وتلك في تعريف فقهائنا العظام داخلة ضمن الواجبات الكفائية، وهوما يمكن أن يقيم نظام حكم وسلطان يستطيع قيادة الأمة

وينظم شؤون حياتهم ويمنع انتشار المظالم الاجتماعية، وينشر العدالة والمعرفة وبناء الاقتصاد والأجهزة الحكومية المحتلفة، ويعني ذلك وجود فئة قوية من الأمة قادرة على تحقيق تلك المطالب الضرورية لإرساء قواعد الحكم، وبهذا الأداء تنوب عن بقية أفراد المجتمع والأمة حسب التعريفات الفقهية المتوارثة جيلا بعد جيل.

بينما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من الواجبات العينية والتي يتوجب أداؤها على كل مسلم مكلف غير معذور، ولا ينوب شخص عن شخص في أدائها والقيام بها، بل هي فرض عين على أعيان الأمة وآحادها، ويأثم الجميع بتركها، فالترابط العضوي والتلازم الدقيق بين الأوامر والنواهي في هذا الدين غير خاف عند النظر إلى صيغ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ففي ختام الآيتين جاءت عبارة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذه العبارة لا تفرق بين الواجبات المختلفة، فطاعة الرسول ﷺ شاملة شمول هذا الدين فكل الواجبات وما نستطيع إتيانه من النوافل داخلة في هذه العبارة، كما أن تجنب كافة المحرمات والمنهيات الواردة في القرآن والأحاديث المقبولة لدى المحدثين داخلة في طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، وفي الانقياد فقط نستحق أن ننال رحمة الله ونجد الفوز في الدنيا والآخرة بفضل الله وتوفيقه.

## المبحث الرابع

## أنواع المصلحة حسب المنافع والاستفادة

**لقد عبر الشاطبي عن المصالح بالعبارات التالية بصورة موجزة قائلا:**

(فإن المصالح الدنيوية -من حيث هي موجودة هنا- لا يتخلص كونها مصالح محضة، وأعني بالمصالح ما يرجع إلى قيام حياة الإنسان وتمام عيشه، ونيله ما تقتضيه أوصافه الشهوانية والعقلية على الإطلاق، حتى يكون منعما على الإطلاق، وهذا في مجرد الاعتياد لا يكون؛ لأن تلك المصالح مشوبة بتكاليف ومشاق، قلت أو كثرت، تقترن بها أو تسبقها أو تلحقها، كالأكل، والشرب، واللبس، والسكنى، والركوب، والنكاح، وغير ذلك فإن هذه الأمور لا تنال إلا بكد وتعب.

كما أن المفاسد الدنيوية ليست بمفاسد محضة من حيث مواقع الوجود، إذ ما من مفسدة تفرض في العادة الجارية إلا ويقترن بها أو يسبقها أو يتبعها من الرفق واللطف ونيل اللذات كثير، ويدلك على ذلك ما هو الأصل، وذلك أن هذه الدار وضعت على الامتزاج بين الطرفين والاختلاط بين القبيلين، فمن رام استخلاص جهة فيها لم يقدر على ذلك، وبرهانه التجربة التامة من جميع الخلائق، وأصل ذلك الإخبار بوضعها على الابتلاء والاختبار والتمحيص)[1].

وتلك إشارة واضحة إلى الجوانب المادية والروحية للكائن الإنساني وهي حاجات متجددة، فهو محتاج لإشباع كل واحدة من تلك الحاجات الضرورية بصورة دائمة، فالعقل في أمس الحاجة بالعلوم والحكم وكل ما يساعده على نموه وتزكيته، وكذلك الجوانب البيولوجية من الضروريات التي لا بقاء للكائن البشري بدونها، فالأكل والطب واللباس والتناسل وما على تلك الشاكلة حاجة ملازمة لا يستغني الإنسان عن تلبيتها، فالجسد واحتياجاته وسطوة شهواته مشهورة ومعلومة لدينا، فالأجساد متساوية بل متماثلة في الأكل والشراب والجنس والنوم والسير وغير ذلك، أما الروح فهي موجودة في الإنسان ولكنها ليست ظاهرة كظهور الجوانب البيلوجية الطاغية، يقول الله جل ثناؤه:

---

(١) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص: ٤٤.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥ ﴾ [الإسراء]. إن غموضها وعدم معرفة تفاصيلها هو الذي يثير مثل ذلك التساؤل.

إذًا هما جانبان يكملان بعضهما، فالاحتياجات الجسدية معروفة، يحس بها كل إنسان في كل لحظة من لحظات حياته، فلا يختلف الناس في هذه الضرورات وإشباعها وتوفير ما يمكنها من التحرك والعمل، بينما الجانب الروحي من ضرورات الحياة. ومع أن حاجتنا إليه لا تظهر كظهور الأكل والشراب والأكسجين إلا أن عدم إشباعها ولو بصورة جزئية يحدث خللا لا يمكن إصلاحه بدونها.

فمصلحة هذا الإنسان تقتضي الأمرين دومًا، والحاجات الجسدية والروحية لا ينفصلان في مسيرة الحياة، وبدون توفير القدر الضامن لبقاء قوته الجسدية ونشاطه فإن الحاجات الروحية أو العقلية لن تقوم بدورها، ولذا فالشريعة تراعي كافة مصالح العباد الفطرية والعقلية والروحية، وتمنع المفاسد التي تضر الكيان الإنساني ومطالبه المتجددة لأنها جاءت كما سبقت الإشارة إليه من كلام ابن تيمية (على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها).

ويوضح ابن القيم معنى المصالح بقوله: (فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى البعث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل؛ فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون، وحياة القلوب، ولذة الأرواح؛ فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم، وهي العصمة للناس وقوام العالم، وبها يمسك الله السموات والأرض أن تزولا، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى خراب الدنيا وطي

العالم رفع إليه ما بقي من رسومها؛ فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم، وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة)(١).

وبما أن الشريعة جاءت لمصلحة بني آدم في الأصل فإنها تحقق تلك المصلحة للفرد والجماعة معًا، وفي هذا الإطار تنقسم المصلحة من حيث الاستفادة إلى قسمين، وهما: المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية، أو المصلحة الخاصة والمصلحة العامة.

**المصلحة العامة**

المصلحة العامة هي مصلحة الجميع لا تخص فردًا بعينه فهي قائمة لفوائد المجتمع، أفرادا، وعوائل، وجماعات، ومؤسسات، ويشترك في الاستفاذة منها كافة الأفراد من الناحية القانونية والواقعية، فالمجتمع يتكون من مجموع الأفراد وتكتلاته وشرائحه، ورغم خصوصية الأفراد واستقلاليتهم وتنوع ميولهم واختلاف طبائعهم وأذواقهم إلا أن مصالحهم مرتبطة بعضها ببعض، وتتلاقى في ساحات العمل ودروبها، لأن الفرد مهما بلغت قوته العقلية وعمقه الفكرية وغزارة علمه ووفرة ثرواته المالية والمادية بصورة عامة فإنه لن يستطيع تحقيق متطلبات حياته اليومية بمفرده.

فالحصول على لقمة العيش التي تسد رمقنا وتبقي حياتنا ضرورة لكل حي، ولكن ذلك يحتاج إلى جهود ضخمة لا تتأتى من الشخص بمفرده، فلو أخذنا قرص العيش كمثال فقط فإن إعداده حتى يصل مستوى كونه صالحا للأكل يمر بدورة حياة كاملة تنطلق من تكاتف جهود الأفراد والمجموعات وتوحيد طاقاتهم، ومن خلال شبكات المواصلات وجهود الأجهزة الأمنية والشركات التجارية والمصانع والمخابز.

فبداية الطريقة الشكلية والتصور الأوليّ للعملية من وضع البذرة في التربة الصالحة وتوفير المياه والإضاءة المناسبة لنوعية الزراعية وحمايتها من الأمراض والآفات الزراعية ومن الطيور والحشرات حتى نصل إلى مرحلة التخبيز ونقل الخبز إلى محلات التجزئة

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، الجزء الثالث، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ، ص: ١١-١٢ .

والتوزيع، وعندها فقط يستطيع أحدنا الوصول إلى الرغيف ليشتريه أو يجده بأي طريقة ممكنه ليسد رمقه، وليتمكن من القيام بوظيفته وأنشطته المختلفة وممارسة حياته بصورة طبيعية.

وقبل ذلك كله نجد البداية الحقيقية لمشروع رغيف الخبز أو أي مادة تساهم في غذائنا متصلة بميلاد هذا الإنسان وتنشأته وتربيته وتثقيفه وتعليمه ثقافة الزراعة والحراثة والرعي وغير ذلك من تدبير الحياة، ثم تعويده على العيش المشترك مع بقية الأفراد حتى يتمكن من التعاون والتأقلم مع البيئة الإنسانية المعقدة بتعقيدات تنوعها المادي والمعنوي، والتي تقودها مجموعة أنظمة وقوانين فطرية وغيرفطرية، وكل جزئية من جزئيات حياتنا المتشعبة خاضعة طوعًا أو كرها لمثل تلك القوانين والأعراف والتقاليد غير المكتوبة في أغلبها والمكتوبة المقننة أحيانًا من أجل التعاون لتحقيق المصلحة العامة التي يجد الفرد وينال فيها بغيته واحتياجاته اليومية.

وإذا كانت حياة جميع الأفراد تجبرنا على التعاون لتأمين حبة خبز ولقمة عيشنا اللازمة للبقاء ولنطفئ حرارة الجوع ونلبي شهوة طعامنا، فتخيل مقدار الجهود البشرية من أجل توفير الغذاء المتكامل من بقول وفواكه ولحوم أو أسماك وحليب ومياه وسمن وزيوت، وأرز وذرة وقمح، وتوليد الطاقة الحرارية من الحطب أو الكهرباء، وصناعة أوان للطبخ وبقية الاستخدامات الأخرى وغير ذلك من مستلزمات تحضير الأطعمة والأشربة.

فالأكل من أبرز أمور حياتنا اليومية لكل فرد والذي يعبر عن المصلحة الفردية المباشرة، ومع ذلك فإن تحقيقه من قبل الفرد الواحد من المستحيلات، فبدون تأمين ذلك للأفراد فإن حياة المجتمعات لا تبقى أبدا، بل تسود فيها الفوضى العارمة والفتن الهوجاء والقلاقل المؤدية إلى الحروب الأهلية، مما يعرض كافة المصالح الفردية الخاصة والمصالح العامة للخطر الساحق كما يروي لنا تاريخ الأمم البائدة، ونجد شواهد عيان في عصرنا الحاضر لما يمكن أن يكون عند حدوث المجاعة للأفراد.

إذًا فتحقيق المصلحة العامة هي الضمان الحقيقي لسلامة المصلحة الخاصة، فالفرد هو جزء من الكيان الإنساني المترابط والذي لا يمكن أن تنفصل فيه مصالح أي فرد عن بقية الأفراد، بل ستظل هذه المصالح العامة والخاصة متلازمة بصورة أو بأخرى، فعجز الفرد

الواحد عن توفير رغيف خبز واحد لهي دليل واضح على عجزه عما هو أصعب من ذلك أو لما يحتاج إليه استقراره وأمنه ودفاعاته القوية والرادعة من المخاطر المحتملة حدوثها في كل ساعة من حياته.

إذًا لا يستطيع الفرد توفير أبسط الأمور في حياته بدون التعاون مع الآخرين، فكيف يتصور تأمين القضايا الكبرى وعلى رأسها الأمن الغذائي الشامل، والأمن القومي المحوري والضروري لاستقرار المجتمعات وسلامة مسيرتها الحيوية والتي بدونها تتعطل الحياة وتتوقف المشاريع التنموية المستقبلية مما ينذر بحدوث مخاطر ماحقة يستحيل تلافيها إلا من خلال الجهد الجماعي المشترك.

**ليست قوة الأمة بتعدادها ولكن قوتها بالعمل المشترك:**

الفرد حلقة واحدة من سلسلة متشابكة طويلة يكمل بعضها بعضًا، فإذا انفرط عقدها فقدت قوتها وقيمتها، واختفت السلسلة نفسها، لأن جوهر السلسلة ناتج عن هذه الحلقات المتصلة، وكذلك الأمة تتكون من أفراد متعاونين ترتبط مصالحهم، وتبقى الأمة ببقاء هذا التساند والتعاون، فإذا غابت تلك الصفة الهامة والضرورية فإن الأمة تفقد معناها ومبناها، وتصبح حينئذ أثرًا بعد عين مثل الدرر التي كانت منتظمة في العقد، أو السلسلة المتكونة من الحلقات ثم تناثرت وتبعثرت بعد أن انفرط العقد أو انفصلت وانقطعت حلقة من السلسلة، وعندها تفقد القيمة والوزن الحقيقيين.

ولذا نجد النداء الإيماني الرباني يخاطب الجمع في الأعم الأغلب في بمثل هذا التعبير: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ هذا النداء ورد في القرآن الكريم ٨٩ مرة، ولم يرد في القرآن الكريم النداء المقابل والموجه إلى الفرد "يا أيها الذي آمن"، لأن الأوامر والنواهي التي تأتي عقب هذا النداء لا يمكن أن يقوم بها شخص بمفرده أو أشخاص غير منظمين وغير متعاونين، بل لابد أن يقوم بهذه المهمات الصعبة مثل محاربة المفاسد وتحقيق الصلاح والمصلحة في المجتمع جمع من الناس يساند بعضهم بعضا، فالمرء قليل بنفسه كثير وقوي بإخوانه.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ

﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [التوبة]. هكذا يريد الله أن تكون الأمة حتى تحافظ على مصالحها وتظل حية باحترام وشرف، وبهذا تشملها رحمة الله في الدنيا والآخرة.

كيف نتصور بعد هذا أن نقاوم المنكرات المتدفقة والتي لا تعرف التوقف أبد؟ وكيف نصلح ما نفسده في ديارنا ونحقق ما هو لصالحنا في الحياتين بدون جهود جماعية حقيقية، تنبع من الرغبة الداخلية الجامحة الآتية من الأفراد أنفسهم، إدراكًا منهم بأن هذا من أوجب الواجبات التي تفرضها عليهم ضرورات الحياة، متطوعين غير مكرهين، وموقنين بحسن اختيارهم؟

والبديل هو أن نستمر على ما نحن عليه اليوم من التخلف وإنتاج مزيد من الفوضى والفقرالقاتل والحروب الأهلية لتظل أمتنا في وضعها المزري المعطل لقوتها الاقتصادية، والملغي لأرقامها البشرية المهولة في الساحة العملية، ولعل هذا الوضع يدخل فيما يشير إليه الحديث: وعن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت)(١)، "غثاء كغثاء السيل"(٢).

وهل يمكن أن تقام الصلاة بدون قوة تحمي أوطاننا ومساجدنا ومعالم حضارتنا؟ وهي يمكن أن نرتب الزكاة ونأخذها من الأغنياء حتى نحل المشاكل الاقتصادية المتفاقمة في الساحة الإسلامية بطولها وعرضها بدون حكم وسلطة تؤمن بهذا الدين ويعمل حكامها ومجتمعها بمقتضى ما يأمره الله ورسوله؟

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، وأخرجه أحمد في مستده، وأبو نعيم في الحلية.

(٢) الغثاء ما يحمله السيل من رغوة ومن فتات الأشياء التي على وجه الأرض، واحدته غثاءة، غثاء الناس أراذلهم، وفي القرآن: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥﴾ [الأعلى] و﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ [المؤمنون]، هي جملة تحثنا على النهوض والمقاومة وعدم الاستسلام للضعف، وكم هي من المبشرات التي تعيننا على القيام من الكبوة، إنها تعبر عن ظروف تمر بها أمتنا في مستقبل أيامها ولكن لا تدل على حالة ثابتة للأمة، بل ستخرج عندما يعود إليها الوعي وقررت أن تتعاطى مع المقاصد الكبرى لدينها وتتعامل مع سنن الله في الحياة ومع الأحياء.

انظروا إلى الإيمان فإنه يدور حول أمرين أساسيين: **الأول**: الخطاب في القرآن الكريم هو خطاب جمعي كلي عندما يأمر الله الناس أن يؤمنوا بالله وبالرسل، لأن الإسلام هو رسالة عالمية، لأن القوة تكمن في الجماعة المؤمنة وليس مجرد إيمان فرد من الأفراد، إنه موجه بصورة عامة إلى الجمع وهذا هو الهدف في المحصلة النهائية. **والثاني**: الخطاب في القرآن الكريم هو خطاب جمعي كلي أيضًا عند الحديث عن الذين سبق لهم الإيمان، لأن التوجيهات الصادرة من الله جل ثناؤه ومن رسوله ﷺ تتعلق بقضايا محورية وجوهرية تمس حياة الأمة جماعات وأفراد، وفي مثل تلك القضايا لا يمكن أن يتولى تنفيذها فرد أو أفراد مشتتون غير منظمين في شؤونهم اليومية.

إن كلمة (آمِنُوا) الدالة على الطلب والأمر بالإيمان بالله وبالرسل، وكلمة (آمَنُوا) الدالة على المؤمنين الذين سبق لهم الإيمان وردتا في القرآن الكريم حوالي ٢٥٤ مرة.

وأما لفظة (آمَنَ) فقد وردت ٢٣ مرة تقريبا، علمًا بأن أغلب الموضوعات التي تتناولها ترتبط بصورة رئيسة بالمصلحة العامة وهي تتحدث عن الأمة وتحقيق أهدافها الكبرى بواسطة لفظة (مَنْ) والتي هي من الأسماء الموصولة التي تعني المفرد والجمع والتثنية على حد سواء، وهي من الناحية الأخرى تمثل الخطاب الجمعي، فعلى سبيل المثال فقد وردت لفظة (آمَنَ) بشخص بعينه مرتين في سورة غافر يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ [غافر]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر].

لقد وردت كلمة (وعملوا) وحدها ٥٢ مرة في القرآن الكريم، وجاءت بعد كل مرة كلمة (الصالحات)، أما كلمة (وعمل) فقد وردت ١١ مرة فقط، وكلها وردت بعد اسم (مَنْ) الموصولة التي يستخدم للمفرد والجمع والتثنية، مما يعني أن العمل المطلوب منا هو العمل الجماعي وهو الذي يلبي ما يريده منا الإسلام لمصلحتنا، وحتى الواجبات العينية

المفروضة على الأعيان لا يمكن أن تؤدى بصورة مرضية إلا من خلال التعاون والعمل الجماعي، وهنا صور الجمع وخطاباته تهيمن على الفرائض كلها عينية أو كفائية، انظرو إلى العبادات الأكثر بروزا من حيث الواجبات الفردية، فقلما نجد خطابًا موجهًا للفرد، فالصلاة والزكاة والصوم والحج هي أركان الإسلام، ومن الفروض العينية الأكثر التصاقًا بالفرد ولكن الخطاب موجه للجماعة لا للفرد.

فوجود المصلحة العامة ضرورة لكل فرد في المجتمع، وإن إهمالها خسارة لكل فرد ويترتب على ذلك هدم المكاسب بما فيها القيم الأخلاقية الاجتماعية والركائز الاقتصادية والعلاقات الأسرية مما يعني ذلك حدوث الأضرار المتعددة والمتعدية إلى شتى المجالات المختلفة. فلا يمكن أن يتم الإصلاح المنشود إلا من خلال وجود أمة تقف صفًا مرصوصًا تملك قيادة ترضى عنه الأمة تأتي باختيارها وتذهب بقرارها، وتملك منهج حياة يسوس شئون المجتمع ويتربى الأطفال على قيمه ومبادئه داخل المنازل والمدارس والمساجد والجامعات، عندها تعرف الأمة كيف تواجه التحديات الكبرى والمخاطر المحدقة، وكيف تحل المشاكل المتجددة في مسيرتها، فمن الأجل الإصلاح الشامل الذي تتحقق المصالح كلها من خلاله جاءت مهمة الأنبياء والرسل، يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام].

**المصلحة الخاصة**

تعني المصلحة الخاصة تلك المنافع أو اللذات التي يتمتع بها الفرد لإشباع ضرورياته أو حاجياته أو كماليات حياته المادية أو الروحية أو العقلية، إن للفرد طموحات وأطماعًا شخصية، ولديه أنانية كبيرة تتنازع في نفسه نوازع الخير والشر أو الجانب الملائكي والشيطاني، فهو ليس ملكًا بريئًا من المعاصي والمخالفات الشرعية، وليس شيطانًا رجيمًا وجوده شر مطلق، وإنما هو ذلك المخلوق الذي لديه القدرة على بلوغ أرقى درجات النزاهة والطهارة في الوقت الذي يمكن أن يصل فيها إلى أدنى درجات الانحطاط والإسفاف، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة، يقول الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان].

ومن خلال طبيعته يجنح أحيانًا إلى المصلحة الفردية التي تتناقض والمصلحة العامة، ظنًا منه أنه يكسب مصالح شخصية بعيدًا عن المصالح الجماعية، ويرتكب المظالم ضد بقية أفرد المجتمع ومؤسساته، ومن أجل هذا يسفك الدماء البريئة، وينهب الأموال، ويعتدي على الأعراض، ويهدم العمران، ويشرد المجتمع ويشعل الحروب تلو الحروب لإشباع شهواته وإرضاء غروره وأمراضه النفسية.

لكننا من خلال المشاهدة ومتابعة أحداث التاريخ المعاصرة والموغلة في القدم تتوفر لدينا الأدلة القاطعة على أن هؤلاء الذين أخطؤوا في حق البشرية يومًا من الأيام لم يتمكنوا من جلب السعادة لأنفسهم من بتلك التصرفات الغبية، ولم يستطيعوا كسب احترام الناس يومًا وتوقيرهم، ولم ينعموا بنهاية سعيدة في حياتهم، ولو قرأنا قصص الطغاة الظالمين الذين تجبروا وأخضعوا لسلطتهم ونفوذهم ملايين البشر، وتغني بأمجادهم الكبار والصغار في كثير من البلدان سنجد أن نهايتهم كانت مؤلمة وقاسية عكس ما أرادوا.

لترى عجب العجاب انظر إلى هتلر في ألمانيا، وتشاوشسكو في رومانيا، وموسوليني في إيطاليا، وهيلاسلاسي في إثيوبيا، وتشارلز تيلور في ليبيريا، وشاه محمد رضى بهلوي في إيران، وعبد الناصر في مصر، والقذافي في ليبيا، وسياد بري في الصومال، وصدام حسين في العراق وأشباههم، إنهم كانوا ملوكًا ورؤساء في بلدانهم، ولكن نهايتهم متشابهة بسبب ما ارتكبوه ضد مواطنيهم من الجرائم، وكل واحد من هؤلاء كان يريد أن يحقق لنفسه ما يراه المصلحة الشخصية بعيدًا عن مصلحة مجتمعاتهم، والصفة المشتركة كانت القسوة والدكتاتورية والاستبداد ومصادرة الحريات الأساسية.

وقصص القرآن عن المتجبرين في الأرض كثيرة ومتنوعة، فنماذج قارون، وهامان وفرعون ونمرود وغيرهم من جبابرة الأرض الذين تحدوا الحق واعتدوا على حقوق ومصلحة الشعوب يمثلون صفحة من التاريخ البشري. وفي حياة الرسول ﷺ: نجد أبا لهب وأباجهل وعتبة وعبد الله بن أبي بن سلول كانوا يمثلون ذروة الأنانية، وهم الذين أرادوا تحقيق مصالحهم الشخصية وإشباع شهواتهم الشخصية بعيدًا عن المصلحة الحقيقية التي جاء بها الوحي لتتحقق المقاصد الكبيرة وصنوف المصالح البشرية.

كم رأينا في حياتنا القصيرة أشخاصًا سلكوا كل الدروب لجمع الأموال والثروات المختلفة فأصبحوا من كبار الأغنياء في مجتمعاتهم وأسسوا كبرى الشركات من أموال المجتمعات الفقيرة وماتوا جياعا في نهاية الأمر، أو اضطروا للتكفف ومد أيديهم إلى بعض الذين كانوا يعذبونهم في السجون أو يضايقون معيشتهم اليومية.

أعرف رجلًا صوماليا تقلد أرقى المناصب الحكومية وجمع ثروة هائلة فأصبح من المشاهير الأغنياء، وعندما انهار ت السلطة المركزية كان من بين الذين فروا إلى دول الجوار فمرضت زوجته فلم يستطع أن يعالجها، فقدر الله أن قام بمهمة علاجها أحد الأطباء الذين تعرضوا للظلم من قبل هذه الزوجة، فعالجها خير علاج في أكبر المستشفيات خارج الصومال، عبرة لمن يعتبر وتلك القصة ليست هي الوحيدة في تاريخ الصومال الحديث، علمًا بأن الثورة التي أطاحت نظام الحكم نتجت من المشاعر السيئة التي خلقتها المظالم وكشفت حجمها للجمهور المظاهر الفاقعة لنهب الأموال العامة من قبل أصحاب السلطة والنفوذ.

والنتيجة أن هؤلاء لم يستفيدوا من جراء نهب الأموال وحرصهم الشنيع على إشباع رغباتهم الشخصية، فتجرعوا كؤوس الذل والمهانة والتشرد، وهذا هو مصير الذين عملو في تدمير المصلحة العامة لينالوا مصالحهم الشخصية، فهم عندما يدمرون المصلحة العامة فهم يباشرون تدمير مصالحهم الفردية بل يحكمون على أنفسهم بالإعدام، لأنهم ينسفون الجسور الواصلة بينهم وبين مجتمعاتهم، فلا مصلحة خاصة بدون مصلحة عامة.

**المصلحتان عنوانان في مضمون واحد:**

لا يمكن توفير الحد الأدنى من المصلحة الفردية الخاصة إلا من خلال التعاون الجاد بين الأفراد والمؤسسات والمجتمع، في أي مجتمع في العالم، فمصالح الأفراد، كل الأفراد تتحقق بقدر ما يشارك المجتمع في الأعمال الإيجابية ويتفاني في تحقيقها وإنجازها عبر الفهم المشترك، ومن بوابات المناهج المعرفية ودوحة العلوم الفسيحة التي يقننها ويضعها العلماء وفقهاء المجتمعات البشرية في الأزمنة المختلفة من أجل تيسير وتسهيل مسيرة الحياة، ومن أجل ردم الفجوات التي تفصل بين الرغبات البشرية وأطماعهم غير المحدودة أو تحجيمها.

هذا المستوى الذي نشير إليه هو بلوغ التعاون البشري إلى الذروة السامقة في حياته التنظيمية وتحقيق مصالحه المشتركة الفردية والجماعية، وهو العقد الاجتماعي الذي يوصل المجموعات البشرية إلى تكوين الحكم والملك والخلافة والسلطة أو ما عرف في القرون المتأخرة بالدولة "STATE" والتي بدونها تظل الفوضى سيدة الموقف، وهو ما يساعد على التخاصم والحروب الأهلية والنزاعات الهدامة بسبب وجود الشهوات الجامحة والأنانية المقيتة.

والسلطة أو الحكم أو الدولة هي أقوى القوة الناتجة عن التجمعات البشرية في التاريخ البشري، لأنها تملك القوة القانونية والتي بموجبها تتصرف، وتستخدم العنف ضد إرادة الفرد، حيث يتمكن المتفقون على إقامة هذه السلطة من تقليل أو احتواء الخلافات والأزمات التي عادة تؤدي إلى النزاعات واندلاع الحروب بين فترة وأخرى في هذا الكوكب المعمور بالبشر وما سخره الله تعالى، لهم حتى تستقيم الحياة وتنتظم شؤونهم وتسلم من التخريب والعبث الناتج عن فعل السفهاء والمفسدين في الأرض.

وبوجود هذه السلطة الصالحة لتدبير أمور الناس يمكن نشر العدل بين الناس وحدوث الاستقرار واستتباب الأمن والرخاء، وتلك هي الطريقة التي تتحقق بها مصالح العباد والبلاد أفرادًا كانوا أو جماعات، وبها تسعد البشرية، وتهنأ فيها الحياة، وتتلاشى سطوة الشرور والمظالم الاجتماعية، ويقل استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وتضعف غطرسة المتكبرين والمرضى في المجتمع، وهذا الصنف هو الذي تحذر من مخاطره الآيات القرآنية التالية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة].

وبما أن هذا النوع من البشر سيظل موجودًا في الحياة ليضع العقبات تلو العقبات أمام التطورات الإيجابية للمجتمعات، فإن الله يرشدنا إلى المسؤولية المتحتمة على الفئة المؤمنة وهي ممارسة كامل القدرات وبكل الوسائل المتنوعة من أجل التمسك بمنهج الله في الحياة، وديمومة إبلاغه إلى الآخرين مع الابتعاد عن سلوك الفاسدين المتمثل بالاعتداء والإفساد في الأرض وتدمير ما صلح من شؤونها، ومن شأن هذا أن يحافظ على التوازن

والاستقرار في المسيرة التي نحن بصددها، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ ﴾ [الأعراف].

ما يسعى إليه الدين الإسلامي هو إقامة السلطة العادلة غير الظالمة والمنصفة غير المعتدية، ومهمتها الأساسية هو عمل الإصلاح حصريًا ومنع الفساد في الأرض، وإيقاف الفرد وشهواته عند حده حتى لا يطغى على المجتمع، وحتى لا يجد الفرصة لإضرار الآخرين، وهي مهمة شاقة حقًا ولكنها ممكنة إذا توفرت الإرادة والرغبة الصادقة في مجتمعاتنا.

ومن خلال السلطة المتصفة بالاستقامة والصلاح ينتشر العدل وتعم المساواة وتصان الحقوق وتقل الشرور وهو ما تشير إليه الآيات التالية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ﴾ [الأنعام].

هنا تتحقق العدالة ويستريح البشر وتطمئن النفوس، عندما يضمن الضعاف من كبار السن والأطفال والأيتام والمرضى حقوقهم الكاملة دستوريا، ولا تعبث بحقوقهم الأيدي العابثة من الفاسدين والفجرة الأشرار عند التنفيذ والتطبيقات العملية في الواقع، وهنا يأمن الجميع عندما لا يستطيع أحد أن يعتدي على أحد دون أن يدرك سلفًا ويعرف يقينا أنه سينال العقاب المناسب شرعًا، وفي هذا الجو المفعم بالثقة والتآخي والتآلف بين أفراد الأمة أو الوطن الواحد تكون النفوس أمنة، والطهارة والشرف والعرض والعقل والمال في حماية السلطة الشرعية، وكلها في مأمن من العبث والتخريب والتعرض للخدشات والإهانات، وتظل البيوت آمنة من التطاول وانتهاك الحرمات، وكلها من المقاصد الكبرى للأديان السماوية والدساتير البشرية والأعراف الإنسانية.

(جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ﷺ، وكان هذا الرجل قد قتل أخا عمر في معركة اليمامة عندما ارتد مع من ارتد، فقد قتل زيدًا بن الخطاب في حروب الردة وأسلم الرجل بعد ذلك، وجاء إلى عمر بن الخطاب يومًا، فقال له عمر: أأنت الذي قتلت زيدًا؟ قال: نعم، قال عمر: اغرب عن وجهي، فإني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم!، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، أو يمنعني هذا حقي؟ قال: لا. فقال: أيحل هذا جَلد ظهري؟ قال: لا .. فقال الرجل: ما لي ولحبك إنما يبكى على الحب النساء).

فما دامت الحقوق مضمونة فكل ما سواها يهون، انظر إلى ذلك الحوار بين أمير المؤمنين الذي هو في قمة الهرم وبين رجل من آحاد الناس. أحس الرجل بنوع من التهديد من كلمة عمر واستفسر عنها بهدوء وطمأنينة، وعندما تبين له المغزى من خطاب عمر، وأن كلامه لا يتعدى كونه تعبيرًا عاطفيًا يترجم عن حبه لأخيه وهو أمر فطري طبيعي لدى كل إنسان سوي، هدأت نفس أبو مريم ولم ير ضيرا فيما قاله أمير المؤمنين طالما حقوقه مصونة وموفورة غير منقوصة ولا يتعرض للظلم.

**ملخص ما أورده الماوردي في المصلحة الخاصة والعامة:**

وفي هذه المعاني الجليلة التي تحقق المصالح البشرية بأنواعها يلخص الماوردي في كتابه أدب الدين والدنيا مصالح العباد مجتمعة ومتفرقة، شارحًا هذا المعنى بجمل جزلة غاية في الروعة والجمال، فيقول رحمه الله تعالى ما يلي: (واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين:

أولهما: ما ينتظم به أمور جملتها، والثاني: ما يصلح به حال كل واحد من أهلها، فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه؛ لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها، ويقدح فيه اختلالها؛ لأن منها ما يستمد، ولها يستعد، ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة، ولا لاستقامتها أثرا؛ لأن الإنسان دنيا نفسه، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه؛ لأن نفسه أخص وحاله أمس، فصار نظره إلى ما يخصه مصروفًا، وفكره على ما يمسه موقوفًا.

واعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مسعدة، ولا عن كافة ذويها معرضة؛ لأن إعراضها عن جميعهم عطب وإسعادها لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون. فإذا تساوى جميعهم لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره

سبيلا، وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا، فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزا. وإذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة؛ لأن ذا الحاجة وصول، والمحتاج إليه موصول.

وقد قال الله تعالى: ﴿ ...وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ... ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود].

قال الحسن: مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير، ولذلك خلقهم يعني للاختلاف بالغنى والفقر. وقال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ ... ﴿٧١﴾ ﴾ [النحل]. غير أن الدنيا إذا صلحت كان إسعادها موفورًا، وإعراضها ميسورًا. إلا أنها إذا منحت هنت وأودعت، وإذا استردت رفقت وأبقت.

وإذا فسدت الدنيا كان إسعادها مكرًا، وإعراضها غدرًا؛ لأنها إذا منحت كدت وأتعبت، وإذا استردت استأصلت وأجحفت. ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لسائر أهلها لوفور أماناتهم، وظهور دياناتهم. وفسادها مفسد لسائر أهلها لقلة أماناتهم، وضعف دياناتهم. وقد وجد ذلك في مشاهد الحال تجربة وعرفا، كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا، فلا شيء أنفع من صلاحها، كما لا شيء أضر من فسادها؛ لأن ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم فلا شيء أحق به نفعا، كما أن ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلا شيء أجدر به ضررا.

**وأنشدت لأبي بكر بن دريد:**

**الناس مثل زمانهم *** قد الحذاء على مثاله**

**ورجال دهرك مثل دهرك *** في تقلبه وحاله**

**وكذا إذا فسد الزمان *** جرى الفساد على رجاله**

وإذ قد بلغ بنا القول إلى ذلك، فسنبدأ بذكر ما يصلح الدنيا، ثم نتلوه بوصف ما يصلح به حال الإنسان فيها. اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة، وأمورها ملتئمة، ستة أشياء هي قواعدها، وإن تفرعت، وهي: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح.

**فأما القاعدة الأولى**: فهي الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها، ويعطف القلوب عن إرادتها، حتى يصير قاهرًا للسرائر، زاجرًا للضمائر، رقيبًا على النفوس في خلواتها، نصوحا لها في ملماتها. وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين إليها، ولا يصلح الناس إلا عليها. فكأن الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعًا في انتظامها وسلامتها، ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه، مذ فطرهم عقلاء، من تكليف شرعي، واعتقاد ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء، ويستسلمون لأمره فلا تتصرف بهم الأهواء.

**وأما القاعدة الثانية**: فهي سلطان قاهر تتألف من رهبته الأهواء المختلفة، وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة، وتكف بسطوته الأيدي المتغالبة، وتمتنع من خوفه النفوس العادية؛ لأن في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه، ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي، ورادع ملي.

**وقد أفصح المتنبي بذلك في قوله:**

**لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى *** حتى يراق على جوانبه الدم**

**والظلم من شيم النفوس فإن تجد *** ذا عفة فلعلة لا يظلم**

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء: إما عقل زاجر، أو دين حاجر، أو سلطان رادع، أو عجز صاد. فإذا تأملتها لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان أبلغها؛ لأن العقل والدين ربما كانا مضعوفين، أو بدواعي الهوى مغلوبين. فتكون رهبة السلطان أشد زجرا وأقوى ردعا وأطلقه.

**وأما القاعدة الثالثة**: فهي عدل شامل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان. (فقد قال المرزبان لعمر، حين رآه وقد نام متبذلا: عدلت فأمنت فنمت)[1] وليس شيء أسرع في خراب الأرض

(١) فقد ورد في كتاب التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات بتأليف محمد عبد الحي الحسني ما يلي:
قال الشعبي: كانت درة عمر أهيب من سيف الحجاج، ولما جيء بالهرمزان ملك خراسان أسيرًا إلى عمر وافق ذلك غيبته عن منزله، فما زال الموكل بالهرمزان يقتفي أثر عمر، حتى عثر عليه في بعض المساجد، نائما متوسدًا درته، فلما رآه الهرمزان قال: هذا والله الملك الهني عدلت فنمت، والله إني قد=

ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد)(١).

**وأما القاعدة الرابعة:** فهي أمن عام تطمئن إليه النفوس وتنتشر فيه الهمم، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف. فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة. وقد قال بعض الحكماء، الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش؛ لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم؛ لأن الأمن من نتائج العدل، والجور من نتائج ما ليس بعدل.

وقد يكون الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل، وتارة يكون بأسباب حادثة من غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل. فمن أجل ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل مقنعا عن أن يكون الأمن في انتظام الدنيا قاعدة كالعدل. فإذا كان ذلك كذلك فالأمن المطلق ما عم والخوف قد يتنوع تارة ويعم. فتنوعه بأن يكون تارة على النفس، وتارة على الأهل، وتارة على المال.

وعمومه أن يستوجب جميع الأحوال، ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن، ونصيب من الحزن. وقد يختلف باختلاف أسبابه ويتفاضل بتباين جهاته، ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه. فمن أجل ذلك لم يجز أن يتصف حال كل واحد من أنواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن، لا سيما والخائف على الشيء مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره، فهو يظن أن لا خوف له إلا إياه، فيغفل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواه، فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل، وعما سواه غافل.

---

=خدمت أربعة من ملوك الأكاسرة، أصحاب التيجان فما هبت أحدًا منهم هيبتي لصاحب هذه الدرّة.

كما ورد في كتاب: الرياض النضرة في مناقب العشرة، تأليف: أبو العباس، أحمد بن عبد الله الطبري، وطباعة دار الكتب العلمية ورد:أن عمر كان يخرج ظاهر المدينة ويتفقد أحوال الناس، فصلى الظهر تحت شجرة بعيدة من المدينة ثم وضع رأسه يستريح تحتها ساعة، فمر به رجل كافر ووقف على رأسه وقال: أحسنت يا عمر عدلت فنمت، فلما استيقظ قبل رجليه وأسلم، فبكى عمر وقال: يا رب، هلك عمر إن لم ترحمه.

(١) [بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد] هذه الجملة القيمة رويت عن الإمام الشافعي ﵁.

ولعل ما صرف عنه أعظم مما ابتلي به، وإنما يوكل بالأدنى وإن جل ما يمضي. وحكي أن رجلا قال - وأعرابي حاضر -: ما أشد وجع الضرس، فقال الأعرابي: كل داء أشد داء. وكذلك من عمه الأمن كمن استولت عليه العافية، فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخاف، كما لا يعرف المعافى قدر النعمة حتى يصاب. وقال بعض الحكماء: إنما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها. فأخذ ذلك أبو تمام الطائي فقال:

**والحادثات وإن أصابك بؤسها *** فهو الذي أنباك كيف نعيمها**

فالأولى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عافيته وأمنه، وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه وخوفه، فيستبدل بالشكوى شكرًا، وبالجزع صبرًا، فيكون فرحًا مسرورًا. حكي أن يعقوب قال ليوسف - عليهما السلام -، حين لقيه: أي شيء كان خبرك بعدي؟ قال: لا تسأل عما فعله بي إخوتي سلني عما صنعه بي ربي. وقال الشاعر:

**لا تنس في الصحة أيام السقم *** فإن عقبى تارك الحزم ندم**

**وأما القاعدة الخامسة:** فهي خصب دار تتسع النفوس به في الأحوال وتشترك فيه ذو الإكثار والإقلال. فيقل في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغض العدم، وتتسع النفوس في التوسع، وتكثر المواساة والتواصل. وذلك من أقوى الدواعي لصلاح الدنيا وانتظام أحوالها، ولأن الخصب يئول إلى الغنى والغنى يورث الأمانة والسخاء.

وكتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري: لا تستقضين إلا ذا حسب ومال، فإن ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لا يرغب في مال غيره. وقال بعض السلف: إني وجدت خير الدنيا والآخرة في التقى والغنى، وشر الدنيا والآخرة في الفجور والفقر.

**وقال بعض الشعراء:**

**ولم أر بعد الدين خيرًا من الغنى *** ولم أر بعد الكفر شرًا من الفقر**

وبحسب الغنى يكون إقلال البخيل وإعطاؤه، وإكثار الجواد وسخاؤه، كما قال دعبل:

**لئن كنت لا تولي ندى دون إمرء *** فلست بمول نائلا آخر الدهر**

**وأي إناء لم يفض عند ملئه *** وأي بخيل لم ينل ساعة الوفر**

وإذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت، كان الجدب يحدث من أسباب الفساد ما ضادها. وكما أن صلاح الخصب عام، فكذلك فساد الجدب عام، وما عم به الصلاح إن وجد، وما عم به الفساد إن فقد، فأحرى أن يكون من قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة. والخصب يكون من وجهين: خصب في المكاسب، وخصب في المواد. فأما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج الأمن المقترن بها. وأما خصب المواد فقد يتفرع عن أسباب إلهية وهو من نتائج العدل المقترن بها.

**وأما القاعدة السادسة**: فهي أمل فسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ما ليس يؤمل في دركه بحياة أربابه. ولولا أن الثاني يرتفق بما أنشأه الأول حتى يصير به مستغنيًا، لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكنى وأراضي الحرث، وفي ذلك من الإعواز وتعذر الإمكان ما لا خفاء به. فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه باتساع الآمال إلا حتى عمر به الدنيا فعم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن، فيتم الثاني ما أبقاه الأول من عمارتها، ويرمم الثالث ما أحدثه الثاني من شعثها لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة، وأمورها على ممر الدهور منتظمة. ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه، ولا تعدى ضرورة وقته، ولكانت تنتقل إلى من بعده خرابا لا يجد فيها بلغة، ولا يدرك منها حاجة. ثم تنتقل إلى من بعد بأسوأ من ذلك حالًا حتى لا ينمى بها نبت، ولا يمكن فيها لبث. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (الأمل رحمة من الله لأمتي، ولولاه لما غرس غارس شجرًا ولا أرضعت أم ولدًا).

**وقال الشاعر:**

**وللنفوس وإن كانت على وجل *** من المنية آمال تقويها**

**فالمرء يبسطها والدهر يقبضها *** والنفس تنشرها والموت يطويها**

وأما حال الأمل في أمر الآخرة فهو من أقوى الأسباب في الغفلة عنها، وقلة الاستعداد لها. وقد أفصح لبيد مع أعرابية بما تبين به حال الأمل في الأمرين، فقال:

**وأكذب النفس إذا حدثتها *** إن صدق النفس يزري بالأمل**

**غير أن لا تكذبنها بالتقى *** واجزها بالبر لله الأجل**

وفرق ما بين الآمال والأماني، أن الآمال ما تقيدت بأسباب، والأماني ما تجردت عنها.

فهذه القواعد الست التي تصلح بها أحوال الدنيا، وتنتظم أمور جملتها، فإن كملت فيها كمل صلاحها. وبعيد أن يكون أمر الدنيا تاما كاملًا، وأن يكون صلاحها عامًا شاملا؛ لأنها موضوعة على التغيير والفناء، منشأة على التصرم والانقضاء. وسمع بعض الحكماء رجلا يقول: قلب الله الدنيا، قال: فإذن تستوي؛ لأنها مقلوبة. وقال بعض الشعراء:

**ومن عادة الأيام أن خطوبها *** إذا سر منها جانب ساء جانب**

**وما أعرف الأيام إلا ذميمة *** ولا الدهر إلا وهو للثأر طالب**

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها)[1].

---

(١) أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، الجزء الأول، دار مكتبة الحياة ١٩٨٦ الميلادي، ص: ١٣٢- ١٤٥.

## المبحث الخامس

## مسئولية تحقيق المصالح وحفظها

اليسر لا العسر هو طبيعة هذا الدين في التعامل مع الأحداث البشرية المتنوعة لتحقيق المصالح من خلال زرع المعروف وتربيته ورعاية نمائه، بجانب مقاومة المنكرات ومنع حدوثها وتقليل انتشارها، فالواجبات تنطلق من قاعدة التيسير لا التعسير ومن التسهيل لا التصعيب، فالله لا يوجب علينا إلا ما نستطيع عمله، ولقد توافرت وتواترت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة حول موضوع التكليف، وتبين لنا بكل وضوح أن الواجبات الشرعية وما يطلبه الله منا لا يتناقض مع طبيعتنا كبشر، بل إن التكاليف تنسجم مع قدراتنا قوة وضعفا.

### التكاليف من التيسير لا التعسير

فالرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه علمنا ذلك من خلال الأحاديث الصحيحة والآيات القرآنية، ولقد وردت تلك النصوص في مختلف المناسبات الشرعية المتصلة بالأحداث والوقائع. تقول سيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما: (ما خيِّر النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإذا كان الإثم كان أبعد الناس منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله). وقال رسول الله ﷺ: [والذي نفس محمد بيده ما اجتمع أمران في الإسلام إلا كان أحبهما إلى الله أيسرهما). وقال ﷺ: (ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا ذهب عن شيء إلا شانه) وقال عليه السلام: (يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تُنَفِّرُوا) وقال عليه السلام: (يسروا ولا تعسروا، وسكِّنوا ولا تنفروا).

وفي موضوع التيسير في التكاليف الشرعية نختار عددًا من الآيات القرآنية في هذا المبحث. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأعراف]، يقول فخر الرازي في تفسير كلمة الوسع في الآية: (معنى الوسع ما يقدر الإنسان عليه في حال السعة والسهولة، لا في حال الضيق والشدة، والدليل عليه: أن معاذ بن جبل قال في هذه الآية إلا يسرها لا عسرها. وأما أقصى الطاقة يسمى جهدًا لا وسعا وغلط من ظن أن الوسع

بذل المجهود)[1]، وبمناسبة شهر الصوم يرد التيسير في القرآن، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ ﴾ [البقرة].

**التكاليف من الوسع:**

وفي مسألة رضاعة الأطفال يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ... ٢٣٣ ﴾ [البقرة]. ووردت كلمة الوسع في إطار التكليف في الآية التالية حول جملة من القضايا والأحكام مثل رعاية الأيتام وتنشئتهم، والاستقامة في المعاملات التجارية وعدم نقصان الكيل والميزان، والتزام قيم العدالة العامة بين المخلوقات البشرية مهما كانت العلاقة بين الحاكم والمحكوم. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ ﴾ [الأنعام]. وفي مجال الحق وعدم الظلم يرد الوسع في الآية التالية تأكيدا للمعنى السابق، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢ ﴾ [المؤمنون].

**التكاليف وانتفاء الحرج:**

﴿ ...مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ ﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾ [الحج].

في دوحة الأحاديث النبوية الشريفة والآيات القرآنية السابقة حول طبيعة التكاليف الشرعية علينا والتي تنطلق من اليسر لا العسر، ومن التسهيل لا التعسير، ومن الوسع لا

(١) تفسير مفاتيح الغيب، فتح الدين الرازي، الجزء ١٤، رقم الصفحة: ٢٤٢.

المشقة ولا الحرج، نستظل بوارف ظلالها في حياتنا، ونستمتع بتوجيهاتها الأبدية الخالدة، مسترشدين بتعاليم أحكامها أمرًا ونهيًا، مدركين قيمة هذا الدين وشريعته وسمو نصوصه ودلالته الراقية، وسعيه الدؤوب إلى تقويم ما اعوج من أمور حياتنا بسبب فساد أعمالنا ورعونة كثير من تصرفاتنا الطائشة، وكل ذلك من أجل تحقيق المصالح البشرية في هذه الحياة الصاخبة الفانية، وفي الحياة الأخري الهانئة والأبدية.

وهذا ما جاءت من أجله الشرائع السماوية أصلًا وأساسًا، وكل أمر ونهي، أو ذم ومدح، أو ترغيب وتهديد، أو وعد ووعيد، أو قصة من قصص التاريخ، أو أي نص يتعلق بشؤون الحياة الواسعة من النصوص، كل هذا وغيره من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة تهدف إلى تحقيق مصلحة من مصالحنا العاجلة أو الآجلة، وكلها في خدمة سعادتنا وطمأنينة نفوسنا واستقرار حياتنا وأمنها ورغد عيشها من خلال العدل الشامل والأمن العام والحرية المتوازنة والكرامة الإنسانية المفروضة من خالقها.

كما مر بنا سابقًا في المحور الأول؛ فإن فقهاءنا الأفاضل قد قسموا الواجبات في شريعتنا السمحة إلى نوعين اثنين فقط، وهما الواجبات العينية والواجبات الكفائية، وذكروا تعريف كل نوع وحددوه، ولا نحتاج إلى إعادة شرحها هنا، بل يكفي أن يراجع القارئ الكريم والقارئة الكريمة ما ذكره العلماء والفقهاء في الموضوه ليتسنى للجميع فهم تلك العلاقاة الوثيقة بين الواجبين من ناحية، وفهم حاجتنا الضرورية إلى ما يساعدنا على القيام بالواجبات الكفائية عبر العمل التطوع الجماهيري من ناحية أخرى[1].

معلوم لدينا أهمية المصالح وضرورة تحقيقها في حياتنا اليومية، والأمر المهم والملح هنا هو أن نجيب عن بعض الأسئلة التي تتردد على ألسنة الناس في الوقت الحاضر من أجل الوقوف على أجوبة تلبي استفساراتهم حول الواجبات التي يتعين عليهم عملها تجاه أوطانهم وأمتهم المنكوبة التي تعاني أزمات بل كوارث تهدد وجودها من أساسه، وهذه مجرد محاولة وتحفيز لشعوبنا لرفع الهمم وللمساهمة في خلق توجه عام يستجيب للمسؤوليات التاريخية التي أمامنا اليوم للوصول إلى أرضية مشتركة بيننا تساعدنا على النهوض والخروج من النفق المظلم، فجلب المصالح وحفظها من أوجب الواجبات

(١) للمزيد راجع الفصل الأول من الكتاب.

علينا، ولقد سبق وأن أوردنا في المحاور السابقة بعضًا من الموضوعات والمجالات المتنوعة التي وردت بشأنها أمثلة من مشتقات مادة "صلح"، والتي جاءت منها كلمة "المصلحة"[١].

إن إهمال هذه التوجيهات الربانية والنبوية من الأوامر والنواهي وما في معناهما لهي خسارة الأنفس وضياع مصالح هذا الإنسان وسعادته وتمتعه بأطايب نعم الله تعالى ولذائذ الخيرات. وانطلاقا من هذا فإن القيام بهذه الأعمال ضرورة لحياتنا، فكل ما هو ضروري ولازم لحياتنا فعمله يصبح من الواجبات الحتمية التي لا مناص منها أبدا. فالبشرية تشترك في هذا الشعور تلبية لكل ما تدعو إليه حاجاتهم المتجددة سواء كانوا أصحاب ديانة سماوية أو غير ذلك، وأيا كانت أيدلوجياتهم الفكرية والإيمانية، أو كان نظام حكمهم الذي يخضعون له، ومهما تكن المستويات المعيشية متباينة، فهم يتشاركون المشاعر الضاغطة من أجل الاستجابة لنداء الحاجة، هم مجبرون على ذلك، وليسوا مخيرين كما هو المعلوم.

وعلى هذا الأساس فإن هذا الأمر الضروري لوجودنا في الكوكب الأرضي ويصبح من الفرائض في ديننا الإسلامي الحنيف، وكل ما هو ضروري ولازم لبقائنا يكون الإتيان به من الأحكام الواجبة علينا، فما لايتم الواجب إلا به فهو واجب. فكل الواجبات لابد أنها تقع على حيز محدد من أشخاص بعينهم أو تقع على مجموع أفراد الأمة حسب التصنيفات والتعريفات الفقهية كما هو مقرر في علم الأصول والفقه، وليس من الممكن أن تكون واجبات مفروضة من الله لا يتحمل مسئوليتها أحد من خلقه، إذا هناك من

---

(١) راجع الفصل السادس: علاقة الأعمال التطوعية بالمصالح والمفاسد، (المصلحة في القرآن الكريم) لأن تلك الفقرة تتناول مادة صلح وبعض مشتقاتها وخاصة كلمة (الصالحات) تناولت هناك عددا من الموضوعات الهامة التي وردت فيها كلمة الصالحات في القرآن الكريم ومعها قلة قليلة من مشتقاتها الأخرى لتدرك أهمية الصلاح والإصلاح الذي هو تحقيق المصلحة العامة والخاصة للإنسان في حياته الدنيوية وحياته الأخروية، ولتدرك أيضًا حجم الواجبات التي أوجبها الله علينا من خلال النصوص القرآنية التي تتحدث عن الصلاح والإصلاح في مختلف شعب الحياة وضخامة الأعمال التي تنتظر المصلحين من المؤمنين وخطورة إهمالها وما يترتب على ذلك من الخراب والفوضى والإفساد في الأرض.

سيسأل الواجبات فلا تكون في فراغ، فالسؤال عن تفريط القيام بما يلزم من الواجبات لتحقيق المصالح هو آت لاريب في ذلك، وهو من المسؤول عنها؟

**على من تقع مسئولية تحقيق المصالح العامة؟**

فإذًا لابد أن نسأل أنفسنا هل هي مسؤولية فردية أو هي مسئولية جماعية؟ هل تقع على الدولة ومؤسساتها ومرافقها إذا كانت موجودة وفاعلة أو تقع على المجتمع بأفراده ومؤسساته المجتمعية غير الحكومية ؟ كما يخطر على بالنا باستمرار: هل هذه الواجبات داخلة في الواجبات العينية التي هي مفروضة على كل شخص مكلف من أفراد مجتمعاتنا أو واجبة وجوبا كفائيا حسب تعريف الفقهاء حيث لا تقع على أفراد المكلفين بأعيانهم، بل تجب على الأمة بمجموعها بدون معرفة هؤلاء بأشخاصهم وأعيانهم أو شرائحهم وتخصصاتهم أو صفاتهم وأجناسهم؟

يوجب الدين علينا أن نحافظ على المصالح البشرية كلها وننشئها وننميها داخل أنفسنا، في عقولنا وعواطفنا وأفكارنا وأحاسيسنا ومشاعرنا، وفي مزارعنا ومراعينا ومصانعنا، وفي مدارسنا وجامعاتنا ومساجدنا، وفي مدننا وقرانا، وفي مكاتب عملنا وغرف نومنا في بيوتنا، وفي كافة المجالات والساحات، كما ينبغي فعل ذلك في جميع البلدان في العالم كل حسب الاستطاعة لكون هذه المصالح مترابطة، ووجودها يخدم الجميع، وصيانتها ضرورة للجنس البشري وكل ما تضم بيئته من حيوانات وطيور وحشرات، ونبات وكنوز وهواء، وبحار ومحيطات وأنهار، وغير ذلك.

لقد أمر الله أنبياءه ورسله في القرآن الكريم أن يواظبوا على البناء الفعال في الأرض بلا انقطاع، ويحافظوا على جمالها ورونقها عند التعامل مع جميع البشر وفي كافة القضايا المختلفة في كوكبنا، لأن العالم كتلة واحدة في حقيقة الأمر، كما أن مصالحه تدور في فلك واحد رغم اختلاف نجومها وتنوع مداراتها، ورغم اختلاف الأديان والأيديولوجيات الفكرية وأنظمة الحكم والعادات والتقاليد والألوان والأشكال.

في هذا الأمر يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ ﴾ [المؤمنون]. إنه مجتمع موحد ينبغي أن تقوده قيادة صالحة تملك منهج الحياة وشريعة متكاملة مبناها

التعامل فقط مع الطيبات والصالحات في برامجها الحياتية، وفي قصص نبي الله سليمان يقول جل ثناؤه: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ].

وصالح هنا تعني ما يؤسس الاستقامة في الأرض ويحافظ على طهارتها وجمالها، ويمنع حدوث ما يعكر صفوها، أو يقوّم الاعوجاج ويصحح الانحرافات الطارئة، وتشمل كافة مجالات الحياة وأفرعها المتشعبة، ويدخل في هذا المحيط الفروض الدينية، والنوافل، وفي مقدمتها أركان الإسلام وأركان الإيمان، كما يدخل فيها كل الأوامر والنواهي التي لا يمكن أن يستثنى منها شيء من الأحكام المطلوب تنفيذها وجوبا، أو ما هو دون ذلك من السنن التي تساعد على قوة وديمومة الأنشطة الفرضية، وتزيد جودة الأعمال بصورة عامة، وهو ما يحقق للأمة المسلمة في مختلف العصور الحصول على شهادة الخيرية والأفضلية.

والآيات في مثل هذا الأمر كثيرة ومتضافرة، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران]، ويقول جل ثناؤه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران].

ونجد في الآية التالية صورة نموذجية تفصل نوعية الحياة التي يريد الله أن نبنيها، وأن الفلاح والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرساء قواعد الأعمال الطيبة، ومحاربة الخبائث منحصر في اتباع منهج الله ونصرته، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

في النصوص السابقة تتضح لنا الصورة الكلية لنوعية الحكم وعلى من تقع. عند النظر إلى حجم المسؤوليات وضخامتها، وشموليتها ندرك أن هذا الأمر لا يمكن أن يقوم به فرد أو أفراد مشتتون غير منظمين، فواضح أن الله يأمر الأمة المؤمنة أن تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تستقيم الأمور ويكثر المعروف وتقل المنكرات، ويغلب الخير على الشر، إذًا مسؤولية القيام بواجبات تحقيق المصالح وحفظها مسؤولية جماعية تجب على الأمة إجمالا، ولا يمكن أن تكون مسؤولية فردية.

ويعني ذلك أنها من الفروض الكفائية التي يجب أن يتحملها الجميع كبارا وصغارا رجالا ونساء، حيث يأثم الجميع بعدم القيام بها كما حددها العلماء من الفقهاء والأصوليين، فما دام هذا الأمر يقع على الأمة فيعني ذلك أن كل فرد من أفراد الأمة المكلفين مطلوب منه أن يساهم في القيام بالواجب حسب قدراته وإمكاناته العلمية والفكرية، والجسدية، والمالية، وكذلك القدرات العلاقاتية والمعلوماتية، أو أي شيء آخر يستطيع القيام به، وعلى الدولة أن تقوم بمهمة إعداد الطاقات البشرية والإمكانات المادية، وهذا هو دور القيادة وبعدها تأتي المساندة الشعبية ودعم دور الدولة طوعًا أو كرها، وهذا هو معنى السلطة والقوة، فبدونها تتبعثر الجهود وتفقد زخمها وتأثيرها.

ولقد أشار إلى هذا المعنى الخليفة الأول سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنهما حيث أوضح منهج حكم للناس بكل شفافية أمام الجمهور، فجاء خطابه الأول العام في السير والتاريخ هكذا: (لما بويع ﷺ البيعة الثانية التي هي بيعة عامة الناس في مسجد رسول الله خطب الناس خطبة عامة حيث قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله: أما بعد: أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله)[1].

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٦١، والطبقات لابن سعد ٣/ ١٨٢-١٨٣، البداية والنهاية ٥/ ٢٧٩-٢٨٠ وقال: "هذا إسناد صحيح".

وفي موقف آخر للخليفة يشرح المعنى العام لآية من كتاب الله يستخدم كثير من الناس ضد معناها الحقيقي ليوضح لنا جميعا أن الواجبات الكفائية تظل أكبر تحد للأمة، ففي إحدى المناسبات العامة قام أبو بكر الصديق ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ [المائدة]، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله أن يعمهم بعقابه)(١)، وهذا ما يحدث اليوم ووقع المسلمون أو اكثرهم فيما حذره الرسول ﷺ واستشهد بها أبوبكر في إحدى خطبه الأولى.

فليس من المعقول أن تكون فردًا من أفراد هذه الأمة التي تتلقى الأوامر والنواهي من القرآن والسنة، ولا تحرك ساكنًا ولا تبذل أي جهد مقابل ما أوجب الله عليك كما أوجب على جميع أفراد الأمة بدون استثناء أحد منهم، ثم أن تطمع أن تشارك مع هؤلاء الذين يبذلون كل غال ومرتخص للقيام بهذه الواجبات في بلوغ مرتبتهم في براءة الذمم والخروج من الإثم الذي يلحق كافة أفراد الأمة إذا قصروا في الواجبات الكفائية ولم يؤدوا ما عليهم.

فالذين ينتظرون من الآخرين أن يقوموا بتنفيذ الواجبات التي عليهم كما هي على غيرهم هم آثمون قبل التنفيذ وبعد التنفيذ؛ لأنهم تعمدوا التقصير والإهمال من ناحية، وشاركوا في ضياع المصالح من ناحية أخرى، وتعني مسألة ضياع المصالح حدوث خسارة ما في الأرواح والممتلكات، بما فيها الموت والتلف وفقدان سيادة الدولة ونقص المحصول الزراعي، أو النزوح والهجرة القصرية وغير ذلك، وهي أحوال نشاهدها اليوم بسبب ضعفنا في كل بقعة من بقاع أمتنا المنكوبة. فإذا كان المشارك في تسبب هذه الخسائر الكبيرة يتبرؤ من الآثام بمجرد أن بعضًا قاموا بالواجبات الكفائية، وتبرؤ ذمته بفعل غيره وهو من القادرين على المساهمة في هذا الواجب فما هي قيمة الواجبات المفروضة علينا؟ وما معنى المسؤولية التي يتحملها الإنسان؟

ومن بين القدرات التي يجب أن نحركها في الظروف الاستثنائية كالتي تمر بها أمتنا في الوقت الحاضر الطاقة الكامنة في الأطفال، من أجل المساهمة في الدفاع عن قضايا الأمة

---

(١) رواه الترمذي وقال هذا حديث صحيح.

وملء بعض الفراغات الهامة، وتلك طاقة كبيرة لا ينبغي أن نستهين بأمرها عند الحديث عن الواجبات الكفائية، وهنا تظهر خطورة الواجبات الكفائية وأنها في بعض الحالات تسبق الواجبات العينية في فرضيتها على الأفراد، حيث تجب على كل القادرين على المشاركة الفعلية والتحرك والعمل معًا سواء كانوا مكلفين أو غير مكلفين حسب التعريفات الفقهية المعهودة، لأنه لا معنى لتعطيل هذه الطاقة الهائلة ما دامت متوفرة. الأطفال من بين الذين يتعرضون للمخاطر والإبادة عند ما تفشل الأمة في الحفاظ على كينونتها وقوتها ووجودها وتستباح حرماتها، وكم من عمل جبار يستطيعه أطفالنا أكثر منا، فأبناؤنا يتقنون استخدام التقنيات الحديثة لتكنولوجيا العصر، فلو دربوا تدريبا جيدًا في مثل هذه المجالات فإنهم يساهمون في البناء والتنمية والدفاع عن الحقوق ويشاركون في نشر التعليم، ويتولون رعاية واجبات أساسية نحن عاجزون عنها.

فقعودهم وعدم مشاركتهم في إنقاذ ما يمكن إنقاذه هو من العبث وسوء فهمنا للحياة، وهذا من الأمور الناتجة عن قصورنا نحن أولياء أمورهم، والمسألة تحتاج منا إلى تبسيط مفهوم الواجبات التي هي على الأمة، ويدخل في هذا الأمر الأطفال دون سن التكليف الشرعي. في الظروف الاستثنائية يتساوى الكبار والصغار في القيام بالواجبات الكفائية، وهو من المتفق عليه بين الفقهاء، وهذا قبل أن يبلغ الأبناء سن التكليف على الواجبات العينية مثل الصلوات والصيام وغيرهما، ويتطلب الأمر إلى قدر من التنظيم والحكمة والتعامل مع أوضاع الصغار وإسناد المهام التي يستطيعون إنجازها مع مراعاة أعمارهم وظروفهم الصحية والنفسية.

لقد رأينا فعالية الأطفال عند تدربهم على صناعة الخير فبمقدورهم أن يعلموا الجهال الذين في أعمارهم، ويمكن أن يعلموا من هم أكبر من سنهم عندما نحسن تربيتهم في وقت مبكر، وأن يوزعوا المساعدات على الفقراء والمساكين، ويشاركوا في الإغاثات العاجلة بفعالية كبيرة، كما أنهم يقدمون الخدمات المختلفة إلى المرضى أيام الحروب الأهلية الطاحنة التي ينشغل فيها الكبار لأداء المهمات الصعبة، إنه لأمر ممكن أن يقوم الطفل في عمر مبكر بواجب من الواجبات الضرورية التي لا غناء عنها للفروض العينية، مثل تعليم الناس كيفية الصلاة والوضوء والطهارة التي حفظها من أسرته منذ ولادته.

صحيح أنه لا عقاب على الأطفال قبل سن البلوغ الشرعي إذا لم يقوموا بما يقدرون عليه لأنهم غير مكلفين شرعًا، ولكنني أعتقد أن أي تقصير من قبل أولياء الأمور

والمجتمع والدولة لتعليم الصغار لما يجب عليهم أن يقوموا به تجاه أمتهم وهم جزء منها سيكون عقابه كبيرًا لجميع المقصرين عن تربيتهم تربية متكاملة تؤهلهم لتحمل المسؤولية من اليوم قبل الغد، وعلى رأس هؤلاء الآباء والأمهات، لأنهم مكلفون بمهمة تربية أبنائهم، وبدون تربية صالحة للأطفال فإن أولياء الأمور وعلى رأسهم الوالدان آثمون لأنهم ضيعوا الواجبات العينية، وتبعا لذلك ساهموا في تضييع الواجبات الكفائية، فهم بهذا الإهمال يتحملون كامل المسؤولية لما يترتب على هذا الأمر.

ألا يستطيع الأطفال أداء بعض الفروض الكفائية مثل تعليم القرآن الكريم للجاهلين؟ ألا يستطيعون مساعدة المرضى في المستشفيات إذا تلقوا التدريب المناسب؟ ألا يستطيعون إنقاذ الغرقى الذين يسبحون معهم في البرك والأنهار والبحار إذا دربناهم على السباحة؟ ألا يستطيعون تنظيف طرقات المدن والقرى والمدارس والميادين العامة؟ ألا يستطيعون المشاركة في الدفاع الوطني في المجالات الإعلامية والاتصالات والخدمات المتنوعة؟ ألا يستطيعون مساعدة الأطفال الضعاف في الدروس لتقويتهم ورفع مستواهم التعليمي؟ ونعلم أن كثيرًا من أطفالنا في مختلف الديار الإسلامية وخاصة في القارتين الآسيوية والإفريقية لا يجدون في بيوتهم من يساعدهم على تعليمهم، وهو عمل نبيل يقوي العلاقات الحميدة بين بني البشر.ألا يستطيعون حفر القبور مع غيرهم لدفن موتانا عندما تشتد الكوارث وتحل النكبات على المجتمع؟ ألا يستطيعون المشاركة في الأعمال الزراعية والتي تمثل قمة أولوياتنا في الحياة ولو داخل منازلهم؟

هذه الموضوعات التي أثرناها في عالم الأطفال هي جزء من الواجبات الكفائية التي ينبغي أن تقوم الأمة بها فور وجوبها، فإذا كان أطفالنا قبل البلوغ يستطيعون أداء تلك الأدوار الهامة والحيوية فما بال الكبار والأقوياء الذين وجبت عليهم أن يعملوا ويقوموا بكل الفرائض الدينية والوطنية. فمن التقاليد العامة الحميدة في الصومال أن الأطفال في مدارس تحفيظ القرآن الكريم يساعدون الأساتذة ويتولون قسطا من الجهود الكبيرة التي يتولاها الأستاذ مع وجوده وعند غيابه لقضاء بعض الحاجات خارج القرية.

كنت واحدا من الأطفال الذين ساهموا في أداء هذا الواجب الكفائي المتمثل بنشر القرآن الكريم، ففي وقت مبكر حصلت على درجة "كبير" في مدرسة تحفيظ القرآن الكريم، وهي درجة يناله التلميذ المتفوق، وعادة يكون الأول؛ أي متقدما على أقرانه من

حيث مستوى الحفظ وسرعة انتقاله من سورة إلى أخرى، ويكسب بهذا احترام المعلم والطلبة معًا، وبهذا مارست تدريب الطلبة على القراءة والكتابة مساعدة لمعلم المدرسة، وعلمت الطلبة سور القرآن القصيرة منها والطويلة، وبعض الأطفال كانوا أكبر مني بعدة سنوات، وبعضهم كانوا في عمري، وكان من بينهم من هم أصغر مني، وأنا وقتها دون السن العاشر، وتلك ظاهرة مشهورة في الصومال.

وكان عمي معلم عبد الله حفظه الله تعالى هو معلم القرآن في القرية، وعندما اطمأن لجودة حفظي للقرآن الكريم ولقدرتي على التدريس وتولي المهمة الإدارية لمدرسة تحفيظ القرآن نيابة عنه كان يسافر كثيرًا لخدمتنا، ففي مثل هذه التصرفات يمكن أن تحل الأمة عديدًا من مشاكلها التعليمية والاقتصادية والإعلامية، ولو أدركت الأمة هذه القدرات التي لا تكلف سوى تدريب أبنائنا الصغار على العمل الطوعي لوفرت على نفسها مليارات الدولارات من خلال توظيف القوة الكامنة في الأجيال الصاعدة من أطفالنا، وهي قوة لا تقدر بثمن.

### هل هناك فروق بين الواجبين في التطبيقات العملية

عند النظر لا نجد أبدا أي فروق منطقية بين الواجبات العينية والواجبات الكفائية في الواقع العملي، فهي واجبات مفروضة على الأفراد كلهم وعلى الأمة جميعها، وكل شخص يجب عليه أن يعمل ويستجيب لأمر الله جل ثناؤه حتى يبرء ذمته ويخرج من الإثم، فأوامر الله ورسوله التي ترتقي إلى الفرضية الكفائية أو العينية واجبة التنفيذ حسب الاستطاعة والقدرة والإمكانات المتوفرة لدى كل شخص، والكبائر وكل أمر ورد فيه نهي في القرآن وفي السنة المقبولة من المحرمات على كافة المسلمين بتاتًا، لأننا لسنا بحاجة إلى إتيان المنهيات المحرمة في الحياة اليومية، كما أوضح الرسول ﷺ في أحاديثه الشريفة: (وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)[1]، فمن وضع الأحكام المخالفة لهذه الآيات والأحاديث النبوية الشريفة؟

---

(١) رواه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم: كتاب الفضائل، والترمذي: كتاب العلم، والنسائي: كتاب مناسك الحج، وابن ماجه.

الفروق بين نوعين من الواجبات مجرد شكليات أصلتها التعريفات الفقهية فقط في العصور المتأخرة، ولم يكن هذا الأمر موجودًا في عصر الصحابة رضي الله عنهم بهذه الطريقة الدقيقة التي فصلت بين الواجبين، والتي تكاد ترفع معظم الواجبات عن الأمة من الناحية العملية، فعند التتبع يظهر لنا أن الفروض العينية والكفائية متساويان في الأمور التالية:

**أولًا**: من حيث أصل الفرضية: فنجد فرضيتهما في القرآن الكريم والسنة النبوية القولية والفعلية والإقرارية لأمر مشروع، ولقد عمل الصحابة تواترًا في حياة الرسول ﷺ مما يعني تفسير النصوص وتطبيق ما تدعو إليه، وهم تلامذة محمد بن عبد الله رسول الهداية للبشرية ﷺ.

**ثانيًا**: من حيث ثبوت الأجر والثواب: لأن القائمين بالفروض يتوقعون حصول الثواب والأجر من رب العالمين بسبب أعمالهم الخيرة، وانقيادهم للأوامر والنواهي، واستجابتهم لله ولرسوله، وكل ذلك مرهون بمشيئة الله وبفضله تعالى حسب ما هو مبين في القواعد الشرعية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشورى]، فلا فرق بينهما من هذه الناحية على الإطلاق.

**ثالثًا**: من حيث بقاء الإثم: لأن ذمم المكلفين غير المعذورين ستظل غير مبرءة من الإثم إذا تم التفريط في أداء أي صنف من أصناف الفروض العينية أو الفروض الكفائية، فهما من هذه الناحية متساويان، والنذارة والوعيد بالعقاب والعذاب في أعقاب التوجيهات القرآنية والأحاديث النبوية ظاهرة للعيان، لا نتحدث هنا بالطبع عن تحقق العقاب للمقصرين فهذا شأن آخر، فالله يفعل ما يريد، وهو الغفور الرحيم، وهو شديد العقاب، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾

[المائدة]. ويقول: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر].

**للواجبات وظائف تكاملية كأعضاء جسمنا:**

مع أن الدماغ والقلب والرئتين والكبد والكليتين تمثل أهمية خاصة لبقائنا على قيد الحياة، ولعلها تشبه ما تمثله أركان الإسلام من أهمية في الدين الإسلامي، إلا أن هذه الأعضاء الضرورية لحياة الإنسان، وترتبط قوتها وفعاليتها ببقية أعضاء الجسم قوة وضعفا، صحة ومرضًا، فالإنسان المصاب بالعمى أو بالصم أو بفقد أياديه وأرجله، أو بفقد الأعضاء التناسلية، أو خلل بلسانه، يمكن أن يكون حيًا وباقيًا مدة طويلة كما نرى بعض الناس المبتلين بالآفات الجسدية والأمراض المرهقة، ولكننا مع ذلك نرى كيف أصبح هذا الإنسان فاقدًا لمعظم قدراته وفعالياته وكيف تتغير معنوياته ويضعف أمله.

فالواجبات أو الفروض مثل ذلك، ننظر إلى أركان الإسلام مع ضعف الواجبات الكفائية وتضرر المصالح العامة في المجتمع، فبناء المساجد من الواجبات الكفائية لكونها ضرورة لصلاة الجماعة وبكون أداء صلاة الجمعة مرتبط ببنائها وصيانتها، فبغياب هذا الفرض لا يمكن إقامة صلاة الجماعة وصلاة الجمعة. بالإضافة إلى ذلك فإن عددًا كبيرًا من الواجبات الأخرى يتعذر تحقيقها بدون هذه المساجد، من هنا ندرك كيف أن أول ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين تتعطل واجباته الضرورية عندما يخفق المجتمع ولا ينجح بتأمين ما تحتاج إليه المساجد من الإنشاء والصيانة وتوفير الخدمات اللازمة.

وهناك مراحل معينة تصل إليها العبادات فتتعطل وتكون مهجورة بأسباب مختلفة منها مرحلة سيادة الفوضى على الحياة الاجتماعية، أو هيمنة الأعداء على الأراضي الإسلامية، فقد يتخذ أحيانًا هؤلاء الأعداء قرارات حاسمة لمنع كافة أشكال العبادات مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج، ودلائل هذه الأحداث موجودة وتمارس اليوم ضد شعوب مسلمة بأكمها كما يحدث في تركستان الشرقية التي تحكمها الصين حاليًا، ولمسلمي بورما شعب روهينغا، ولقد تعرضت الجمهوريات الإسلامية في القوقاز لأسوء من هذا، بل وصل الأمر إلى هدم المساجد والأضرحة وكل ما له علاقة بالإسلام، حيث منعوا من ممارسة كافة الشعائر التعبدية من قبل السلطات السوفيتية آنذاك.

والأسباب كلها ناتجة عن فشلنا كأمة في التقيد واتباع منهج الله ورسوله أمرًا ونهيًا، أو بمعنى آخر فشلنا في القيام بالواجبات الكفائية، مما أدى إلى مرضنا وتفككنا وانهيارنا حتى تمكن الأعداء من الاستباحة والتمدد والهيمنة المطلقة على مقدراتنا.

**فهناك أسباب عديدة أدت إلى هجران ممارسة الواجبات الكفائية حتى ضاعت المصالح، ونكتفي بعدة أمثلة على تلكم الأسباب والعوامل وهي كالتالي:**

**أولًا: جهلنا بالمقاصد الشرعية الكبرى:** جهلنا بالمقاصد الشرعية الكبرى وسوء فهمنا لمعانيها ومراميها بصورة عامة، وهذا الأمر هو الذي جعلنا وجعل جل فقهائنا يركزون على الجزئيات، فرغم أهميتها إلا أن الجمود الفقهي وقلة المجتهدين في العصور المتأخرة ترك آثاره السلبية على مواكبة الفقه للتغيرات المتسارعة في دنيا الناس، وهو ما نعاني منه في حاضرنا وعانت منه أجيال قبلنا.

**ثانيًا: انكفاؤنا على الواجبات العينية:** انكفاؤنا على الواجبات العينية بطريقة مغشوشة غير نقية، بعيدين عن الواجبات الكفائية، من حيث الفهم والتعليم والتطبيق، لأن أغلب ما ألف وصنف في مختلف العصور كان يتناول الواجبات العينية وتفاصيلها الدقيقة وجزئيات أحكامها، وفرضياتها الممكنة وغير الممكنة، وكأن بين الواجبات حدودًا فاصلة وحواجز مانعة من انسيابها وتكاملها وتأقلمها معًا في عقولنا وعواطفنا ومشاعرنا مثلما كانت الأحوال في العهود المفضلة ابتداء من عصر النبوة والعصور التي تلته وتلك هي خير القرون فهمًا لهذا الدين والعمل به وانقيادًا لشريعة الله، ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم قال رسول الله ﷺ: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)(١).

**ثالثًا: اعوجاج فهم الواجبات الكفائية:** التعريف الفقهي المشهور للفروض الكفائية جاء على هذه الصيغته: (فرض الكفائية هو واجبات على مجموع الأمة لا على كل فرد بعينه، فإذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين)، إن فهم الفروض الكفائية لدى عامة أفراد الأمة أصبح غامضًا، لا يرتقي إلى مستوى الوجوب لدى الفرد المسلم، وهو أمر خطير يساهم بشكل مباشر في التقاعس عن الواجبات الإسلامية وعدم شعور أغلب المسلمين بالذنب المترتب عن تقصيرهم.

---

(١) متفق عليه.

**رابعا: تعريفات وضعت لغير زماننا:** لقد وضعت هذه التعريفات في أزمنة غير زماننا فاختلاف الأزمان له اعتباراه، فعندما ننظر إلى أئمتنا العظام الذي برعوا في حقبهم التاريخية ووضعوا القواعد المفيدة لفهم ديننا الحنيف كانت بيئتهم عامرة ومليئة بعوامل القوة والريادة والقيادة، فكان الحكم الإسلامي مبسوطا في أوسع المناطق في آسيا وإفريقيا وأجزاء مهمة من القارة الأوروبية في القرون الستة الأولى من البعثة النبوية، وهي القرون التي برزت الأمة فيها من الناحية العلمية وتطور الفقه والأصول وعلوم اللغة وغيرها من علوم الطب والهندسة والفلك والرياضيات وغيرها.

فالفتاوى الفقهية كانت تنطلق من واقعهم، وليس خافيا على العلماء المطلعين أن القرون المفضلة كانت الأمة أقوى أمة على وجه الأرض، فالفقيه عندما يفتي أو يضع القواعد الأصولية أو الفقهية فإنه يترجم حياة مجتمعه، فهناك سلطة قوية تمتلك إمكانات هائلة، فهي المسؤولة عن أمن الأمة داخليًا، وعن الدفاع الوطني من العدو الخارجي، كما هي مسؤولة عن مساعدة الفقراء والمحتاجين، فهي فبكونها السلطة المركزية المتنفذة فإنها المسؤولة عن حشد الطاقات وتحريك الأمة عند اللزوم.

ففي تلك العصور المزدهرة كانت دولة الخلافة تنظم شؤون الحياة بنفسها فمن واجباتها كسلطة شرعية تعيين من يقوم بالفروض الكفائية، فهي النائبة عن الأمة، كما أنها تنظم جوانب مهمة من الفروض العينية مثل تنظيم شئون الزكوات وبناء المساجد وتنظيم وتسهيل مهمة الحج والحجيج، ومع أنها فروض عينية إلا أنها لا تستقيم إلا بوجود سلطة قوية تشرف على أعمالها وتراقب أنشطتها المختلفة حتى لا يطغى جانب على جانب، وحتى تسود العدالة ويؤدي الجميع واجباتهم ويجد الجميع حقوقهم بدون تفريط أو إفراط.

فلم يكن هناك جهال بمن يقوم بالفروض الكفائية التي يدور حولها الجدل الواسع لدى الفقهاء المتأخرين، فبعض من يقوم بالفروض الكفائية كان معروفًا لأن تلك الواجبات هي مسئولية الدولة " الخلافة" التي كانت تقوم بترتيب الأمور بصورة عامة، فهي الراعية عن الأمة، وهي المسؤولة عن تنظيم شؤون حياتها كلها مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: (كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده

وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[(١)].

لقد أوضح الإسلام على من تقع الواجبات أيا كان نوعها، فليس هناك مسؤوليات لا يعرف عن مسؤوليها، فمسؤولية الدولة وردت هنا باسم الأمير الذي يحكم الناس وهو يمثل أعلى سلطة في أي منطقة من الأرض، ويجب عليه تحمل كامل هذه المسؤوليات، إذًا فهو الذي يقود المجتمع ويرعى شؤون الحياة العامة الخارجة عن الأحوال الشخصية.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى حول هذه القضية: (إن طريقة الإسلام في إدارة دفة الحكم هي التي جعلت الشعوب تفتح له ذراعيها؛ لأن الحكم كان عبادة لله، ولم يكن شهوة نهوم إلى العظمة، أو مفتون بالسلطان، وإدراك أن الحكم مسؤولية مؤرقة هي التي جعلت الخليفة في المدينة المنورة يعد نفسه مسؤولا عن أطراف الدولة البعيدة، حتى قال عمر: لو عثرت بغلة في العراق لحسبت عمر مسؤولا عنها: لِمَ لِمْ يسوّ لها الطريق؟)[(٢)].

**بغلة في العراق تخيف عمر**: (خرج يومًا من الأيام يعس في الليل حول المدينة بنفسه، فوجد خباءً فيه صبيان يتضاغون، وعندهم رجل يسكتهم ويقول: إن أمير المؤمنين مسئول عنكم؛ لأنه ليس لكم عشاء، فجاء إليه وقال: ما شأنك؟ قال: جئت من البر فلم أجد من يأويني ولا من يعشيني فقال: من المسئول عنك؟ قال: عمر، قال: وما يدري عمر؟ قال: عجيب! يتولى أمر المسلمين ولا يدري عني؟! فذهب عمر وحمل على ظهره دقيقًا وما يحتاج إليه، فجاء به إلى الرجل، وذهب يبحث عن الحطب، فأوقد القدر، فصار يطبخ وينفخ في النار، ويطير الرماد من جوانب لحيته والرجل لا يعرفه، حتى أنضج الطعام وقدمه للصبية وأكلوا وناموا، ثم بعد ذلك أعطاه ما يحتاج إليه وذهب، ثم عُلم به وقيل له: كيف تصنع هذا ولم تأمر غيرك؟! قال: غيري لا يتحمل وزري وذنبي، ولو عثرت بغلة في العراق في الطريق لخفت أن الله يسألني عن ذلك، لماذا لم تسوِّ لها الطريق؟).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) الشيخ محمد الغزالي، نظرة على واقعنا الإسلامي المعاصر، الطبعة الثانية، دار ثابت القاهرة (١٩٨٣م)، ص ٢٤.

(والله لو عثرت بغلة بأرض العراق لسئل عمر عنها يوم القيامة. لم يعبد لها الطريق؟)[1] هكذا كان مستوى الفهم وحجم المسئوليات والوازع الإيماني تجاه الأمة ومكوناتها وما تملك من بشر وثروات، وهكذا كان الخليفة عندما كانت الأمة تختاره بفضله وقوة عمله، لا أنه خليفة قبل ميلاده ولا هو لمجرد كونه من الحيوانات المنوية بفضل سلالته العشائرية، أو بكونه سرق السلطة والناس نيام، أو نهبها بقوة عصابة مدججة بالسلاح بعد أن أهملت الأمة الواجبات، وفقدت قدرات الدفاع عن نفسها. (قال علي ﷺ رأيت عمر بن الخطاب على قتب يعدو فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير ندَّ من إبل الصدقة أطلبه فقلت: لقد أذللت الخلفاء بعدك فقال: يا أبا الحسن لا تلمني فالذي بعث محمدًا بالحق لو أن عناقا أخذت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة)[2]. (وعن داود بن علي قال عمر: لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله سائلي عنها يوم القيامة)[3].

نجد أثر سلطة الدولة العادلة في سرعة وقوة تنفيذ القرارات حول الواجبات العامة من أجل تحقيق مصالح المواطنين، كل المواطنين، بدون النظر إلى دين أو فئة عمرية أو جنس أو لون أو أي اعتبار آخر، انظر إلى الشبه بين العمرين رغم المدة التي تفصل بين الزمانين، فالعامل المشترك هو اليقظة المؤرقة والسهر على مصالح العباد والبلاد. انظر إلى رسالة عمر بن عبد العزيز في عمق رعاية المصالح والاهتمام الشامل بأصغر القضايا وأكبرها.

(كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن، وهو بالعراق: أن أخرج للناس أعطياتهم فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال، فكتب إليه: أن انظر كل من ادان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه، فكتب إليه، إني قد قضيت عنهم، وبقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه: أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه، فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه بعد مخرج هذا: أن انظر من

---

(١) أحمد حسن الزيات باشا، مجلة الرسالة، عدد: ١٠٢٥.

(٢) ابن الجوزي في مناقب عمر، ص ١٦١.

(٣) أبو نعيم، حلية الأولياء، الجزء الأول، ص: ٥٣.

كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين)[1].

**خامسا: حلول مؤقتة لمشاكل دائمة الحدوث:** من خلال التعريفات الفقهية لهذا الفرض تكونت لدى عامة المسلمين منذ فترة زمنية طويلة صورة ذهنية تتعلق بالفروض الكفائية، مفادها وملخصها أن الفروض الكفائية هي أحكام مرتبطة بمشاكل وأقضية محددة بعينها تستجد ثم تنتهي بمجرد أن البعض قد قدم حلولًا لتلك الجزئيات، وهنا تغيب عن الأذهان استمرارية الأحداث وحلقاتها المتواصلة بلا انقطاع وتتابعها مثل تتابع الثواني في أعمارنا، فالمشاكل تولد مع كل مولود في الأرض، والمنكرات والشرور موجودة في كل المجتمعات البشرية، والله يقول جل ثناؤه ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ [البلد].

(ليس في هذه الدنيا لذة البتة، بل ذاك يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم، فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عند ألم الجوع، وما يتخيل من اللذات عند اللبس فهو خلاص عن ألم الحر والبرد، فليس للإنسان، إلا ألم أو خلاص عن ألم وانتقال إلى آخر، فهذا معنى قوله: لقد خلقنا الإنسان في كبد)[2] والآية التالية تذكر ديمومة الصراعات بين الخير والشر بوجودهما في خلقة الإنسان يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد].

إنها ظاهرة بشرية تتصل بطبيعته وليس الاختلاف والتنازع من الأمور الطارئة التي تتعلق بمرحلة من مراحل حياته، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

فكما تشير إليه مثل هذه الآيات فإن الصراع بين الحق والباطل ستظل أعلامه مشرعة دائما ما دام في الأرض بشر فرحون بما يمتلكون من إمكانات مادية ورؤى تعجبهم، وهم بطبيعة الحال مختلفون في أطماعهم التي تحركها الشهوات والرغبات الشخصية وأنانيتهم،

(١) أبو عُبيد القاسم بن سلّام، كتاب الأموال، الجزء الأول، المحقق، خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت، ص: ٣١٩.

(٢) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب مصدر سابق، الجزء ٣١، ص: ١٦٦.

كما أن التأثر بالأفكار والمبادئ والأديان له عوامل أخرى تخلق الاختلاف والتنازل والتناحر، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود]. وبهذا فالواجبات الكفائية مستمرة في الحياة طالما تستمر الوقائع والأحداث، فلا تتوقف عند حد بعينها ما دامت طبيعة البشر هكذا كما يعبر عنه القرآن وتصدقه الأحداث التاريخية والمعاصرة على حد سواء.

والخلافات الفقهية حول الواجبات نشأت وتشعبت في القرون المتأخرة لدرجة أنها تطرقت إلى أمور ما كان ينبغى أن تكون مثار خلاف بأي شكل من الأشكال، لأنها كانت من الثوابت لهذا الدين مثل قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سبيل المثال لا الحصر، هل هي واجبة على الأمة كلها أو على البعض؟ وإذا كانت من الواجبات فهل هي من الواجبات العينية أو من الواجبات الكفائية؟ وتوجد في كتب التفسير مناقشات مطولة لا تسمن ولا تغني من جوع في تفسير مثل هذه الآية، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران].

ومما جاء في تفسير النيسابوري: (واختلفوا في أن كلمة "من" في قوله: مِنْكُمْ للتبيين أو للتبعيض. فذهب طائفة إلى أنها للتبيين لأنه ما من مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إما بيده أو بلسانه أو بقلبه، وكيف لا وقد وصفهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ فهذا كقولك: لفلان من أولاده جند وللأمير من غلمانه عسكر. وتريد جميع الأولاد والغلمان لا بعضهم. ثم قالوا: إن ذلك وإن كان واجبا على الكل إلا أنه متى قام به بعض سقط عن الباقين كسائر فروض الكفايات. وقال آخرون: إنها للتبعيض إما لأن في القوم من لا يقدر على الدعوة وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنساء والمرضى والعاجزين، وإما لأن هذا التكليف مختص بالعلماء الذين يعرفون الخير ما هو والمعروف والمنكر ما هما، ويعلمون كيف يرتب الأمر في إقامتها، وكيف يباشر.فإن

الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وأيضا قد أجمعنا على أن ذلك واجب على الكفاية، فكان هذا بالحقيقة إيجابا على البعض الذي يقوم به. ثم إن نصب لذلك رجل تعين عليه بحكم الولاية وهو المحتسب)[١].

وفي تفسير الآية نفسها جاء في تفسير فخر الدين الرازي (والقول الثاني: أن "من" هاهنا للتبعيض، والقائلون بهذا القول اختلفوا أيضًا على قولين أحدهما: أن فائدة كلمة "من" هي أن في القوم من لا يقدر على الدعوة ولا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل النساء والمرضى والعاجزين، والثاني: أن هذا التكليف مختص بالعلماء ويدل عليه وجهان الأول: أن هذه الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومعلوم أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير وبالمعروف وبالمنكر، فإن الجاهل ربما عاد إلى الباطل وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف)[٢].

(وذهب الزجاج إلى أن "من" لبيان الجنس، وأتى على زعمه بنظائر من القرآن وكلام العرب، ويكون متعلق الأمر جميع الأمة يكونون يدعون جميع العالم إلى الخير، الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، وظاهر هذا الأمر الفرضية، فالجمهور على أنه فرض كفاية، فإذا قام به بعض سقط عن الباقين. وذهب جماعة من العلماء إلى أنه فرض عين، فيتعين على كل مسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متى قدر على ذلك وتمكن منه. واختلفوا في الذي يسقط الوجوب)[٣].

بعيدًا عن الجدل حول النساء والفروض الكفائية الواردة في تراثنا الديني فإنه من الأفضل لنا أن ننظر ونمر على الآيات التالية لنرى كيف تم إيراد الذكور والإناث جنبًا إلى جنب في معرض الكفاح الدعوي وممارسة الواجبات بدون أي تفريق بينهما، وهي توضح لنا بجلاء أن الجنسين متكاملان في بناء الحياة ويساعد بعضهم بعضًا، فلا حاجة للانشغال بالأقوال المخالفة للمنطق والتفكير السوي حين يتعلق الأمر بالنساء وعلاقتهن بجوانب من الأحكام في شريعتنا.

---

(١) نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، غرائب القرآن وعجائب الفرقان، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص: ٢٢٧ .

(٢) فخر الدين الرازي مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ص: ٣١٤-٣١٥.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، المحقق صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠هـ، الجزء٣، ص:٢٨٩.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]، ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل]، ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء]، ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [آل عمران]. ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال]، ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة]. ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ

وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾ [الأحزاب].

مجرد المرور العابر بهذه الآيات في مختلف سور القرآن الكريم يكشف لنا مدى الضرر الذي تلحقه التقاليد الراكدة بالمسيرة الدعوية حتى جعلت بعض المفسرين الكبار رهينة للتقاليد البالية، ويفسر القرآن الكريم حسب هوى المهووسين بدفن النساء وهن أحياء، وما رأيناه في التفسيرين السابقين هو مجرد أنموذج لما نعانيه منذ قرون حتى تبلدت الأفهام وارتبطت بالتقاليد المهترئة بدل النصوص الناصعات الواضحات، وعدم إعمال العقول يرسخ التقليد ويقتل المواهب ويغيب التدبر في النصوص لإنزالها على الواقع، من من البشر لا يستطيع أن يشترك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لو كان أحدنا على فراش الموت، إزالة الأذى عن الطريق من الواجبات الكفائية ومن شعب الإيمان، أيعجز المرضى أن يوجهوا من حولهم إلى القيام بالواجبات؟ أفلا تستطيع المرأة الغنية أن تتصدق بمالها لبناء المستشفيات والعيادات الطبية والجامعات ورفع مستوى المعيشة للفقراء؟

ومن المؤسف حقًا والمحزن أن كثيرًا من مجتمعاتنا الإسلامية ترتكب جرائم معنوية في حق النساء، حيث يمنع الرجال النساء المشاركة الفعالة في القيام بالواجبات، ويعتبرون مثل هذا الأمر من المحرمات، وهذا نوع من دفن النساء وهن على قيد الحياة، إنه اعوجاج خطير ومفاهيم مغلوطة ترسخت في عقول كثير من ذكورنا بعد أن تحولت بعض العادات العربية إلى قلب تراثنا الديني منذ زمن قديم، فنجد تحقير النساء وتشويه صورتهن عبر كتب التفاسير والفقه والأدب والقصص، وتلك الصورة القبيحة هي بمثابة متاحف تعرض الأنثى كائن غير سوي لا دور له في قضايا الأمة، وبصورة إنسانة لا تملك القدرات والإمكانات للمشاركة في الواجبات، وأن جميع الواجبات الكفائية خاصة بالرجال.

وتلك الصورة ازدادت عمقًا خلال العقود الماضية من خلال بعض التيارات الدينية في المجتمعات الإسلامية وخاصة في المجتمع الخليجي وأفغانستان وهي ظاهرة منتشرة في كثير من المجتمعات بتفاوت مختلف، مما عطل طاقة نصف المجتمع أو أكثر،

وكان لهذا أسوء الأثر في تشويه صورة الدين في أنحاء الأرض، وهو ظلم شنيع يمارس ضد بناتنا باسم الدين، وإن إزالة هذا الضرر البليغ يستوجب من العقلاء في الأمة أن يوضحوا للناس أهمية دور المرأة وضرورة تحمل مسئولياتها، والمقاومة ضد هؤلاء الهمج أعداء الحضارة والإنسانية والدين من الواجبات لتحقيق المصلحة عن طريق تبيين الحق ونصرة النساء كما أوصى لنا رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح [استوصوا بالنساء خيرًا] (١).

### ما الفرق بين الفرض العيني والكفائي؟:

**أولًا**: هناك فرق يظهر بعد القيام بالفروض الكفائية على الوجه المطلوب في الواقع العملي حسبما تتطلب المصلحة العامة، أيا كانت المجموعات البشرية التي نفذت هذه المهمة، وقامت بالفرض نيابة عن بقية المجتمع، فإذا تم هذا الأمر وتبين للبقية التي لم تشارك في هذا العمل، وأصبح هذا شائعا ومعلوما لديها، فعندها فقط تبرؤ ذمتها، وتنتهي مطالبتها بالقيام بهذا الفرض لأنه قد تم إنجازه، ولا يطالبون بأن يستمروا في الجهد نفسه، لأنه كان فرضا كفائيا على الأمة كلها فقام به البعض نيابة عن غيرهم، فالذين لم يشتركوا في القيام بما قام به الآخرون فإن الإثم الذي يسقط عنهم هو الإثم الذي كان يترتب عليهم لو لم يقم به أحد واستمر الحال على منواله، أي هو الإثم الذي كان يلحق بهم بعد لحظة التنفيذ لو لم يقم بالفرض أحد وكانوا ضمن القادرين على المساهمة في القيام بالفروض الكفائية.

أما الآثام والذنوب التي نتجت عن التفريط المتعمد والإهمال السابق عن الوقت الذي قام به البعض الفروض الكفائية مع القدرة على القيام بها بالفروض الكفائية المطلوبة حسب القدرات والإمكانات المتوفرة لديهم ومع علمهم بما يطلبه الشرع، فإن تلك الآثام والذنوب ستبقى في الذمم متعلقة بمشيئة الله وقدرته، ولا تنمحي تلقائيا بزوال علة الإثم في وقت لاحق، لأن هؤلاء يتحملون ما نتج عن تصرفات أمثال هؤلاء من الخسائر هم يتحملون، كما يتحمل الجندي الذي نام عن حراسة الحدود أو الثكنة العسكرية أو أي ثغرة كان يحرسها بكونها واجبًا عليه، وكذا القادرون على القيام

---

(١) رواه البخاري ومسلم في الصحيحين والنسائي في السنن الكبرى.

بالواجبات عندما لا تتوفر لدى الأمة أجهزة متخصصة ومخولة للعمل في مثل هذه المسؤوليات العظام.

والسبب هو أن هذا الإنسان ليس بمسيّر، بل هو مخيّر بتحديد وجهة عمله، وله في ذلك مطلق الحرية، ولكنه يتحمل كافة المسؤوليات والتبعات التي تترتب عن كل فعل يمارسه وما ينتج عنه، وعن كل تقصير أو إهمال حول الواجبات التي يتعين عليه فعلها لأنه خليفة الله في الأرض.

فلو فرضنا جدلًا أن جمعًا من المسلمين عاشوا ردحًا من الزمان، وعايشوا الأحداث والتطورات المتلاحقة في موطنهم، وحدثت الكوارث كالمجاعات، والحروب، والحرائق، والفيضانات، وكانوا يملكون بعض الإمكانات المادية والمعنوية، ولم يستخدموها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه: كإطعام الجوعى، أو وقف الحروب وتخفيف مصائبها، أو إطفاء الحرائق، أو إنقاذ الغرقى وما شابه ذلك، ونتج عن تلك المواقف غير المسئولة تلف للممتلكات أو إعاقة أو اعتداء على الأعراض، أو هلاك الأنفس في مجتمعهم، وبسبب هذا التقصير المتعمد ضاعت المقاصد الكبرى للشريعة والمصالح العامة للأمة، أليسوا داخلين في الخطاب الشرعي الموجه إلى عامة المكلفين رجالا ونساء.!!

أليس هؤلاء يتحملون التبعات الخطيرة هذه بسبب إهمالهم الواجبات مع وجود قدرات لهم كان باستطاعتهم من خلالها القيام بدور إيجابي يخفف محنة الأمة ويساعد المحتاجين ويدافع عن المظلومين؟

ما معنى كون المسلم مكلفًا بعد تجاوزه حد الطفولة، وفي الوقت نفسه غير داخل في دائرة الأعذار المعروفة شرعًا؟ وكيف يكون المكلف بريئًا من الآثام ولا يتحمل مسئولية تقصيره تجاه ما يجب عمله في مسيرة أمته؟ فإذا كان حفظ المصالح العامة من الفروض الكفائية على الأمة كلها فهل يسقط ما يترتب عن إهمال هذه الواجبات بتقادم العهد؟ حتمًا لا يمكن أن تسقط الآثام عنا عند تفريطنا في أمور كنا قادرين على فعل معروفها جلبًا للمصالح، أو منع منكراتها درءًا للمفاسد.

ثانيًا: هناك فرق بين الفروض العينية والفروض الكفائية، وهو أن الفروض العينية يغلب عليها طابع العلاقات بين العبد وربه، فالعبادات التي هي العمود الفقري

للفروض العينية مثل الصلاة والصوم والحج والزكاة وبر الوالدين والعلاقات بين الأزواج والزوجات وتربية الأولاد وغير ذلك هي تخضع لمدى قوة العلاقة بين العبد وربه. فالله وحده يطلع على أسرار القلوب، فبإمكان أي واحد منا أن يتصرف في مثل هذه الأمور بطريقة تختلف عما هو ظاهره، وكذا المعاصي والمحرمات فالإنسان باستطاعته أن يخفي معاصيه عن الآخرين، ويبطن شيئا ويظهر شيئا آخر، ولذا ترتبط توبته بالإقلاع عن الذنوب والرجوع إلى الصواب ما دام الأمر لا يتعلق بحقوق بني آدم.

أما الفروض الكفائية فهي أثقل من الفروض العينية من حيث تعدد مجالاتها وحاجاتها المتجددة، لأنها تمثل الحياة الأمنية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية والأخلاق والفضائل، كما تمثل معيشة كل فرد من أفراد الأمة، وهي مرتبطة أيضًا بحقوق المجتمع أفرادًا ومؤسسات، ولذا فإن أي تفريط في تلك الفروض ستكون عواقبه وخيمة، وتصل إلى مستوى الكوارث المدمرة، فإهمال الدفاع الوطني يعرض كافة المصالح العامة والخاصة إلى الخطر الماحق، لأن العدو المتربص إذا تمكن من الاحتلال والهيمنة يستبيح الحرمات ويخطط للتخريب على المدى الطويل، ففي مثل هذه الظروف يتم تسخير كافة الإمكانيات للمجتمع وعلى رأسها القدرات البشرية.

فيجب أن يخوض غمار المعركة الكبار والصغار الرجال والنساء، ويجب أن تسخر كل القدرات المادية والمعنوية، وعلى رأس ذلك المال العام، ولا يستثنى المال الخاص من ذلك، وتجمد مؤقتًا كثير من الأحكام الفقهية للدفاع عن البيضة، وتتغير صور الأحكام وطريقة القيام بها، ورغم أن الصلاة أعلى ركن بعد الشهادتين كما تعلمون إلا أن طريقة الأداء في ظروف حدوث المخاطر كالخوف والحرب تتغير بصورة جذرية، هذا مجرد مثال لأهمية الفروض الكفائية، فعندما تواجه الأمة أو يحدث ما يهدد مجتمعًا من مجتمعاتها فإن الأولوية القصوى تكون لمواجهة تلك الكارثة الطارئة، والمقاصد الكبرى تصبح هي الهدف المنشود أولًا وقبل كل شيء، وتحقيق المصلحة العامة مقدمة على كل المصالح الفردية والخاصة.

يقول رسول الرحمة والإنسانية ﷺ: (ليس منا من بات بطينًا وجاره خميصًا)، ويقول عليه السلام: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: من بات شبعان وجاره جائع، وهو يعلم)، وقال عليه السلام: (ما آمنَ عبدٌ بالله العظيم مَنْ

باتَ شبعان وجاره جائع، ومن باتَ ريّان وجاره عطشان)، وقال ﷺ: (لا يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شبعان وجاره طاو إلى جنبه).

في مناسبة ورود هذه الأحاديث النبوية يقول نظام الدين النيسابوري: (ولا خلاف أنه إذا انتهت الحاجة إلى الضرورة وجب على الناس أن يعطوه مقدار دفع الضرورة وإن لم تكن الزكاة واجبة عليهم، ولو امتنعوا من الإعطاء جاز الأخذ منهم قهرا)[1]. هذا هو الفهم السليم للمقاصد الكبرى، فلا حرمة لمال أحد عندما يتعرض فرد للموت جوعًا أو عطشًا أو مرضًا أو أي سبب آخر وما أكثرها، والمرأة والرجل والمريض كلهم قادرون على أن يدلوا بدلوهم في تخفيف المعاناة البشرية حسب قدراتهم وإمكاناتهم المالية والعلمية والعضلية والفكرية، فلا فرق بين هؤلاء أمام الواجبات تلك، فالمهم أن يكون لدينا الوعي والفهم في فرضية الواجبات الكفائية مثل فرضية الواجبات العينية، فترك أداء الصلاة عمدًا مع القدرة وترك إطعام الجائع مع القدرة يمكن أن يؤديا إلى دخول نار جهنم يوم القيامة، ومن هنا لا معنى لتضخيم بعض الواجبات وتقزيم بعضها في أذهان المسلمين.

فجوع إنسان واحد في المجتمع ينفي الإيمان بالله وبرسوله، فالأحاديث الكثيرة والصيغ المتعددة الواردة في هذا الشأن تكشف لنا ذلك البون الشاسع بيننا وبين حقيقة الإسلام والإيمان، هنا يحلف الرسول ﷺ ثلاث مرات بعدم إيمان أحدنا إذا بات جارنا جائعًا أو عطشانًا ونحن نملك ما لا يسد رمقه ويشفي غليله ويبقيه على الحياة، فإذا كان فقدان الإيمان ناتج بحدوث حالة جوع أو عطش فرد واحد من أفراد الأمة مسلمًا كان أو غير مسلم، بل يكفي أنه مجرد جار.

فماذا نقول عن وضع أمة مهددة بالانهيار، وضياع شبه كامل لمصالحها السيادية، والموت الجماعي حاصل لمئات الملايين من أبنائها، والبؤس باد في كل شعبة من شعب حياتها، بل الحرب المخططة وغير المخططة مشتعلة في أوطانها وتدك مدنها وقراها بالأسلحة الفتاكة والصواريخ الموجهة؟ بل فوق ذلك تصرح بعض الدول العظمى أنها تجرب أسلحتها في بعض المدن والعواصم الإسلامية، فهل اكتفينا من انتظار المجهول والتفسير الغامض للفروض الكفائية، وعدم تلبية الحقوق الواجبة للمحتاجين على الأغنياء والميسورين؟

---

(١) نظام الدين النيسابوري، غرائب القرآن وعجائب الفرقان، الجزء الأول، مصدر سابق، ص: ٤٧٧.

والأمر المؤسف هو أن الفهم المعوج لكثير من الواجبات ترسخ في أذهان أمتنا منذ أمد يمتد إلى بضعة قرون، كما أن القواعد والاجتهادات الفقهية حلت محل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة وعمل أهل المدينة وفقه العصور المفضلة المتصفة بالخيرية كما وصفها الرسول ﷺ.

ومن المعلوم أن كثيرًا من تلك القواعد وضعت لحياة غير حياتنا، ولزمان غير زماننا، ولظروف عالمية غير ظروف عالم هذا الزمان، وتوجد اليوم تشوهات واسعة النطاق لصورة التدين لجماهير المسلمين، بل لكثير من المتعلمين خريجي الجامعات والمساجد، ومن بين هؤلاء الذين يتصدرون لفتاوى المسلمين وغير المسلمين في مختلف المحافل في عصرنا الحاضر من لا يملكون المؤهلات الضرورية، وكثير منهم هم الفاشلون في الدراسة في مراحلها الأولى وغير قادرين على كسب قوتهم؟. وانطلاقا من هذا الفهم المعوج أسأنا إلى أنفسنا وإسلامنا، وتبعًا لذلك نظلم بقية العالم لأننا بهذ الضعف والجهل في ديننا نحول بين الأمم الأخرى وبين نصاعة هذا الدين .

إن المسلمين في هذا العصر هم مضرب المثل للتخلف بسبب عجزهم عن فهم مقاصد دينهم الحنيف، وتسلط التقليد على عقولهم بدل التجديد وتواصل حلقات الفكر الاجتهادي من أجل مواكبة الحياة المتطورة دومًا، ورغم التدين الواضح في الأوطان الإسلامية لدى الأفراد، وانتشارمظاهرالعبادات مثل الصلاة والصوم والحج إلا أن هناك ضمورًا حول الفهم الكلي المقاصدي للدين، ونتج عن ذلك عدم التوازن بين أجزائه عند محاولة التطبيقات العملية، مما أوجد خللًا مهولًا لا يمكن تصحيحه بسهولة، لأن الفهم الناقص لا يهدينا إلى المسلك السليم لأعمالنا، وأما الفهم الخاطئ فحتمًا سيؤدي إلى نتائج خاطئة، أما الأفهام الغامضة لدى الإنسان فإنها ستجعل الإنسان ضائعًا وتائهًا تسيطر عليه الحيرة، ويستحيل أن يهتدي إلى سواء السبيل، وهذه الصفات الذميمة تشترك في عدم قدرتها على الإبحار إلى شاطئ السلام والأمان في نهاية الرحلة فهذا الأمر يصدق عليه قول المناطقة:( الحكم على الشيء فرع عن تصوره) .

وهو ما أدى إلى تعطيل الطاقات الكامنة في الأمة بشقيها المادي والمعنوي، وعدم استخدامها من أجل تنفيذ الواجبات الدينية لتلبية نداء رب العالمين وتوجيهاته المقدسة التي فرضها الله علينا وتدعو إلى بناء بيئة مساعدة لإشباع الضرورات الملحة والقاهرة في

ساحة الحياة، وبطبيعة الحال فإن هذا المسلك الخطير هو الذي جرّ علينا الويلات والخسارة المؤدية إلى ضياع المصالح الكبرى والمقاصد الشرعية.

إن حدوث مثل هذا هو الذي يؤدي دومًا إلى تضعضع أركان السيادة والوجود الحقيقي للأمة في النهاية، وإذا لم نتدارك بوعي وتكاتف وتعاون، وبالسرعة المطلوبة قبل فوات الأوان فإن أحوالنا ستزداد سوء يومًا بعد يوم، أما إذا أفاقت أمتنا عن السبات العميق واستخدمت كوامن قوتها فإننا نستعيد العافية ونبني معًا قواعد ثابتة لمستقبلنا ومستقبل أبنائنا من بعدنا، وهو أمر ممكن في مسيرة الأمم والمجتمعات البشرية عندما تظهر لها معالم الخريطة، وتستقيم البوصلة المحددة للتوجه، وتتضح نقطة الارتكاز لدائرة مسيرة الحياة.

## ضرورة العمل التطوعي في ظروفنا القاسية

بعد أن رأينا المسؤوليات العظيمة من أجل تحقيق المصالح العامة التي تمثل المقاصد الشرعية وأن تلك المسئوليات تقع على مجموع الأمة وهي أكبر من أن يقوم بها فرد أو أفراد غير منظمين ويعيشون بدون قيادة ينتظمون حولها كما أسلفنا في الفقرات السابقة،وقد تبين أن الذين يستطيعون القيام بالواجبات الكفائية ليسوا هم الأفراد وإنما يقع الواجب على المجموع، ولا يمكن أن يتم هذا إلا بعمل تنظمه الأمة بطرق معينة، فقط بالجهود الجماعية يمكن أن نتصدى للمهام الصعبة وخاصة في هذا الوقت الذي تمر به أمتنا والظروف القاسية التي تقودنا إلى مصير مجهول ربما يكون أكثر قتامة وظلامية، إذا استمرت الأحوال على ما هي عليه اليوم ولم يحدث ما يغير اتجاهها بزاوية حادة أي إلى ١٨٠ درجة.

فعندما تحدث التغيرات الجوهرية في الساحة وتبرز الظروف الاستثنائية فإن التفكير في العمل سيتغير ويختلف عن الطرق التقليدية التي كانت الأحكام تستند إليها وستتغير العلل بطريقة جذرية. ففي مثل هذه الظروف يصبح التوجه مختلفًا عما كان عليه سابقًا، ويكون التركيز منصبًا على الأولويات والمقاصد الكبرى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فتتحول الأحكام من حكم إلى آخر حسب المقاصد وهكذا تأخذ الأمور قوالب جديدة ومنحى غير المنحى المعتاد.

فعندما تصبح الأمة أو جزء مهم منها واعية وجاهزة يجب أن تتوجه كل الطاقات إلى إزالة التهديد، فالأموال والقدرات البشرية وكل الطاقات تكون مسخرة لدرء المخاطر،

وبهذا يستخدم كل منا ما يملكه، فكل ما نملك يخضع للمقاومة ومنع المخاطر، ويدار الأمر من قبل الحكومات أو من قبل المجتمعات والقيادات الشعبية المتكاتفة إذا تعذر وجود الحكومات الفعالة.

**العمل التطوعي عندما تفشل الدول:**

لكي نفهم أكثر فأكثر فلننظر إلى بعض الجوانب من واقع مجتمعاتنا ودولنا، ننظر إلى المشرق العربي على سبيل المثال أو المغرب العربي أو بعض الدول الأسيوية أو الإفريقية، فهل لديها القدرات والإمكانات المادية والمعنوية لتتحمل مسؤوليات الواجبات الكفائية الجسيمة ؟ فهل تتوفر لديها القدرات التنظيمية والهياكل الإدارية والمرافق المجهزة والمعدة لملء هذا الفراغ وأداء الواجبات الوطنية؟ وهل لديها الإمكانات المالية المرصودة التي يمكن أن تعتمد عليها لحل كافة المشاكل التي فرضتها علينا الظروف القاهرة التي نكتوي بنارها والناتجة عن المستجدات المتتالية على الأمة الإسلامية؟

عند تتبع أوضاع دولنا الإسلامية في مختلف المناطق وخاصة في إفريقيا وآسيا نجدها متشابهة إلى حد بعيد، فكثير من هذه الدول تقع ضمن المنظومة الموصوفة بالدول الفاشلة في الساحة الدولية، والبعض الآخر لا يبتعد عن شقيقاتها الفاشلة، لأن معظمها تشترك في خط الانحار وتدهور الأوضاع الاقتصادية والأمنية، فمن أجل هذا هي عاجزة عن أداء مسؤوليات الدولة والقيام بالواجبات الكفائية وتبعًا لذلك فهي لا تستطيع توفير الخدمات الضرورية، وعلى رأسها الصحة والأمن والتعليم، وقبلها وبعدها الحريات الأساسية والكرامة الإنسانية.

إن أغلب شعوب هذه الدول تتساوى في الفقر والمرض والظلم وفقدان الحريات الأساسية، والغالبية العظمى، تكتوي بنار الاستبداد والمعاناة العامة بسبب تفشي سوء توزيع الثروات الوطنية وحرمانها من المشاركة السياسية واتخاذ القرارات المصيرية، مما خلق طبقات متفاوتة من حيث الغناء والفقر بدون أسباب موضوعية تقبلها العقول، لأن أسباب هذه الفوارق نابعة أصلا من الأنانية والظلم الاجتماعي والمحسوبية المكشوفة وشراء الذمم وانتشار الفساد المالي الناتج عن تجميع النفوذ السياسي والنفوذ المالي بصورة شبه مطلقة بأيدي فئة قليلة من شرائح المجتمع، مما جعل البقية الباقية من الشعوب رهائن يخضعون لرغبات وإرادات هؤلاء المتنفذين.

إن الدول الإسلامية فشلت في القيادة أصلا، وضيعت مهمة السلطة والتي هي خدمة المجتمع والسهر على رعاية مصالحه كأجراء له لا كأمراء وملوكًا، والقضية عند هؤلاء معكوسة تمامًا، فكيف ينتظر منهم القيام بهذه الواجبات التي كانت من المفروض أن تكون هي ممثلة الأمة في هذه الأعمال، فدولة مثل جمهورية مصر العربية والتي تجاوز شعبها ١٠٠ مليون نسمة وتمتلك الثروات الهائلة والزراعة والقدرات العلمية وتحتل من أهم مواقعا من أهم المواقع الجغرافية في العالم وتملك قناة السويس بوابة باب المندب، وتطل على اثنين من أهم البحار وهما البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، توصل بين إفريقيا وآسيا وأوروبا؛ هذه الجمهورية العظيمة فإن ٤٠٪ من شعبها أمي محرومون من التعليم العصري، لك أن تتخيل القوة والقيمة الحقيقية لهذه الدولة؟ وأن تتساءل عن الأسباب التي أدت لهذه الكارثة المدمرة والشنيعة والمخجلة في آن واحد، تنظر إلى نسبة الفقر كم هي ؟ وأن تنظر إلى نسبة البطالة كم هي؟ وتنظر إلى نسبة المرضى كم هي؟

هل يمكن أن تكون هذه الحالة ناتجة عن فقر طبيعي؟ كلا بل هي ناتجة عن فشل الدولة في إدارة الشؤون المالية والسياسية؟ فلا تستغرب عندما تشاهد الفنادق التي يملكها الجيش الوطني، بل ويملكها الضباط الأحرار، ولا تستغرب حين تكتشف أن المصانع والمشاريع التنموية والسلع التموينية أغلبها ملك لمؤسسات الجيش الوطني المغوار، فبدل أن يصبح الجيش مشغولا بقضايا الدفاع وتطوير أساليب حماية الوطن وتطوير أسلحته وإنتاجها تحول إلى شركات تعمل لتوزيع البضائع على المؤسسات والشركات الشعبية.

وبدل أن ينشغل الجيش بالدفاع عن الوطن والمواطنين ويكون درعا قويا لحمايته والاستماتة في الدفاع عن القضايا الوطنية والقومية أصبح جيش أقوى شعب عربي وإفريقي في خدمة شركاته ورؤوس أمواله، ولم يكتف بذلك بل هو منخرط في السياسة التي احتكرها في مصر منذ ستين سنة مضت وما زال منهمكا في دهاليز السياسة بدون أن يحسنها كعادة بقية الجيوش في العالم، لأن مهمة الجيوش ليست في إدارة سياسة البلدان بل في دفاعها، وبناء على ذلك فإننا لا نتوقع أن تتولى دولة كهذه أن تتولى رعاية مجتمعها بصورة سوية ومستقيمة، فهي مشغولة بهموم أخرى غير همِّ شعبها وتتحمل مسؤوليات كبيرة وأشغالًا واسعة النطاق غير ما ينتظر شعبها من الجيش، فهي على حافة الإفلاس

السياسي والاقتصادي، ولا يستبعد أن تصنف في مستقبل الأيام بالدولة الفاشلة إذا استمرت هذه الجفوة بين الحياة الكريمة للشعب وبين توجهات العسكر محتكري النفوذ المالي والسياسي.

وكما أشرنا إليه سابقا فإن دولنا الإسلامية، الدول العربية خصوصًا وأغلب الدول الإسلامية لازالت في مربع التخلف الاقتصادي والتعليمي والأمني، وتلك ظواهر مشتركة فيما بينها، والتفاوت محدود جدا إن لم يكن شبه مفقود، ولا يستثنى من هذا الأمر حتى الدول المشهورة بأنها غنية مثل كثير من دول البترول كنيجيريا وليبيا والسعودية والكويت، فرغم هذه الثروات الكبيرة نسبيا إلا أن الاقتصاد لهذه الدول ليس مستقرا أبدا، والحالات الأمنية متشابهة.

أما العراق وسوريا والصومال واليمن وأفغانستان وليبيا فلا نحتاج إلى أن نتحدث عنها طويلا، فهي مصنفة بالدول الفاشلة فلا عتاب عليها لعدم قدرتها على تنفيذ الواجبات الكفائية وعجزها عن توفير مستلزمات حياة شعوبها، لأنها تمر بمرحلة غير سهلة وتخوض المعركة المصيرية من أجل البقاء.

الحقيقة التي أمامنا هي: إن دولنا عاجزة عن القيام بما يجب عليها، بل بعضها يعيش حالة حرب ضد شعبها ويمارس القتل والتجويع والتعذيب المنهجي، ويعاقب الجميع بجريرة البعض في أحسن الأحوال، ففي مثل هذه الظروف الشاذة فإن مسؤولية القيام بالواجبات الدينية والوطنية من أجل وقف النزيف المتدفق من عروق الأمة تنتقل مباشرة إلى الشعوب إلى كل فرد من أفرادها ويتطلب الأمر منا قدرًا من الفهم والتعاون من خلال الأعمال التطوعية النابعة عن قلوبنا وعواطفنا وقدراتنا الذاتية من أموالنا وعقولنا وأبداننا، ويجب أن نعد المجتمعات بكل قواها بدون استثناء شيء من طاقاتها المتوفرة، فكما أسلفنا فإن هذه الظروف القاسية توجب علينا أن نفهم حجم التحديات الكبرى التي تمثلها المرحلة.

وكأن الآيات القرآنية التالية تخاطبنا اليوم بكامل معانيها ومدلولاتها وإيحاءاتها. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٣٩ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤١ ﴾ [التوبة].

لقد نزلت هذه الآيات من سورة التوبة في غزوة تبوك عندما هددت دولة الروم المدينة المنورة عاصمة الإسلام فكان لابد من الوقوف بحزم ضد هذا التهديد المباشر، وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: (هذا المقطع من سياق السورة يرجح أنه نزل بعد الأمر بالنفير العام لغزوة تبوك. ذلك حين بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعوا له على أطراف الجزيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة، وانضمت إليهم لخم وجذام وعاملة وغسان من قبائل العرب. وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء من أعمال الشام. فاستنفر الناس إلى قتال الروم. وكان ﷺ قلما يخرج إلى غزوة إلا ورّى بغيرها مكيدة في الحرب، إلا ما كان من هذه الغزوة. فقد صرح بها لبعد الشقة وشدة الزمان. إذ كان ذلك في شدة الحر، حين طابت الظلال، وأينعت الثمار، وحبب إلى الناس المقام.. عندئذ بدأت تظهر في المجتمع المسلم تلك الأعراض التي تحدثنا عنها في تقديم السورة. كما وجد المنافقون فرصتهم للتخذيل. فقالوا: لا تنفروا في الحر. وخوفوا الناس بعد الشقة، وحذروهم بأس الروم.. وكان لهذه العوامل المختلفة أثرها في تثاقل بعض الناس عن النفرة.. وهذا ما تعالجه هذه الفقرة)(١).

**وعن صفوان بن عمرو قال:**

كنت واليا على حمص، فلقيت شيخا قد سقط حاجباه، من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو، قلت يا عم أنت معذور عند الله، فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا، ألا إن من أحبه ابتلاه. وعن الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له إنك عليل صاحب ضرر، فقال:

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق.

استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن عجزت عن الجهاد كثرت السواد وحفظت المتاع. وقيل للمقداد بن الأسود وهو يريد الغزو: أنت معذور، فقال: أنزل الله علينا في سورة براءة انفروا خفافا وثقالا.

وروى كذلك بإسناده- عن حيان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان واليًا على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فرأيت شيخا كبيرًا هرمًا، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلت إليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك. قال: فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي استنفرنا الله، خفافًا وثقالًا. ألا إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عز وجل.

بمثل هذا الجد في أخذ كلمات الله انطلق الإسلام في الأرض، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وظهرت الخوارق في تلك الفتوح التحريرية الفريدة، كما ارتسمت صورة الإسلام على وجه الأرض كحقيقة حضارية يحمله أناس طاهرون اشتهروا بصدق وأمانة في تصرفاتهم حتى قبلت شعوب كثيرة مما يحملون بدون قتال أو إكراه.

ولكي نعود مرة أخرى إلى الوضع الطبيعي، ونتخلص من الكوابيس التي تؤرقنا فليس أمامنا خيار آخر غير أن ننفر خفافا وثقالا، وهو أفضل تعبير يمكن أن نستخدمه لتعبئة شعوبنا من أجل الخروج من المأزق الذي وقعنا فيه بأسباب من داخلنا نتجت عن غياب العدالة والمساواة والإنصاف من ناحية، ومن ناحية أخرى عدم أداء الواجبات الكفائية، فليس أمامنا سبيل غير سبيل تلبية الواجبات المعطلة والمسئوليات المهملة بقناعة الأفراد وبخياراتهم متطوعين بدافعهم الإيماني المصحوب بالاستشعار، وهو ما يمكن أن يجعل مجتمعاتنا تتحرك بدون أن تنتظر النجدة من غيرها.

وإن كانت هذه الآيات نزلت في قضية بعينها إلا أن الهدف منها واضح، فكما هو معلوم فإن كثيرًا من الآيات القرآنية نزلت لأسباب خاصة ولكن مرادها هو الحكم العام، فقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة] ورد في حادثة محددة كانت تمثل

منعطفًا تاريخيًا لحياة الإسلام والمسلمين، ولكنها تصدق حتمًا على كل واقعة شبيهة بها تواجه الأمة خلالها خطرًا مثله أو أسوء، أيا كان نوعه وأيا كانت أسبابه ودواعيه.

ألسنا بحاجة إلى تجميع قوانا وتوظيف كل الطاقات ما دامت أوضاعنا تحت التهديد؟ علمًا بأن كلمة الجهاد تشمل كافة الجهود التي تحقق المصالح العليا للأمة، وكذلك كلمة الخير تشمل الجوانب المختلفة في الحياة، فالجهاد الذي هو بمعنى القتال هو جزء يسير من الجهاد المتعلق بشئون الحياة وأوضاعها المختلفة(١).

فتحصيل المصالح ومنع المفاسد تتوقف حياتنا عليها، وبدون وجود جهد جماعي منسق يتولى مسؤولية حماية الدين والأمة من خلال القيام بالواجبات الكفائية الضائعة فإن الظروف ستزداد بؤسا يوما بعد يوم، وبهذا فالعمل الفردي الطوعي والجماعي هو الطريق لملء الفراغ عندما تغيب مسؤولية الدول أو تقصر أجهزتها المختصة في الوفاء بالواجبات العامة، ولن تتحقق الخيرية الضامنة للوجود المشرف لشعوبنا وأمتنا إلا بهذا وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ...﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران].

(١) للمزيد راجع الدكتور يوسف القرضاوي، كتاب الجهاد في سبيل الله.

# الفصل السابع

# العمل التطوعي تجارب من الصومال

المبحث الأول:

الدولة الصومالية نشأتها ومراحلها قبل انهيارها

المبحث الثاني:

العمل التطوعي في الصومال بعد انهيار سلطة الدولة

المبحث الثالث:

العوامل المساعدة على تخطي الصعاب والعقبات

المبحث الرابع:

فعالية التطوع في ذروة الأزمة

المبحث الخامس:

تأسيس الدولة عبر التطوع السلمي

المبحث السادس:

استنتاجات عن التجربة الصومالية

## المبحث الأول

## الدولة الصومالية نشأتها ومراحلها قبل انهيارها

### تعريف بالدولة الصومالية

تعرف الدولة الصومالية رسميًا باسم جمهورية الصومال، وكانت تعرف سابقًا باسم جمهورية الصومال الديموقراطية، هي دولة في القسم الشرقي من القارة الإفريقية. وتقع الصومال في منطقة القرن الإفريقي، ويحدها من الشمال الغربي جمهورية جيبوتي، ومن الجنوب الغربي جمهورية كينيا، ومن الشمال خليج عدن، ومن الشرق المحيط الهندي، ومن الغرب جمهورية أثيوبيا.

أما عدد السكان: لم تجر أي إحصائيات رسمية منذ ما يقرب من أربعين عامًا، وتم إجراء الإحصائيات الأخيرة في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، وقتها كان تعداد الصومال حوالي عشرة ملايين نسمة، فحسب نمو السكان في الدول الإفريقية المجاورة وغير المجاورة فقد تصل اليوم على الأقل إلى ٢٠ مليون نسمة. وتبلغ مساحة الصومال ٦٣٧,٦٥٧ كيلومترا مربعا. وتمتد الصومال فيما بين دائرة عرض ١٠ شمالا وخط طول ٤٩ شرقا، ويمر الخط الإستوائي على الطرف الجنوبي للبلاد قرب مدينة كسمايو الساحلية.

واللغات هي: اللغة الصومالية واللغة العربية وهما اللغتان الرسميتان للدولة الصومالية، واللغة الصومالية من اللغات العابرة للحدود وهي موجودة بأربع دول: هي الصومال وجيبوتي وكينيا وإثيوبيا، والسبب الأساسي هو وجود الشعب الصومالي في هذه الدول الأربعة بكثافة سكانية متفاوتة ولكن في مجموع القومية الصومالية في الدول الثلاث يربو على ١٩ مليونا.

أما الدين فهو الإسلام، ولا يوجد دين آخر في أراضي الدولة الصومالية، كما أن دين الدولة هو الإسلام، والصوماليون من أهل السنة فلا وجود للشيعة أو الفرق المنتشرة في العالم الإسلامي، والمذهب الفقهي هو المذهب الشافعي، والجدير بالذكر أن الصوماليين في شرق إفريقيا كلهم مسلمون وسنيون وشوافع، ولم تؤثر فيهم التقسيمات السياسية في هذا الأمر بأي شكل من الأشكال.

وتملك الصومال أطول ساحل بحري في القارة الإفريقية. وهو حوالي ٣٣٠٠ كم ما بين البحر الأحمر والمحيط الهندي. وتقع خلف باب المندب الذي يعد من أهم الممرات المائية في الساحة الدولية حيث تعبر قرابة ٤٠٪ من السفن والحاويات في العالم، وازدادت أهميته بعد حفر قناة السويس عام ١٨٦٩.

وتتسم تضاريس الصومال بالتنوع بين الهضاب والسهول والمرتفعات، مناخها متنوع بعضها صحراوي يميل إلى ارتفاع الحرارة، وبعضها معتدل الحرارة على مدار السنة مع بعض الرياح الموسمية، والأمطار في الربيع والخريف في كافة الأراضي الصومالية.

استقلت جمهورية الصومال عن إيطاليا وبريطانيا في منتصف عام ١٩٦٠، ومارست الحكم الديموقراطي حتى عام ١٩٦٩، أجرت خلالها ثلاث انتخابات برلمانية تولى خلالها رئيسان رئاسة الدولة، كانت مرحلة عرف الشعب الصومالي معنى الحرية والكرامة، وخلت البلاد من مساجين الرأي والسياسة، وكانت قبلة إفريقيا في الديموقراطية ونظام الحكم.

### المنعطف التاريخي للدولة الصومالية

في شهر أكتوبر عام ١٩٦٩ حدث انقلاب عسكري بعد اغتيال رئيس الجمهورية عبد الرشيد عل شرماركي، تولى الحكم قائد القوات المسلحة الجنرال محمد سياد بري، وعلى إثرها تغيرت حالة الصومال بصورة جذرية قلبت الموازين رأسا على عقب، وحدث ما لم يكن بالحسبان في ذهنية الشعب الصومالي، فسرعان ما اختفت معالم الحريات الأساسية، وتبدلت الحياة الاقتصادية، بل تغيرت الوجهة السياسية بشكل كلي من الاستقرار السياسي ومراعاة التوازن في العلاقات الدولية المعقدة والمصالح المتشابكة وتشعباتها بين الأقطاب المتصارعة وبين العالم الثالث، ولقد تخطى النظام العسكري كافة الحواجز والخطوط الحمراء.

ودخل في أتون الحرب الباردة بلا تحفظ مما كان له أسوء الأثر في إجمالي أحوال الصومال، لأن الدول الغربية وحلفاءها كانوا يراقبون الوضع الصومالي عن كثب، فبقدر ما حاولوا كسبه واستيعابه بقدر ما كان الصومال يظهر عداءه لهم ويعلن تحالفه مع

السوفيت والصينيين ويغوص في أعماق ذلك الصراع العالمي الذي لا تملك جمهورية الصومال الفتية الإمكانات التي تمكنها من الفوز في هذه المعركة أو الخروج من مستنقعاتها.

**فنتج عن ذلك أمران خطيران: أولهما:** استعداء الدول الغربية، وانضمام الصومال إلى معسكر الاشتراكيين الأعداء الألداء للغرب وحلفائهم بالمنطقة بما فيها الدول العربية القوية ذات التأثير المباشر للصومال من الناحية الثقافية والاقتصادية والعلاقات الاجتماعية وعلى رأسها جمهورية مصر والسعودية والخليج بصورة عامة، وكانت تلك خسارة كبيرة للصومال، لأنها أصبحت في عزلة كبيرة عن محيطها الطبيعي، وعن الغرب أقوى كتلة اقتصادية وثقافية في العالم. **وثانيهما:** التصادم السريع بين الدولة والمجتمع، ومن الملامح البارزة للحكم العسكري اتباعه سياسة التصادم مع الثوابت الأساسية للمجتمع الصومالي، والتجاهل التام عن مكوناته ومكمن قوته، ومن بينها ما يلي:

**إعلان الحرب ضد التقاليد العشائرية:**

ومن ذلك العلاقات بين الدولة والمجتمع، وخاصة تلك التي تتعلق بالتقاليد العشائرية وقوانينها المنظمة لحياتها، حيث أعلن العسكر حربا ضد التقاليد العشائرية بدرجة أن ذكر اسم القبيلة كان يكفي بتجريم الشخص ووضعه في المعتقلات وتعطيل مصالحه مما أحدث ارتباكا واسع النطاق، وكانت من السياسات العبثية المقصود بها إظهار الوطنية والتشبه بآباء الحرية الوطنيين الذين خلقوا تقاليد الوحدة بين أبناء الوطن .

**شرعنة الإعدامات في البلاد:**

ومن السياسات الهوجاء تشريع وإقرار الإعدامات والتصفيات الجسدية كمنهج للحكم وللتعامل مع الخصوم لتخويف الجميع، حتى تسلم الثورة الاشتراكية من أية معارضة لها أيا كان نوعها، وبعد سنة واحدة من الانقلاب العسكري فقط حكم على ثلاثة من كبار ضباط الجيش بالإعدام، ونفذ الحكم بسرعة مذهلة في ميدان عام وبحضور ومشاهدة جماهير الشعب، وكان ذلك أول قتل من نوعه، وأوجد ذلك ذعرًا عامًا واستغرابًا في الشارع الصومالي، مما تسبب بفقدان الثقة بين الدولة والشعب في وقت مبكر، وخلقت تلك الخطوة الرعناء نوعًا من القطيعة المعنوية، وكشفت جانبًا من حقيقة النظام العسكري ودمويته وتوجهاته المستقبلية.

**الطعن والسخرية لبعض الأحكام الإسلامية:**

الصومال كما سبق شعب مسلم ١٠٠٪ ومع ذلك بدأت السخرية بالإسلام من قبل العسكريين منذ السنة الأولى، ومن العلامات البارزة التهجم على العلماء بصورة عامة واستخدام المصطلح الصومالي (wadaad xume) ومعناها (مشائخ السوء)، وسرعان ما توالت الخطوات لتحجيم الثقافة الإسلامية وإغلاق المدارس العربية وطرد مئات من المدرسين المصريين ومن بقية الأوطان العربية، ومع أنه لم تكن هناك أية مقاومة ضد النظام العسكري واشتراكيته المعلنة إلا أن إعلان الحرب ضد القيم الإسلامية ومبادئه وأحكامه وإنكار المسلَّمات من الدين مثل الزنى والخمر والسرقة وغيرها بدأت مع الانقلاب ولكنها بوتيرة تصاعدية حتى وصلت ذروتها.

ولكن القفزات غير المحسوبة ضد الإسلام لم تتوقف عند هذا الحد بل اتجهت الأمور عكس ذلك تماما، حيث مست وترًا حساسًا ما كان ينبغي أن يمس أصلا، وتجاوزت الأمور إلى الأخطروالأدهى من كل ما توقعه الناس يومها، فتكلم رئيس الجمهورية ضد القرآن وأحكامه وخاصة في موضوع الأحوال الشخصية مثل الميراث وولاية النكاح والزواج والطلاق وغير ذلك، فسخر من أحكام القرآن المتعلقة بهذا الموضوع قائلًا ما أصبح مشهورًا بعد ذلك "لا سدس ولا ثمن ولا ربع بعد اليوم". وحدث ذلك بيوم المرأة العالمي عام ١٩٧٥، وألقى الرئيس خطبة مشهورة بتلك المناسبة.

هذا الموقف المخزي الذي أعلنته الحكومة العسكرية ضد الدين الإسلامي كان بمثابة إعلان حرب مكشوفة ضد المجتمع الصومالي والمجتمع الإسلامي برمته، لأن ذلك كانت محاولة هدم أغلى شيء لديه، ألا وهو الإسلام وقيمه. وكانت بداية القطيعة بين الصوماليين وبين حكم سياد بري.

**خطب العلماء في المساجد حول الموضوع:**

استخدم النظام عنفًا غير مبرر ضد الخطباء العزل ومئات آخرين ممن كانوا في تلك المساجد وامتلأت السجون بهم بدون جريرة ارتكبوها، ولم يكن أحد من هؤلاء يحمل السلاح أو ينادي بإسقاط نظام الحكم، ومع ذلك فقد ارتكب النظام العسكري مجازر مروعة ضد الآمنين فأعدم في ساحة عامة عشرة من خيرة العلماء في الصومال دفعة واحدة

ثم واصل الإعدامات بصور مختلفة بعد ذلك بحجة الدفاع عن الثورة (المجيدة) ومكتسباتها وقمع الرجعيين وأعداء الثورة والخونة.

## عسكرة المجتمع والعزلة الدولية:

فمنذ أيامهم الأولى بذل العسكريون كل جهدهم لعسكرة المجتمع الصومالي، وسخروا القدرات المالية والإمكانات البشرية، وخططوا للأمر ووجهوا كافة شرائح المجتمع دون استثناء بما فيها الأطفال وكبار السن والطلبة والفنانين، وخضع الجميع للدورات العسكرية المتواصلة، ولم يسلم من ذلك حتى السفراء والوزراء وأصحاب الأمراض المزمنة الذين توفي بعضهم أثناء التدريبات العسكرية الشاقة، فمن الذكريات المريرة في نفسي سقوط عشرات من الأطفال المراهقين في المرحلة الإعدادية أثناء السير في المارشة العسكرية العنيفة، فمن هنا أصبح التجنيد إجباريا وبندقية كلاشنكوف في مقدمة المواد المقررة في المدارس، ولقد استنزفت هذه التوجهات الميزانية، بل أنفقت الدولة أكثر من الدخل العام للتسليح العسكري، ولقد قدرت بعض الإحصائيات غير الرسمية نسبة الإنفاق العسكري بحوالى ٨٠٪ من الميزانية الوطنية السنوية آنذاك. مما جعل الجيش الصومالي في المرتبة الرابعة في القارة الإفريقية.

## عزلة الصومال ومؤشرات الانهيار

فبعد سبع سنوات من البناء العسكري القوي والعلاقات المتميزة مع الاتحاد السوفيتي وكتلته الشرقية اتخذت القيادة الصومالية قرارًا تاريخيًا غير مدروس العواقب، ودخلت أكبر مغامرة عسكرية في تاريخ إفريقيا عندما شنت الصومال هجومًا عسكريًا واسع النطاق ضد إثيوبيا، وعبرت الحدود الفاصلة بين الدولتين بسرعة خاطفة، وكان السبب وجيها من الناحية العاطفية للشعب الصومالي بكون الهدف المعلن تحرير الأراضي الصومالية التي تحتلها إثيوبيا منذ تقسيم الصومال بين الدول الغربية في القرن التاسع عشر، واستطاعت الوصول إلى مدينة هرر، ومني الجيش الإثيوبي بأكبر نكسة في تاريخه، وكانت هزيمة ساحقة للقوات الجوية والبرية، وعلى إثرها تدخلت القوات السوفيتية في الحرب لصالح إثيوبيا، ومن هنا بدء الخط التنازلي للقوات الصومالية، وانسحبت من كافة الأراضي التي سيطرت عليها، حيث خلفت وراءها كافة الأسلحة الثقيلة بما فيها

الدبابات والآليات العسكرية الأخرى، إن البداية الخاطئة حتمًا ستؤدي إلى نهاية غير محمودة العواقب.

بنت الحكومة العسكرية علاقاتها مع السوفييت مدة ثماني سنوات بدأب وتواصل منقطع النظير، ومن تلك العلاقات حصلت الصومال على الدعم العسكري السوفييتي الهائل مقابل تبني الصومال الاشتراكية العلمية والتأييد الكامل للمشاريع السوفيتية في القارة الإفريقية وفي مجموعة دول عدم الانحياز وفي المحافل الدولية الأخرى، ومع تلك التطورات المثيرة لم تجر الصومال الاستشارات الضرورية لمثل هذه الأحداث المصيرية مع السوفيت ومعسكره وارسو، فعندما حاول منع المعركة وإقناعه بالعدول عنها كان الموقف الصومالي رافضًا لكافة المقترحات المقدمة إليه.

والأمر الغريب أن العلاقات الصومالية الغربية كانت شبه مقطوعة، أما العلاقات بين الصومال وأغلب الدول العربية فأقل ما يمكن أن نقول أنها كانت متوترة، ففي المعادلات السياسية وحسابات الأرباح والخسائر سلكت الصومال مسلكا شاذًا، وعلى من كانت تعتمد في حربها ضد إثيوبيا؟ كان تعتمد على الأوهام والإشاعات غير المكتوبة التي كانت تأتي من الغرب، وخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية، ربما على طريقة العراق لغزو الكويت!، كانت أمريكا وحلف ناتو وحلفاؤهم العرب الرابح الأكبر في معركة القرن الإفريقي، لأنهم استطاعوا إخراج الصومال من حلف وارسو بدون تكاليف تذكر. والخاسر الأكبر هو الدولة الصومالية والمجتمع الصومالي برمته في القرن الإفريقي.

**وكان من بين النتائج:**

١- تدفق اللاجئين والنازحين على الصومال بأعداد قدرت وقتها بثلاثة ملايين نسمة.

٢- تراجع الثقة بوحدة الأراضي الصومالية في منطقة القرن الإفريقي.

٣- ضعف أداء الجيش الصومالي وهروب الأفراد من الثكنات العسكرية بصورة جماعية.

٤- بداية حرب العصابات ضد الحكومة وفقدانها السيطرة على حكم البلاد بصورة تدريجية.

٥- التوجه نحو تفكيك وحدة البلاد والعمل من أجل تقسيم الصومال بدعم خارجي قوي.

٦- حدوث انهيار اقتصادي مدمر مما أدى إلى اختفاء العملات الأجنبية من البنوك.

٧- انتشار البطالة وتدني الرواتب والتضخم وفقدان العملة قيمتها الأمر الذي خلق حالة أزمة شديدة التعقيد .

٨- انتشار المقاومة المسلحة في الأقاليم الشمالية والشرقية والجنوبية في الثمانينيات من القرن الماضي.

٩- احتضان إثيوبيا المقاومة الصومالية لإسقاط الدولة الصومالية انتقاما منها بأيدي الصوماليين الغاضبين.

١٠- إلهاب المشاعر العدائية بين القبائل المختلفة مما شكل ضربة على الوحدة الوطنية.

١١- تصدع بنيان القوات المسلحة وحدوث انشقاقات من داخله وخروج الأسلحة الخفيفة إلى الشعب.

في هذه الظروف وتلك البيئة المليئة بالتحديات المحلية والإقليمية والدولية لم تتصرف الحكومة بحكمة وروية، ولم تفكر بطريقة عملية لتقديم الحلول إلى المجتمع الصومالي أو التنازل عن الحكم لصالح الوطن، بل استمر باستخدام العنف ضد الجميع وبأسلوب واحد لا جديد فيه، ولم يبق لديه أية أوراق يمكن أن يلعبها داخليًا وخارجيًا مما أفقده كافة الحيل لمواجهة الأحداث المتلاحقة، وهذه مجتمعة كانت بداية سقوط الحكومة والفوضى العارمة التي عمت البلاد بطولها وعرضها حتى هرب الرئيس من قصر الحكم في بداية ١٩٩١ بعد حكم دام ٢١ عامًا وأربعة أشهر.

وبهذا ودع الجنرال محمد سياد بري حكم البلاد بعد فترة طويلة، وخرج من قصر الحكم عنوة والصومال في حالة يرثى لها، جاء إلى الحكم بعد رئيسين وهما: السيد آدم عبد الله عثمان والسيد عبد الرشيد علي شرماركي بانقلاب عسكري غير دموي عقب اغتيال رئيس الجمهورية.

دخل محمد سياد بري إلى قصر الرئاسة عن طريق القوات المسلحة الصومالية بالقوة، وأخرجته من قصر الرئاسة مقاومة شعبية غير منظمة بالقوة، هي من المفارقات التي لم تكن في خلد جنرالات الصومال أن الشعب سيسقطهم يومًا وخاصة في مراحلهم الأولى[١].

(١) وفي عام ١٩٧١ بعد الانقلاب التي قاده الجنرال محمد سياد بري كنت طالبًا في مدرسة حمر الثانوية في مقديشو وكنت من بين المشاركين في تظاهرة ضخمة ضمت طلاب المدارس والعمال وأصنافا=

حقا لقد استخدموا البندقية ضد الشعب الصومالي بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وبه أرهبوا الأبرياء وخوفوهم، وأحرقوا به أجساد آلاف من الأبرياء وشردت قبائل بأكملها بالبندقية هذه، وبه قتل ضباط الجيش الوطني وشرفاؤه، وبه تمت تصفية العلماء الأجلاء وإحراقهم في ميدان عام وأخفيت قبورهم إن كانت هناك قبور لهم أصلا، ولكن كل ذلك لم يردع الشعب الصومالي عن مقاومة الظلم والظالمين. ومن المعلوم أن لكل فعل ردة فعل يساويه أو أكبر منه.

ولقد فهمت من هذا الدرس أن الأمر الذي يجعل الناس يبتعدون عن المقاومة والدفاع عن حقوقهم ليس الخوف من بطش الجبابرة، ولكنه هو العدالة والإنصاف وضمان حقوقهم وتوفير الحرية والكرامة، وكثيرًا ما تقودني دائما خطبة الجنرال في أوج قوته ونفوذه إلى استحضار تلك الصورة المليئة بالثقة الكاملة بالبندقية وبجانبها لحظة هروبه من قصر الرئاسة مقهورًا بهبة شعبية فوضوية وغير منظمة، ويمكن القول: إن البندقية التي لا يملكها أولو البصائر، ولا ترافقها الحكمة والعدالة عند استخدامها، ولا توجهها العقول والأفكار التي تنظر إلى مآلات الأمور وعواقبها لن تؤدي إلى نتائج محمودة العواقب، وكثيرًا ما تقتل صاحبها.

---

=مختلفة من قطاعات الشعب، وبعد فترة انتظار غير قصيرة حضر موكب الرئيس وألقى خطبة وطنية شديدة الحماسة، لم أكن وقتها أفهم أهدافها العميقة بسبب سني ومحدودية ثقافتي السياسية، ولكنني ما زلت أتذكر بعض العبارات الشهيرة، مثل الرجعية العالمية ودورها التخريبي، والأهمية الوطنية، والقوة الخارقة للعمال والبروليتاريا، وفي منتصف خطبته علت نبرة صوته منفعلا ونظر إلى أحد العسكريين خلفه وناداه بصوت جهوري سمعه الجميع " أيها العسكري أعطني بندقيتك" فبعد أن أعطى الجندي التحية العسكرية للرئيس سلم البندقية للرئيس، وفي حالة هستيرية شبه جنون رفع البندقة إلى الأعلى حتى يشاهده المتظاهرون، خف الضجيج قليلًا وأصبح الكل في حالة انتظار ودهشة! فقال الرئيس لنا هل تعرفون اسم هذه البندقية؟ فأجبنا له بصوت مرتفع واحد بنعم، إنه بندقية كلاشينكوف، فواصل كلامه قائلا: أيها الحاضرون اعلموا أننا استولينا على حكم هذه البلاد بهذه البندقية، وسنحكمها بهذه البندقية، فليعلم الجميع هذا الأمر، ثم رد البندقية إلى العسكري فواصل خطابه.

## المبحث الثاني

## العمل التطوعي في الصومال بعد انهيار سلطة الدولة

### الفوضى بعد الانهيار

**وصف الحالة الصومالية في مرحلة انهيار مؤسسات الدولة:** لقد تحدثنا بداية الفصل عن الكيفية التي تطورت الأمور في الصومال، والتغيرات الجوهرية التي كانت تطرأ تباعا على الحالة السياسية والأمنية والاقتصادية حتى وقفنا عند سقوط المركز وانهيار السلطة في شهر يناير عام ١٩٩١، ومن المعلومات المهمة أن الحرب ضد السطة المركزية بدأت بشكل مكشوف عام ١٩٨٠ من الأقاليم الشرقية والشمالية، ويعني ذلك أنها استمرت أكثر من عشر سنوات، كان البلد في حينها ينتقل من حالة سيئة إلى حالة أسوء منها في كافة جوانب الحياة، كما أنها كانت في حالة حرب مستمرة مع إثيوبيا المتعاونة مع المقاومة المسلحة الصومالية ضد نظام الحكم بقيادة الجنرال محمد سياد بري آنذاك.

انهارت السلطة بعد فترة طويلة من التداعيات والفوضى وانتشار الفقر والقمع الممنهج ضد المقاومة المسلحة وضد أهاليهم ومناطقهم المؤدية إلى ضرب مصالحهم الاقتصادية ووضع كثير من هؤلاء في المعتقلات بصورة عشوائية إن لم يتم إعدامهم دون محاكمة عادلة، وأحيانًا تصل الأمور إلى قتل الأشخاص قبل وضعهم في المعتقلات، هذا هو الجو الذي سبق سقوط المدن الشمالية وعلى رأسها العاصمة الثانية للبلاد هرجيسا، وعلى إثرها سقطت العاصمة مقديشو بأيدي الثورة الشعبية، أو ما عرف وقتها بالجبهات المسلحة.

### الموقف الدولي من الصومال

بما أن الدولة الصومالية كانت معزولة عن العالم من حيث العلاقات في السياسة الخارجية والتبادل التجاري والمصالح الاقتصادية الأخرى، فإنها لم تجد الدعم المناسب للخروج من الورطة الهائلة، ولم تتعاطف مع أزماتها الطاحنة القوى الدولية ولا الإقليمية بأي شكل من الأشكال، وبهذا واجهت مصيرها المحتوم منفردة، فالدول الغربية لم تكن راضية عن تصرفات الدولة الصومالية منذ استقلالها عام ١٩٦٠، فتوحيد الشمال والجنوب كانت رغبة نابعة عن إرادة الشعب الصومالي بعيدًا عن توجهات الدول

المستعمرة، وهي بريطانيا وإيطاليا، فكل دولة مستعمرة كانت حريصة كل الحرص على تواصل العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية مع مستعمراتها السابقة حصريا، ولم تكن تريد التنازل عن هذه المكاسب.

فدمج الجزئين الصوماليين معًا وتكوين جمهورية الصومال كان أمرًا شاذًا في القارة الإفريقية والآسيوية، لأن كيفية تقاسم المناطق كان أصلا محددًا وفق المصالح الاقتصادية، ولذا نجد كيف أن منظمة الوحدة الإفريقية دعمت موقف المستعمرين في الستينيات عندما اتخذت القرار الحاسم بعدم تغيير الحدود بين الدول الإفريقية في مؤتمر القاهرة الشهير، وليس هذا بمستغرب لأن أسلوب تكوين الدول لم يكن مبنيا على المصالح الوطنية للشعوب، وحتمًا فإن أي مساس بتلك الحدود المرسومة يحرك أشجان الدول المستعمرة وربما تحدث خلافات أوروبية أوروبية قبل أن تحدث معارك دموية إفريقية إفريقية، ولذا بقيت الدول المستقلة من المستعمر الغربي كما تركها هو.

ولم تحاول الشعوب والقوميات المتجانسة أن تتصرف بحرية وجرأة لتوحيد شتاتها الذي خلفه الاستعمار الغربي منذ القرنين الماضيين، وفي هذا السياق كان الشعب الصومالي يغرد "خارج السرب " كما يقول المثل.

ومن هنا ندرك الأسباب الحقيقية التي جعلت ضباطًا صغارًا من الجيش الوطني الصومالي يقومون بانقلاب عسكري بعد ثلاث سنوات فقط من الاستقلال لفصل الشمال عن الجنوب، وكيف أن أهل الشمال أعلنوا انفصالهم عن بقية الصومال بعد ما ضعف النظام العسكري وارتكب المجازر ضد عدد من المحافظات الصومالية، كان الشمال قد أخذ النصيب الأوفر من تلك المصائب التي حلت على البلاد في السنوات العشر الأخيرة من عمر الحكم العسكري الدموي القاسي.

بالإضافة إلى ما سبق فإن الدول الغربية كانت منزعجة من الطموحات الصومالية الهادفة إلى توحيد القومية الصومالية المنتشرة في شرقي القارة الإفريقية، في كل من إثيوبيا وكينيا والصومال الفرنسي، والتي ظلت قناعة راسخة في وجدان الإنسان الصومالي أينما وجد في فترة المرحلة الاستعمارية بصفة خاصة، وتلك من القضايا الحساسة التي وحدت السياسات الغربية تجاه الصومال منذ استقلال الجزئين المكونين لجمهورية الصومال من الاستعمار البريطاني والإيطالي.

والعامل الآخر الذي عقد الأمور هو ارتباط الصومال بالكتلة الشيوعية في زمن الحرب الباردة، ولذلك فإن قطع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي وحلفائه ووجود حلفاء أقوياء للغرب بجانب إثيوبيا وضع الصومال في مأزق حرج للغاية، فسقوط الدولة الصومالية لم يمثل أية مشكلة للغرب ولا لحفائه، ولربما كان ذلك السقوط مرحبًا من الناحية النفسية لكون المجتمع الصومالي في الأصل متمردًا على الأنظمة العالمية سواء الغرب أو الشرق في تاريخه المديد، ولم يكن أحد يتوقع أن يجد النصرة والتأييد والنجدة العاجلة من أشقائه العرب، فلا لوم عليهم بسبب ظروفهم المعروفة ووضعيتهم المهزوزة وقواهم الخائرة "لأن فاقد الشيء لا يعطيه" .

وانطلاقا من هذه الحالة فإن الدولة الصومالية لم يكن لديها أصدقاء يقفون بجانبها كما حظيت دول أخرى تعرضت لمثل ما كانت تتعرض له مثل دولة إثيوبيا المجاورة التي تعرضت لثورة جامحة كادت تنهي وجودها ووحدتها، لكن الدول الغربية برمتها جندت نفسها لإنقاذها من الانهيار المروع بسبب العلاقات الاستراتيجية والمصالح المشتركة والترابط السياسي القوي، تعاملت القوى الغربية مع الثورة بصورة رسمية وتعاملت مع رئيس الدولة بحكمة حتى خرج من أديس أبابا سالما إلى منفاه كرئيس سابق للدولة الإثيوبية، هذا هو الفرق بين الفشل والنجاح، لقد حاربنا الاستعمار وهزمناه مرارًا وتكرارًا وبنينا دولة حرة ومستقلة، ولكننا فشلنا في حمايتها، لأن حروبنا مستمرة ولا نهدف منها تحقيق قضايا استراتيجية بعد نهايتها، وكأننا نحارب فقط لكي نحارب إلى الأبد، مع أن الحروب في العالم ضرورة ويقصد منها تحقيق أهداف واضحة تخدم في النهاية مصالح القوى المتحاربة في نهاية المطاف.

ويستسلم المهزوم في الحرب لتقليل الخسائر والتعامل مع الواقع العملي المفروض عليه، ولربما تتطور العلاقة بين المنتصر والمهزوم ويصلان إلى مستويات قياسية من التعاون المشترك وبناء علاقات متينة تحمي مصالحهما في المستقبل القريب والبعيد، انظر إلى اليابان والولايات المتحدة الأمريكية كيف حاربتا ضد بعضهم البعض حتى دمر الجيش الياباني أكبر قاعدة عسكرية أمريكية في الميناء الشهير(بيرل هاربر)، وفي النهاية انتقمت أمريكا واستخدمت القنابل الذرية على مدينتي هروشيما ونكازاكي، وعندها أعلنت اليابان استسلامها، ورفعت راية الهزيمة واتفقت مع المنتصر ونفذت ما أرادته

أمريكا وقتها، وتطورت العلاقات من العدوانية إلى الصداقة الحميمية والتعاون القوي على بناء نهضة سريعة وإعادة التعمير في مختلف المجالات وخاصة الجوانب الأمنية والاقتصادية والصناعية لطبيعتها للخروج من النكبات الناتجة عن الحرب العالمية الثانية ومضاعفاتها.

وهناك أمثلة كثيرة في العالم على هذا النحو، ولكننا كصوماليين لم نفهم ما تخدمه الحروب أيا كان نوعها ولكننا فقط نحسن القتال، وإن قتالًا ليس وراءه ما يمكن أن يحققه بعد نهايته لهو خسارة، بل يمكن أن نسمي النصر من هذا النوع هزيمة مقنعة وملفوفة بلباس كاذب، ولو حققت الأمة النصر المؤزر في ساحات الحرب بدون نظرة فاحصة لعواقب الأمور والمآلات لمستقبلها القريب المنظور والبعيد المتخيل ستهزم حتمًا في الساحة السياسية، وهذا ما حدث للصومال في حروبها التاريخية، وكان آخرها حرب القرن الإفريقي عام ١٩٧٧-١٩٧٨ التي دارت رحاها بيننا وبين إثيوبيا، مع العلم كما أشرنا قبل قليل أن القوى العظمى المتصارعة وقتها والأحلاف القوية التي كان أبرزها حلف وارسو وحلف الناتو كانا ضد تلك المعركة الخاسرة، وهو أمر لا يمكن استيعابه من الناحية العسكرية الصرفة.

وتلك الخطوة كانت بداية تفتيت الدولة الصومالية، وعود الكبريت الذي قدح الشرارة الأولى للحرب الأهلية والصراع الدموي الذي أزهق أرواح مئات الآلاف من الأبرياء، ودمر البنى الأساسية للبلد وشرد الملايين من منازلهم كنازحين ومهاجرين، بل خلقت أجواء فريدة في نوعها أدت إلى حرب غير متكافئة، الصومال وحده وإثيوبيا بجانبه قوة عظمى وفرت لها كل ما تحتاجه وما تستلزمه الحرب من وقود وضمان لديمومتها، فكلما كادت تنطفئ ألسنة اللهب وتخمد عنفوان النيران ازدادت شرارتها ويزداد عنفوانه بدرجة أقوى من سابقاتها، وهذا المشهد التاريخي يعلمنا أن الذين لا يفكرون مليا ويهملون من حولهم من البشر سيسقطون بسهولة، فالقوانين التي تنظم سنن الحياة واحدة لا تتعدد ولا تختلف، والاختلاف هو فقط هي في كيفية التعاطي والتعامل معها حكمة أو تهورًا، تعقلًا أو طيشًا، استبدادًا بالرأي أو الالتزام بالشورى، والاستفادة من قدرات الآخرين.

**يقول الشاعر في سياسة التأني والروية في الأعمال المستقبلية لأي إنسان يريد التقدم إلى الأمام:**

**فقدر الرجل قبل الخطو موضعها *** فمن على زلقا عن غرة زلجا**

بدأت الحرب الأهلية بعد انهيار الدولة وعمت البلاد كلها بعد انهيار الجيش الوطني والشرطة والمخابرات وكافة المؤسسات الأمنية. لم تكن الحرب الأهلية في مرحلتها الأولى بين القبائل الصومالية، وإنما كانت بين الطامحين إلى كرسي الحكم وتسلم السلطة، وقد حمل هؤلاء السلاح ضد الحكومة وتعاونوا مع الدولة الإثيوبية، ولم تكن بين الثورات المقاتلة أية علاقة، والعلاقة الوحيدة بين أطراف المعارضة الصومالية التي كانت بمثابة همزة الوصل هي إثيوبيا، ولم يكن من مصلحتها أن تقوم أية علاقة بين المقاتلين الصوماليين فكانت تريد أن يقاتل الجميع ضد الدولة بدون أي تعاون أو تنسيق فيما بينها، فعندما انهارت السلطة المركزية سقط سلاح الجيش بأيدي الشعب، وكانت النتيجة أن توجه الجميع إلى الثكنات العسكرية وحمل الناس مختلف أنواع الأسلحة مما ساعد على اتساع رقعة الحروب.

ولم تسلم أية محافظة من التقاتل فيما بينها، فتحولت الحرب من حرب موجهة ضد الدولة ومؤسساتها إلى حرب لا عنوان لها، رفاق السلاح بالأمس القريب قد بدأوا يتقاتلون، وهكذا نشأت الحرب الأهلية التي أصبحت مضرب المثل في عنفها وشدتها حتى أصبح اسم الصومال من أشهر الأسماء العالمية في التمزق، ( الصومال) أصبحت العنوان الأبرز في الحروب الأهلية المدمرة وتهجير الشعوب، كما أصبحت الدولة الصومالية مثالًا حيًا للدولة الفاشلة التي يضرب بها المثل في مختلف القارات والساحات الدولية، بل نجد اليوم دراسات غير عادية حول ظاهرة الصومال والصوملة تتناول مختلف جوانب حياة المجتمع الصومالي.

ولقد تولى كبر تلك المخازي من قاموا بظلم شعبهم وأساءوا استخدام السلطة وشارك في هذا الجرم كل الذين حملوا السلاح وساهموا في إسقاط نظام الحكم غير متفقين على نهج الحكم، ولقد فشلوا في إعادة نظام الحكم والحفاظ على الكيان ومؤسساته ومرافقه، بل مارسوا القتال بدون سبب منطقي في أغلب المناطق في البلاد، وهؤلاء هم

من عرفوا بعد ذلك بأمراء الحرب الذين لم يدخروا وسعًا للتنكيل بشعبهم وتعميق جراحاته ومضاعفة آلامه وأحزانه.

والسؤال المطروح هو كيف واجه المجتمع الصومالي حالة الحرب الأهلية والتمزق الداخلي والتهجير القسري وما نتج عن ذلك من خسائر بشرية ومادية ونزيف مستمر حتى هذه اللحظة؟

وما هي العوامل المساعدة على تخطي بعض المصاعب والعقبات؟

## المبحث الثالث

## العوامل المساعدة على تخطي الصعاب والعقبات

### القوة الذاتية وموقعها الجغرافي

في العصر الحديث تمثل الدولة الركن الركين لحياة الأفراد والمؤسسات في مختلف المجتمعات البشرية، فهي تتحكم في مجمل جوانب الحياة، والدولة الصومالية كانت واحدة من الدول المستقلة حديثًا عن الاستعمار، فعندما تبنى العسكريون الاشتراكية العلمية نظامًا لحكمهم حاولوا تطبيق قوالبها المقتبسة من الدول الشيوعية، وعلى رأسها روسيا والكتلة السوفيتية مع أنها لم تكن تمتلك القدرات الحقيقية للتطبيقات العملية، ولكنهم استطاعوا التحكم في المؤسسات الاقتصادية وجعلوا التجارة والزراعة والاستثمارات تحت توجيههم وتصرفاتهم بصورة مطلقة، وجعل هذا الأمر يكبل قدرات المجتمع ويعطل الكفاءات والإمكانات، فانهارت السلطة بعد أن جمعت كافة الموارد المالية والمرافق الخدماتية مثل البنوك والتعليم والصحة العامة والمستشفيات والتصدير والاستيراد، وكل ذلك توقف فجأة بدون مقدمات، ولربما كانت حالة الصومال فريدة في نوعها من حيث اختفاء السلطة المركزية بهذه الطريقة وحدوث فشل كامل للدولة بهذا المستوى.

كيف واجه المجتمع الصومالي هذه الحالة الشاذة النادرة الحدوث؟

فمن خلال تركيبة المجتمع الصومالي ننظر إلى جملة من العوامل والأسباب المساعدة.

### أولًا: العلاقات الاجتماعية في المجتمع

المجتمع الصومالي ما زال يعتز بالقبائل والأفخاذ وتفريعاتها الصغيرة، ربما يختلف في هذا الأمر عن كثير من القبائل الإفريقية، وإن كان العامل المشترك في القارة النفوذ العشائري رغم التطورات الحضارية وانتشار التعليم في المدن الكبيرة على الأقل، والسبب ليس خافيا عنا في الصومال، لأن العشيرة تمثل حتى الآن الضمان الاجتماعي من الناحية الأمنية والنفوذ السياسي وربما من الناحية الاقتصادية، ومع هذا فهناك تداخل بين مختلف القبائل تحددها سمة المصاهرة ذات الأثر القوي في مستوى العلاقات الإيجابية، والتحالفات بين القبائل المتجاورة لكي تتعاون أثناء حدوث الأزمات الخطيرة، هذه

العلاقات كانت من العوامل التي وضعت حدًا للخسائر البشرية وحالت بين العصابات الثائرة وبين ارتكاب المجازر، لقد حاول كل من سفهائنا وأعدائنا تحويل البلاد إلى مسلخة بشرية لتشكيل فصل جديد في تاريخنا، ولكن العقلاء من العلماء وشيوخ القبائل تصدوا لهذا الأمر بطريقة عملية مما خلق أجواء من الثقة بين القبائل، وتلاشت الرغبة في الانتقام حتى من قبل من ارتكب في حقهم الفظائع المروعة، نأخذ شمال الصومال المعروفة حاليا (أرض الصومال) والتي تعرضت لظلم غير مسبوق في تاريخ الصومال، حيث دكت مقاتلات الجيش الوطني الصومالي مدينة هرجيسا العاصمة الثانية للبلاد وضواحيها.

وما زلت أتذكر ما قاله وزير الدفاع وأقوى شخصية للمجلس الأعلى للثورة الجنرال محمد علي سمتر حين أدلى بخطابه الشهير للإذاعة البريطانية BBC عام ١٩٨٨ : لقد قتلنا في هرجيسا ٥٠٠٠٠ نسمة، فعندما استسلم الجيش الصومالي للحركة الوطنية الصومالية SNM حدث ما لم يكن في الحسبان ولم تكن هناك أية مجازر، أو ما يمكن أن نسميه رغبة الانتقام وأخذ الثأر من أفراد الجيش.

لا ننكر أن بعض الضباط من بقايا الجيش ارتكبوا جرائم ضد الشعب الصومالي ونهبوا أموالهم وقتلوا بعض الأفراد، ولكن الذي نتكلم عنه هو: أن أغلب الحروب في السنوات الأولى كانت تحدث بين المسلحين وكان القتال هو الصراع على كرسي الحكم والسيطرة على الثروات التي خلفتها الدولة الصومالية بالمعنى الإجمالي.

ففي العاصمة مقديشو أنقذ الخيّرون عشرات الآلاف من أفراد المجتمع بسبب العلاقات الاجتماعية.

**ثانيًا: الدين وأثره في تخفيف المحنة**

الإسلام هو الدين الوحيد في الدولة الصومالية، وهم من أهل السنة والجماعة، ويتمذهبون بالمذهب الشافعي، وهو الذي صاغ حياتهم وتنتمي إليه أغلب التقاليد الاجتماعية والأمثال، وهم يعتزون به، والتدين شرف عظيم للعائلة الصومالية، والالتزام الديني سمة بارزة للصوماليين أينما وجدوا، قلما تجد في القارة الإفريقية شبيها لها، وهي من المجتمعات التي قاتلت الاستعمار الغربي أطول مدة ممكنة، الأمر الذي جعل الأوروبيين غير قادرين على نشر دينهم النصراني في ربوع الصومال، وأبعد من ذلك فإن الاتفاق بين الصوماليين والبريطانيين كان يقضي عدم نشر المسيحية في المستعمرة، ومنع

الحوامل من النساء البريطانيات من الولادة في الأراضي الصومالية، ومنع بناء الكنائس، هذا ما حدث مع البريطانيين.

ولم يكتف الصوماليون بهذا بل جاهدوا مدة ثلاثين عامًا ضد البريطانيين والإيطاليين، يقول الحاكم البريطاني في فترة هزيمة المجاهدين بعد الحرب العالمية الأولى: (لم يستقر حكمنا في المستعمرة البريطانية في الصومال مدة ثلاثين عامًا قبل اليوم وبعد أن هزمنا الدراويش بقيادة (MAD MULLA ) وكانوا يلقبون قائد المجاهدين السيد محمد عبد الله حسن رحمه الله تعالى بهذا اللقب تشويها لسمعته أمام شعبه والعالم، وفي هذه المناسبة قال أحد المؤرخين الألمان ساخرًا من البريطانيين: ما رأينا مجنونًا أخطر من ذلك الذي دوخ المملكة المتحدة ثلاثة عقود متتالية.

وأيا كانت سلبيات المجتمع الصومالي ولكن الله جمع شملهم على الدين الإسلامي ووحدهم، وهذا من أسباب قوتهم التي ساعدتهم على البقاء والتمسك بوحدتهم في العقيدة، والدين من العوامل الساسية لمواجهة التحديات الكبرى ووضع حد لكثير من التهديدات.

**ثالثًا: التقاليد الحميدة وأثرها في تخفيف المحنة**

هناك قدر كبير من التقاليد الراسخة التي تفرض على الإنسان الصومالي أن يضحي من أجل الآخرين، ولا فرق في هذه التقاليد أن تضحي من أجل قريبك في النسب أو البعيد عنك فمساعدة المحتاجين أمر في غاية الشرف والكرامة، هذه التقاليد حية في نفوس الكبار والصغار والكل يتفاخر بها، ففي ظروف الحرب الأهلية برزت هذه القيمة بقوة وفعالية كبيرة، حيث يسعى الجميع لمساعدة إخوانهم مهما تكن الظروف ولقد خففت هذه القيمة الاجتماعية وطأة الحرب الأهلية ومعاناتها الشديدة.

**رابعا: حيادية العلماء وأثرها على تخفيف المحنة**

**أولًا:** كان للعلماء في الصومال دور هام حقًا بعد اندلاع الحرب الأهلية وانتشار الفوضى في طول البلاد وعرضها، فلقد توجهوا إلى المتقاتلين من أجل وقف التناحر فيما بينهم منذ بداية الحرب الأهلية بعيد سقوط الدولة، فهم نظموا مظاهرات سلمية تعبيرًا عن رفضهم لما آلت إليه الأوضاع، ولقد استشهد من مواكب العلماء المشرفة ومظاهراتهم

السلمية برصاص السفهاء في موقع واحد ١٣ من أفرادهم المشاركين في تلك المظاهرات ضد العنف، والهادفة إلى منع إراقة الدماء الغزيرة التي تراق بدون أي مبررات.

**ثانيًا:** توعية المجتمع لمخاطر الفتن والحروب وموقف الدين الإسلامي من ذلك والتحذير من مغبة هذا الأمر في الدنيا والآخرة، وهذه كانت تمثل خطوة لغرس وتقوية الإيمان في النفوس في مرحلة كان الناس في أمس الحاجة إلى مثل تلك التوعية في مختلف مناطق البلاد، ومن المعروف في تاريخ الصومال أن العلماء غالبًا ما كانوا يقفون من الحروب بين القبائل الصومالية موقف الحياد، ولا ينحازون إلى جانب ضد جانب آخر في الحروب العشائرية، بالإضافة إلى ذلك فإن أدوارهم لم تقف عند هذا الحد، بل ساهموا بقوة في بناء العملية الأمنية في عدد من المحافظات عبر تأسيس محاكم شرعية لتأديب الطائشين من الأشرار، وتنفيذ بعض العقوبات في الذين يرتكبون جرائم الاعتداء على الأبرياء، مثل ارتكاب جريمة القتل ونهب الأموال والممتلكات، والاعتداء على الأعراض، ونظمت هذه العمليات وإجراءاتها عبر التفاهمات بين شيوخ القبائل ما دام لا توجد سلطة مركزية تتولى الحكم في البلاد.

**ولقد ساهمت هذه المحاكم في استتباب الأمن وتقليل الجرائم المرتكبة من قبل العصابات المسلحة، بالإضافة إلى ذلك** فإنهم كانوا جزءًا من عمليات المصالحة بين القبائل أو الفئات السياسية، وحل الخلافات بين الأفراد أنفسهم، وهذا الدور الإيجابي هو مما خفف محنة الناس في ظل الانهيارات المتتالية للمرافق الخدمية والأمنية وسيادة الفوضى التي عمت أرجاء البلاد.

**خامسا: الموقع الجغرافي وأثره في تخفيف المحنة**

تقع الصومال على ساحل البحر الأحمر وساحل المحيط الهندي وتمتلك أطول ساحل إفريقي على الإطلاق، وهذا الموقع الجغرافي جعلها تجاور عددًا من الدول العربية مثل سلطنة عمان، والجمهورية اليمنية، والمملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية، وجمهورية مصر العربية، كما أن دولة الكويت، ودولة قطر، والإمارات، قريبة من الصومال، بالإضافة إلى ذلك فإنها تطل على مضيق باب المندب أهم شريان بحري في العالم، هذه السواحل الطويلة أعطت المجتمع الصومالي المنكوب فرصة التواصل والانفتاح على مختلف الدول عبرها، ولقد مكن هذا الموقع التجار الصوماليين من

مساعدة شعبهم وتنمية تجارتهم والاتصال الفوري مع تلك الدول القريبة، وهذا من فضل الله علينا، لأن سهولة الوصول إلى ساحل المشرق العربي بأسرع وقت ممكن وبأقل التكاليف بدون عقبات تذكر فتح الباب على مصراعيه للتجارة البينية بين المجتمع الصومالي وبين تلك الدول حتى حقق الصوماليون رقما قياسيا في هذا المجال.

من هنا تدفقت مختلف البضائع إلى كافة مناطق الصومال لتوفير الاحتياجات الضرورية، فرغم ثقل وطأة الحروب وتسببها بأضرار كارثية إلا أن هذا العامل ساعد المجتمع ووفر البضائع، فلم تطل فترة توقف الاستيراد مما أنقذ الملايين من الموت المحقق لولا هذه الخطوة المباركة وتلك التحركات عبر السواحل الصومالية، مما جعل الجميع يستفيد حتى الفقراء وجدوا المساعدات الضرورية من أقاربهم وجيرانهم ومن المحسنين الخيرين من أفراد مجتمعهم قبل وصول أية إغاثة إقليمية أو عالمية، لأن السفن الصغيرة غير الخاضعة لتعقيدات الشركات الكبرى وتأميناتهم الثقيلة وارتفاع أسعار بضائعهم هي التي وفرت النجدة الأولى للمنكوبين.

### سادسا: دول القرن الإفريقي وأثرها على تخفيف المحنة

هناك ثلاث دول تقع على الحدود البرية الصومالية، وهي جمهورية جيبوتي وجمهورية إثيوبيا وجمهورية كينيا، لقد نزح ما يقرب مليون صومال هربوا من الحرب والمجاعة واستقبلوا بكل تقدير وإكرام حيث استضافتهم تلك الدول بالتعاون مع الهيئات الأممية، هذا الاستقبال الحار والتعاطف معهم فتح آفاقا جديدة من التعاون بين المجتمعات والدول في القرن الإفريقي، كما أزالت بصورة جزئية بعض العقد التاريخية المتراكمة عبر الحروب والنزاعات والتدخلات في شؤون الآخرين، فالمجتمع الصومالي منتشر في تلك الدول بنسب متفاوتة طبعًا وهذا ساعد كثيرًا تقبل النازحين في تلك الدول، كما أن التغيرات في السياسة الدولية والخروج من الحرب الباردة كان عاملًا آخر خفف وطأة الخلافات بين دول العالم إلى حد ما.

أعتقد أن تلك التصرفات الحميدة من الدولة الإثيوبية والكينية تجاه النازحين قد نزع جانبًا من فتيل العداوات القوية التاريخية بين الصومال وهاتين الدولتين، وخاصة بين الصومال وإثيوبيا بسبب الخلافات القديمة بشأن الأراضي المتنازع عليها منذ دخول الاستعمار الأوروبي، وتأسيس الدولة الحديثة في العالم الثالث.

كما أعتقد أن هذه الخطوة ستعمق حسن الجوار إذا تعاملت الدول مع القضية الصومالية بالحكمة نفسها منذ بداية الأزمة الصومالية، لأننا نمر في القرن الإفريقي بمنعطف تاريخي يجب أن تستثمره الدول المستقرة حاليا بواقعية وبصيرة وألا تستغل الضعف الحاصل للدولة الصومالية.

فمهما تكن الظروف فإن الذي حدث فعلا يبدو أنه انعطافة تاريخية لا يمكن نسيانها، لأنه يوجد اليوم جيل كامل نشأ في إثيوبيا وكينيا منذ عام ١٩٨٨، فمنذ ثلاثين عامًا استوطن مئات الآلاف من الصوماليين في تلك الدول، ونشأ جيل ارتقى إلى مستوى القيادة الصومالية وبعضهم أصبح بالفعل في مختلف مفاصل الدولة الصومالية بما فيها البرلمان.

الصوماليون من جانبهم يشكرون تلك الدول وينتظرون منها أن يحدثوا نقلة نوعية في العلاقات بين الدولة الصومالية وبينهما وبين المجتمع الصومالي وبين مجتمعاتهم، وتلك السياسة تخدم الجميع وتمهد طريق السلام والرخاء للأجيال القادمة من أبنائنا وبناتنا الذين تربوا على الأحقاد والكراهية والحروب المتواصلة والفقر والأمراض مما يمكننا من التحرر والترفع ولو قليلًا عن ميراث الماضي المبني على الأحقاد واجترار فصول المأساة التاريخية لنلحق العالم وركبه المتقدم في المستقبل.

## نجدة الشعوب العربية وأثرها في تخفيف المحنة

**كانت للشعوب العربية أدوار مهمة للغاية في محنة الصومال لا يمكن نسيانها، ومن بينها:**

**أولًا: سرعة التحرك لإغاثة المنكوبين:** كان أمرا في غاية الأهمية يومها أن يجد الصوماليون سرعة التحرك من أجل الإغاثة، ولقد استجابت المجتمعات العربية وبعض دوله لنداء الحاجة فحصل التبرع بسرعة وسخاء، وتم شحن السفن الكبيرة والصغيرة لمساعدة إخوانهم المنكوبين، ولم تكن هناك أية استثناءات لتلك المساعدات، وكان من الأمور المشهورة وقتها الفروق الكبيرة بين نوعيات الأطعمة التي ترد على الصومال، كل الأطعمة كانت مهمة جدا بسبب المعاناة التي سببتها الحروب القذرة الناتجة عن انهيار الحكومة الصومالية بصورة كاملة، ولكن أفضل الأطعمة هي التي كانت تأتي من الخليج، وكان الناس يدركون ذلك ويسمونها اسم (MACMACAAN) ومعناها (اللذيذ) بينما

بعض الأطعمة كانت فاسدة أو لا تتناسب مع بعض الأشخاص الذين وصلت حالتهم إلى مستويات صحية سيئة.

**ثانيًا: الاستيراد والتصدير من الصومال وإليها:** كان شبه مستحيل أن نجد وقتها تجاوبًا معقولًا من الاستيراد والتصدير بدون ضمانات بنكية من الدول الغربية والشركات الكبرى، فالذين يواجهون الموت في مرحلة الكوارث والأزمات الحادة لا يستطيعون تحمل الدراسات المسحية وشروط الضمانات وقوانين التأمينات لدى المؤسسات الدولية، فهم في حالة حرجة ومحتاجون إلى ما ينقذ حياتهم مهما تكن الظروف، فجيراننا العرب هم الذين قبلوا هذا الأمر، فبدأت برامج استيراد البضائع وتصدير اللحوم وبعض الفواكه من الصومال بدون أية تعقيدات بنكية أو شروط وضمانات، والمعلوم أن البنوك الصومالية كلها توقفت عن العمل فيها بشكل كامل، ولم تعد تعمل منذ بداية عام ١٩٩١، ومع ذلك فإن التبادل التجاري بين الصومال والمشرق العربي عموما استمرت بالوتيرة السابقة أو قريبا منها مع غلق البنوك وكافة المؤسسات المصرفية، وهذا الأمر كانت سياسة مفيدة للطرفين.

**ثالثًا: المصالحة بين المتنافسين على الحكم:** حاولت بعض الدول العربية وعلى رأسها المملكة العربية السعودية القيام بالمصالحة الوطنية بعيد انهيار السلطة المركزية في الصومال، فقدم الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله تعالى دعوة رسمية للفرقاء وحضر الجميع في مكة المكرمة وتعاهدوا داخل الحرم المكي على المصالحة ونبذ العنف وإعادة بناء الدولة الصومالية من جديد، وكان لهذه الخطوة آثار إيجابية جانبية وخاصة في البرامج الإغاثية والمساعدات الإنسانية، وإعطاء بعض العناية للمقيمين وقتها في المملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج، ولكن تعهد السياسيين أصبح حبرًا على ورق ولم يلتزموا بما أعلنوه داخل الحرم المكي، وهو أمر يؤسف له.

**رابعا: قبول اللاجئين في بعض الدول العربية:** لقد وجد الصوماليون تعاطفا من بعض الدول العربية ونخص بالذكر الدولة اليمنية الشقيقة التي فتحت أراضيها لعشرات الآلاف من الصوماليين الهاربين من جحيم الحرب، حتى وصل الرقم في السنوات الأخيرة إلى ما يربو على مائة ألف شخص، رغم ظروفها الاقتصادية الصعبة، وهذا الأمر لم يتكرر بهذ الصورة في الأقطار العربية الأخرى.

**خامسا: الإغاثة التعليمية**: السودان هي الدولة العربية الوحيدة التي فتحت جامعاتها المختلفة للطلبة الصوماليين في مختلف التخصصات الأدبية والعلمية بدون رسوم دراسية، بل قبلت الطلاب كمواطنين سودانيين، بل في كثير من الحالات كان الطالب الصومالي يجد امتيازات لا يتمتع بها الطالب السوداني، وكان هذا عاملًا آخر ساعد الشباب الصومالي وخفف عنهم محنة الجهل والانخراط في صفوف المليشيات المتحاربة.

والأمر الجدير بالذكر أن هؤلاء يعودون إلى البلاد، والسبب الجوهري هو أن الدولة السودانية رفضت طلب الهيئات الدولية اعتبار الصوماليين لاجئين يطلبون اللجوء مما ساعدهم على التعليم والعودة إلى الوطن، ليس معنى ذلك أنه لا يوجد طلبة في بقية البلدان العربية بل كانت هناك نسب قليلة من الطلبة في بعض الدول الأخرى مثل السعودية ومصر وسوريا واليمن، ولكنها قليلة ولا يمكن أن تقارن مع السودان، ولو جمع كل الطلاب في بقية الدول العربية وقارنا هذا الأمر مع جهود السودان فهي تتفوق عليهم مجتمعين، وهو أمر ملفت للنظر في حقيقة الأمر، وهذا مما جعل العلاقة الصومالية السودانية متميزة من الناحية الثقافية والتعليمية لأنه يوجد الآن آلاف من خريجي الجامعات السودانية في قمة الهرم التعليمي، بالإضافة إلى وجودهم الملحوظ في المجالات السياسية والاقتصادية.

ولم نجد دولة عربية أخرى انتهجت مثل تلك السياسة التي تمنع الطلبة الصوماليين من طلب اللجوء والهجرة إلى الدول الغربية من أراضيها، أغلب الطلبة في بقية البلدان العربية وغير العربية لم يعودوا إلى الصومال بسبب التسهيلات للهجرة مع الأسف وهذا سبب نزيفًا مرهقًا للبلاد، ومن المحزن أن مئات الطلبة الذين كانوا في مصر على سبيل المثال لا الحصر قد هاجروا إلى أمريكا وأوروبا، بعضهم خرجوا وليس بينهم وبين التخرج إلا بضعة أشهر، وكذلك ماليزيا وأغلب الدول الأسيوية والإفريقية[1].

(١) هناك مئات من طلابنا تركوا الصومال بعد أن منحوا منحًا دراسية في عشرات من الدول، أحيانًا من جهود عوائلهم وأحيانًا من مؤسسات وطنية وفي حالات معينة تأتي هذه المنح من جهات عالمية، وتخطر لي بعض القصص المحزنة ما زلت أتذكرها حتى الآن، بقدرة القادر التقيت بطالب من هؤلاء الطلبة بعد أن أكمل مرحلة الماجستير في أرقى الجامعات الماليزية ثم هاجر إلى أوروبا بدون إبلاغ قراره إلى الجهة التي وفرت له تلك المنحة، وكنت أعرفه جيدًا وكان ممتازا ورائعا في دراسته وقوة=

كانت المحنة قاسية على الصوماليين داخل حدود الدولة الصومالية وخارجها، ولم تكن الدول الإفريقية وخاصة دول الجوار لديها رغبة لإنقاذ الصومال بسبب الخلافات وضعفها من الناحية الأخرى، ولم تكن الدول العربية قادرة على تقديم الدعم السياسي وإحداث أي تغيير في مسيرة البلاد التي هوت إلى الدرك الأسفل وفقدت كافة مقومات الدولة الإدارية والأمنية والخدماتية حيث انهارت واختفت مرافق الحياة، لأنها كانت تود لو بقي الرئيس الصومالي على السلطة كي لا تصبح الثورة الشعبية في الصومال ظاهرة تصيب عدواها كراسي الحكم في النهاية.

من المعلوم أن نظام الحكم كان اشتراكيًا جعل كل المرافق في قبضته فقط، لهذا كانت القدرات الشعبية مشلولة ومعطلة بصورة شبه كاملة، فبعد أن توقفت المرافق التقليدية التي عودت الناس على الاعتماد المطلق على ما تقدمه الحكومة من هنا وهناك وكانوا غير متعودين على العمل الحر، لأن أي جهد يأتي من خارج المشاريع الحكومية كان ممنوعا، وكان صاحبه يتلقى العقاب والتجريم الذي يصل أحيانًا إلى التهديد والاعتقال أو الحبس بدون محاكمة، فجاءت التطورات المتلاحقة والحروب المستعرة بين الدولة والشعب ثم بين الشعب نفسه، فواجه مصيره المحتوم في وضع لم يتعود عليه منذ أن عرف الدولة الحديثة، ومع كل ذلك فإن العوامل العديدة التي ذكرناها هي التي مهدت السبل من أجل الخروج من الكارثة بخسائر كانت أقل مما ظنها الجميع كغيرها من دول إفريقية عديدة مثل رواندا وبوروندي وغيرهما، جاءت بعد ذلك المساعدات الدولية وتدخلاتها العسكرية المتنوعة من أمريكية وأممية وإفريقية.

---

=شخصيته، فعندما رأيته أصابني همٌّ وحزن لا حدود له، ودار بيني وبينه نقاش طويل وحاد إلى حد ما، وفي النهاية وجهت إليه هذا السؤال: ماذا تعمل هنا؟ فأجاب بصدق أعمل في متجر في لندن، فقلت له: وما نوع هذا العمل؟ فقال: أحمل الكراتين من البضائع أرفعها لأضعها في خاناتها وأحمل هذه الكراتين عند اللزوم من الأعلى إلى الأسفل، فقلت له: أليس كل إنسان لديه قدرة عضلية سليمة يقدر على ممارسة مثل هذا العمل سواء كان متعلما أو جاهلا؟ فقال: نعم يستطيع، فقلت له: أليس ما تعلمته مضيعة في مثل هذا العمل العضلي.هكذا خسرنا آلافا من شبابنا المتعلمين، غير أن السودان كانت موفقة لسياساتها التعليمية تجاه الصوماليين في بلدها لأن الدولة السودانية قررت مساعدة المجتمع الصومالي بطريقة مختلفة عن بقية الدول فلهم منا جزيل الشكر، والنتيجة ظاهرة للعيان في المدن والقرى في مختلف بقاع الصومال وفي المراكز القيادية السياسية والتعليمية والاقتصادية.

## المبحث الرابع

## فعالية التطوع في ذروة الأزمة

عندما انهارت الدولة وعمت الفوضى العارمة وساد الهرج والمرج واشتعلت الحرب الأهلية في أغلب المحافظات والمدن والقرى تغيرت الحياة بصورة تلقائية وبلا مقدمات منطقية، سكتت الألسنة ونطقت المدافع والبنادق في الشوارع والأزقة وداخل البيوت، وانفجرت الأحقاد الناتجة عن الكبت العسكري المغلف بالقسوة الشيوعية والدكتاتورية المطلقة، واتباع سياسة الترهيب والتخويف أكثر من عشرين عامًا، وتلك المدة المديدة كانت كافية للقطيعة بين مرافق الدولة وبين الشعب، لأن الصورة التي تمت زراعتها جسدت صورة قبيحة عن معنى الدولة لدى الفرد العادي والسياسي والمتعلم والجاهل على حد سواء، وهي أن الدولة عدوة للشعب، وأن الظلم هو الأساس وليست العدالة، وأن المحسوبية طريق الحياة لدى دوائر الدولة وليس الإنصاف والمؤهلات والقدرات، وأن نهب الثروات العامة والمصالح المشتركة ديدن كبار رجال الدولة، وليس لخدمة مصالح المحتاجين وحماية ممتلكات الأمة.

فأول ما أفرزته تلك المشاعر الصادقة أو المظنونة التي تكونت عبر التصرفات غير السليمة وغير الحكيمة هو تدمير المؤسسات الحكومية بما فيها المدارس والبنوك ومباني الجامعة الوطنية وبقية المرافق الوطنية، إننا حين ننظر إلى الأحداث المتلاحقة في الثورة الصومالية نجد قناعة شعبية مفادها أن الدولة الصومالية عدوة للشعب الصومالي بسبب استخدام القوة المفرطة ضد الأبرياء في عدد غير يسير من المدن والمحافظات، وأسوء ما في الأمر كان العقاب الجماعي وأخذ الناس إلى المعتقلات في ظل غياب التحريات التي يمكن أن تطمئن شرائح المجتمع.

وصل الغضب الشعبي والكفاح الفوضوي الذي لم تكن تقوده إدارة موحدة ضد الحكم العسكري إلى نهايته المؤدية إلى إسقاط الحكم العسكري وفرار الرئيس وكثير من أركان الحكم من العاصمة، ولكن الثورة الساخطة لم تستطع إعادة إدارة البلاد وتسيير شؤون الحياة في البلاد، بل عجزت عن إدارة تنظيم الأمور داخل العاصمة، وكان من الواضح أن أطرافًا متعددة من القوى الصومالية المحاربة كانت تنوي الانفراد بالحكم،

وعدم مشاركة الآخرين فيه، وخاصة الجبهة الصومالية الموحدة USC التي قاتلت في الجنوب وباشرت إسقاط نظام الحكم، أما الحركة الوطنية الصومالية SNM التي قاتلت في الشمال فكانت تريد الانفصال عن بقية الصومال، ولذلك لم تكن هناك حركة وطنية صومالية واحدة تحمل أفكارًا وطنية موحدة، ولذا حالف الفشل في المجتمع الصومال في مرحلة ما بعد إسقاط النظام. إذًا كيف تصرف الصوماليون بعد تحقيق رغبتهم الأولى من ثورتهم ؟

**أولًا: إيواء النازحين وتوفير الإغاثة العاجلة**

لقد فعلت الحرب الأهلية فعلها، وكانت بمثابة الهزة الأرضية العنيفة والتي تحرك المنازل والأشياء والبشر من موقعهم الطبيعي، وبهزاتها الارتدادية المتوالية تترك كل شيء مغايرا تمامًا عما كان عليه قبل حدوثها، وكان من فعلها:

النزوح الكثيف هروبًا من الحرب، ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من ويلاتها ودمارها الشنيع، يجد المجتمع معركة بدون إنذار أو أية سوابق ومؤشرات تدل على حدوثها، فيضطر الجميع مغادرة المنازل فورًا، فكثير من الأطفال حتمًا كانوا يلعبون خارج المنازل وربما الأمهات أو الآباء ليسوا بحاضرين في مقرات الإقامة، وقتها تعم الفوضى العارمة في تلك الأحياء، التشتت سيد الموقف، والأحزان هي السمة البارزة من جراء القتل أو الجراحة أو فقدان الأطفال أو بعض أفراد العائلة، ولا يعرف هل هم من الأموات أو هم الأحياء حتى الآن.

فبما أن المجتمع لم يمر بمثل تلك الأحداث في حياته المعاصرة فإنه لم يعرف كيف يتصرف معها، وإلى أين يتجه للخروج من المأزق المفاجئ مما ضاعف الأضرار الناتجة عن الانهيار المدوي، بالإضافة إلى ذلك فإن الهاربين من جحيم الحرب لا يتمكنون من أخذ ضرورات الحياة مثل الماء والطعام والأغطية وغير ذلك، ونتيجة لذلك يتعرض الأطفال وكبار السن والحوامل والمرضى للمجاعة والعطش والآثار الجانبية لانعدام الأدوية.

وبعد انهيار النظام خرج من السجون والمعتقلات كل من كان فيها، فطبعًا منهم الشرفاء المظلومون، ومنهم أصحاب السوابق ومرتكبو الجرائم ضد المجتمع، فخروج هؤلاء إلى المجتمع بهذه الصورة العشوائية شكل معضلة أمنية خطيرة كانت لها إفرازات ومتاعب كبيرة للفرد والمجتمع فقام هؤلاء وأمثالهم بالنهب والاعتداء وخاصة في بداية

الأمر مما زاد الطين بلة وجعل حياة المجتمع أكثر تعقيدًا، وخاصة في المناطق التي تتعرض للحرب بين الأطراف المسلحة.

ففي الأيام الأولى من اندلاع الحرب الأهلية اضطربت الأحوال وبلغت المعاناة ذروتها، حيث لا خدمات حكومية منتظرة بفعل انهيارها، ولا مساعدة إقليمة أو دولية عاجلة يمكن أن تسعف المنكوبين فور حدوث المأساة الناتجة عن انهيار الكيان ومؤسساته بصورة كاملة، ولو أخذنا مدينة مقديشو نموذجًا ومثالًا ربما تتضح الصورة الكلية من مشهد النازحين، كان يقدر عدد سكان مقديشو وقت انهيار المؤسسات الحكومية بشكل كامل حوالي ثلاثة ملايين نسمة، كانت المواجهة بين القوات الحكومية وبين المعارضة المسلحة بضعة أشهر قبل سقوط قصر الحكم بأيدي الثوار، وكانت حربًا شاملة عمت أغلب أحياء العاصمة، فبدأ النزوح الجماعي قبل حسم المعركة بين الطرفين، وخرج الناس إلى كل الاتجاهات، وكان أفراد العائلة الواحدة تختلف وجهتها، والسبب في ذلك هول الصدمة وعدم القدرة على التشاور لتحديد وجهة الخروج، فكان الهرج والمرج والهروب غير المنظم وفقدان أعداد كبيرة من الأطفال وجد البعض فيما بعد، وانقطع خبر البعض إلى الأبد مما عمق الجراحات في نفوس العوائل.

لم يجد هؤلاء غير العون المباشر من القرويين والمزارعين وأهل المواشي الذين قاموا باستضافة النازحين من العاصمة أو المدن الكبيرة التي شملتها الحرب قبل الانهيار وبعد الانهيار، وتقديم كل ما يمكن تقديمه، وقاسموا ما لديهم من الإمكانات، والثروة الحيوانية التي وهبها الله للصوماليين هي التي أنقذت الملايين حيث شربوا ألبانها وأكلوا لحومها، كما أن مخزون الإنتاج الزراعي لدى المزارعين ساهم في تخفيف المعاناة إلى حد ما، ويعني ذلك أن المجتمع الصومالي ساعد بعضه بعضًا بكل شموخ وكرم، وقاموا بالواجبات بهَبّة ونجدة سريعة في أغلب المناطق، فرغم سلبيات الحرب وظهور العصابات المجرمة وسفاهة أمراء الحرب الذين ارتكبوا الأعمال المشينة والأدوار السيئة المحزنة إلا أن المجتمع الصومالي أبلى بلاء حسنًا في مجال الإغاثة الفورية للمتضررين، وقام بملحمة نادرة الحدوث في مجال المساعدات وتوفير الاحتياجات الضرورية لمئات الآلاف من النازحين والجرحى قبل أن يستجيب المجتمع الخارجي ويقدم مساعداته، علمًا بأنه لم ير مثل هذه الأحداث المهولة.

العوامل التي أشرنا إليها في بداية هذا المحور هي التي مهدت الطريق للبروز المشرف لهذه المواقف بدون جهد حكومي أو أي جهة أخرى تقوم بتنظيم هذه المهمات الصعبة.

**ثانيًا: إنقاذ حياة المهددين من الأبرياء**

على الرغم من أن أغلب الدماء التي أريقت بعيد انهيار الحكم كانت بين قوى المعارضة المعروفة "بالجبهات المسلحة" والمتنافسة على الحكم إلا أنه حدثت اعتداءات على الأبرياء من عامة الشعب أدت إلى إراقة الدماء بمبررات غير منطقية وغير معقولة في المجتمع الصومالي المتجانس، ولكن هناك جملة من العوامل الطارئة هي التي مهدت الطريق لظهور العنف والفوضى العارمة التي أعقبت انهيار السلطة، ومن بينها:

**الممارسات الخاطئة للدكتاتورية العسكرية:**

لقد مارست الدكتاتورية العسكرية كافة أنواع القهر والقمع الممنهج لأكثر من عشرين عامًا، لقد أضعفت تلك السياسة الخرقاء جانبًا كبيرًا من القيم الأخلاقية في المجتمع الصومالي، وأحدثت خللًا اجتماعيًا في التوازنات والترابط بين الأفراد والعشائر، كما أوجدت أجواء من الكراهية المقصودة عبر الممارسات التي تباشرها أجهزة الدولة وعلى رأسها المخابرات العامة والشرطة وعدد آخر من أجهزة القمع المعروفة وغير المعروفة مما قطع العلاقة بين الدولة والمجتمع، وأوصل الثقة العامة بين الناس إلى أدنى المستويات، حتى بات أفراد الأسرة لا يثقون ببعضهم البعض، كم من طلاق حدث بين الزوجين بفعل تلك الشبكات المبثوثة في المدن والقرى، لأنها بدأت تجند عملاءها داخل الأسرة الواحدة حتى تكون الدولة على علم بأحاديث الناس في مختلف المنتديات وتسترق السمع من هنا وهناك.

اكتوت الصومال بنار تلك السياسة التي كانت الأنظمة الاشتراكية العسكرية تتبعها في العالم، ولم يكن الصوماليون متعودين على الأنظمة الشمولية القهرية في تاريخهم المديد مثل كثير من الشعوب العربية وغير العربية، لقد عاشوا على الفطرة وعلى الحياة الهادئة، ولذا فإن أثرها وردة فعلها كان واضحًا وضوح الشمس سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى القبائل، والكل كان يظن أنه المظلوم، وأن الدولة استخدمت الآخرين لتدمير حياته، وتلك كانت سياسة مخططة ولها أجندتها العلنية والخفية، ولهذا كان الجميع ضد الدولة وأجهزتها ومرافقها، وشارك أغلبهم في الحرب ضد الدولة بصورة أو بأخرى عبر

ممارسة التخريب والتعطيل، وتعاونت المعارضة الصومالية مع الأعداء التقليديين، حدث ذلك كله بسبب القناعة التي ترسخت في النفوس بأن الدولة الصومالية القائمة على الترهيب والعنف عدو حقيقي للشعب.

فبقدر ما كان الكل ضد النظام بقدر ما كانت الأحقاد والكراهية وسوء الظن والشك فيمن حولك خلق قدرًا كبيرًا من عدم الثقة التي دفعت الكثيرين إلى رغبة جامحة في الانتقام والتوجه نحو العنف والممارسات الطائشة والتصرفات غير المسئولة ضد أعداء غير محددين وغير معروفين بصورة دقيقة، وعلى الأساس فإن النظام العسكري أوجد أجواء من التوترات والأحقاد غير المسبوقة ومن التمزق الاجتماعي في العلاقات، لأنها ضربت ركائز الأمة ومكتسباتها بعضها ببعض.

**غياب القيادة الموحدة لدى المعارضة المسلحة في جنوب البلاد:**

لم تحسم المعركة ضد السلطة العسكرية إلا عندما انخرطت الجبهة الصومالية الموحدة في الكفاح المسلح وكانت الثالثة في مستوى القتال منذ البدء، وكانت في المحافظات الجنوبية بفعل كونها تنتسب إلى عشائر تلك المحافظات، وعلى رأسها العاصمة وضواحيها، كانت هذه القوة التي أسقطت نظام الحكم وأخرجت الرئيس من فيلا صوماليا قصر الحكم لم تكن تملك قيادة ونظامًا إداريًا وتصورات عن المرحلة القادمة للحكم، ولكن رموزها كانوا منهمكين في إسقاط النظام، ولكل واحد أجندته الخاصة ويسعى لإسقاط الرئيس ليحل محله إيمانا منه بأنه الأنسب للحكم بدون أية ضوابط أو نية لإجراء الحوارات المطلوبة في مثل هذه الظروف الاستثنائية والجديدة على الصومال تاريخيًا، ولعل ذلك الخلل من بين أمور أخرى هو الذي قاد الصومال إلى الوضع الكارثي الذي لم تخرج منه حتى اليوم.

**وقوع الأسلحة بأنواعها بأيدي الشعب:**

إن انهيار المؤسسة العسكرية لم يكن مفاجئًا،لأنها استخدمت ضد المعارضة وضد الشعب بطريقة سيئة للغاية، لذا بدأ السلاح يتسرب إلى المجتمع، فبمجرد بدء المعارك في مقديشو بدأ الهروب الجماعي من الثكنات العسكرية حتى صارت القواعد العسكرية للجيش والشرطة والمخابرات معرضة لهجمات الشعب، وانتقلت الأسلحة الثقيلة والخفيفة إلى الناس العاديين، فكل من كان يفكر في الانتقام وجد السلاح المطلوب، وهذا

ما ضاعف الأزمة وخلق جوًا غير آمن لكل الناس، وللمعلومية فإن السلاح كان ممنوعًا من الشعب منذ استقلال الصومال، فوجود السلاح بهذه الطريقة الفجائية كان مضرًا بالأمن العام، لأنه جديد على عامة الناس.

**دور القوى الخارجية في العنف:**

المجتمع الصومالي في إفريقيا الشرقية والجمهورية الصومالية لا ينفصلان بصورة واقعية، فمن هنا تكمن الإشكالية المحيرة في القرن الإفريقي، فرغم التقسيم قبل قرن من الزمان إلا أن هذا لم يصبح ملموسًا من الناحية العملية، فالموقع ووجود القومية الصومالية في أربع دول، والوحدة الدينية والعرقية الموحدة والترابط العشائري كل ذلك أصبح هاجس الخوف في محيطهم ومدعاة للقلق لبعض الدول في المنطقة وعلى رأسها الدولة الإثيوبية، لذا قامت بتسليح كل المعارضة الصومالية ضد حكم سياد بري، وهي التي حالت دون الاتصال والتعاون بين قوى المعارضة حتى تم إسقاط النظام بدعمها المباشر، وهذا الأمر هو أساسي من عوامل الانقسام وديمومة التناحر بين الصوماليين من أجل الضمان على تفتيت الوحدة الوطنية، ووفرت كافة أسباب استمرارية العنف.

هذه العوامل هي التي أدت إلى انتهاكات ضد الأبرياء والانتقام والثارات العشائرية الأمر الذي هدد حياة آلاف من المواطنين من عموم الشعب أو العسكريين في الأيام الأولى من الحرب الأهلية.

هنا برز دور الخيرين من المجتمع المدني في مختلف المناطق وتصدوا لهذه الأزمة بكل اقتدار وفعالية ولله الحمد، لا يسمح المقام لسرد القصص المثيرة لإنقاذ حياة المهددين في بعض مناطق البلاد، أعرف عشرات الأشخاص الذين جعلوا بيوتهم ملاذًا للخائفين من الثارات وخاصة ضباط الجيش وبعض الأعيان ممن جندوا شبابًا لحمايتهم، وكثيرًا ما كان تحدث منازعات بين هؤلاء الخيرين وبين أبناء عمومتهم الذين تورطوا في القتال وتعودوا على ارتكاب الجرائم في مرحلة الفوضى.

**وسأذكر قصة واحدة مثيرة حقا، وتستحق أن يقرأها الآخرون:**

كان شيخ عبد الله من أهل العاصمة مقديشو شخصا عاديًا في حياته مستريح البال وفجأة بدأت الحرب الأهلية وعمت الفوضى في المجتمع، وكان يشاهد على الأحداث الجارية في حيه المزدحم، ويتألم لما يحدث حوله دون أن يملك وسيلة لوقف ما يجري،

وكانت الصدمة كبيرة وعنيفة عندما علم فجأة أن واحدا من أبنائه انضم إلى العصابات المسلحة الظالمة التي تسفك دماء الأبرياء، أظلمت عليه الدنيا وحدث ما لم يكن في خلده أبدا وبعد أن فكر مليًا وجد الحيلة المناسبة واهتدى إلى الحل الأمثل والأسلوب الأنجع، وأخذ شيخ عبد الله كافة التدابير للتخلص من الكارثة التي حلت في بيته، ودعى عددًا من أبناء إخوانه الشبان وطلب منهم أن يحضروا ابنه إلى المنزل وأولم لهم وليمة وحضر الابن مع أبناء إخوته واتفق معهم أن يربطوه بعمود في البيت حتى يؤدبه بعض الأيام، فوافقوا على خطته فربطوه بقوة، فودع أبناء إخوته واحدًا بعد آخر، وفي ظلمة الليل وبدون علم من أحد من أفراد العائلة قرر شيخ عبد الله أن يحسم أمر ابنه الذي ارتكب الجرائم ضد الأبرياء من الشعب واستخدم الرصاص وهشم أرجل وأيدي الناس ظلما وعدوانا، وفي ظلمة الليل أخذ الشيخ البندقية وأطلق النار على رجلي ولده العاق حتى لا يمشي إلى ارتكاب المظالم والعنف البغيض بعد اليوم فبرصاصتين حطم عظام رجليه كما حطم عظام أرجل الأبرياء، فبهذه الطريقة القاسية غير المعتادة تصرف الشيخ مع ابنه، هذه واحدة من القصص المحزنة والمفرحة في آن واحد في مقديشو عام ١٩٩١.

وهناك قصص عديدة تستحق الكتابة، ويوجد أشخاص كثر اشتهروا في القيام بأدوار إيجابية بارزة لا تخطئها العين، ومن هؤلاء شيخ محمد معلم العالم المعروف، وشيخ آدم شيخ عمر من أشهر علماء الصوفية، ومعلم نور، وشيخ إبراهيم صولي، ومنهم عمر عداني من رجال الأعمال ومعلم نور وغيرهم، هؤلاء وأمثالهم أصبحوا في مقديشو ملاذا للمهددين من قبل العصابات الإجرامية[١].

---

(١) المعارضة الصومالية لم تكن موحدة بل كانت في كل منطقة تعيشها عشيرة واحدة متجانسة معارضة مسلحة مما جسد العشائرية في المقاومة الصومالية، ولعل الحكومة الصومالية وقتها كان لها دور ما في تلك التصرفات لأنها كانت تشعل الفتن والكراهية بين القبائل، وفي مراحلها الأخيرة أو نصف عمرها وهو عقد كامل توصف بأنها قسمت المجتمع إلى مؤيدين لها ومعارضين، وهذا الأمر كان من الأسباب الجوهرية للعنف الذي نتحدث عنه، فبعد سقوط وانهيار الحكم هاجرت أفواج من البشر من العاصمة أو من مدنها إلى المناطق التي تمثل عشيرتهم أكبر قوة فيها، وعندها أصبحت العاصمة غير العاصمة التي تجمع المجتمع وتقود الدولة، بل أصبحت مدينة أشباح تسير حكمها مجموعات مسلحة غالبيتهم من قبيلة واحدة، ومع أن أحدا لا يأمن من شرورهم أصلا ولكن قبائل بعينها كانت تصنف بجانب الرئيس سياد بري ومن بقي من أفراد تلك القبيلة التي ينتمي إليها=

ولو قارنا حالة الصومال مع كثير من الدول الإفريقية التي شهدت الحروب الأهلية في العقود الماضية لأسباب مختلفة، مثل رواندا، وبروندي، وليبيريا، وسيراليون وغيرها سنجد الفارق كبيرًا بين الصومال وبين تلك الدول، والعوامل التي ذكرناها في مقدمة هذا المحور ساهمت في تخفيف حدة المواجهات في الحرب الأهلية، وساعدت البلاد من التعافي التدريجي مما أصابها من الأحقاد في تاريخها الحديث.

### ثالثًا: المصالحة بين القبائل المتقاتلة لوقف إراقة الدماء

بعد سقوط نظام الحكم انتقلت حرب المقاومة المسلحة الموجهة أصلًا ضد الحكومة إلى حرب بين مختلف القيادات الطامحة إلى السلطة السياسية، والأمر المؤسف أن كل مجموعة من هؤلاء انحازوا إلى قبائلهم وجندوا الشباب لخوض معارك لا نهاية لها، فمن هنا تحولت الحرب إلى حرب بين القبائل فاكتوت بنيرانها. وانطلاقا من الواجبات الإنسانية والإسلامية تحركت جموع العلماء وزعماء العشائر والمجتمع المدني لاحتواء الموقف، وبذلت جهودًا مضنية لوقف المعارك التي اندلعت لتلك الأسباب الظالمة.

ومع أن جهودا جماعية وفردية عملت في هذا المجال إلا أن هناك مؤسسة نبغت في هذا المحيط وسطع نجمها، وقدمت خدمات فريدة في نوعها لأنها حولت عمليات المصالحة التي كانت تحدث بعفوية عبر مجموعات متجانسة أو أفراد مرموقين هنا وهناك، ولكن لم تكن هناك سوى مؤسسة واحدة منظمة حملت على عاتقها مسؤولية المصالحة الوطنية وتقوم بهذا الواجب التطوعي تخطيطا وتمويلا ومتابعة بدون كلل، وتلك المؤسسة العملاقة والمؤثرة هي:

### المجلس الصومالي للمصالحة:

لقد تأسس المجلس الصومالي للمصالحة عام ١٩٩٤ في مدينة مقديشو، وبما أن العاصمة الصومالية كانت مقسمة بين فصيلين متحاربين بقيادة السيد علي مهدي محمد، والجنرال محمد فارح عيديد، ويفصل بين الجانبين ما اشتهر بالخط الأخضر فقد

---

=الرئيس كان أفرادها الباقون يتعرضون لاعتداءات تصل إلى مستوى التصفيات الجسدية أحيانًا، وأخذ الممتلكات وكانت تلك ظاهرة سيئة غير متوقعة في مبدء الأمر، ولكن العقلاء في مقديشو تصدوا لهذا الشذوذ المنبوذ وكافحوا ضد العصابات وأوصلوا أغلب المظلومين إلى مناطق آمنة ومع ذلك فإن أغلب المحافظات سلمت من تلك الظاهرة.

فتح فرعان للمصالحة حتى يصبح المجلس مقبولا من الأطراف المتخاصمة، وتم فتح مقر في حي عبد العزيز الذي كان يومها يخضع لنفوذ علي مهدي محمد، وفتح المقر الآخر في حي هدن والذي كان خاضعا يومها للجنرال محمد فارح عيديد، وكلاهما في مقديشو، ثم توسع في عدد من المحافظات الجنوبية، كان تأسيسه خطوة متقدمة في سبيل وضع أول لبنة مؤسساتية للمصالحة الوطنية الشاملة، وهو أول عمل من نوعه من حيث التأثير وحجم العمليات التي قام بها، وسعة المناطق التي شملها بجهوده فترة الحرب الأهلية تلك.

فرغم أن الذين قاموا بتأسيس المجلس معروفون بانتمائهم إلى حركة الإصلاح في الصومال، بل كانوا من قياداتها البارزة وعلى رأسهم الدكتور عبد الرحمن معلم عبد الله "باديو" رئيس المجلس والدكتور إبراهيم شيخ محمد " الدسوقي" والدكتور على باشا عمر، والشيخ عبد الله علي حيلي، وأبو بكر شيخ نور وعبد القادر عبد الشكور وعبدالقادر كتب والشيخ أحمد أمين أبروني، وغيرهم إلا أن المجلس كان يمثل المجتمع المدني بكل أبعاده، لأنه استطاع تحريك القيادات المجتمعية ذات النفوذ بكل أطيافها المتنوعة، من علماء مشهورين، وزعامات سياسية، وقيادات قبلية، وأكاديميين مرموقين، وأطباء مشهورين، كما كان هناك كم هائل من الطاقة الشبابية الداعمة لمختلف الأعمال والأنشطة التي يقوم بها المجلس ومن بين مهامه المعروفة:

**وقف إطلاق النار في العاصمة الصومالية.**

وقف إطلاق النار بين المجموعات المسلحة لقد استمر بعض تلك الأعمال أكثر من ستين يومًا تولاها المجلس إشرافًا وتمويلًا ورعاية في مختلف جوانبها، كما عالج بعض القضايا الأكثر تعقيدًا مثل الاختطاف، ومعالجة مشاكل الديات، وتنظيم اللقاءات بين المتناحرين، وهو أمر في غاية الصعوبة إن لم يكن مستحيلًا أثناء الحروب أو بعد إراقة الدماء، الأمر الذي كان المجلس يبذل كل غال ورخيص للوصول إلى الهدف المنشود، وتمكن من إبطال مفعول الفتن باستخدام كافة الوسائل والتي لولاها لاندلعت معارك يهلك بسببها آلاف البشر وتورث أحقادًا وضغائن تدوم لفترة طويلة مع الأجيال القادمة.

**قصة اختطاف ابن ملاق إسحاق ودور المجلس لحل معضلتها – نموذجا:**

إن هذه القصة هي واحدة من عشرات الأحداث والمشاهد المروعة والتي كادت تشعل الحرب بين محافظتين في البلاد، وهما محافظة هيران وعاصمتها بلدوين وهي التي جاء منها مختطفو ابن الملاق، ومحافظة باي وبكول وعاصمتها بيدوا وهي التي تعيش فيها عائلة السلطان ملاق، والمحافظتان متجاورتان، ووالد الابن المختطف هو من أشهر سلاطين باي وبكول وأقواهم، وهذه العملية التي نفذتها عصابة من منطقة هيران اعتبرت كافة قبائل باي وبكول أنها إهانة موجهة ضدها ووضعت كافة مقدراتها تحت إمرة السلطان وعائلته الغاضبة، وفعلا دقت طبول الحرب وكادت تنشب معارك مدمرة بين القبائل القاطنة في المحافظتين.

وكان من حسن الحظ أننا كنا يومها في مدينة بيدوا لتأسيس المحاكم الشرعية في المحافظة، فمجرد معرفتنا الخبر تمت مناقشة القضية بين قيادات المجلس الصومالي للمصالحة، ولم يتأخر اتخاذ القرار الحاسم للتدخل في الأحداث، وسرعان ما تحركت قيادة المجلس، وتعهدت أمام المؤتمرين أنها ستطلق سراحه مهما كلف ذلك، ولقد استغرقت العملية عدة أسابيع، ولكنها تكللت بنجاح باهر ومنقطع النظير، والذي ساعدنا على النجاح الموقف البطولي الإنساني الرائع الذي اتخذه السلطان وقد كان منسجما مع سياسات المجلس حيث أعلن أنه ضد الحرب، وأنه لن يقبل الهجوم على قبيلة المختطفين مهما كلف بنا الأمر وكل ما يريده هو أن نتوصل إلى الحل المنشود وهو إطلاق سراح الابن عن طريق المفاوضات عبر المجلس الصومالي للمصالحة.

ففي مثل هذه الأحداث أصبح المجلس هو الذي يقوم بالريادة للمصالحة، وتلك كانت واحدة من عشرات العمليات الناجحة التي أنقذت الأرواح والممتلكات قبل اندلاع الحرب، أو أعادت الأمور إلى مساراتها الطبيعية، وقللت الخسائر الناجمة عن القتال وحالت دون تمددها واستمرار شرورها، إن ما كان يقوم به قد ساهم في إعادة الأمور إلى مرحلة الأمل والتوجه نحو التفاهم والتحاور ثم قبول المصالحة العامة ورفض التناحر والاحتراب المشين، كثيرة هي الإنجازات التاريخية التي تمت بجهوده المباركة وتستحق الإشادة والثناء لنربي أجيالنا القادمة على خطواتها الهادية إلى أقوم السبل وأرشدها.

## العمل الطوعي من الطوارئ إلى التنمية

منذ استقلال الصومال من الحكم الأوروبي المباشر كان المجتمع يعتمد في شئون الخدمات العامة على الدولة وما تستطيع تقديمه إلى الناس، لم تكن الدولة تملك الكثير مما تقدمه ولكن هذا كان فهم الناس لمعنى الدولة، فالخدمات الصحية والتعليمية لم يكن للشعب الصومالي أي دور يؤديه بخصوصها، وتطورت الأمور نحو الأسوء بعد سيطرة العسكر على الحكم، حيث أصبح العمل التطوعي ممنوعا إلا تحت مظلة الدولة وإدارتها المباشرة، وتربت أجيال متعاقبة على هذا الفهم المعوج والنظرة الخاطئة تجاه الدولة وواجباتها، فعندما توقفت الخدمات المحدودة أصلا بفعل التطورات الميدانية باختفاء الحكومة المركزية وقع الجميع في حيرة من أمرهم، لأنه لم تكن هناك مؤسسات مدنية وأهلية تستطيع القيام بالأدوار اللازمة لمثل هذه الحالات النادرة الحدوث في تاريخ الدول الحديثة، فكان على الجميع أن يتحرك لإنقاذ نفسه ومساعدة الآخرين بطريقته الخاصة وحسب قدراته وإمكاناته والتي تحركها الضرورات الإنسانية والمشاعر الدينية على حد سواء.

وانطلاقا من هذا الواقع المحزن فإنه كان لزامًا على الطبقة المتعلمة أن تتحرك لتغير مفهوم المجتمع حول الواجبات وما ينبغي أن يقوم به الفرد أو الجماعة، وهو الأمر الذي يحتاج إلى تفسير جديد لمفهوم الواجبات الدينية نفسها من ناحية، وتشجيع الناس على العمل التطوعي، وأن ذلك ضرورة وواجب لكي ينقذوا أنفسهم ويساهموا في بناء مستقبل مشرق لأبنائهم ومساعدة الآخرين في نهاية المطاف، والخطوة الأولى الأكثر أهمية كانت كالتالي:

### أولًا: إعادة ثقة المجتمع للاعتماد على نفسه

أعني بالثقة هنا أن يؤمن الإنسان بوجود قدرات هائلة في ذاته، ولديه إمكانات يستطيع بها تغيير حياة البائسين والتعساء إلى السعادة والراحة من الناحية المادية والمعنوية، والإيمان بهذه القدرات هي البوابة الأساسية للخروج من الأوضاع المتردية في كثير من المجتمعات البشرية، فالتقدم والتقهقر من فعل هذا الإنسان، وليس ما نشاهده اليوم من أوضاع متردية مخزية ومخجلة إلا من أنفسنا، ولقد سبق لنا ذلك في المحاور السابقة.

لقد قضيتُ شطرًا غير يسير خارج القرن الإفريقي، وعندما انهارت الصومال قررت العودة إلى البلاد لأعيش مع شعبي المنكوب طمعًا في تقديم أية مساعدة إلى المتضررين

بفعل المجانين من أبنائهم المدعومين من أعدائهم، وعندما قدمت على مقديشو كنت ألاحظ كل شيء، أسجل تصرفات البشر وحجم الرصاص التي أصابت أعمدة الشوارع والمنازل المجاورة، وكنت أحاول جاهدًا للوقوف على تفكير مدرسي المدارس وأساتذة الجامعة الوطنية والمعاهد العليا، وكنت أوجه إليهم بعض الأسئلة حول الأوضاع مثل: لماذا لا تعملون متطوعين لتعليم أبناء الوطن بعد أن توقفت كافة المدارس وظل الشباب والأطفال في قارعة الطريق بدون مستقبل، وبعد أن انضم بعضهم إلى المليشيات المسلحة؟

فكلهم كانوا مستغربين من مثل هذا السؤال؟ وتأتي الإجابة منهم بصورة عفوية، ننظر عودة الحكومة وفتح المدارس، والإجابة تنطلق من أرضية عدم وجود راتب شهري لهم ببساطة، لأن الكل متعود على ذلك، وليس في أذهانهم أن يتحركوا باختيارهم، ويعملوا متطوعين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في هذا المجتمع المتهالك.

عنما ننظر إلى الأمور بعمق وروية فستظهر الأسباب جلية، فالحكومات الفاشلة وغير العملية التي لا تعرف الجدية والإبداع فإنها تربي أبناء الوطن على ما هي عليه، لأنها القدوة التي تتأثر بها الأجيال المتعاقبة، فالناشئة تتربى بواسطة القدوات، والقدوات يؤثرون في نفسية الأجيال المتتالية، فالدولة الصومالية لم تسمح للمجتمع حرية العمل والتفكير، بل حاربت كافة الحريات بكل قسوة وعناد حتى وصل الأمر إلى تجريم كل من يحاول أن يعمل عملا خارج حدود الرسميات، فعندها يبدؤ وينتهي العمل، وعلى هذا تربى الجميع ولم يشاهدوا غير ذلك النمط.

إلى جانب ذلك حاربت الدولة الصومالية كلما من شأنه أن يؤدي إلى بروز تجمعات سياسية أو جمعيات خيرية أو مؤسسات بحثية أو أي أمر يمكن أن ينتج عنه عمل خارج دوائر الحكومة والمرافق الرسمية، إذًا تربي المجتمع على الفردية لا على المؤسساتية، فالفرد بطبعه ضعيف وخائف من المجازفات والمغامرات، بينما التجمعات والمنظمات والاتحادات أيًا كان نوعها تمثل القوة والثقة لدى الأفراد، ولذا الأنظمة الدكتاتورية تحرم مجتمعاتها من التفكير السليم، فإما أن يستسلم المجتمع لهذه الدولة القمعية وينقاد لها، وإما أن يثور ضدها ويستخدم العنف، لأنه هو الطريق الوحيد للتنفيس والعمل المضاد، وليس هناك حل وسط كما هو في الدول الديموقراطية التي تتوفر للشعوب الحريات الأساسية، فالمعارضة تصوب وتنتقد وتتظاهر تحت حماية القوانين الوطنية.

إن خلق الثقة في النفوس ليس أمرًا هينًا، لأنه يحتاج إلى جهود تربوية مباشرة وغير مباشرة، وتتطلب وقتًا وتعاونًا بين مجموعات بشرية متجانسة ومؤثرة في المجتمع.

في الأعم الأغلب يستغرب الإنسان أي عمل جديد فيه قدر معين من الإبداع والحداثة، وعادة ما يكره ويعادي ما يجهله، ويحاربه أحيانًا كما قيل قديمًا" الإنسان عدو لما جهل" ولكنه على مر الأيام يتقبل ويألف بصورة تدريجية، فعندما تحركت بعض الجمعيات التي أسسها المجتمع المدني لتقدم بعض المساعدات العاجلة كانت مثيرة للغاية، لأن في ذهن الناس وقتها أن الدولة وحدها هي الجهة القادرة على فعل مثل هذه الأمور وتقديم مثل هذه المساعدات للمحتاجين، ولكن التطورات القوية والفورية للمجتمع المدني وبروز الأنشطة التطوعية التي كانت تتم عبر الجمعيات الخيرية والأفراد المتطوعين الذين لا يتلقون أي رواتب أو عوض من أي جهة هي التي غيرت نظرة الناس تجاه تلك الأعمال التطوعية، وشاهد الجميع قدرة المجتمع على مساعدة نفسه عندما تتوفر لديه الحريات الأساسية.

انخرطت في تلك الأعمال التطوعية تلك أعداد كبيرة من المتعلمين والشباب والعلماء من الرجال والنساء من مختلف الأعمار، وسرعان ما تغيرت الصورة النمطية للحياة، ومما ساعدنا على ذلك الفعالية التي أصبحت ظاهرة للعيان والناتجة عن جهود المؤسسات القوية التي أسستها الحركات الإسلامية، والتي كانت حركات سرية ممنوعة من قبل الدولة الاشتراكية العسكرية وكان أتباعها مطاردين وهي الجهة الوحيدة المنظمة وقت انهيار الدولة، ورغم ما كانت تلاقيه من العنت والأذى والتضييق وإصدار أحكام ظالمة ضد قياداتها أحيانًا كثيرة إلا أن وجودها هو الذي أنقذ الكثيرين من الضياع لكونها قوة اجتماعية منظمة وتحت لوائها مئات الأشخاص وغالبهم من المتعلمين الواعين.

### ثانيًا: إعادة تنشيط القطاع التعليمي بصورة جزئية

توقف قطار التعليم وأغلقت أبواب المدارس عنوة وتعطلت الجامعة الوطنية والمعاهد العليا كغيرها من مؤسسات الدولة مثل الجيش والبنوك والمصانع، فأصبح أكثر من ثلاثة ملايين في سن التعليم في الشوارع أو انضموا إلى المليشيات المتناحرة أو خططوا للهجرة والنزوح، وكان هذا الأمر قمة الضياع والظلامية المخيفة لأنه يعبر عن مستقبل قاتم ومجهول لبلادنا وأبنائنا، تزداد الأعداد تباعا في كل شهر بسبب المواليد الجدد الذين

ينضافون إلى مواكب الجهل وتصبح الأرقام مضاعفة بعد سنوات قليلة، ويتحول الجميع إلى وقود للحرب بطريقة أو بأخرى.

وفعلا كانت تلك الحالة بمثابة الكابوس الذي أرقنا وشوه صفو حياتنا، في كل شارع في الصومال تشاهد العشرات بل المئات يلعبون صباح مساء، يتعاركون بالأيدي والأرجل أحيانًا، وسرعان ما خططوا لصناعة السلاح من الأخشاب والمواد المتوفرة لديهم حتى نجحوا في إنتاج سلاح حقيقي استخدموه ضد بعضهم البعض فأصيبوا بجراحات عميقة بفعل السلاح الذي أنتجوه بأيديهم، وأحيانًا يتعرضون للرصاص الحي من قبل المتقاتلين بصورة عشوائية فيموت البعض يوميًا، ويصاب أكثرهم بجروح تجعلهم طرحى الفراش في البيوت، كانوا يتلقون الدروس من الشوارع، ويتقنون معرفة أنواع الأسلحة ويفرقون بين أنواع البنادق من خلال أصوات المتفجرات، فأصبحوا خبراء في الحروب وأنواع الأسلحة والمتفجرات والمدافع وغير ذلك.

ولا ننسى أن آلافا من أبناء الصومال نزحوا من قراهم ومدنهم بضغط الحروب والمجاعة، وشاهد الكثيرون قتل آبائهم وأمهاتهم أمام أعينهم، مما خلق التوترات المستمرة والأمراض النفسية الخطيرة، والأخطر أن المجاعة ضربت مناطق واسعة في جنوب البلاد بسبب توقف الزراعة مدة سنة وأكثر، فالأطفال أكثر المتضررين من هذا النقص الغذائي الشديد والأمراض المتفشية.

في هذه الظروف تحركنا بعد دراسات ومشاورات جادة مع عدد من المهتمين بالقضايا التعليمية وسلامة الناشئة، ومن بينها جمعيات محلية وبعض أساتذة الجامعات، ودلت كافة الحوارات التي دارت بيننا وبين الآباء والأمهات أنه لا يمكن أن يقتنعوا بسهولة بجدوى ما نقوم به، وبالتالي فقد كانوا متشككين في جدوى أي إمكانات لتنشيط التعليم وإعادة فتح المدارس لتعليم أبنائهم بجهود شعبية مجردة، يقوم بها أفراد لا يمتلكون الطاقة اللازمة لتنفيذ هذه المهمة الصعبة.

والشعب الصومال كان يعتقد أن هذا الأمر لا يمكن بدون جهد الدولة، وهم ينتظرون تشكيل الحكومة وعودة أدوارها والتعليم في المقدمة، ومع أن هذا كان أمرًا غير معلوم حدوثه قريبا، ولم نكن نعرف كم يستغرق ذلك من الوقت، وعمر الناشئة يمضي

بالسرعة الزمنية المعروفة، ولا يمكن وقف ذلك، فإن التقاليد القديمة والعادات الراسخة هي التي تهيمن على عقلية المجتمع بسبب ما تعودوا عليه منذ استقلال الدولة الصومالية، وهي النظرة الخاطئة للعلاقة بين المجتمع والدولة التي ضلت طريقها منذ البداية وتحتاج إلى التصحيح والعلاج الجذري.

**بدء العملية التعليمية:**

بدأت الجوانب العملية بسهولة ويسر، لقد شرع المجتمع المدني ببذل جهود كبيرة في المجال التعليمي لمساعدة الناشئة، كانت في البداية برامج مستغربة لدى عامة الناس، ولكن النظرة تغيرت بعد فتح المدارس الابتدائية الأولى بصورة تدريجية بطبيعة الحال، وعندما رأينا الفتور وعدم الحماسة اللازمة عند افتتاح أولى المدارس في مقديشو حيث امتنع أغلب الناس عن إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس اتخذنا بعض التدابير السهلة ولله الحمد مثل:

فرض زي مدرسي جديد حتى يعرف المجتمع بأن تغيرات هامة تحدث في الساحة التعليمية، ولقد كان لمثل هذا العمل البسيط المفعول السحري، حيث خلق شعورًا قويًا لدى الأطفال ورغبة في الالتحاق بالمدارس الجديدة، لقد كانت عملية مشوقة لصغار السن الذين لم يسبق لهم وأن شاهدوا مثل تلك المظاهر، لأنهم لم يدخلوا المدارس في حياتهم بسبب الفوضى والحرب التي عطلت التعليم في بداية أعمارهم، وشكلت تلك الخطوة عامل ضغط كبير على أولياء الأمور.

**استئجار غرف**

لقد تم استئجار بعض الغرف التي تقع في المناطق الآمنة من كل حي حتى يطمئن أهلها لسلامة أبنائهم، تحمل اسم المدرسة وتعلو على الواجهة لوحة بارزة، وطبعًا يتم تعيين مدراء محترمين للمدارس، ومعروفين من قبل السكان، ولديهم خبرة سابقة في الشئون التعليمية ويتولون الشئون الإدارية والتعليمية وكان أغلبهم متطوعين.

**إلحاق أطفالنا من البنين والبنات في المدارس التي نفتحها**

أن يكون الأطفال من أصلابنا في هذه المدارس المتواضعة وفي هذه الغرف المظلمة كان هذا العامل أكثر أهمية من الناحية النفسية، لأن كثيرًا من الناس كانوا يشكون في البداية أن المثقفين والأساتذة يرسلون أولادهم إلى خارج البلد، ولعل الأمر الذي سبب

تلك النظرة هو إرسال المسؤولين الحكوميين أولادهم إلى الخارج، كما أن أمراء الحرب يرسلون أبناءهم إلى الخارج للتعليم ويقاتلون للسيطرة على الحكم، فعندما رأى الناس أن أبناءنا الذين هم من أصلابنا يتعلمون في هذه المدارس المتواضعة وجدوا الثقة الكاملة بأننا صادقون وجادون في العملية التعليمية.

## فرض رسوم دراسية متواضعة على التلاميذ

كانت أية رسوم دراسية تفرض على الطلاب بمثابة مغامرة لا يمكن تصديق نجاحها في مبدء الأمر. كانت الرسوم قليلة للغاية وتتناسب والمستويات الاقتصادية المتدنية، وكنا نريد من ذلك فقط أن يعتاد المجتمع على تحمل التكاليف التعليمية في المستقبل حسب قدراتهم المالية، لأن النسبة المئوية التي يدفعونها لم تكن تغطي أكثر من ٢٠٪ من التكاليف الإجمالية في أحسن مراحلها.

## توفير بعض الخدمات

كانت من بين السياسات الحميدة توفير بعض المساعدات الضرورية للتلامذة الأكثر فقرًا تشجيعًا لهم لكي يستمروا على مواصلة التعليم النظامي مثل الإعفاءات من الرسوم بشكل كامل أو جزئي، وتقديم الأغذية بالتعاون مع بعض الهيئات الخيرية أوالدولية.

من خلال هذه الطرق افتتح عدد من المدارس الابتدائية والمجمعات التعليمية تباعًا، والحظ الأوفر منها كان في المدن الكبيرة، ثم المدن المتوسطة، ثم القرى الصغيرة. إن المشاريع التعليمية وانتشارها لم تتم بين عشية وضحاها، بل استغرقت عقدًا من الزمان حتى انتقلت من مشاريع تحملها فئة قليلة من أفراد المجتمع إلى مشاريع تتلقى القبول الحسن والترحاب الواسع من المجتمع برمته، ثم تحولت إلى استراتيجيات وطنية يتنافس فيها المواطنون بقوة، ووصل الحماس ذروته في بداية العقد الثاني منذ انهيار الدولة الصومالية.

والجدير بالذكر أن التحولات الرائعة في القطاع التعليمي والثقافي واجهت منذ بدايتها مقاومة منظمة من قبل أمراء الحرب وهم قادة الفصائل المسلحة والمعروفة في المجتمع الصومالي (بالجبهات) باللغة الصومالية ( JABAHAADKA)، تنبع مقاومتهم من الإدراك الجيد أن التوسع الحالي للتعليم سيؤدي حتمًا إلى فقدان قاعدتهم الشعبية المبنية

على الفئة الشابة العاطلة عن العمل والفاقدة للفرص التعليمية، وانخراط تلك الفئة في السلك التعليمي سيحرمهم من القوة الحقيقية، ولذلك كانوا يعلنون دعاية ضخمة ضد المدارس والقائمين عليها، وكان بعضهم يقول إن هذه المدارس توقف جهادهم وتعطل طموحاتهم للوصول إلى سدة الحكم، مع أن الحرب تدور بين الإخوة الأشقاء فقط لا بين الأعداء والغزاة من الخارج، كم مرة تعرضت المدارس التي فتحناها للنهب والتدمير بصورة متعمدة لأنهم يهيجون عوام الناس ضدها باسم المنافع المادية المباشرة ويروجون دعاية مفادها أنها مملوكة من أعدائكم أو غير ذلك من الأقاويل التي تساعدهم على الكراهية البغيضة.

# المبحث الخامس

# تأسيس الدولة عبر التطوع السلمي

## خطوة رائدة في تأسيس المجتمع المدني في مقديشو

لقد فعلت الحرب الأهلية فعلها في الكيان الصومالي، كانت تجربة قاسية بمرور الأيام، تتالت الشهور والسنون سراعًا بدون توقف وكأنها كالبرق الخاطف، فمنذ عام ١٩٩١ تتابعت مؤتمرات المصالحة الصومالية في مختلف العواصم الإقليمية والدولية، ولكن الفشل كان السمة البارزة، ففي كل مرة فشلت المصالحة كانت الحروب تتجدد حتى تحولت إلى مواسم معتادة ينتظرها المجتمع، وكأنّ ذلك مخطط بصورة منهجية. كان أمراء الحرب وقتها الحكام الفعليين الذين لا يهمهم شيء غير الحرب التي تدر عليهم الأرباح.

أما القوى الدولية فكانت تتعامل مع أمراء الحرب بلطافة واحترام، وتشكلت معادلة المصالحات الفاشلة وتجدد القتال وبعدها يزداد نفوذ العصابات والمليشيات المسلحة على إثرها، كان هذا الأمر يتطلب حلولًا عميقة تضع لهذه الظاهرة حدًّا لبدء مرحلة جديدة من إعادة بناء الصومال من جديد، ورغم المحاولات المتكررة من أجل العثور على حل المعضلة الصومالية إلا أن هناك أمورًا تستحق أن يشار إليها هنا بالبنان لأهميتها القصوى.

في هذا السياق بإمكاننا أن نذكر بإيجاز شديد حدثين تاريخيين كان لهما ما بعدهما، وتركا في الساحة الصومالية آثارًا واضحة المعالم يصعب محوها من صفحات التاريخ وحددا معالم مستقبلنا ومستقبل أبنائنا، لكونهما غيرا معالم الأمور ومجريات سير الأحداث رأسا على عقب في فترة شديدة التعقيد وكثيرة المنعرجات، لأنهما حاصرا أمراء الحرب وقاما بإبعادهم بصورة أو بأخرى من المشهد السياسي بدون استخدام السلاح ضدهم أو اتباع أساليبهم الممقوتة المبنية على العنف والعمالة لأعداء الوطن في الداخل والخارج حتى تقلص نفوذهم إلى حد كبير. وبجانب ذلك؛ فقد تعاظم شأن المجتمع المدني من الناحية السياسية بجانب كون مؤسساته المتنوعة تقوم بأغلب الخدمات العامة المقدمة إلى المجتمع، وخاصة في المجالات الصحية والتعليمية والإغاثية، ومساعدة ذوي الاحتياجات الخاصة وغير ذلك من مجالات الحياة.

### الحدث الأول: مصالحة العاصمة

لقد نظم المجلس الصومالي للمصالحة مؤتمر مصالحة العاصمة وبمشاركة المجتمع المدني بفعالية كبيرة. كانت هذه الخطوة مغامرة محسوبة العواقب خططت بعناية ودقة وباستراتيجية تهدف إلى خلق بيئة جديدة تكون نقطة انطلاقة هامة إلى التحاور الجاد، ولجلوس قيادات المجتمع وزعماء العشائر في العاصمة والمنطقة المحيطة بها على مائدة المفاوضات، وتلك الظاهرة كانت غائبة منذ انهيار الدولة واندلاع الحرب الأهلية، وجلسوا لأول مرة جنبًا إلى جنب للتحدث بشأن مستقبل مشترك ووضع تصورات أولية عن السلام الدائم والعيش المشترك البعيد عن العنف والتناحر، ثم الانتقال إلى مرحلة التفاوض للوصول إلى تقاسم السلطة بين القوى المجتمعية، وخاصة بين القبائل التي استعملها أمراء الحرب وقاتلوا باسمها، لم يرد المجلس الصومالي للمصالحة والقوى المساندة له إشراك الفصائل المسلحة لقناعته بعدم ترحيبهم بمثل هذا المشروع الذي يهدف إلى الخروج من عالمهم الظلامي إلى ساحة أكثر رحابة يسودها السلام والانفتاح على الآخر، أما مشاركتهم في المؤتمر كأفراد فلم يرفض أحد ذلك، بل كان الجميع يرحب بالأمر بدون استصحاب الأحداث الدموية أو الخوض في جرائمهم فهذا لم يكن ملائما لذلك.

لقد كلفت الحرب الأهلية أهل هذه المنطقة الكثير والضحايا بعشرات الآلاف من المقاتلين والأبرياء لأنها كانت في ذلك الوقت مستمرة ما يقرب من عشر سنوات، لا غالب فيها انتصر بشكل تام وجلي على الآخرين، ولم تحقق أية جهة أهدافًا واضحة المعالم قاتلت من أجل تحقيقها، لأن المقاتلين ببساطة لم يكونوا يعلمون لماذا يقاتلون وبأي سبب يموتون في هذه الملاحم. فقط يجدون أنهم يتسلمون البنادق من أمراء الحرب الذين يعرفون أنهم من أقاربهم، ويقال لهم دافعوا عن أنفسكم ضد أعدائكم، كان العدو بالأمس القريب هو الدولة الصومالية، وتحول فجأة إلى قبيلة مجاورة لقبيلتهم، ثم إلى فخذ من أفخاذ عشيرتهم، فبعد ما يقارب عقدين من الزمان قاتل الجميع ضد الجميع في مختلف محافظات الصومال، تعب الكل ورفعوا رأسهم ليشاهدوا حجم الخسائر، وفتحوا آذانهم التي صموها ليسمعوا صوت العقلاء الذي رفضوه بكل عناد، لقد أصيب عدد من الآباء والأمهات بنوع من الهلوسة والجنون عندما فقدوا أغلب أبنائهم، أعرف رجلا كان لديه

ثمانية من الأبناء الذكور فقتل في الحرب الأهلية سبعة منهم، وفقد توازنه العقلي حتى ربط الابن الثامن في المنزل ليراه دائما، فهي من القصص المحزنة فأرجو أن تكون عبرة لمثل هؤلاء ليصحح من بقي على قيد الحياة تصرفاتهم ويغيروا أنماط اتخاذ قراراتهم.

تولى المجلس الصومالي للمصالحة هذه العملية المعقدة واستمرت جلساته ومناقشاته طوال عام ١٩٩٩. ولقد تعاون مع كافة القوى المدنية والطبقة المثقفة وزعماء القبائل في المنطقة، واقتنع الجميع بقيمة هذا المشروع، واتفقوا على وضع حد للخلافات السابقة، وأصبح التركيز منصبا على تحديد معايير للتفاهم المشترك من أجل التقاسم على السلطة السياسية، بحيث يتفق على المحاصصة العشائرية لمعرفة كل قبيلة حصتها عند وصول مرحلة بناء الدولة. وكان الهدف الأساسي من ذلك هو الخروج من عنق الزجاجة والأزمة المستفحلة في العقد الماضي، ولم يكن أمام الجميع غير ذلك بسبب عدم وجود أحزاب سياسية أو أية آليات أخرى للوصول إلى الحل السلمي في مثل تلك الظروف القاسية والتي تستوجب البحث عن البديل والخروج من محنة الحروب، ووضع حد لكوارثها.

كان هذا التفاهم هو البوابة الأساسية للخروج من المأزق الحرج الذي خلقته الحرب الأهلية والفراغ السياسي، وأعاد الثقة بين الناس ووضع حدًا للكراهية، وأضعف فعلًا عنجهية أمراء الحرب ومنهجية الاعتماد على إشعال الفتن بين الإخوة، وأصبح صوتهم لأول مرة خافتًا وصوت القوى المدنية فاعلًا ومؤثرًا، وبدأ العالم الخارجي يصغي إلى المبادرات الشعبية البعيدة عن العصابات المسلحة.

بالإضافة إلى ما سبق فإن القوى الخارجية الداعمة لأمراء الحرب خسرت بعض نفوذها في الساحة الصومالية بسبب تنامي نفوذ المجتمع المدني، وخاصة الدولة الإثيوبية وبعض القوى العالمية التي عاشت في ظل أمراء الحرب بدون أن تكشف عن وجهها القبيح لأسباب غير معلنة، ورغم كل العقبات التي واجهت الصوماليين منذ انهيار الحكم المركزي إلا أن المجتمع المدني واصل مشواره بصبر وثبات ومارس حقه الطبيعي في الحياة.

ومع الظروف المستجدة إقليميًا ودوليًا فإن أمراء الحرب الذين قادوا الكفاح المسلح ضد نظام الحكم بقيادة محمد سياد بري، والذين قادوا الحرب الأهلية واستخدموا

الأسلحة الفتاكة ضد الشعب لم يستطيعوا التعامل مع القوى المختلفة في الساحة الإقليمية والدولية بكفاءة وتوازن، بل تعاملوا معها بكل سذاجة، وكانوا بمثابة آلة بيد تلك القوى المسلحة، ولذا فإنهم أدخلوا البلاد في أتون الحروب القذرة بالوكالة تارة، واتباع أساليب الاستفزاز الممهدة للتدخل الخارجي في البلاد تارة أخرى.

وتلك كانت الأخطاء التاريخية الدائمة المعروفة للحكومات الصومالية المتعاقبة، حيث كانت متعودة على دخول المغامرات الكبيرة غير محسوبة العواقب، والناتجة عن غياب الرؤية السياسة الناضجة لدى الدولة الصومالية منذ استقلالها في تعاملها مع القوى العظمى في أيام الحرب الباردة أو الحروب الساخنة، وكانت من الأمور المؤسفة حقًا نقل الصراعات الإقليمية إلى التراب الصومالي مثل الصراع الإثيوبي الإريتري، والصراع الدولي ضد الحركات المتشددة مثل القاعدة وغيرها، وهي سياسات غير حكيمة استفادت منها القوى الخارجية وكافة الدول التي تطمع الهيمنة على الموقع الصومالي وثرواته.

ومع كل تلك التطورات والأحداث المتلاحقة التي زادت التعقيدات بطريقة غير مسبوقة إلا أن المجتمع المدني، وعلى رأسه حركة الإصلاح في الصومال ومؤسساتها العاملة في الساحة ما فتئ يواصل نضاله القوي، فلم ييأس من تحقيق حلمه لإعادة بناء دولته مرة أخرى بالتعاون مع من يمكن أن يقدم إلى المجتمع الصومالي أي دعم ومساندة لتصحيح المسيرة الوطنية.

كانت المناقشات حول مستقبل البلاد آنذاك حامية الوطيس في المجالس المركزية لحركة الإصلاح في الصومال، مثل مجلس الشورى والمكتب التنفيذي، والمجالس الإقليمية، والمجلس الصومالي للمصالحة، ومركز القرن الإفريقي للإعلام والدراسات وغير ذلك.

**( هاجس) وغيرها من مختلف مؤسساتها الأخرى في الأعوام ١٩٥٥-١٩٩٩:**

وكانت تلك الحوارات الساخنة مستمرة من أجل البحث عن الحلول المناسبة للمعضلة الوطنية انطلاقا من الحرص الوطني على معالجة الإخفاقات المشينة والمتتالية لمؤتمرات المصالحة الصومالية التي تجاوزت عشر محاولات عقدت في مختلف عواصم العالم، وبدون استشارة الصوماليين في الأعم الأغلب، ولم تكن الأسباب واضحة لغموض مبرراتها، ولكننا بعد دراسة الأوضاع من زوايا عديدة أدركنا ما يلي:

**أولًا**: إن القضية الوطنية الصومالية خرجت من أيدي أبنائها الأوفياء فأصبحت خارج إرادتهم، وكل صيغ للمصالحة الصومالية تتم بدونهم، أو رغمًا على أنوفهم، وإن حضروا في تلك المؤتمرات فإن أدوارهم لا تتعدى الأمور الشكلية المبنية على المجاملات السطحية كسبًا للدعاية المؤدية إلى جمع المساعدات من العالم باسم المصالحة وبحجة إخماد حريق الصومال وتحقيق المصالحة.

**ثانيًا**: إن القوى الدولية في شأن القضية الصومالية بدأت تتعامل داخليًا مع القتلة وأمراء الحرب المأجورين الذين سفكوا دماء الأبرياء، وراحت ضحية لسياساتهم مئات الآلاف من شعبنا المنكوب، ويتعامل مع هؤلاء بكل أريحية، وكأنهم أبطال يستحقون الميداليات التشريفية، ولم توجه الهيئات الحقوقية المشهورة إليهم أية إدانة حتى هذه اللحظة، بل كوفئوا بالتحالف معهم وتسميتهم بأنصار الديموقراطية والسلام وباحتفاء دائم في العواصم العالمية في مختلف المناسبات.

**ثالثًا**: إن القوى الدولية في السياسة الخارجية تجاه الصومال قد تجاهلت وتركت للدول الإفريقية وعلى رأسها الدولة الأثيوبية لتلعب أغلب الأدوار المؤثرة، من حيث السلام والحرب والسياسة والمصالحة، وكانت تشرف على أغلب مؤتمرات المصالحة الوطنية، وحاولت مرات عديدة وضع الدستور للدولة الصومالية، وما مؤتمر سودري عنا ببعيد، مع العلم أن العلاقات التاريخية بين الدولتين أو المجتمعين مشهورة بالحروب الطاحنة والتوترات، وخاصة في مرحلة الحرب الباردة والتي حدثت المواجهات العسكرية بين الطرفين والتي أدت إلى تدخل حلف وارسو للدفاع عن إثيوبيا.

عندما رأينا تلك المواقف في السياسات الدولية والإقليمية وفشل حوالي ١٢ مبادرة أو مؤتمر للمصالحة باسم الصومال، وتبين لنا أن ذلك كان مقصودًا ليصل المجتمع الصومالي إلى مرحلة اليأس والقنوط ليستسلم للواقع المرير؛ قررنا – كجزء من المجتمع المدني – أن نبحث عن حلول تعيد الدولة الصومالية إلى الحياة مرة أخرى، وأن نرفض سياسة التيئيس التي كانت القوى الدولية وبعض القوى الإقليمية تعمل على ديمومتها، وأن نبذل كل الجهود الممكنة لتحقيق آمالنا وبناء مستقبل بلادنا بعيدين عن القوى الساعية لعرقلة المسيرة الوطنية، والراغبة في إدارة الحرب والفوضى عبر التعاون الوثيق مع أمراء الحرب وتزويدهم بالسلاح والرصاص دومًا، والتخلص من الذين يحاولون تصويب

الأمور أو رفض الأوامر والتوجيهات، والتفريق فيما بينهم وإخراجهم من الساحة فور استبدالهم بمن هم قريبون من تلك القوى.

ومع هذه الحالة التي آل إليها المجتمع مهددًا من الأطراف الخارجية من ناحية، والسفهاء من أبنائنا في الداخل من ناحية أخرى، ومع كل تلك الظروف القاسية؛ فإن المجتمع الصومالي بات مهيئا لقبول المصالحة والدخول في مشروع السلام والعودة إلى السلم المجتمعي بإجماع شبه تام، وخاصة من قبل أهالي مقديشو الذين كانت حربهم الأهلية هي المعضلة الكبرى في السلام والاستقرار، وإدراكا منهم لخطورة الوضع وضرورة إيجاد حل مناسب للمشكلة المؤدية إلى تفكك الدولة والبنية الاجتماعية على حد سواء.

وفي هذه الأجواء التي تتجاذبها السياسات المعوجة للقوى الدولية والإقليمية والفوضى المستمرة، كان ثمة أمل كبير وعزيمة صادقة على التوجه نحو ترميم الأوضاع وإعادة دور الدولة الصومالية من جديد لدى طائفة كبيرة من عقلاء الصومال. وفي تلك المرحلة المضطربة بين اليأس والرجاء جاءت مبادرة رئيس جمهورية جيبوتي السيد إسماعيل عمر جيلي كالضوء الذي بدد الظلمات حول القضية الصومالية، والتقطها المجتمع الصومالي بسرعة مذهلة وجاءت على قدر من الله.

**الحدث الثاني: مصالحة عرتا**

قبل مشروع عرتا كانت جمهورية جيبوتي أول دولة استضافت المصالحة الصومالية قبل غيرها، إدراكًا منها بأهمية الاستقرار في الصومال من ناحية، والعلاقة الوثيقة بين الدولتين من ناحية أخرى، ولقد عقدت في منتصف عام ١٩٩١ في جيبوتي مؤتمر المصالحة بين أطراف الصراع بغرض تهدئة الأوضاع وإعادة النظام والتخلص من الفوضى العارمة التي ضربت البلاد منذ اندلاع الحرب الأهلية في الثمانينيات من القرن الماضي، وتم التوافق على تشكيل حكومة مؤقتة وانتخاب علي مهذي محمد رئيسًا مؤقتًا للبلاد، ولكن تلك المصالحة تعثرت بسرعة بسبب غياب أطراف مهمة في الصراع الصومالي المحتدم، ومن هؤلاء المعارضة الشمالية وبعض القوى المعارضة في الجنوب وعلى رأسها الجنرال محمد فارح عيديد الذي عارض العملية برمتها وبالتالي رفض نتائجها إجمالا.

وفي عام ١٩٩٩ قد أعلن فخامة رئيس جمهورية جيبوتي السيد إسماعيل عمر جيلي مبادرة سياسية للمصالحة بين الفرقاء الصوماليين، وهي التي اشتهرت فيما بعد "بمصالحة عرتا"(١). فقد أعلن الرئيس هذه المبادرة لدى الأمم المتحدة في دورتها عام ١٩٩٩ وتضمنت العناصر الأساسية للمصالحة بين الأطراف المتصارعة في الصومال، من بينها:

**أولًا**: مشاركة المجتمع المدني والفصائل المسلحة وزعماء القبائل في هذه المصالحة حتى لا يبقى أحد خارج العملية، وكانت تلك فكرة ذكية ساعدت على تهدئة خواطر رؤساء الفصائل المسلحة.

**ثانيًا**: تحويل الفصائل المسلحة إلى أحزاب سياسية في المستقبل حتى يستشعروا أهميتهم ويضمنوا المشاركة السياسية كغيرهم من أفراد المجتمع الصومالي في المستقبل.

**ثالثًا**: وضع دستور مؤقت للبلاد يعتمد عليه في المرحلة الانتقالية القادمة.

**رابعا**: اختيار رئيس جمهورية للدولة لمدة ثلاث سنوات، وتشكيل حكومة مؤقتة استنادا على الدستور الجديد المؤقت.

لقد قال الرئيس عند افتتاح المؤتمر في منتجع عرتا إن على جمهورية جيبوتي استضافة مؤتمر المصالحة وتحمل تكاليف الضيوف، وعلى الصوماليين اتخاذ القرارات التي يرونها مناسبة، وعلى القوى الدولية والإقليمية أن تتعهد على تقديم الأموال الضرورية من أجل تنفيذ ما اتفقت عليه الأطراف الصومالية. ولقد وجد الرئيس الدعم والتأييد المعنوي من الأمم المتحدة والجامعة العربية ومن الدول الإقليمية والدول الخليجية وأغلب الدول العربية، بالإضافة إلى ذلك فإن المجتمع المدني الصومالي وكثيرًا من زعماء القبائل في مختلف المحافظات أعلنوا مواقفهم الرسمية والإيجابية وتأييدهم المطلق للمبادة الجيبوتية، وبهذا ضمن الرئيس ما كان يطمح إلى تحقيقه في المرحلة الأولى من مشروعه بالسرعة المطلوبة، ولم يواجه أية معارضة محلية معتبرة من القبائل المؤثرة أو الدول الإقليمية والمحيط الدولي وخاصة الدول الغربية.

---

(١) منطقة عرتا هي منتجع جبلي يطل على مدينة جيبوتي من الجهة الغربية، وعلاقة عرتا بالمصالحة الصومالية سببها أنها الموقع الذي تمت فيه عملية المصالحة، وأقامت فيها أغلب الوفود مدة تقرب من ستة أشهر وبنيت خيمة كبيرة تمت فيها جلسات المصالحة وفيها اختتمت عملية المصالحة وأعلنت النتائج عن إعادة الدولة الصومالية مرة أخرى.

كان الرئيس الجيبوتي يحتاج إلى التعاون الوثيق مع مؤسسات المجتمع المدني الصومالي للتعامل مع مختلف الشرائح الاجتماعية وفهم عميق لمجمل القضايا السياسية المعقدة عن كثب ودراية، ولم يكن هناك أنسب من المجلس الصومالي للمصالحة المدعوم من حركة الإصلاح في الصومال، والتي كانت على ذروة نشاطها وحيويتها آنذاك، وهي التي كانت على قمة أنشطة المجتمع المدني يومها وأكثرها تأثيرًا في خدمة المجتمع، وأصبحوا خير عون لجمهورية جيبوتي.

وكان من توفيق الله تعالى أن سافر إلى جمهورية جيبوتي فور إعلان المبادرة كل من الدكتور عبد الرحمن معلم عبد الله باديو رئيس المجلس الصومالي للمصالحة، والدكتور إبراهيم شيخ محمد الدسوقي مدير مركز القرن الإفريقي للإعلام والدراسات المعروف اختصارا (HACJS)، وكلا الرجلين في مركز قيادة الحركة ومجالسها التنفيذية وقتئذ مع كونهما من أبرز قيادات المجتمع المدني الصومالي، وبتوفيق من الله تعالى تيسرت الأمور وتم لقاؤهما مع رئيس جمهورية جيبوتي، ودار الحوار بين الطرفين، من هنا عرض الرئيس عليهما تصوراته ورؤيته عن المبادرة، ولقد عين الرئيس الدكتور عبد الرحمن مستشاره للقضايا الدستورية والقانونية، كما أسند إلى الدكتور دسوقي بعض المهام في القضايا الاجتماعية في الصومال، وتمت هذه العملية بين الطرفين بأسلوب هادئ وفعال كرموز من المجتمع المدني، وبجانب هذه الترتيبات التي جرت بين الرئيس وبين رموز حركة الإصلاح كان الرئيس واعيًا لتعقيدات القضية حيث استطاع التعامل مع مختلف القيادات الاجتماعية والرموز العشائرية والسياسيين البارزين ومن قبل المبادرة من أمراء الحرب.

لقد حدث تكامل بين المجتمع المدني الصومالي وبين القيادة العليا في جيبوتي وكانت خطوة ذكية من الرئيس أن اهتدى إلى هذا المشروع الذي أنقذ الصومال من الضياع، وكان ذروة في الحكمة والحنكة السياسية عندما قرر التعامل مع القوى المؤثرة في الصومال بدون إهمال حملة السلاح أو أي جهة من الجهات. لقد كان الرئيس موفقًا في تعامله مع قيادات مشهورة لانتمائهم لحركة الإصلاح لأن الحركة سلمية لم تشارك في إراقة الدماء ولم تصبح يومًا من الأيام طرفًا في المليشيات المسلحة أو قامت بعدوان على أي من القبائل الصومالية أو الفصائل المسلحة، كما لم تحمل السلاح ضد أي دولة من دول المنطقة، والرئيس كان يدرك ذلك تمامًا، بالإضافة إلى ذلك فإن الحركة كانت وما زالت من أنشط الحركات

الإسلامية في مجال الخدمات مثل الصحة، وتنشيط التعليم الأساسي في المدن والقرى وتنظيم صفوفها وإقناع العالم باعتراف شهاداتها الحديثة لكي يلتحق طلابنا في الجامعات والمعاهد العليا في أنحاء العالم، وهذا ما منح لها قبولًا اجتماعيًا في مختلف الأقاليم الصومالية بما فيها الشمال لأن الخدمات المقدمة لعموم شرائح المجتمع تكسب الفاعلين ثقة المجتمع وتخلق الأمل للحياة(١).

**لقد جئت على قدر يا موسى:**

بقدرة الله سبحانه وتوفيقه جاءت هذه المبادرة في ظرف جد مناسب، لأنها صادفت في الوقت الذي أحس الصوماليون فيه بقدر من الإحباط والإهانة والمذلة بفشل أو إفشال عدد كبير من المبادرات التصالحية، وكان ذلك يمثل مؤشرًا سيئا في نفسية كافة المجتمع الصومالي في أنحاء العالم رغم وجود مساعٍ مشكورة لإضاءة شمعة الأمل.

ففي الوقت الذي اتخذت حركة الإصلاح في الصومال قرارها التاريخي المسمى بـ(البحث عن الدولة الصومالية) عام ١٩٩٩ تولى رئيس جمهورية جيبوتي السيد إسماعيل عمر جيلي مقاليد الحكم في البلاد.

ويبدو أن الرجل كان يحمل تصورًا وهمة عالية متجهة نحو المجتمع الصومالي لحل مشاكله العويصة من ناحية، وإدراكًا منه بخطورة العوامل المهددة لوجود دولة وقومية ترتبط معها جمهورية جيبوتي وشعبها بعلاقات تاريخية صلبة من الناحية الأخرى.

---

(١) وهذا ما تحقق ولله الحمد وكان ذلك بمثابة طوق النجاة للناشئة الصومالية منذ انهيار الدولة المركزية حتى يومنا هذا، والقيام بمشاريع حفر الآبار من أجل توفير المياه، وكفالة الأيتام، وبناء المساجد والقيام بالمصالحة بين المتقاتلين، وتنظيم مؤسسات المجتمع المدني وتدريبها وتقديم كثير من التسهيلات الضرورية ورفع كفاءة العاملين فيها.

بالإضافة إلى ما أشرنا إليه سالفًا فإننا غامرنا بأمر غاية في الغرابة والتعجب في المجتمع الصومالي، حيث لم يحدث أمر كهذا قبل ذلك ولم يتوقع أحد حدوث ذلك، إنه الريادة والجرأة على افتتاح أول مؤسسة للتعليم العالي في البلاد مما فتح باب الأمل في النفوس وشجع التعليم بصورة قوية جدًا، كانت جامعة مقديشو هي البوابة والمفتاح الذي وضع حدًا للقنوط واليأس من نفوس أفراد المجتمع، وبرهنت على أن التعليم والتعليم العالي ليس حكرًا على الدولة، وإنه لأمر ممكن إذا صدقت العزيمة وساندتها القرارات الحازمة وأيدتها الأفعال التي تصاحبها الخطط والبرامج، ولقد غيرت تلك الخطوة معالم الأنماط الفكرية حول التعليم والتعلّم، وكسرت حاجز الخوف، ورفعت الهمة وأضاءت شموع التغيير من الناحية النفسية والواقعية.

وكانت تلك العوامل تشكل خطرًا حقيقيًا على أمن واستقرار بلاده، ويمكن أن تكون بداية أزمة إقليمية؛ فقد تضافرت كل تلك العوامل وقوى بعضها بعضًا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لتحريك الموقف، وهو ما أدى إلى نتائج لم يتوقعها الكثيرون وعلى رأسها دول الجوار، وكان من بينها بعض الدول العربية التي كانت تراهن على فشل المبادرة الجيبوتية بالسرعة نفسها التي فشلت فيها مبادرات مثيلة كان آخرها مبادرة القاهرة قبل سنتين فقط من مبادرة جيبوتي، ويومها قالت جريدة الأهرام المصرية إذا نجحت جيبوتي في حل الأزمة الصومالية في هذه المبادرة فإن القضية الفلسطينية وأزمة الشرق الأوسط ستُحَول إليها سخرية واستهزاء منها أو غيرة عليها بعد فشل مبادرة القاهرة والتي كانت تحمل بذور الفشل قبل إتمامها، ومع الأسف فإن كثيرًا من القيادات العربية لم يكن لها رؤية سياسية ناضجة أو جهد حقيقي لحل القضية الصومالية، وكأنها خارجة عن الإطار العربي، فبدلًا عن الإحساس بالمسؤولية وإبداء التعاطف مع المنكوبين الصوماليين استخدموا اسم الصومال عنوانا للسخرية والإهانة، وتعودوا على ربط أي فشل أو الخوف من الفشل بالصومال؛ ولقب: (الصوملة) من ابتكاراتهم المبتدعة، وبعضهم لا يستوعب تلك الوشائج التاريخية بين الصومال وبين الإخوة في جمهورية جيبوتي، فالشعب الجيبوتي ينطلق من خبراته التاريخية؛ لأننا نشترك في كلٍّ من التاريخ والجغرافيا والدين والتقاليد والعلاقات الاجتماعية.

بعد جهود مضنية أثمرت المبادرة وتحقق ما لم يكن بالحسبان واتفقت قيادات المجتمع والقبائل على تقاسم السلطة ووضعت حدًا للنزاعات الدموية التي دمرت دولتهم وبعثرت جهودهم التاريخية والمكاسب الحضارية وأدت إلى نزوح وهجرة وتعطل المصالح، وبموجبها تمت إعادة الحياة إلى الدولة الصومالية من جديد، وبدء الأمل ينتعش في نفوس الصوماليين داخل البلاد وخارجها، وداخل حدود الجمهورية وخارجها، وتحركت عجلة الحياة السياسية وما زالت تتقدم باطراد وثبات رغم العقبات والعراقيل التي تواجهها بين فينة وأخرى بأسباب شتى.

وهذه النتائج الباهرة التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية حيال الحرب الأهلية وما قام به المجتمع المدني الصومالي خلال الثلاثة عقود الماضية تبرهن جليًا جانبًا من الحقائق الواضحات حول ضرورة العمل التطوعي في حياة الأمم أثناء حدوث الكوارث الطبيعية

والإنسانية، ولولا هذه الجهود الطوعية المتضافرة ما كان بالإمكان حدوث ما أمكن، ولتضاعفت المتاعب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأمنية، بل ولربما الأمور كانت تذهب إلى أبعد من ذلك، إن العمل التطوعي في الصومال نموذج يستحق أن يحتذى به من قبل المجتمعات التي تمر اليوم بمثل ما مرت به الصومال في عقودها الثلاثة، وما قدمته إلينا جمهورية جيبوتي هو عامل مهم ومساعد لنا، ولكن لولا نجاح المجتمع المدني والعمل التطوعي والاستشعار بالواجبات التي تقع على المجتمع داخل الصومال كان من المستحيل أن تهتدي إلى البوابة الحقيقية للمعضلة الصومالية. فالشكر للرئيس إسماعيل عمر جيلي وشعب جيبوتي الذي اقتنع بفعالية المجتمع المدني الذي قاد مسيرة الحياة بشكل أقرب إلى الوضع الطبيعي حتى استقامت الحياة وانتعشت التجارة وانتظم المشروع التعليمي والثقافي إلى حد ما.

وأخيرا عادت الدولة الصومالية إلى الوجود من خلال التعاون المثمر بين مؤسسات المجتمع المدني وبين جمهورية جيبوتي حكومة وشعبًا، والريادة في كل ما تحقق هو دور المتطوعين أفرادًا ومؤسسات وأدائهم جزأ من الواجبات الكفائية التي تشترك الأمة في ضرورة تنفيذها إذا قدر لنا تأدية ما علينا، ونحن لسنا بحاجة إلى القول إن إهمال تلك الواجبات هو السبب الأساسي لتدمير الدولة والحياة المجتمعي، وبالتالي يترتب على إهمال المصالح العامة والانشغال بالمصالح الشخصية الخاصة ضياع مصالح الأفراد لأن الحياة كتلة واحدة متشابكة، فإهمال بعض الواجبات يفتح أبواب الفساد والتخريب وانتعاش الأشرار، وتتطلب حياتنا إصلاحًا دائمًا يقوم به الخيرون ما دام المفسدون في الأرض، مصداقا لهذا يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧ ﴾ [هود].

## المبحث السادس

## استنتاجات عن التجربة الصومالية

هناك حقائق ملموسة في الأرض تعبر عن نفسها من خلال العمل التطوعي السلمي البعيد عن العنف والفوضى والتحزب، الذي شاركت به مجموعات من مؤسسات المجتمع المدني البعيد عن أمراء الحرب والمنافسات غير الشريفة وهي كالتالي:

### أولًا: العمل التطوعي يمثل أملاً جديدًا للتعاون المجتمعي

من خلال ما سبق فقد رأينا أن العمل التطوعي خلق روحًا قوية في المجتمع الصومالي، وفتح آفاقًا واسعة من التعاون والتساند أثناء حدوث الأزمات، الأمر الذي ينقل الناس من محطة الاعتماد على الدولة إلى مجال يصبح فيه الفرد بجانب الأفراد الآخرين فعالًا ومؤثرًا.

### ثانيًا: تلبية بعض المتطلبات المجتمعية

عندما ينخرط في الأعمال التطوعية عدد كبير من أفراد المجتمع فإن ذلك يحدث تحولًا كبيرًا في حياتنا اليومية، لأن المتطوع بإمكانه أن يحل مشكلة تهدد حياة فرد أو أكثر بكل سهولة ويسر، وبذلك استطاع المتطوعون في ذروة الأزمة الصومالية تقديم الحلول الناجحة إلى كثير من المحتاجين والمتضررين في مختلف المدن والقرى كما سبقت الإشارة إليه، فمن ذلك فتح المدارس والعيادات الطبية وحفر الآبار للمحتاجين والطبقات الفقيرة وتوفيرالمساعدات الضرورية.

### ثالثًا: مساعدة ذوي الاحتياجات الخاصة

يملأ العمل التطوعي بحسن التنظيم وخلق البيئة المناسبة بعض الفراغات الموجودة في كثير من مجالات الحياة اليومية في المجتمعات المتخلفة، ومعروف لدينا ما يعانيه أصحاب العاهات وذوو الاحتياجات الخاصة في المجتمع، الأمر الذي يمكن أن يجد الحلول الفورية من المتطوعين لمساعدة هؤلاء، لأن التطوع خال من التعقيدات البيروقراطية المجهدة، وينطلق من مؤسسات أو عوائل أو أفراد يملكون قراراتهم ولديهم قدرات معينة تمكنهم من تنفيذ ما يريدون، ووجود مثل هذا العمل التطوعي ضرورة ملحة وواجب شرعي بسبب فقدان مثل تلك الشريحة الواسعة من الخدمات المناسبة المشرفة بصورة جادة وعملية.

**رابعا: رفع كفاءة المؤسسات الرسمية عند التنافس**

لقد علمتنا الأعمال التطوعية في الصومال أن المتطوعين الذين يعملون بحرياتهم المطلقة أو في مؤسسات المجتمع المدني التي تتمتع بمساحة من حرية العمل يبدعون وينجزون الأعمال في فترات قياسية إذا ما قورنوا بالموظفين الذين يعملون في الدوائر الحكومية في بلادنا، لذا فإنه يمكننا القول بأن وجود مؤسسات غير حكومية أيًا كان نوعها يحدث نوعًا من التغيير في مستوى الأداء في الوظائف الرسمية لأنها ستكون مضطرة إلى التنافس مع غيرها، أما عندما يخلو لها الجو فإنه يصعب أن ننتظر منها التغيرات المنشودة، فوجود الأعمال التطوعية أيًا كان نوعها ضرورة لتحسين الأداء ورفع كفاءة جميع المؤسسات الحكومية وغير الحكومية شريطة أن تتوفر المعايير نفسها وتخضع للرقابة والمحاسبة من قبل الحكومة وبكل الشفافية إذا ما أردنا خلق بيئة تنافسية تغير الأساليب العفنة المليئة بالمحسوبية والأنانية والغش والتزوير.

**خامسا: تخفيف أعباء مالية عن خزينة الحكومة**

بما أن دولنا تعاني من العجز المالي أيا كانت الأسباب فإن وجود مؤسسات المجتمع المدني والتي تنطلق من مبادرات شخصية في الأعم الأغلب مهمة للغاية، لأن ذلك يخلق نسبة كبيرة من الوظائف التي تقلل نسبة البطالة في الدولة من ناحية، وتتحمل ميزانيات ضخمة من خلال تنفيذ مشاريع وطنية وحيوية للبلاد وعلى رأسها المشاريع الصحية والتعليمية ورعاية الأيتام ومساعدة الطلبة والأسر الفقيرة وغير ذلك، وتلك ميزانيات كبيرة كان من المفترض أن تتحملها الدولة بصورة مباشرة، فعلى سبيل المثال لا الحصر ننظر إلى التعليم في الصومال:

منذ انهيار الحكومة المركزية قبل حوالي ثلاثين عامًا من اليوم فإن المجتمع الصومالي لم ينعم بأية خدمات حكومية حقيقية في مختلف المرافق الحياتية، فالتعليم ضرورة لكل مولود منذ طفولته وحتى يكمل المرحلة الثانوية وما بعدها، فهناك ملايين من هذه الفئة العمرية من الأطفال والشباب، ومع أن نسبة من هؤلاء لم يتمكنوا من الالتحاق بالمدارس أو المعاهد والجامعات لأسباب أملتها ظروف الحرب الأهلية وتداعياتها إلا أن ما بين ٣٠-٤٠٪ منخرطون في التعليم، وتلك نسبة لا تقل عن مليون ونصف مليون، وتصل تكلفتهم التعليمية حوالي سبعمائة ألف دولار، لا تساهم الحكومة الصومالية والسلطات

الإقليمية في هذه التكلفة الباهظة إلا بنسبة محدودة؛ إن أغلب تلك التكاليف تدفعها العوائل بجهودها الذاتية رغم كل الظروف الاقتصادية القاسية التي تمر بها البلاد منذ العقود الثلاثة الماضية.

كم يخفف عن كاهل الحكومة هذا العمل الرائع والذي هو قمة التضحية من أجل تعليم الأبناء، وكم يساعد في التنمية الوطنية ورفع سقف المعرفة ومحاربة الأمية بجهود المجتمع بدون أن ينتظر الناس من الحكومة ما كان معهودا في الأزمنة السابقة، عندما بدأ المتطوعون الأوفياء أعمالهم التعليمية من لا شيء بعد اختفاء المرافق التعليمية وتعرضت لأبشع التدمير والتخريب كان الناس ينكرون إمكانية نشر التعليم بدون جهود الدولة وحكومتها القوية، ولكن بالصبر والثبات وتحمل المعاناة بكل أشكالها أصبح المجتمع يشاهد أهمية العمل التطوعي وفعاليته، وعندها فقط تفاعل مع المشروع التطوعي ووقف بجانب المتطوعين بكل فعالية، وهذا العمل الطوعي هو الذي غير عقلية المجتمع، وهو إنجاز يجب على المجتمع والدولة معًا أن ينمياه بصورة مطردة وفعالة، ودعمه من قبل الدولة حتى لا يعود الناس إلى الفكرة التواكلية والإيمان بضرورة الاعتماد على الدولة، وتلك نظرة تخلف يجب التخلص منها لكي نحقق ما نصبو إليه من التقدم والرقي من خلال التعاون بين القوى المختلفة في بلادنا.

**سادسا: مساهمة في التصحيح من حيث الرقابة وكشف الفساد**

لقد تعودت مجتمعاتنا على التعامل الأحادي الجانب، ويعني ذلك أن الحكومة ومؤسساتها هي الجهة الوحيدة في تقرير المسيرة الوطنية وتتحكم بمصائر الناس ومستقبلهم مما أدى إلى هشاشة أوضاعنا في مختلف جوانبها بسبب التستر على الفساد السياسي والاقتصادي والأخلاقي، وتلك التقاليد البالية هي من أسباب تخلفنا عن ركب العالم.

فوجود المجتمع المدني ومؤسساته غير الحكومية ووجود متطوعين مستقلين عن الدوائر الحكومية تمهد الطريق لتكوين رقابة مستقلة عن الحكومة تملك القدرات لتقويم ما اعوج من شؤوننا، وهذا ما لمسناه في البلاد بعد ظهور هذا النوع من المؤسساتية التي لم تكن موجودة قبل هذه العقود، وقد أدركت اليوم الحكومة الصومالية بعد عودتها إلى الوجود مرة أخرى فإنها تدرك اليوم أن الرقابة الاجتماعية قوية جدًا وأن المجتمع المدني يساهم في تصحيح المسيرة الوطنية، وتنبيهنا عند حدوث أخطاء مقصودة أو غير

مقصودة في مختلف القضايا الوطنية، والإعلام من بين المؤسسات المؤثرة بها في ذلك وسائل الإعلام التقليدية مثل الإذاعة والتلفاز، والوسائل الحديثة والمعروفة بالإعلام الاجتماعي social media، مثل اليوتيوب والفيسبوك وتويتر والواتساب وغير ذلك، فإذا أحسنا استخدام تلك الوسائل فإنها حتمًا ستكون مفيدة للمجتمع والحكومة على حد سواء.

### سابعا: المساهمة في التنمية الوطنية

المتطوعون هم رواد الابتكار والإبداع في المجتمعات المختلفة، ومن المعروف أن القدرات الكبيرة التي أودعها الله تعالى في أدمغتنا والعواطف الجياشة الداعمة لها كانت وراء معظم الابتكارات في الساحة العالمية قديمًا وحديثًا بشرط وجود الحريات الضرورية وعدم وضع العراقيل أمامها، وهذا هو الفرق بين المجتمعات والدول من حيث التعامل مع الأفكار الجديدة والابتكارات التي تحدث أكبر التغييرات في الساحة الإنسانية من الناحية الأمنية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، ومن حيث الأساليب التربوية في مجمل حياتنا، فالتنمية الوطنية بكل أبعادها تتطلب تعاونًا وثيقًا مدروسًا بين الحكومات وبين أفراد المجتمعات، وتنسيق الجهود بصورة عملية بين المؤسسات الرسمية ومثيلاتها في المجتمع المدني، لأن ذلك سيؤدي حتمًا إلى تطورات إيجابية لصالح المصلحة العامة قبل أن يصب في المصلحة الخاصة.

**والخلاصة**، فإن الحرب والسلم دورات في حياتنا تأتي لأسباب معينة وتساهم في النهضة والعمران أو التخلف والتخريب، وكلنا نتأثر سلبًا أو إيجابًا، ونتفاعل بطرق مختلفة. وكما لاحظنا؛ فإن الصوماليين عاشوا مرارة الحرب عدة عقود متتالية، والأسباب المؤدية إلى ذلك كثيرة، منها الهيمنة الغربية على العالم وتقسيم القارة الإفريقية والتوترات المستمرة بين الصومال والدول المجارة، ومنها الحرب الباردة وغياب رؤية استراتيجية لدى الساسة الصوماليين الذين لم يستطيعوا الاستشراف على سير الأحداث الأمر الذي أربك البوصلة في أغلب الأحيان، هذه كلها أوجدت حالة غير مسبوقة من النزاعات والحروب في الساحة الصومالية، ومع أن هذه حالة عامة في القارة الإفريقية بحكم التنافس الاقتصادي بين الدول الأوروبية القوية إلا أن رفض المجتمع الصومالي لسياسة

تقسيم الأراضي التي يقطنها الشعب الصومالي والحدود المصطنعة بينها أوجد حالة شاذة في القارة الإفريقية وهي التي أورثت الدولة الصومالية هذه الحالة الفريدة.

لم تكن الصومال تملك أصدقاء أو حلفاء حقيقيين منذ نشأتها لأنها ببساطة لم تتحرك يومًا من الأيام من خلال استراتيجية موضوعة سلفًا، وإنما العواطف والارتجالية والرغبة الشخصية للوصول إلى الحكم أو الاحتفاظ بكرسي الحكم المحرك الرئيس لقراراتها المتعلقة في الشؤون الداخلية وفي السياسات الخارجية أو الخوض في المعارك الكبيرة بهدف توحيد الأراضي الصومالية، وما قلناه في الفقرات الواردة في المحور السابق إن التعامل مع القوى الدولية بهذه السذاجة سبب التفكك والانهيار التدريجي للسلطة المركزية والتي خسرت التعاطف الشعبي منذ الانقلاب العسكري المشؤوم.

لقد واجه الصوماليون مصيرًا محتومًا، وكان التجاهل والإهمال الدولي علامة بارزة على فشل ماضيهم السياسي بعد اندلاع الحرب الأهلية في ساحتها من الناحية العلاقاتية، حيث لم تبذل القوى الدولية أي جهود تذكر لوقف سقوط نظام الحكم في الصومال أو لإعادة ترتيب الأوراق بين المعارضة والحكومة كما تدخلت وتصرفت مع الدول الأخرى في منطقة القرن الإفريقي عند ظهور بوادر الثورة الشعبية ضد الأنظمة الحاكمة.

أما موقف دول الجوار فكان رائعا حين استقبلوا أعدادا كبيرة من النازحين واللاجئين الهاربين من جحيم الحرب، فقد استقبلتهم مشكورة، وكذلك كانت قلة من الدول العربية رحبت بالنازحين في أراضيها وعلى رأسها الدولة اليمنية وشعبها الأبي، ولكن الجانب الذي لا ننساه هو وقوف الشعوب العربية بجانب الشعب الصومالي ونجدتها السريعة من الناحية الإغاثية.

ومع سلبيات الحرب الأهلية ونتائجها الوخيمة لكن الصوماليين قبلوا التحديات وتعاملوا معها بكل فعالية واقتدار واستفادوا من جملة من العوامل المساعدة وعلى رأسها الدين والتقاليد والمصاهرة والموقع الجغرافي والثروات البرية والبحرية وقاموا بالواجبات تجاه المتضررين والمنكوبين وقاموا بالمصالحة وبالإغاثة، كما قدم المجتمع المدني الصومالي مساعدات كبيرة في عدد من المجالات الحيوية مثل التنمية التعليمية والمشاريع الإغاثية الكبرى والمواصلات والاتصالات وأسسوا البنوك باسم الحوالات التي قدمت الخدمات

البنكية للمجتمع، وكل هذه المساعي خففت المعاناة إلى حد كبير حتى أصبح الصوماليون مضرب المثل في تعايشهم مع الأزمات في ظل الحرب الأهلية المدمرة.

ومما خلق الدهشة والاستغراب لدى المراقبين والمجتمعات الأخرى والمفكرين والصحافة كيف استطاع الصوماليون في نهاية الأمر تدبير حياتهم وتنظيم شؤونهم المعيشية، بل كيف أصبحوا في طليعة منطقتهم في التجارة واستحداث استثماراتهم داخل قارتهم وفي المهجر، وأصبحوا أرقامًا حقيقية غير منسية في جميع الدول التي هاجروا إليها سواء في القارة الأمريكية أو الأسترالية أو الأوروبية، أو الإفريقية، ومع كل الذي حدث ويحدث لهم، ورغم ما يلاقونه من أشقائهم السفهاء، ومن أعدائهم التقليديين المعروفين، وأعداء غير معروفين، ومع هذا فلايزالون يتمتعون بقدر من الحيوية ونسيان الماضي ومآسيهم المتوالية مدة ثلاثين عامًا من عمر الدولة الصومالية قبل سقوط حكمها عام ١٩٩١.

# الفصل الثامن

## أسباب ضمور المصلحة العامة في حياة الأمة

المبحث الأول:

نقص الوعي لدى المسلمين بقيمة المصلحة العامة

المبحث الثاني:

عدم الالتزام بالقيم الدينية والدستورية

المبحث الثالث:

ضعف التنسيق بين الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني

المبحث الرابع:

الفهم المشوّه للواجبات الدينية

المبحث الخامس:

عدم وجود خطة تنموية متكاملة

# المبحث الأول

# نقص الوعي لدى المسلمين بقيمة المصلحة العامة

## التربية المبنية على الفردية والأنانية

هناك جملة من الأسباب المسببة لتلاشي الاهتمام المناسب برعاية الهموم الكبيرة وعلى رأسها المصالح العامة والمقاصد الكبرى التي جاء من أجلها دين الله لتحقيقها وحمايتها ومقاومة كل من يسعى إلى إضرارها، والوقوف أمام كافة العوامل المساهمة لإضعافها والنيل من استمراريتها ونموها، وأود أن أكتفي هنا بإيراد عدة مباحث وعوامل كإشارات مقتضبة وأمثلة ونماذج تضيء لنا بعض الحقائق لتخلفنا عن ركب الحضارة البشرية في هذا المجال، بل وفشلنا في تأمين احتياجاتنا اليومية من الأمن والقوت الضروري التي تصون حياتنا وكرامتنا.

الفرد هو أساس المجتمع والخلية الأولى ونقطة البداية في حياة الأمم، ومن التناسل والتكاثر تظهر المجتمعات البشرية عبر الزمن، وبما أن كل فرد لديه ضرورة وحاجة قائمة بصفة مستمرة فمن هنا يحدث تضارب المصالح في أذهان الأفراد وتفكيرهم، ثم يتطور ذلك حتى يصبح واقعًا عمليًا، لأن كل فرد يحاول أن يحقق ما يحتاج إليه عبر مختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة، الأمر الذي يولد الصراعات الدموية والحروب الأهلية والإقليمية والعالمية في مختلف العصور، ولهذه الأسباب ومن أجل إشباع الرغبات والمبالغة في التمتع بخيرات المجتمعات بشكل أناني بشع تطغى الطموحات الفردية على ما سواها. ويقوّي هذا السلوك نشوء الفردية في التفكير والنظرة الأحادية الجانب في كثير من القضايا الخطيرة التي تحدد ملامح حياتنا المستقبلية، ولذا نجد أن الفردية القاتلة هي السمة البارزة والعادة المهيمنة في مجتمعاتنا وبيوتنا وأوضاع أمتنا بشكل عام، والتي جسدت فينا ما نسميه بالمصلحة الخاصة التي لم تتحقق بعد في مدننا وقرانا وبوادينا.

وحسب خبراتي الشخصية التي كسبتها منذ أن كنت طالبًا في عدد من البلدان، ومن خلال عملي الوظيفي خارج الصومال وداخله، ومن خلال رحلاتي ومشاركاتي في المؤتمرات حول العالم، فإن السمة الطاغية على اهتمامات شعوب منطقتنا تصب في خانة المصلحة الخاصة التي خلقتها الفردية وعاداتها المتأصلة، والأسباب كثيرة منها، ويضم المبحث بثلاث فقرات:

## التربية المبنية على الفردية والأنانية

فالتربية في منازلنا تعتمد على القرارات الفردية التي يتخذها الآباء والأمهات أو من يقوم مقامهم لتحقيق ما يروق لهم، بعيدًا عن الأساليب الشورية أو مجرد عرض الأفكار والمستجدات على بقية أفراد الأسرة، فكلنا تربينا على تلك الأنماط الاستبدادية الفردية التي لا تقبل طرح سؤال: لماذا؟ أو إبداء الاعتراض على بعض جزئياتها طمعًا في التعديل أو العدول عنها. وبغض النظر عن دوافع تلك المواقف والقرارات فإنها أساليب تجسد فينا روح الشخصنة التي تعبر بعمق عن الرغبة الشخصة في تحقيق المصلحة الخاصة المادية والمعنوية.

وبمقدار بعدنا عن روح الجماعة وإشراك أكبر عدد ممكن من الأفراد في تحديد مصالحهم ومستقبلهم بقدر ما نؤصل للأنانية وروح الفردية والمصلحة الخاصة داخل بيوتنا. إن أطفالنا لم يعتادوا على المشاركة السلسة مع أقرانهم وقت اللعب بل ربما يتضاربون على أبسط الأمور، إذ يحاول كل واحد منهم الاستحواذ على كل شيء وحرمان الآخرين منها، وهم تعلموا هذا السلوك من منازلنا فقلدوا فعالنا الطيبة والسيئة على حد سواء.

إن الساحة التعليمية والثقافية بصورتها الإجمالية تعاني من الأمراض الاجتماعية نفسها، بالإضافة إلى ذلك فإن النقابات والتنظيمات والأحزاب والحركات السياسية والدينية والنوادي الفكرية لا تختلف كثيرًا عن ذات المسار، لأننا جميعًا شربنا من منبع واحد، والأنانية تعيق أو تدمر حياتنا، وكذلك الرغبة في تحقيق المنافع الفردية بعيدًا عن روح الفريق والمؤدية إلى كسب الجميع وتعميم المنافع. ونلاحظ حتى في المساجد التي هي أقدس الأماكن والبقاع في الأرض أن كثيرًا من علمائنا من الوعاظ والخطباء يتصيدون أخطاء الآخرين في شؤون العبادات والمعاملات الفقهية ويسعدون بحدوث أخطاء أو سوء فهم في الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة - ليرسلوا غيرهم إلى جهنم- وتلك تجارة خاسرة وتربية كسيحة لا تسمن ولا تغني من جوع، يودون أن ينتصروا على حساب الآخرين وليس في أذهانهم أن ينتصروا مع إخوانهم لتعم السعادة والهناء من خلال الفهم المشترك والتوافق في أغلب المسائل الدينية، لأن الأنانية والتعصب لما عندهم دون أن يراعوا حقوق الآخرين يعميهم ويجعلهم يعتقدون أن الحق بجانبهم دومًا، وكأنهم وكلاء عن الله، وهذا ينطبق على السياسيين الحاكمين في جميع المستويات حيث يغيب عنهم أنهم أجراء الشعب ويخدمون تحقيق المصلحة العامة، وأن وجودهم في هذه المناصب لا يجب أن يكون لأغراضهم الشخصية.

## انتشار الجهل في المجتمع

هناك عامل آخر يتمثل في انتشار الجهل وتدني نسبة المتعلمين في مجتمعاتنا وهو يساهم بلا شك في إضعاف الفهم العام أو غياب الوعي الكافي حول العلاقة بين المصلحتين: الخاصة والعامة، كما أن سوء فهم المقاصد الشرعية والتركيز على التفاصيل الفقهية هو نوع من الأمية المقنعة، لأنها أورثتنا قدرًا غير يسير من الغموض والضبابية في المفاهيم الشرعية والأهداف العليا لديننا الحنيف، وهناك شق آخر من الأمية القاتلة وهو الفصل بين جوانب الحياة وقطع الصلة بين الجزئيات مما يضيع الكليات أو يشوه صورتها الحقيقية ونجد المغتابين ضمن الخيرين ما دام هو يؤدي الصلوات أو أغلب أركان الإسلام، أما الذين لا يشاركون في الواجبات العامة مثل النظافة وضبط المواعيد والحفاظ على ساعات العمل فلا أحد يعتقد أنهم من المذنبين، وأن راتب العامل الذي يتخلف عن جزء من وقته يقتات مالًا حرامًا ويأكل السحت.

## سيادة الرؤية السياسية المعوجة على حياة الأمة

من بين العوامل التي أضعفت مفهوم المصلحة العامة سيادة الرؤية السياسة غير الرشيدة وأنظمة الحكم السيئة، ورغم أنها تخالف بكل وضوح مناهج الحكم والقيادة في عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين الأربعة والمنهج الشوري، إلا أنها أصبحت واقعًا عمليًا تعودنا عليه منذ حدوث الانحرافات عن الخط السليم للحكم والسياسة المعتمدة على الشورى وإشراك الجميع في نظام الحكم بدون أية اعتبارات أخرى، وبالتالي فهي تمثل كابوسا جاثما على صدورنا وأدمغتنا وأفكارنا، يلطخ تفكير الأمة وفهمها دومًا، ولا يترك أية مساحة للتغيير الإيجابي الأفضل، بل يعمق الكراهية ويزخرف أمراض الأنانية والمصلحة الخاصة والنهب المنظم للأموال والممتلكات، والأخطر من ذلك أنها تحصر السلطات السياسية والقدرات المالية في أيدي فئة قليلة متنفذة تحمي نفوذها بنفوذها وتؤمّن اعوجاجها بقوة السلطة السياسية والفتاوى الدينية اعتقادًا منها أن هذا يخلد نفوذها إلى الأبد.

وبطبيعة الحال يكون هذا النفوذ الهائل محميًا من الانتقاد بأغلال من الترهيب المنظم ومن التفسير الفاسد للدين يتولى هذا الأمر في كل عصر جيش من العلماء في المجتمع يضعون المبررات الفقهية للحكام المستبدين، ويضعون أي مخالف لما يذهبون إليه تحت طائلة القانون، وتصل العقوبة حد إخراجه من دائرة الإسلام بحجة أنه خارج على ولاة الأمر، لأن الملوك وكافة الحكام في نظر هذا الفقه الأعمى هم الدين وهم الدولة.

وبما أن قوة السلطات السياسية والمالية متجمعة في أيدى الحكام وأنصارهم وبدعم كبير من الفتاوى الدينية والقوة السياسية المستبدة فليس بمستغرب أن تظل شعوبنا في واد والنظام السياسي في واد آخر، ويتعرض بالتالي للعقاب والتشنيع أصحاب الأفكار النيرة والمبادرات الشجاعة الذين يسعون إلى تشجيع الناس على المصلحة العامة والترفع عن عبادة الذات والتمحور حول المصلحة الشخصية الضيقة، ومن يحاول الخروج عن النهج المتبع من قبل الحكام فهو (في نظرهم) خارج على الدولة، لأن ما يقومون به يتنافى وتقاليد الحكم المستوطنة في ذاكرة شعوبنا[١].

إن ضياع المصالح العامة تسبب بمتاعب كبيرة في مجتمعاتنا لأن إهمالها يفكك عرى المجتمع ويميت القدرات الكامنة فيه من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ذلك يخلق نوعًا من اليأس لدى الأجيال المتعاقبة التي ستشعر بالغربة في أوطانها، وأنها بلا قيمة ما دامت محرومة من المشاركة في القضايا المهمة والحساسة في أوقات الحرب والسلم، ومن يملكون مصائرهم وشؤون مستقبلهم غير موجودين من الناحية الفعلية، ولعل قول جرير أنسب ما نحن فيه:

**فإنك لو رأيت عبيد تيم *** وتيما قلت أيهم العبيد**

**ويقضى الأمر حين تغيب تيم *** ولا يستأذنون وهم شهود**

على هذا الأساس نجد شعوبنا تثور بين فينة وأخرى ضد أنظمة الحكم ويحدث هيجان شبه دائم في منطقتنا، وتظل الأمة مثل البراكين المهيئة للانفجار في جميع الحالات،

(١) ما حدث لأطبائنا في مدينة هرجيسا في الثمانينيات إبان الحكم العسكري في المستشفى المركزي مثال لما نقوله، وذلك أنه بعد أن تدهور وضع المستشفى وضعفت خدماته في الثمانينيات من القرن العشرين قامت مجموعة من الأطباء في المدينة بجهود طوعية من أجل إصلاح ما فسد من أوضاعه، فحققوا نجاحًا كبيرًا وأعادوا للمستشفى دوره التاريخي، فبدل أن يصبحوا قدوات اجتماعية ويتلقوا المكافئة والجوائز ليتشجع الآخرون بمثل هذا العمل الإنساني النبيل قامت الحكومة الاشتراكية وقتها باعتقالهم ووضعهم في المعتقلات بسبب القيام بأعمال لم تكلفهم الدولة بها ويعني ذلك أن أي تحرك خارج أمر الدولة الصومالية وبمعرفتها يستحق العقاب، مع أن الدولة وقتها كانت عاجزة عن تقديم أبسط الخدمات الضرورية للمجتمع وكانت تعاني من الركود الاقتصادي القاتل، ومع ذلك فهي تكبل الأيدي والصواعد وتحارب أي عمل شجاع يقدم خدمات طوعية للناس في سبيل تحقيق المصلحة العامة. فأيا كانت مبررات الحكومة وقتها ولكن الجيل الذي عاش في تلك الحقبة يعلم مدى احتكار السلطة كافة الأنشطة مما عطل القدرات والأفكار المبدعة في البلاد.

وهو ما أورثنا الحروب الأهلية المتواصلة والفوضى العارمة كطريق وحيد للتنفيس عند انسداد كافة الطرق الأخرى، لأن النصائح المطلوبة والانتقادات ضد الأوضاع السائدة لا تجد البيئة المناسبة، بل تصطدم بجدار حديدي لا تنفذ إليه النصائح.

ولك أن تتخيل عقلية الأطفال الذين يتربون على هذه المنظومة المترابطة العفنة، فهم ضحايا تخلفنا، وكم تطول معاناتهم إذا ما حاولوا تغيير العادات والتقاليد البالية في مجتمعاتهم أو أرادوا تصحيح الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية يوما ما؟ إن تربيتنا المنزلية والثقافية والسياسية والاقتصادية هي ورش عمل جهزت لصناعة الاستبداد والدكتاتورية بنوعيها الملكية: العسكرية الملكية الدموية، والملكية العائلية الفاسدة، كما أنها المسؤولة عن التزمت والتجمد الفكري في كثير من تراثنا قديمًا وحديثًا، الأمر الذي دفن المصلحة العامة في مختلف مجالات الحياة، أو ساهم في تشويه حقيقة المصلحة العامة لتكريس ما هو قائم منذ قرون عديدة، لأن ذلك النفوذ المتمركز في أيدي قلة من الفاسدين استخدم الدين والثقافة لتفسير النصوص وتطويع الآراء الفقهية لحماية ما بنوه حتى وصل بنا الأمر أن ما يخالف ذلك يصبح مخالفة للدين ويستحق صاحبه باتهام الزندقة[1] والخروج على ولي الأمر[2].

---

(١) الزندقة والهرطقة من المصطلحات التي تطلق على أصحاب الديانات الوثنية واستخدم المسلمون في العصر العباسي الأول ولكن مثل المصطلحات تحولت بصورة تدريجية إلى معنى الإلحاد، واستخدم بطريقة واسعة ضد الذين عارضوا الحكم وقتئذ، فبمجرد توجيه تهمة الزندقة إلى شخص ما يجب إعدامه والتخلص منه فورًا، ويبدو أنها كانت من المصطلحات الوثنية فتحولت إلى السياسية ثم إلى المسائل الفقهية، ولكننا لا نجد هذه الألفاظ في الفقه الإسلامي في القرون المفضلة، والأنظمة العالمية تستخدم أحيانًا كلمات أو جمل الهدف منها توسيع دائرة العنف ضد الخصم، ففي العصر الحديث استخدمت أمريكا مصطلح الشيوعية كشماعة للتخلص من أعدائها الحقيقيين أو من تريد التخلص منه بعيدًا عن روح القانون والعدالة التي تبرئ الأشخاص أو تجرمهم حسب التهمة الموجهة إلى كل فرد بعينه، ومن هذه المصطلحات غير المعرف بها في ساحة القانون الدولي " كلمة الإرهاب " التي رفضت القوى العظمى أن تضع لها تعريفًا محددًا حتى هذه اللحظة، واليوم يستعمل كلمة الإرهاب كل من يريد إلصاق التهمة بمن يراه عدوا يجب التخلص كيفما يشاء ووقتما يريد، وهي مثل مصطلح الزندقة لكل متهم محكوم عليه بالقتل بعيدا عن المحاكم والقضاء.

(٢) ولي الأمر أو ولاة الأمور هذا المصطلح استخدم في العصور المتأخرة بطريقة سيئة جدًا، لقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بمعنى المسئولية وخدمة الأمة ولكن ولاة الأمر لم يكونوا بديلا عن الشرع ولم تكن المخالفة في الرأي معهم ممنوعة في عصر الصحابة والتي تلته.

## المبحث الثاني

## عدم الالتزام بالقيم الدينية والدستورية

من المعلوم أن الصورة الكلية للمصلحة العامة عند النظر من علٍ توحي بأنها مختلفة عن المصالح الخاصة، لأن القائمين بها يسعون إلى توسيع دائرتها لتشمل أناسًا غير ذواتهم، ولا يستعجلون قطف المنافع الدنيوية العاجلة، بل ربما لا يكون ذلك هو الهدف الأول للقيام بمثل هذه المصالح العليا والأهداف الراقية لتحقيق مكاسب حيوية لعموم البشر في ساحة من الساحات، وهو أمر يصعب على أصحاب النفوس الضعيفة أن يجندوا أنفسهم للقيام بمثل تلك الأعمال الجليلة التي تستند إلى القيم السامية ولكون صاحبها لا يجني الأرباح والمنافع الدنيوية السريعة فان مثلها يتطلب تضحيات جسيمة ونكران للذات، وهذا هو السبب الذي يذكرنا رب العالمين بالنعيم المستقبلي في الآخرة بدأب وتكرار الأمر الذي يقلل من شأن الدنيا وزخارفها وبريقها الزائل من خلال الأوصاف البديعة والصور الحية التي تمس شغاف عقولنا وعواطفنا وكأننا نشاهدها ونراها رأي العين.

وانطلاقًا من هذا فإن ديننا وكل الأديان السماوية لم تلغ المصالح الخاصة والمنافع الفردية ولكنها وضعت المصالح العامة قبل المصالح الخاصة وأنزل الله تعالى في حقها نصوصا قرآنية وأحاديث نبوية شريفة تحث المؤمنين على تقبل هذا المفهوم والتنافس من أجل تحقيقه رغبة في نيل رضى الله والجنة، وهو أمر سيشجع الناس على الأعمال التي يتعدى نفعها العاجل إلى الآخرين، ويكسب بإذن الله تعالى العاملون في تلك الساحة الأجر والثواب في الآخرة، وهو الربح الأعظم الذي يأمّن مستقبلنا الحقيقي، وهكذا ربط الدين الإسلامي المصلحتين معًا لأن حياتنا واحدة والمصلحة العامة تحقق الجانب الأكبر من حاجتنا، فهذه بداية رحلة حياتنا، أما نهاية الرحلة فبعد الانتقال إلى دار الآخرة، وتتطلب الرحلة الزاد المناسب لمشقتها وكثرة مخاطرها.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة]، انظرإلى هذا الربط بين المنفعتين فلوازم السفر مثل تذاكر السفن والطائرات واالأكل والشرب وتكاليف الإقامة في فترة الحج من

الزاد الضروري للحجاج، ولكن الزاد المستقبلي الضروري هو أن نكون حيث يريد الله منا أن نكون وهو زاد التقوى لمن يعقل.

والآيات التالية تكشف لنا عن مدى الاختلاف بين الناس حول نظرة الناس إلى مستقبلهم المنتظر، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة].

فعندما تفقد المجتمعات مثلها العليا أو يضعف الوازع القيمي في ضميرها تفقد القدرة على الالتفات إلى الاهتمامات الكبرى التي تنميها المعتقدات الدينية أو ما تقتضيه دساتيرها الوطنية والعقود الاجتماعية مما يسبب تلوث الأفكار وهبوط الهمة، فلا سبيل حينئذ إلى التضحيات في الوقت والمال والنفس، ويدور أغلب البشر في تلك المرحلة الانحطاطية حول أنفسهم ويصبحون في حلقة مفرغة مركزها البحث عن المصالح الشخصية وإشباع الرغبات والشهوات النفسية التي لا تعرف حدود الشبع في نهاية المطاف.

وبهذا ندرك لماذا تبذل الدول الجهود الكبيرة في تربية أطفالها على القيم التي تؤمن بها، فتغرس في نفوسهم دومًا تصورا مفاده أن المصلحة الوطنية العليا فوق المصالح الفردية مهما كلف ذلك، لأن الأمم ببساطة لا يمكن أن تصبح قوية أو تبقى على قيد الحياة بدون فلسفة وعقيدة يشترك الجميع في فهمها والعمل من خلالها.

وديننا غني في هذا المجال، لأنه يوجهنا دائمًا عبر النصوص القطعية إلى ضرورة تقوية المصلحة العامة في نفوس أجيالنا المتعاقبة من خلال تأصيل المنهج الرباني والتربية العميقة في نفوس أطفالنا ليقبلوا التضحية من أجل القضايا الوطنية العامة التي تنعكس على المصالح العامة والخاصة بكل فعالية وإيجابية. ففي الترابط بين الإيمان وبين البذل والعطاء يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر].

والآيات التالية توضح لنا مدى البخل والشح الذي نعانيه كأمر مفطور في نفوسنا، ومع ذلك يدفعنا الله دفعًا نحو الإنفاق السخي للمال الذي منّه الله علينا، فيأمرنا الله سبحانه أن نستقيم على طاعة الله مبينًا الفائدة الكبرى التي يجلبه لنا الإنفاق في الدنيا والآخرة، وهو ما يخفف عنا البخل والأنانية والتفرد بالثروات لأن ذلك يتنافى مع الإيمان الصادق وتقوى الله. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ ﴾ [التغابن].

لم يكتف القرآن بالتحريض على الإنفاق بل ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير حيث يفصل في الأخلاقيات الضرورية والآداب العامة التي لا يتقبل الله الصدقات مهما عظمت إلا بها حفاظًا على تماسك وحدة الأمة من الناحية الشعورية وصون كرامة كل فرد من أفرادها وعدم استغلال الحاجة الظرفية للمحتاجين. ففي هذا السياق يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾ [البقرة].

ضعف القيم يولد الشخصنة ونسيان مصالح الجماعة والتعامل اللا إنساني، لأن الأموال ليست ملكا مطلقا لمالكيها بل هناك حقوق مفروضة عليهم مثل الزكوات والديات والمهور والميراث وغيرها، فعلى هذا الأساس فإن الإنفاق المفروض وغير المفروض يجب أن يتم بأخلاقيات تضمن كرامة المتلقين المحتاجين، وأي إهانة أو تحقير أو منّا أو أي أذى يصدر من المنفق المتصدق تبطل أجرها، بل ربما جرّ ذلك الإنفاق أصحابه إلى سيئات وكبائر الذنوب.

ما سبق ذكره يؤكد لنا الأهمية القصوى للقيم الدينية والدساتير والعقود الاجتماعية، وأن ذلك هو العامل الأكثر حيوية لحماية اللحمة الاجتماعية والتعاون الإنساني والتضحية

من أجل مصالح الأمة أفرادًا وجماعات، ولكي تكون الصورة أكثر نصاعة نذكر بعض الأدلة التي تشير إلى ذروة الأنانية في النفوس البشرية المؤدية إلى الغرور والانقطاع عن المحيط الإنساني الطبيعي حيث يوصلهم الأمر إلى اتخاذ قرارات بحرمان الفقراء والمحتاجين من حقوقهم الواجبة إخراجها من أموالهم في زمن الحصاد.

تروي لنا سورة القلم قصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ألا يراهم أحد حتى ينجزوا مهمة الحصاد بعيدين عن أعين الناس، خرجوا متخفين عن الناس حتى لا يراهم أحدهم، ومسرعين قبل أن يطلع عليهم الصباح ويراهم الآخرون، وكان عقاب الله لهم بالمرصاد، فقد أذهلتهم المفاجئة الكارثية حيث تحولت المزارع الغناء إلى خراب كأن لم تغن بالأمس. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القلم].

وفي سورة الكهف يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف].

تعبر الآيات السابقة بدقة وبعمق ذي أثر كبير في نفوس المتأملين بعبر أحداث الزمان وتضيء وتبين لنا تلك الفروق الكبيرة بين أصناف البشر من حيث الاستقامة على منهج

الله في الحياة وعدم الاستقامة عليه، ويضع أمامنا صنفين من أصناف البشر، أعطاهما الله ثروة كبيرة من الزروع البهيجة، فشكر أحدهما الله على هذه النعمة، وطغى وكفر الآخر بالنعمة، وهما في كل عصر وآن يمثلان ظاهرة حية، فالغرور والإعجاب بالثروة والاحتكار الظالم بمقدرات الشعوب بوابة الانزلاق وإيذان بالخراب، أما شكر النعم وأداء الحقوق فذلك طريق آخر يختلف عن سابقه، ومثل هذه الآيات تذكير لنا جميعًا بما يجب علينا القيام به مقابل الأموال والثروات، وماذا سيحدث عند إهمالنا شكر الله وحمده؟

## المبحث الثالث

## ضعف التنسيق بين الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني

مع أن الإيمان بالله والقيم الأخلاقية والقوانين التي يضعها البشر لتنظيم حياتهم من العوامل الهامة في تنمية القيمة الحقيقية للمصلحة العامة في نفوس الأجيال المؤمنة، لكن ترسيخ تلك العوامل وتفعيلها وإبقاء حيويتها وديمومتها يتطلب وجود دور قوي للحكومات، ولابد أن يتم التنسيق بين الأدوار المختلفة التي تقوم بها المؤسسات الحكومية، وتلك الأدوار التي تقوم بها المؤسسات غير الحكومية في مختلف المجالات الخدمية.

وعندما ننظر إلى وضع دولنا الحالية فإننا نقف على حقائق مرة لا تخطئها العين أبدا.

**دور غير فعال للحكومات**

الحقيقة الأولى هي أن دور الحكومات في إبراز حقيقة المصالح العامة دون المستوى المنتظر بكثير، فالسلطات التنفيذية في بلادنا أو في المحيط العربي والإفريقي الذي نحن جزء منه لا تعطي القدر الكافي من العناية للمصالح العامة، بل إن المسؤولين في المراكز القيادية العليا عادة مشغولون بمصالحهم الخاصة في الأعم الأغلب؛ وهم يمثلون قدوة سيئة لمجتمعاتهم، وبهذا السبب لا يستطيعون تشجيع الأعمال التي تربط الناشئة بالخدمات الاجتماعية وتعويدهم على الإيثار والتضحية قربة إلى الله سبحانه وتعالى أو من أجل صيانة الميراث الوطني وما يمكن أن يبقي الكتلة الحرجة الضامنة للاستقرار والحياة الكريمة المشتركة للمواطنين.

وهذا جزء من أسباب الانهيار الذي أصاب في مقتل المنظومة القيمية والخدمية والتعاون المثمر بين أفراد المجتمع وحماية التوازن الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية الحميمة، لأن غياب الدور الحكومي في الساحات الخدمية وانشغال المسؤولين بمصالحهم الشخصية مهد الطريق لحدوث فساد عام واختفاء الصفة القيادية الجميلة التي يتحدث عنها القرآن الكريم ويجسدها دومًا، أو تلك التي يسعى إليها المجتمع البشري الناضج وقياداتها، والتي وضعت لتحقيقها الدساتير والقوانين التفصيلية حتى ترتقي قيادة المجتمع إلى أعلى الدرجات وأفضلها في نظر رعاياها وتكون مثلا يحتذى به عبر التاريخ،

وهذا المطلوب من الرموز في مختلف مراحل الحياة إذا ما أريد خلق القدوات ذات المقامات العالية في نفوس الناشئة، وبهذا تظل الرموز محاضن تربوية عملية وتمتلك تأثيرها السحري مدى الحياة.

والمسلمون أصحاب حضارة رائدة بأعمالهم الفائقة وخلقوا في الساحة البشرية تغييرًا ماديًا ومعنويًا لا يضاهى، فلنأخذ أنصار رسول الله في المدينة المنورة كمثال حي، فهم النموذج الذي ينبغي لكل القيادات في المستويات المتنوعة أن تضعه نصب أعينها متشبثة بأخلاقهم الراقية وأفعالهم كمنارات يستضاء بها في المسيرة القيادية، إن الأنصار نموذج يستحق الوقوف عنده طويلًا، لأنهم أحدثوا بمواقفهم الإنسانية التغيير الحضاري المنشود في تعاملهم الفريد مع المهاجرين بعد أن جمعهم الدين الإسلامي.

انظر كيف مدحهم الله بسبب تعاملهم مع المهاجرين ونظرتهم السامقة إلى إخوانهم؟ وكيف أنهم تعالوا على همومهم الشخصية وأنكروا ذواتهم ومصالحهم الخاصة، ونسوا احتياجاتهم الخاصة حتى ضحوا كل غال ومرتخص في سبيل إسعاد المهاجرين وتخفيف معاناتهم، وبذلوا ما استطاعوا بذله بدون مقابل مادي ينتظرونه من أحد رغم حاجتهم الماسة إلى ما ينفقونه، يقول رسول الله ﷺ: (الناس دثاري والأنصار شعاري لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا آخر لسلكت وادي الأنصار) إنهم سكان العاصمة ودار الإيمان ودار الهجرة المدينة المنورة، - قرية يثرب سابقا- وبهذا استحقوا لقب الأنصار، ففي هذا يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر].

استحق الأنصار هذا الفوز والفلاح العظيم بترجيحهم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وتفضيلهم مقام دار الباقي ونعيمها على زخارف الدنيا الفانية، ومع هذا الفوز المحقق في الدار الآحرة فإن الله سبحانه وتعالى جمع لهؤلاء الأنصار ومن نحى نحوهم وسلك سبيلهم الحسنيين في الدارين وتحقق لهم التمكين والانتصار على أعدائهم بعد أن تحرروا من طغيان الشهوات وعبادة الأهواء، واصبحت يثرب القرية المغمورة في الجزيرة العربية عاصمة العواصم والحاضرة التي ملكت أقوى المؤثرات الحضارية حتى اليوم، وأصبح أهلها سادة الجزيرة العربية والعالم فترة طويلة.

## فقدان الحريات الضرورية

لم توفر حكوماتنا الحريات الضرورية للمجتمع لممارسة الهوايات المختلفة والتي من ميزاتها كشف القدرات المتنوعة وبروز أصحاب الطموحات والهمم العالية، ولم تترك الأعمال الحرة والإبداعات الشخصية والمبادرات الشجاعة تسلك طريقها، بل الحاصل هو التقييد والكبت الممنهج ومحاسبة الأنفاس وأي تحركات تتجه نحو تحقيق المصلحة العامة أو تفتح آفاقا رحبة لحمل هموم الأمة والقضايا الوطنية، ولهذا تنكمش القدرات وتنسد الأبواب أمام كل الهمم والرغبات في الوصول إلى المقامات العالية التي تمكن الأمة من كسر قيود التخلف والتبعية، لأن البوابة الوحيدة للرقي أي رقي هي توفر الحريات الشخصية التي تكسبنا الطمانينة والثقة النفسية والإحساس بالأمن والسلامة، وبدون الحريات الأساسية للحياة فإنه يستحيل أن نخرج من النفق المظلم والحفرة العميقة والأزمات المتسلسلة التي تحدث في ديارنا بدون انقطاع.

**فعندما تظل العلاقات بين الإهمال والكبت الممنهج تكون النتيجة بين أمرين:**

إما أن تفقد مؤسسات المجتمع المدني فاعليتها بسبب ممارسة الضغوط والتضييق المستمر وعدم توفير الأجواء المناسبة لها، وإما أن تتصرف كما تشاء هي بحيث لا توجد الرقابة القانونية الضرورية. فبقدر ما تحتاج المؤسسات الأهلية والوقفية من الدعم الحكومي وإعطاء الحريات الواسعة لتتطور بقوة بقدر ما تحتاج قدرًا كبيرًا من الرقابة والمتابعة من قبل الأجهزة الحكومية حتى لا تصاب بنوع من التسيب ثم تجاوز الحدود القانونية فتضيع مصالح الناس، هكذا علمتنا التجارب في الصومال الذي يمتلك تجربة أطول فترة حرب أهلية في العصر الحديث أدت إلى غياب السلطة المركزية، وهيمنة مؤسسات المجتمع المدني على مختلف جوانب الحياة، ووجدنا من تراكم هذه التجربة الطويلة أن الأمرين ضروريان لا غنى لأحدهما عن الآخر أبدًا، بل هما متلازمان.

## المبحث الرابع

## الفهم المشوّه للواجبات الدينية

إن النجاحات التي يحققها البشر في هذه الحياة أساسها الفهم السليم لأي قضية يسعى إلى تحقيقها الإنسان -أي إنسان- في أي مرحلة من مراحل التاريخ، وبدون فهم وإدراك أبعاد الأمور والواجبات المتعين عملها، وبدون النظرة الثاقبة إلى مختلف الزوايا المحيطة بها يظل الجهد المبذول ضائعًا في المتاهات وغير مسدد مهما بذل العاملون من جهود في مسعاهم، ويعني الخطأ في الفهم فشلًا مؤكدًا في التخطيط، لأن أي تخطيط غير منطلق من وعي سليم وفهم دقيق ورؤية الصورة الكلية لخارطة البرامج والمشاريع لا يمكن في النهاية أن يؤدي إلى نتائج سليمة كما تقول الحكمة: الفشل في التخطيط هو تخطيط للفشل، وكذلك فإن العمل بدون فهم حقيقي يعبر عن الرؤية الواضحة المنسجمة مع الواقع المحيط بنا هو عمل من أجل الفشل، بل فوق ذلك كثيرًا ما يقود إلى النكبات والأزمات المتتالية.

فعندما تنكبت أمتنا عن طريق العلوم والمعارف المتنوعة أصابنا كم هائل من التزمت والجمود الفكري وانسدت منافذ عقولنا وتوقف الاجتهاد في مختلف مجالات الحياة، فاتسعت دائرة الجهل وضعف الفهم العام للمقاصد الإسلامية الكبرى والمصالح التي جاء الدين الإسلامي من أجله، وانحصر التدين والعبادة في الشعائر التعبدية وبعض الطقوس الدينية التي لا تحمل حقيقة الدين ولا تربط بين الشعائر التعبدية وبين كافة الجوانب الأخرى في الإسلام وعلى رأسها المعاملات الأخلاقية والمالية والثقافية والاجتماعية والتربوية والجهادية، وبهذا حلت الفردية محل الجماعية وطغت المصلحة الخاصة على المصالح العامة، واختفت الشورى في الحكم والسياسة بصورة شبه كاملة وأنتجت استبدادًا منظمًا، ومن المعلوم أن بقاء الدين على وجه الأرض مرتبط بوجود جماعة منظمة وقوية تعيش في ظلاله وتتمسك بمنهجه في حياتها اليومية بقيادة الشورى والشراكة في المصالح والمنافع مقابل تحمل التكاليف لحماية الأمة في داخلها وخارجها.

ونحن نشاهد اليوم الغالبية العظمى مشغولة بالجزئيات في الدين وليس في أذهانها تلك الواجبات العظيمة التي هي أعمدته وأركانه، وحتى الشعائر التعبدية فهي موجودة

بصورة مشوهة، فالهم الفردي هو السائد، والمصلحة الشخصية هي القطب الذي يطوفون حوله في معظم أعمالهم وأفكارهم، فلا عجب أن تضعف المصلحة العامة في المجتمعات الإسلامية.

كنت طالبًا في الجامعة عندما حضرت محاضرة كان يلقيها شيخ الإسلام الدكتور يوسف القرضاوي، وعاد يومها من رحلة هامة إلى الهند، وذكر في المحاضرة قصة حدثت له عندما كان يلقي إحدى محاضراته في الهند، فقال الشيخ (ألقيت محاضرة عن الإسلام وشموليته على كافة جوانب الحياة، وكنت أظن أنني بذلت جهدًا كافيًا في نقل الصورة الجميلة عن الإسلام في عدة جوانب هامة، منها الجهاد في سبيل الله لحماية الأمة من التهديد الخارجي وخدمة استراتيجيتها العامة، وأهمية العلاقات بين المسلمين والتساند والوحدة والتضامن وغير ذلك، وبعد انتهائي من المحاضرة فإذا أنا أمام شيخ هندي وقور ومحترم يوجه إليّ أسئلة من بينها قوله: جزاك الله خيرًا شيخنا الفاضل كنا ننتظر منك أن تتحدث عن الدين الإسلامي، فقلت له بتعجب واستغراب ما هو الدين الذي تريد أن أتحدث عنه؟ فقال مثل الوضوء!).

لا يختلف أمر الشيخ الهندي عن حال الغالبية العظمى من المسلمين في نظرتهم إلى الإسلام ومقاصده، فالتركيز قائم منذ نعومة أظافرنا على الشعائر التعبدية وعلى الجزئيات غير المترابطة، والإسلام الشامل الذي يمثل الوضوء نقطة في بحر لا يستغرق تعلمه إلا بضع دقائق، والتضحية بالنفس والمال جزء آخر من أجزائه، وهناك مجال آخر ذو حيوية كبيرة، وهو التعاون الدائم بين شرائح المجتمع وخاصة بين الأغنياء والفقراء من أجل محاربة الفقر والحرمان والوقوف بجانب ذوي الاحتياجات الخاصة وتغيير حياتهم من العجز والعوز وفقدان الإمكانات إلى القدرات الفائقة المنتجة، الأمر الذي يكسبهم المهارات المتميزة والسعادة الدائمة في حياتهم. كم هي شاسعة المسافة بين فهم الشيخ الهندي الذي يمثل هنا غالبية أمتنا وبين ديننا الإسلامي.

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة].

**في نهاية شرحه للآية السابقة يجمل سيد قطب شرحه الضافي للآية بالجمل التالية قائلا:**

وأخص الصابرين: وهي لفتة خاصة لها وزنها في معرض صفات البر.. لفتة خاصة تبرز الصابرين وتميزهم، وتخصص هذه السمة من بين سمات الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين وإيتاء المال- على حبه- وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد.. وهو مقام للصابرين عظيم، وتقدير لصفة الصبر في ميزان الله، يلفت الأنظار وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النفس والمال، وتجعلها كلًا لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم. وتضع على هذا كله عنوانًا واحدًا هو «الْبِرَّ» أو هو «جماع الخير» أو هو الإيمان كما ورد في بعض الأثر. والحق أنها خلاصة كاملة للتصور الإسلامي ولمبادئ المنهج الإسلامي المتكامل لا يستقيم بدونها إسلام[1].

وفي الآية التالية تأكيد للترابط الوثيق بين مختلف جوانب الإسلام، حيث كل جزئية تعنى تكاملًا للجزئيات الأخرى، فلا تشذ جزئية عن باقي الجزئيات ولا يشذ حكم من أحكامه عن بقية الأحكام، لأن جميعها جاء من عند الله الواحد الأحد الفرد الصمد وجاء لتقويم حياتنا وتنظيم أمورنا كلها مثل وحدة زماننا ومكاننا. وفي هذا يقول الله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام].

عندما جهلنا عن هذا المعنى الإسلامي الراقي وتشبثنا في أحسن الأحوال ببعض العبادات المنقوصة، وآمنا بأن هذا هو الإسلام انفرط عقد الأمة وخسرنا حياتنا المعنوية والمادية، وأصبحنا أفرادا لا جماعة، ومتفرقين لا متحدين ولا متضامنين، وفي النهاية أصبح بعضنا أعداء للبعض الآخر لا تجمعنا أخوة صادقة.

بطبيعة الحال فإن مجتمعات هذه حالها لا يمكن أن ينتعش فيها الأمل أو تتكون لديها الطموحات المستقبلية ولا السمو في التفكير في القيام بالنهضة والتطوير والقيام بالمصلحة العامة التي هي السياج الواقي والحصن الحصين للأمة والراعي لذمتها والحارس لبيضتها، وبها تتم صيانة الحقوق، وتنتفي أو تقل أمراض الأنانية والجشع والجري وراء المصلحة الخاصة والعادات التي تختبئ فيها القوى التدميرية للأمة ولقدراتها، وتلك العادات هي مسلك بداية الانحراف عن المنهج الرباني القويم وصراطه المستقيم.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الأول، مصدر سابق، ص: ١٦١.

## المبحث الخامس

## عدم وجود خطة تنموية متكاملة

من المعلوم أن أمتنا في العصر الحديث فقدت البوصلة القيادية بسبب تخلفها عن ركب المعرفة، وتبعًا لذلك فهي لا تملك المقومات التنموية الأخرى، فالرؤية المتكاملة للأفراد والمؤسسات مرتبطة بوجود منهج يوحد فكر الأمة أو مجتمعا بعينه، ويحدد التوجهات العامة في المسيرة الوطنية بما فيها فلسفة التعليم والحكم والسياسة والاقتصاد والتنمية المستدامة، ومن خلال هذا النهج تتحدد الأدوار وتترسخ القيم وتسود النظرة الوطنية العليا بعيدًا عن التشرذم والتشتت والتمزق الداخلي لكل فرد في مجتمعاتنا، لأننا نعيش في جزر معزولة بعضها عن بعض، وليس بينها جسور، ولذا لا غرابة أبدًا إذا اختفت المنافع الجامعة والمصالح الخادمة، بل إن ذلك من الأمور الحتمية في الطبيعة البشرية.

بما أنه لا يوجد تصور يجمع أفراد الأمة ويوجهها إلى المقاصد الكبرى التي يشاركون فيها فإن الفرد في مجتمعاتنا يعمل بصورة ارتجالية مثل الحيوانات الأليفة وغير الأليفة أو أي مخلوق على قيد الحياة، وسيحاول أن يسعف نفسه كما تتصرف الكائنات الحية عندما تتعرض للخطر، وخاصة عند تعرضها للمهددات الخارجية، فهي تبذل كل جهد ممكن لإنقاذ نفسها بدون أي تفكير سابق لحماية نفسها من المخاطر المحتملة في المستقبل وأخذ الاحتياطات الضرورية. وهذا الوضع يساهم إذا في ضعف اهتمامنا بتحقيق المصلحة العامة، وبدلا من تحقيقها فإننا نشتغل ونعمل فرادى لسد الرمق والتشبث بالحياة بدون السعي لوسائلها.

بغض النظر عن خسارتنا للمصلحة العامة واختفائها في كثير من الأحايين فإننا خسرنا المصالح الخاصة وبالتالي خسرنا حياتنا، لأنه لا يمكن أن نعيش حياة طبيعية بجانب عالم متكتل متعاون تقوده المصلحة المشتركة بين أفراده، وتلك مخالفة صريحة لدستور حياتنا وهو القرآن والسنة السليمة من الطعون، وأدى هذا إلى إهمال الواجبات الكفائية التي تمثل ريادة المصلحة العامة حفاظًا على كيان الأمة ومصالحها الحقيقية في الدنيا والآخرة.

وجود الفرد مرهون بوجود الفرد الآخر، وتحقيق المصلحة الخاصة مرتبطة بالمصلحة العامة، وتأكيدًا لضرورة التساند حتى تستقيم الأمور وتتحقق المصلحة الخاصة والعامة يقول رسول الله ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه) متفق عليه، وفي حديث آخر بهذا المعنى يقول ﷺ: (مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) متفق عليه. والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

# الفصل التاسع
# واقع التطوع في الدول المعاصرة

**المبحث الأول:**

**مفاهيم التطوع في علم الاجتماع**

**المبجث الثاني:**

**التطوع والتنمية في عصر الدولة الحديثة**

# المبحث الأول

# مفاهيم التطوع في علم الاجتماع

العمل التطوعي ظاهرة إنسانية منذ القدم تفرضه ضرورات الحياة المتجددة وتساعد على استمراريته طبيعة الإنسان التي فطرها الله به لتعيش المجموعات البشرية في وئام وانسجام لحماية نفسها من المخاطر المهددة، ومن أجل تحسين ظروف حياتها دومًا وكلا الأمرين يتطلبان قدرًا كبيرًا من التعاون والتساند لإشباع رغباته وتلبية ضروراته وحاجياته المتجددة، وهو ما تعبر عنه العبارة المشهورة (الإنسان مدني بطبعه)، بالإضافة إلى ذلك فإن الأديان السماوية عمقت مفهوم التطوع ووضعت له أساسًا متينًا وتشجيعًا قويًا للقائمين بها، ووعدتهم بالأجر والمثوبة في الدار الآخرة، كما أن أنظمة الحكم في العالم والدساتير الوضعية الحديثة أعطت عملية التطوع أبعادًا وقيمة اجتماعية كبيرة حتى أصبح التطوع عملًا مساعدًا أو مكملًا أو موازيًا لما تعمله أجهزة الحكومات الرسمية في العالم، وهو تطور طبيعي يتقدم وينمو حسب قوة ووعي المجتمعات، أو ينكمش ويتقهقر حسب تخلف المجتمعات، فهو يتفاعل والظروف التي يمر بها مجتمع من المجتمعات قوة وضعفًا، ومعرفة وجهلًا.

ينشأ التطوع من رحم المجتمعات وبصورة تدريجية وليس مفروضًا عليها من خارجها، كما أن التطوع لا يأتي عبر التقلبات الاجتماعية المفاجئة والحركات الثورية، والانقلابات العسكرية. التطوع أنشطة يقوم بها فرد أو مجموعة أفراد حسب رغباتهم الشخصية، ويمكن أن يتم العمل التطوعي من خلال مؤسسات رسمية أو أهلية أو وقفية، وأيا كانت الوسائط أو بيئة العمل فإن العامل المشترك هو القيام بأعمال تهدف إلى نفع الآخرين لتحسين الحياة وتشجيع الخير وخدمة المصلحة العامة والتضحية من أجلها بدون أجر يدفع للمتطوعين مقابل ما يقومون به، ومن خلال هذا المفهوم جاءت جملة من التعريفات المتقاربة التي تعبر عن واقع العمل التطوعي وآثاره وأبعاده الاجتماعية والاقتصادية والتنموية في عصرنا هذا، ونختار منها أمثلة تتناسب مع هذا الموضوع الذي نحن بسدده، ونسجل هنا سبعة تعريفات وردت في مناطق وعند دول مختلفة، وهي كالتالي:

١- (العمل التطوعي هو عمل شخص يعمل بإرادته الحرة التي تصل إلى استثمار وقته لخدمة مصالح الآخرين بدون أن يتوخى دفع الأجور النقدية أو العينية مقابل ما يقوم به من جهد)[١].

يشير هذا التعريف أولًا وقبل كل شيء أن الذي يقوم بالأعمال التطوعية هو إنسان يعمل بإرادته المستقلة ويختار مجال عمله باختياره بدون إكراه، ولا يسعى إلى كسب الأجور المادية أصلا، والهدف الأساسي من هذا العمل هو نفع الآخرين وتقديم الخدمات الضرورية للأفراد والمجتمع على حد سواء من أجل تحقيق مصالح الآخرين.

٢- (العمل التطوعي هو أي نشاط ينطوي على إنفاق الوقت، غير مدفوع الأجر للقيام بعمل شيء يهدف إلى إفادة الآخرين (أفراد أو مجموعات) بالإضافة إلى أقرب الأقارب، أو لصالح البيئة)[٢].

يضيف هذا التعريف عنصرًا جديدًا إلى ما سبق وهو البيئة ليكون نفع التطوع شاملا حتى أصبحت البيئة من أهم ساحات العمل التطوعي في كثير من الأقطار العالمية لأنها هي أساس حياتنا وسعادتنا، فبدون وجود بيئة نظيفة وخالية من الأمراض والأوبئة وكافة منغصات الحياة فلن ينعم هذا الإنسان بأمن أو استقرار وطمأنينة.

٣- (المتطوعون هم الناس الذين يؤدون خدمة بدون أجر، من خلال منظمة خيرية أو غيرها من المؤسسات غير الهادفة للربح، وهذا يشمل أي مساعدة غير مدفوعة الأجر، والتي تقدم إلى المدارس، والمنظمات الدينية، والرياضية، أو الجمعيات الأهلية)[٣].

هذا التعريف يضرب أمثلة حية يبرز العمل الطوعي بواسطتها مثل الخدمات المقدمة إلى المدارس والهيئات الدينية والأنشطة الرياضية والجمعيات الأهلية، ويدخل في هذا التعريف كل الأعمال والأنشطة المشابهة في مختلف المجالات والمرافق، ويعني ذلك أن المتطوعين يمكن أن يمتد عملهم إلى كل ركن من أركان الحياة ما دام أنهم لا يسعون إلى

---

(١) الجزار، ٢٠١٠.

(٢) (المركز القومي للبحوث الاجتماعية ومعهد التطوع 2007 Rearch).

(٣) إحصاءات كندا ٢٠٠٦.

المكاسب المادية والأجور التي ينالها أمثالهم من ساعات العمل، ويمكن أن يشتغل المتطوعون في الدوائر الحكومية ليقدموا خبراتهم إلى العاملين في المرافق الرسمية من أجل تحسين الأداء وتدريبهم، ويساهم هذا العمل في رفع كفائة وقدرات العاملين في الوزارات والمؤسسات الوطنية المختلفة سواء كانت أهلية أو وقفية أو حكومية، ومن شأنه تقوية النهضة الوطنية ومحاربة التخلف كما يقوي التعاون المثمر بين شرائح المجتمع.

٤- (التطوع هو العمل بدون أجر في المؤسسات غير الربحية)[١].

هذا التعريف حصر التطوع في المؤسسات غير الربحية، ولعل السبب في هذا هو حاجة تلك المؤسسات إلى تقديم المساعدات لتنهض بمهماتها وواجباتها، فربما لا تحتاج المرافق الحكومية في الدول المتقدمة ماديًا إلى كثير من المتطوعين، بينما تحتاج الهيئات والجمعيات غير الربحية عادة إلى مثل تلك المساعدات.

٥- (إن التطوع هو جهد يبذله الأفراد أو الجماعات في المجتمع غير مدفوع الأجر، ولا يهدف إلى الربح وإنما إلى مساعدة ودعم آخرين، وخدمة المجتمع وتنميته سواء على المستوى المحلي أو القومي أو الدولي، وذلك ببذل الجهد والوقت أو المال)[٢].

نلاحظ في التعريف شمولية أوسع لأن المتطوعين يمكن أن يكونوا أفرادا يتحركون باستقلاليتهم التامة، ويمكن أن يكونوا تحت مظلة مؤسسات يعملون فيها ملتزمين بقوانينها وأنظمتها، كما أن كلمة مساعدة ودعم "آخرين" يستفيد من هذا فرد أو أكثر بصفة مباشرة لتذليل ما يواجهه من عقبات ومشاكل، أما عبارة "خدمة المجتمع" فيدخل فيها الأفراد والمؤسسات والبيئة والأمن وكل شيء يحتاج إلى عون وتنمية أيا كان نوعها، وهنا نجد المتطوعين يخدمون قراهم ومدنهم وأقاليمهم، كما تصل خدماتهم إلى المستوى القومي أي مستوى دولهم، والمتطوعون يستطيعون العمل خارج أوطانهم؛ أي في الساحة الدولية الواسعة مما يعطي التطوع معنى وقيمة أكثر عمقًا وحيوية وعالمية.

---

(1) Bjarne ibsen 1992

(٢) الدكتور علي الدين هلال.

٦- (المتطوعون هم الأشخاص الذين يؤدون الأنشطة التطوعية بدون أجر يتقاضونه منها بصورة فردية أو من خلال منظمة)[1] وهذا التعريف تأكيد للمعاني التي سبقت في التعريفات التي ذكرناها آنفا.

٧- (العمل التطوعي هو التزام من الوقت والطاقة والمهارات من إرادة حرة يقوم بها شخص ما مجانًا ودون دفع أجرة مقابل ما يعمله، والعمل التطوعي هو مساعدة الآخرين أو القيام بأنشطة أساسها المنفعة العامة، ومصلحة المجتمع، أما الجهد المبذول لمساعدة العائلة[2] فلا يعتبر ضمن النشاط التطوعي)[3].

في هذا التعريف نجد توضيحًا مهمًا لمعنى التطوع وهو ذكر كلمتي "الطاقة والمهارات" التي تشمل كل جهد يبذله إنسان ما لخدمة غيره سواء في ذلك الطاقة العضلية أو الفكرية أو المالية، ومنها:الاستشارات، وتعليم الناس، وتدريبهم لبناء المهارات التي يحتاج إليها العاملون أو المتخصصون لإتقان أدائهم، ومن بين ذلك إنقاذ البشر من المخاطر والمهالك التي تهدد حياتهم.

بالإضافة إلى ذلك فإن كلمتي "المنفعة العامة ومصلحة المجتمع" تحملان دلالات قوية لمعنى التطوع، فمهما قويت شوكة الدولة ومرافقها ومهما عظمت اقتصادياتها فإن المصلحة العامة ستظل في أمس الحاجة إلى تكاتف الجهود وملء فراغاتها، وتلك من الواجبات الوطنية التي لا يمكن أن تصل يومًا من الأيام إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي الكامل، لأن الطوارئ والأحداث غير المتوقعة تحدث بدون موعد مسبق، والكوارث الطبيعية تدمر في دقائق بل في ثوان ما بناه الإنسان قرونا عديدة وتجعله أثرًا بعد عين، فالتعاون المجتمعي المبني على العمل التطوعي والتضحية بجانب جهود الدولة هو ما يمكن أن يخفف عن وطئة الحاجة ومشاكل المجتمع.

---

(1) U.S. Bureau of Labor Statistics 2008

(٢) هذه الفقرة من النص تشير إلى أن المساعدات التي تقدم إلى العائلة لا تدخل ضمن العمل التطوعي، والسبب واضح لأن العون المقدم إلى أفراد العائلة هو من ضرورات الحياة والبدهيات في الحياة الاجتماعية فإما أنها داخلة من الفروض والواجبات وإما أنها من باب رفع مستوى معيشة أفرادها، فليس من التقاليد الاجتماعية أن يتقاضى الفرد أجرًا مقابل ما يقدمه إلى أفراد أسرته من خدمات.

(3) Estonian Ministry of the interior, 2006

٨- (يعتبر العمل التطوعي عمومًا نشاطًا للإيثار حيث يوفر فرد أو مجموعة الخدمات الضرورية "لصالح شخص آخر أو جماعة أو منظمة" دون تحقيق مكاسب مالية، والعمل التطوعي أيضًا يجدد وينمي المهارات، وغالبًا ما يهدف إلى تعزيز الخير أو تحسين نوعية الحياة الإنسانية، وقد يكون للعمل التطوعي فوائد إيجابية للمتطوعين أنفسهم مثل ما يستفيد منه الأشخاص أو المجتمع الذين يقدم إليه خدمات التطوع، ويهدف أيضًا إلى إمكانية إجراء تواصل مفيد مع العملاء. ويتم تدريب العديد من المتطوعين وتحديدًا في مجالات عملهم، مثل الطب والتعليم، أو الإنقاذ في حالات الطوارئ. والتطوع هو خدمة الآخرين على أساس احتياجاتهم الظرفية مثل الاستجابة للكوارث الطبيعية)[١].

تعتبر حركة التطوع في العمل الاجتماعي قوة مؤثرة تنبع من المجتمع وتأصل الاعتماد على جهود الأفراد والجماعات وتستثمر كامل الطاقات المتوفرة لديها لمواجهة ضروريات واحتياجات المواطنين، وتلك عملية تخلق تشاركًا بين المجتمع والدولة وتضع حدًا للاعتماد على الدولة. فالتطوع يعبر عن رغبة صادقة وطموحات راقية من المواطنين لخلق بيئة تعاونية تساهم في تقدم المجتمع ونهضة الدولة بهدف تخفيف المشاكل التي تقف في وجه مسيرة الحياة.

إن كافة التعريفات التي مرت بنا تبين نظرة المجتمعات إلى مفهوم العمل التطوعي في الوقت الحاضر، وإن مهمته الأساسية هي توفير الخدمات الضرورية لشرائح المجتمع لسد احتياجاتهم وتحسين ظروف الحياة في المجتمع والمساهمة في تنميته الشاملة ونهضته، بالإضافة إلى ذلك فإن التطوع يقدم التدريب لرفع مستوى الأداء والمهارات في مختلف المؤسسات الأهلية وغير الأهلية، إذًا فهو يسعى إلى ملء الفراغات التي تعجز عنها الحكومات؛ ويعني ذلك فإن تقوية التعاون بين الشعوب والحكومات مما يخفف الثقل عن كاهل الدول من ناحية ويوفر قدرًا كبيرًا من المساعدات لمختلف الشرائح والمرافق، ويبرز العمل التطوعي أكثر من أي وقت آخر عندما تحدث الكوارث الطبيعية أو الحروب الأهلية، وعندها يتحرك الجميع لمواجهة المخاطر التي تهدد الجميع.

---

(1) rom Wikipedia, the free encyclopedia-

ومن ناحية أخرى؛ فإن المتطوعين يستفيدون من خلال ما يقومون به من الناحية المعنوية، فالتضحية التي تأتي من الرغبات الصادقة والإرادة الحرة والقرارات المستقلة من التدخلات الخارجية أيا كانت الدوافع فإنها تمنح أصحابها سعادة كبيرة وثقة بالنفس، أما إذا كانت الدوافع دينية فإن المؤمنين من البداية موقنون بحصول الثواب والأجر من عندالله سبحانه وتعالى، وبصورة عامة تزداد مهاراتهم وتتوسع علاقاتهم الاجتماعية عبر التواصل الناتج عن التطوع، كما أنهم يكسبون خبرات واسعة وثقافات متنوعة بسبب اختلاطهم بأطياف غير متحدة في مشاربها الثقافية وسياقات نشأتها وتخصصاتها العلمية وتنوعها الفكري والعاطفي.

وفي هذا السياق فإن المتطوع ليس موظفًا في برنامجه العملي هذا، لأنه كما شاهدنا لا يتقاضى أجرًا ماليًا مقابل عمله أيا كان مجال هذا العمل، ربما يعمل في الدوائر الرسمية أو في المؤسسات الخيرية أو لديه عمله الخاص، لأن العمل التطوعي ليس له حدود، المهم أنه لا يقصد من وراء عمله إلى نيل الأجرة بل يكون الهدف من وراء ذلك هو نفع الآخر وتحقيق المصلحة العامة.

## المبحث الثاني

## التطوع والتنمية في عصر الدولة الحديثة

لم تتمكن أيديولوجية بعينها من السيطرة بشكل كامل على مفهوم التطوع؛ فالدول الصناعية الغربية ذات الأنظمة الديموقراطية اعتبرت التطوع جزءًا لا يتجزء من عملية تفعيل الخدمات العامة للمجتمع وتطوير المنتجات والسِّلَع؛ بينما اعتبرته الدول الشمولية ذات الأنظمة الاستبدادية أداة فعّالة للسيطرة على المجتمع، وتجسيدًا للنشاط الشعبي الذي يساعد على ضمان تقديم الخدمات العامة بفعالية إلى من هم في أمسِّ الحاجة إليها. لذا فإننا نستطيع القول إن العمل التطوعي ونشاط المنظمات غير الربحية – في جزء كبير منه – هو ظاهرة معروفة في شتى المجتمعات، ووسيلة فعّالة للنمو من القاعدة إلى القمة في المشاركة المدنية والعمل الاجتماعي والسياسي. ومن المفارقات أن العمل التطوعي ونمو القطاع غير الربحي صار يُنظَر إليه أحيانًا كتهديد لمفهوم (الدولة الراعية)، نظرًا لكسره احتكار العمل الاجتماعي والسياسي من قبل الدولة، وتراجع الثقة بقدرة الحكومات على تقديم الخدمات وخلق التغيير في كثير من مناطق العالم.

إن جذور ووظائف وطُرق العمل التطوعي في كل بلد يعكس تاريخه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الخاص، وعلى الرغم من وجود خطاب عالمي مشترك في العقود الأخيرة حول العمل التطوعي ونمو القطاع غير الربحي في المجتمعات المختلفة يساهم في الحياة الاقتصادية وتقديم الخدمات وصنع السياسات، إلا أنه لا تزال هناك اختلافات تاريخية أساسية في مفهوم العمل التطوعي عند مختلف المجتمعات والدول، ولا شك أنه يتم تدعيم أي نمو معاصر لمفهوم العمل التطوعي بشكل ما من الإرث التاريخي والفكري الموجود لدى كل مجتمع. وكثيرًا ما تواجه أي محاولة لإجراء مقارنات عالمية دقيقة بين الهياكل الاجتماعية والسياسية التطوعية قيودًا كبيرة، من بينها الاختلافات بين الثقافات، والفروقات في مفاهيم المصطلحات الأساسية.

### التطوع في الاتحاد الأوروبي

ثمة عدد كبير من الدراسات التي تقارن بين القطاعات غير الربحية في العالم؛ ونستدل هنا على سبيل المثال لا الحصر بدراسة أعدتها مؤسسة GHK المتخصصة في

دراسات وأبحاث التنمية؛ جاءت تحت عنوان: (التطوع في الاتحاد الأوروبي)، وثمة جدول يعطينا إحصائيات موجزة تعرض نمو العمل التطوعي ودوره في التنمية ورفع الناتج القومي، والأنشطة الرئيسة التي يقوم بها المتطوعون في أرجاء القارة الأوروبية، وتم جمع المعلومات من ٢٢ بلدا. أظهرت الدراسة أن الأنشطة التطوعية الأكثر شيوعا في أوروبا تتمثل في: الشؤون الإدارية والمهام الداعمة لها، والعمل مباشرة مع الأشخاص الذين يحتاجون دعما ما، وتدريب وإعداد المتطوعين، والمهام القيادية والتنسيقية، والحملات العامة وجماعات الضغط. تنظيم وترتيب المناسبات العامة. ولقد كشفت الدراسات الوطنيةالتي استعانت بها الدراسة أن هناك مستويات مختلفة حول نسبة المشاركة في العمل التطوعي في الاتحاد الأوروبي(١):

**أولًا**: سجلت النمسا وهولندا والسويد وبريطانيا أعلى نسبة في المشاركة وهي: ٤٠٪.

**ثانيًا**: سجلت الدنمارك وفيلاندا وألمانيا ولوكسنبورك نسبة عالية تمثلت في: ٣٠-٣٩٪.

**ثالثًا**: سجلت استونيا وفرنسا ولاتفيا نسبة متوسطة وهي: ٢٠-٢٩٪.

**رابعا**: سجلت قبرص ويونان وتشيك وطاجيكستان وأيرلاندا ومالطا وبولاندا وبرتغال وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وسولوفينيا واسبانيا، منخفضة نسبيا وهي نسبة ١٠-١٩٪ .

**خامسا**: سجلت بلغاريا واليونان وإيطاليا وليتوانيا نسبة منخفضة وهي أقل من ١٠٪.

وتشير الدراسات الاستقصائية والتقارير الوطنية في الدول التي شملتها الدراسة أن هناك ما بين ٩٢ و٩٤ مليون شخص بالغ يشاركون في مختلف الأعمال التطوعية في أوروبا، وهذا يعني ضمنا أن ٢٢٪ إلى ٢٣٪ من الأوروبيين فوق سن الخامسة عشرة يشاركون بصفة دائمة في الأعمال التطوعية. وثمة جدول مهم في الدراسة يتناول أهم الوزارات والأجهزة الحكومية المختلفة المعنية بتنظيم ورعاية العمل التطوعي في الدول الأوروبية.

---

(1) VOLUNTEERING IN THE EUROPEAN UNION, Educational, Audiovisual & Culture Executive Agency (EAC-EA), Directorate General Education and Culture (DG EAC), Final Report submitted by GHK ١٧ ،February 2010 *Page 4.*

### العمل التطوعي يساهم في الناتج القومي (GDP):

طبعا تتفاوت نسب مشاركة التطوع بين دولة وأخرى، ولكن العمل التطوعي يساهم في الناتج القومي في جميع الدول الأوروبية، فنجد النسبة تصل إلى ٤,٧٥٪ في النمسا، و٣,٥٠٪ في هولندا، و٣,١٤٪ في السويد و٢,٦٢٪ في دنمارك، ٢,٢٦٪ في بريطانيا، وهناك دول أقل من تلك النسبة [١].

### كل الأعمار تشارك في الأعمال التطوعية

**ففي عام ٢٠٠٨ جاءت نسب المشاركة في الأعمال التطوعية للفئات العمرية، وهي كالتالي[٢]:**

| الفئات العمرية | نسبة المشاركة في الأعمال التطوعية |
| --- | --- |
| (١٥-١٩) | ٦٪ |
| (٢٠-٢٤) | ١٠٪ |
| (٢٥-٢٩) | ٨٪ |
| (٣٠-٣٩) | ٢٤٪ |
| (٤٠-٤٩) | ٢٦٪ |
| (٥٠-٥٩) | ١٤٪ |
| (٦٠-٦٩) | ٩٪ |
| (٧٠-٧٩) | ١٪ |
| (٨٠ فما فوق) | ١٪ |

### تدل المعلومات السابقة على حقائق ينبغي أن نقف عندها:

**الحقيقة الأولى:** مشاركة جميع الفئات العمرية في الأعمال التطوعية في القارة الأوروبية.

هنا نجد الأطفال في سن ١٥ بجانب هؤلاء الذين تجاوزت أعمارهم على ٨٠ عامًا يعملون جنبا إلى جنب لأداء الواجبات الوطنية متطوعين غير مكرهين ودون أن يهدفوا للحصول على الرواتب، أو يطمعوا في ترقيات.

---

(1) VOLUNTEERING IN THE EUROPEAN UNION, Educational, Audiovisual & Culture Executive Agency (EAC-EA), Directorate General Education and Culture (DG EAC), Final Report submitted by GHK, *17 February 2010,* Page: 138-139

(٢) المصدر السابق، ص: ١٨٣.

**الحقيقة الثانية**: إن الكل يعمل في المجالات التي يرغب فيها، مما يحقق تنوعًا وتكاملًا يغطي كافة الاحتياجات في مجتمعاتهم، مثل الخدمات الصحية والتعليمية والرياضية والإدارية، كما أن البعض يشتغل في الساحات السياسية مثل الحملات الانتخابية ومجموعات الضغط والحفاظ على البيئة، ونجد كيف أن البعض يقدمون المساعدات المختلفة إلى المحتاجين لتخفيف معاناتهم، والخدمة في دور العبادة مثل الكنائس والمساجد موجودة أيضًا، ولا يستثنى من ذلك أية ساحة في تلك الدول، وهو أمر في غاية الروعة والحيوية.

**الحقيقة الثالثة**: إن نسبة مشاركة التطوع متفاوتة بين الدول الأوروبية، وهذا التفاوت يعود إلى مستوى التقدم التعليمي والاقتصادي والاستقرار السياسي، والنضج الاجتماعي، فبينما نجد النمسا وهولندا وبريطانيا والسويد متربعة على قمة العمل الطوعي بكونها سجلت ٤٠٪ نجد دولا مثل: بلغاريا واليونان وليتوانيا في ذيل القافلة حيث سجلت أقل من ١٠٪.

فأغلب الدول المتقدمة اقتصاديًا (معظم دول أوروبا الغربية) هي الأكثر مشاركة في الأعمال التطوعية، أما دول أوروبا الشرقية فأغلبها تعاني من التخلف المعرفي والاقتصادي وتعاني من الاستبداد وبدائية نظامها السياسي، وتبعًا لذلك فإن نسبة المشاركة في الأعمال التطوعية فيها منخفضة جدًا بالمقارنة مع شقيقاتها، وهنا تبرز أهمية المشاركة الشعبية في التنمية عبر التطوع.

**الحقيقة الرابعة**: إن الأعمال التطوعية تساعد الدول بشكل مباشر، وبها يرتفع الناتج القومي والميزانيات الوطنية والمشاريع التنموية على حد سواء، فمشاركة نسبة ٢٣٪ من مجموع عدد سكان الاتحاد الأوروبي البالغ حوالي ٥١٠ مليون نسمة يعني هذا أن حوالي ٩٤ مليون شخص في الإتحاد الأوروبي يقومون بالأعمال التطوعية رغبة منهم واستشعارًا بضرورة أداء الواجبات الوطنية وخدمة لمجتمعاتهم.

## نظرة إلى العمل التطوعي في الدول العربية

**نشر الدكتور** عثمان ناصر منصور في جريدة الرأي مقالا سماه: (العمل التطوعي خدمة للمجتمع وتعزيز الانتماء الوطني)؛ ورد فيه أن عدد الجمعيات الخيرية غير الربحية في الولايات المتحدة الأمريكية يبلغ: (١٥١٤٠٠٠) جمعية، وفي بريطانيا وحدها: (٣٥٠٠٠٠)، وفي فرنسا: (٦٠٠٠٠٠) جمعية.

ويبلغ عدد الأشخاص المشاركين بالعمل التطوعي في بريطانيا ٢٢ مليون سنويا، وتبلغ ساعات العمل التطوعي الرسمي (٩٠ مليون) ساعة كل أسبوع، وتقدر القيمة الاقتصادية للتطوع الرسمي (٤٠ مليون) جنيه إسترليني سنويا.

وبلغ حجم التبرعات المعطاة للمنظمات والجمعيات غير الربحية في الولايات المتحدة (١٧٤ مليار في عام ١٩٩٩، و٧٧٪ عن طريق الأفراد، بينما بلغت التبرعات ٢١٢ مليار دولار ٢٠٠٢، وبلغ عدد المتطوعين (٩٠ مليونًا أي ما نسبته ٢٩٪ من عدد السكان حيث يعملون بواقع ٥ ساعات أسبوعيا في أعمال التطوع، ويبلغ عدد ساعات العمل( ٣٣٥٤ مليون) ساعة تقدر قيمتها (٥٠ مليار دولار) سنويا.

وبلغ عدد المنظمات التطوعية في الكيان الصهيوني أكثر من (٤٠٠٠٠ ألف) منظمة تطوعية وفق الإحصائيات عام ٢٠٠٧، وهي تزداد بمعدل (١٠٠٠ ) جمعية سنويا وقد ساهم العمل التطوعي في دعم اقتصاد الكيان الصهيوني بأكثر من (١٤ مليار دولار)، وما زال الدعم الحكومي من أهم مصادر الدخل للمؤسسات الخيرية التطوعية.

في حين بلغ عدد المنظمات التطوعية في العالم العربي ٣٥٠٠٠ ألف ) جمعية حتى عام ٢٠٠٦ وهو عدد أقل مما هو موجود في الكيان الصهيوني علمًا بأن عدد سكان الوطن العربي (٣٦٥مليونًا)[١].

علمًا بأن كثيرًا من المنظمات التطوعية في الوطن العربي ليست فعالة أو هي مجرد اسم، كما أن عددًا كبيرًا منها تغلق بعد عمر قصير بأسباب سياسية أو اقتصادية أو لكونها جهودا فردية تختفي معالمها بعد موت مؤسسها أو عجزه، كما لا تتمتع معظمها بالحريات الضرورية للعمل في الأنشطة المختلفة وفي المجالات الممكنة لأن الاحتكار يضع حدًا لها.

---

(١) الدكتور عثمان ناصر منصور، العمل التطوعي خدمة للمجتمع وتعزيز الانتماء الوطني، جريدة الرأي الأردنية، يوم الخميس، ٥ يوليو ٢٠١٢ .

# الفصل العاشر

# العمل التطوعي مهنة العظماء في بناء الأمم

## المبحث الأول:

دور المتطوعين في إقامة الحضارات والدول وصناعة التاريخ

## المبحث الثاني:

عظماء أسسوا الدول في التاريخ

## المبحث الثالث:

سلّم عشاق التغيير هو العمل

# المبحث الأول

# دور المتطوعين في إقامة الحضارات والدول وصناعة التاريخ

## أثر المتطوعين في تخفيف المعاناة البشرية

كما مرَّ بنا في الصفحات السابقة فإن العاملين في الساحة الطوعية يهدفون في المقام الأول إلى تقديم كافة المساعدات الممكنة إلى المحتاجين من البشر وبقية المخلوقات الأخرى في كوكبنا، وتظهر آثارهم جلية في هذا المقام وخاصة عند حدوث الكوارث الطبيعية والحروب الأهلية، والأمراض والفاقة والعوز، وتلك أمور تلازم الحياة البشرية في مختلف العصور وفي جميع القارات مع وجود تفاوت كبير في ملامحها، فمهمة تخفيف المعاناة البشرية مسألة في غاية الأهمية، وعندما يضع كل واحد منا نفسه موقف المتضرر من تلكم الكوارث أو أي مشكلة تضعه في موقف الحاجة إلى مساعدة الآخرين - أيا كانت الأسباب والدواعي فسرعان ما يدرك القيمة الحقيقية لتلك المساعدات التي يقدمها المتطوعون في لحظتها، وكلما تضعف الدول والمؤسسات الخدمية في المجتمعات تكبر حاجة الأفراد إلى العمل التطوعي كما نشاهده اليوم في أغلب الدول الإسلامية وخاصة في القارة الإفريقية والآسيوية، والصومال كانت اللسان الناطق أكثر من ثلاثة عقود متتالية، والتي برهن العمل التطوعي فيها فعّاليته وقدرته الهائلة على حل المشاكل بطريقة سلسة ومباشرة وأقل تعقيدًا وبيروقراطية عند حلول الأزمات.

## دور المتطوعين في إقامة الحضارات

بما أن العمل الفردي الوظيفي محدود الأثر فإن جهود المتطوعين عادة تبدأ من الفرد ولكن الفرد لا تكفيه قدراته الشخصية، سواء كان مرسلًا من الله سبحانه، أو مجدد دين أو كان غير ذلك من أنواع البشر الذين يحملون أفكارًا بعينها، بل سرعان ما يتوسع ليصبح تنظيما يحمل منهجًا للحياة يرسخ وينمي عقيدة وإيمانًا، أو يخلق فلسفة ما في منطقة معينة من العالم يسعى أصحابها لتكون نبراسًا لمجتمعاتهم، وهكذا تنتشر الأديان السماوية أو الفلسفات والأفكار البشرية في القرى والمدن بشكل متواصل لا يعرف اليأس والكسل، وعادة ما يعتنق الأديان أو الأفكار الجديدة المظلومون وضعفاء المجتمع طلبًا للعدالة والحياة السعيدة والتحرر من الإذلال المفروض عليهم.

وانطلاقا من قناعتهم وإيمانهم العميق بما آمنوا به فإنهم يقومون بتأسيس مجتمع يتمتع بقدر من التميز يختلف عن الآخرين، ومن هنا يقومون بتأسيس الجمعيات الخدمية والأحزاب المؤثرة والهيئات الوقفية ذات النفع العام والتي يمكن لبعضها أن تستمر قرنا إثر قرن وتضمن نوعًا من الديمومة والفاعلية وعدم ارتباط أعمالهم التطوعية بحياتهم وأعمارهم القصيرة، بل ترثها الأجيال بعد الأجيال.

هذا هو التفكير الاستراتيجي المنشود الذي يقوم به العظماء في الأمم من أجل نهضة الشعوب وتقدمها فهم يضحون من أجل ذلك بكل غال ومرتخص بما في ذلك أوقاتهم وأموالهم وأنفسهم الغالية، ولا يكتفوا بتقديم طاقاتهم وإنفاق قدراتهم في حياتهم الدنيوية، بل عادة يخططون لما بعد موتهم من أجل الحفاظ على مصالح الأجيال القادمة وهذا أروع عمل يؤدي إلى خلق بيئة تملك القدرات والقرارات والعزائم لبناء الأمم والحضارات من خلال إقامة العمل المؤسسي الذي هو ملك للشعوب والأمم، ليست حوانيت وأملاكًا لهم ترثها عائلاتهم من بعدهم.

وبناء على إيمانهم العميق وقناعتهم الراسخة بعدالة قضية شعوبهم فإن العظماء من المتطوعين يحبون ويعشقون التغيير بكل صدق، ويكافحون بكل جدية من أجل نقل مجتمعاتهم من أوضاعها المألوفة إلى أوضاع جديدة هم مقتنعون أن فيها حياة أفضل وأسعد للفرد والمجتمع. فهم عشاق التغيير الإيجابي في أنماط الحياة كلها من خلال مساعدة الآخرين ونصرة المنكوبين والمظلومين، وهم رافضون للاستسلام دومًا للواقع الماساوي لشعوبهم الناتج عن تصرفات المستغلين وسياسات المستكبرين المستبدين، ويوجد آلاف البشر في التاريخ فقدوا أرواحهم الغالية من أجل ما يؤمنون به من دين سماوي أو غير سماوي في سبيل التغيير الجذري في الحياة.

إن هذا الصنف رغم قلتهم في المراحل التاريخية المختلفة إلا أنهم وحدهم هم رواد المسيرة البشرية، وهم المجددون المحدثون التقاليد والعادات النافعة بدل التقاليد البالية والعادات المثبطة للهمم، وبهم كانت نشأة الحضارات وتطوراتها وصعود الأمم ورقيها ونهضتها، فما نشاهده اليوم أو نعلم من التاريخ البشري المكتوب يؤكد أنه لم تكن وراء النجاحات الجوهرية إلا فرد أو مجموعة أفراد من بني البشر، فمن خلال إيمانهم القوي بقضيتهم وفلسفتهم في الحياة وجهودهم الدؤوبة وتضحياتهم الهائلة أحدثوا أكبر التحولات التاريخية التي تخلدها ذاكرة الإنسان.

إنهم يختلفون بالفعل في المنطلقات والأديان ونظرتهم الفلسفية إلى الكون والحياة، ولكن الذي يجمعهم قوة القناعة والإيمان الراسخ لما يدعون إليه ويبشرون بها الناس، والثبات على المعتقد. فنجد الأنبياء والرسل والمجددين لفهم الدين، ونجد الفلاسفة الذين حملوا نظرة للحياة وأفكارا شاذة عن جماهير مجتمعهم، كما نجد من لا يؤمن بالله والرسل، فجميعهم ليسوا بطيف واحد تجمعهم مبادئ محددة ولكنهم جميعا يكافحون ويضحون ويموتون من أجل معتقداتهم وأفكارهم وفلسفاتهم، إنهم الرواحل في مختلف المجتمعات البشرية أيا كانت المبادئ التي يبشرون مجتمعاتهم بها.

لقد عبر رسول الهدى عن هذا المعنى بلفظة "الراحلة"(١) بأسلوبه الإعجازي الموصوف بجوامع الكلم في إشارة واضحة وقوية إلى تميزهم، وفي الحديث الصحيح: قال

---

(١) ونجد هنا روايات متعددة تعطينا جانبًا من شروح العلماء لمعنى الحديث والمقصود من كلمة الراحلة في قوله ﷺ: (إنما الناس كإبل مائة، لا تكاد تَجِدُ فيها راحلةً). وقوله ﷺ: (إنما الناس كإبل مئة تلتمس الرواحل في الناس، فلا يوجد إلا واحدة).

وقوله ﷺ: (إنما الناس كإبل مئة) وفي رواية كالإبل بزيادة أل (لا تكاد تجد فيها راحلة) وقوله ﷺ: (الناس كالإبل المائة، لا تكاد توجد فيها راحلة، وإنما هم كحفالة الشعير) والحفالة بمعنى الحثالة.

ولقد أورد زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي في كتاب فيض القدير شرح الجامع الصغير معنى الراحلة (أي مرحولة وهي النجيبة المختارة، ويقال هي من الإبل المركوب المدرب الحسن الفعال القوي على الحمل والسفر يطلق على الذكر والأنثى، والتاء فيه للمبالغة وخصها ابن قتيبة بالنوق، قال الزمخشري: يريد أن المرضى المنتخب في عزة وجوده كالنجيبة التي لا توجد في كثير من الإبل، وقال القاضي: معناه لا تكاد تجد في مئة إبل راحلة تصلح للركوب وطيئة سهلة الانقياد فكذا تجد في مئة من الناس من يصلح للصحبة فيعاون صاحبه ويلين له جانبه، وقال الراغب: الإبل في تعارفهم اسم لمئة بعير فمئة إبل عشرة آلاف بعير، فالمراد أنك ترى واحدا كعشرة آلاف وترى عشرة آلاف دون واحد.

**ولم أر أمثال الرجال تفاوتت *** لدى المجد حتى عُدَّ ألف بواحد**

وقال بعضهم خص ضرب المثل بالراحلة لأن أهل الكمال جعلهم الحق تعالى حاملين عن أتباعهم المشاق مذللة لهم الصعب في جميع الآفاق لغلبة الحنو عليهم والإشفاق).

وورد في كتاب النّهاية: الراحلة من الإبل البعير القوى على الأسفار والأحمال والذكر والأنثى فيه سواء والهاء فيه للمبالغة وفي التي يختارها الرجل لمركبه ورحله على الجابة وتمام الخلق وحسن المنظر فإذا كانت في جماعة من الإبل عرفت قال والمعنى أن المرضي المنتخب من الناس في عزة وجوده كالنجيب من الإبل القوى على الأحمال والأسفار الذي لا يوجد في كثير من الإبل.

رسول الله ﷺ: (إنما الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة) وقال ﷺ: (إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة)[1].

(أي مرحولة وهي النجيبة المختارة يقال من الإبل على المركوب المدرب الحسن الفعال القوي على الحمل والسفر يطلق على الذكر والأنثى قال الزمخشري: يريد أن الرضى المنتخب في عزه وجوده كالنجيبة التي لا توجد في كثير من الإبل وقال القاضي: معناه لا تكاد تجد في مائة إبل راحلة تصلح للركوب رطبه سهلة الانقياد فكذا لا تجد في مائة من الناس من يصلح للصحبة ويعين صاحبه ويلين له جانبه، قيل ضرب المثل بالراحلة لأن أهل الكمال حاملين عن أتباعهم المشاق ومذللة لهم الصعب في جميع الآفاق)[2]، تعبيرا عن قحط الرجال وندرة الأوفياء الأقوياء في الزمان كل الزمان قال الشاعر:

**وإذا صفا لك في زمانك واحد *** فهو المراد فأين الواحد**

فوجود هذا الصنف من البشرعزيز ونادر، ولكنه ضرورة لإحداث التغيير المنشود وتحقيق الحياة الكريمة ونصرة الشعوب المظلومة، فبدون توفر تلك الرواحل تظل المجتمعات البشرية تدور في فلك التخلف والجهل والفقر والظلامية.

## لا مكان لعبّاد المصلحة الشخصية في كتابة التاريخ

فبمجرد تصفحنا لتاريخ الأمم ندرك سريعًا أن وراء كل حدث تغييري عظيم في التاريخ إنسان عظيم يمكن أن يكون ذلك نبيًا مرسلًا من رب العالمين، ويمكن أن يكون شخصا آخر يحمل أفكارا معينة سواء نشأت واعتنقها بنفسه أو تلقاها من مصدر آخر ثم قرر أن ينشرها ويحولها إلى مشاريع محددة، فهو بإيمانه العميق واستيعاب تفاصيل تلك المبادي يشرع في بلورتها وتنميتها ليقنع شعبه أو مجتمعه بضرورة الإيمان بهذه المبادئ الجديدة والمثالية الفريدة في نوعها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب فضائل الصحابة، وأخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة).

(٢) محمد بن إسماعيل بن صلاح، التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ، الجزء الرابع، المحقق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م، ص:١٧٢.

وفي الحقيقة فإن رسل الله في مقدمة بنَّائي الحضارات في التاريخ البشري، وهم الرواد لأن الله اختارهم لقيادة بني البشر أبناء آدم ، وعصمهم من الذنوب والزلل في المواقف، فهم أكثر الناس تضحية وإيثارًا فلا منافس لهم في هذا العمل البطولي لأنهم مكلفون ببعث الحياة المستقيمة وتقويم ما اعوج من شئونها المعقدة، ولهذا فهم القدوة لنا ولغيرنا، وتعرضوا لأصناف الإيذاء والتعذيب والقتل والتشريد والمطارة والنفي والإخراج من مدنهم، ومع هذا فقد صبروا وتحملوا من أجل تحقيق الغاية العظمى التي بعثوا وأرسلوا إليها من أجلها بدون أن ينتظروا الأجر والمال من البشر، لأن كل ما قاموا به كان عملا طوعيا، وأعني كان هذا بدون مقابل مادي يتلقونه من الناس كما يفعل غيرهم أثناء تعاملهم مع مختلف القضايا وعند إسداء المعروف لغيرهم.

فالآيات التالية وشبيهاتها تكررت في القرآن كثيرًا لنتعلم منها قيمة العمل الطوعي عند الله سبحانه وتعالى وفوائده الجليلة لبني البشر في الحياتين، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس]، ويقول الله جل ثناؤه ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سبأ].

كان الرسل والأنبياء من نبي الله نوح  إلى نبي الله محمد ﷺ يحملون رسالة واحدة للبشرية وهذا شعارهم الذي يؤصل في نفوسنا قيمة التطوع في حياتنا، ولقد سبقت في البحث فقرات تتحدث عن الأنبياء والرسل في القرآن الكريم يمكن أن يراجعه القارئ الكريم في مواضعها.

## المبحث الثاني

## عظماء أسسوا الدول في التاريخ

وأمامنا بعض النماذج المشهورة من مؤسسي الدول وقيادة الأمم في التاريخ، نأخذ أمثلة من الخلافة العثمانية والولايات المتحدة والصين وكوبا كنماذج أكثر تأثيرًا في التاريخ[(١)].

### مؤسس الدولة العثمانية

كثيرون هم من استطاعوا أن يُسطّروا عناوين النصر والمجد في حياتهم، ولكن قليلًا من بين هؤلاء من استطاع أن يورث هذا المجد لأبنائه، وأقل القليل من جعل هذا المجد ميراثًا حضاريًا على مدى قرون عدة، ومن بين هؤلاء عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية. نتعرف على قصة حياة السلطان عثمان الأول وجهوده في توطيد دعائم الدولة.

ويعتبر عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه مُؤَسِّس الدولة العثمانية وأوَّل سلاطينها وإليه تُنسب؛ فلقد تعاقب على إمارة السلطنة العثمانية قبل أن تُعلن نفسها خلافة إسلامية سلاطين أقوياء، ويُعتبر عثمان بن أرطغرل هو مُؤَسِّس الدولة وبانيها، وكانت وصاياه لابنه دستورًا سار عليه سلاطين الدولة العثمانية بعده[(٢)].

---

(١) عظمة الرجال والنساء في التاريخ البشري لا يعني أنهم متَّصفون بالكمال والنزاهة عن الأخطاء مطلقًا، فالكمال لله وحده، والعصمة عن ارتكاب المنكرات لرسل الله عليهم السلام، فاختياري لقيادات بارزة معيَّنة وتسجيل سطور عنهم في هذا الكتاب يهدف إلى تذكير القارئ المحترم أن هؤلاء أثبتوا لشعوبهم وللعالم أن لديهم قدرات هائلة في التخطيط والصمود ومواجهة التحدّيات الكبرى وبذل تضحيات جسيمة من أجل إنقاذ شعوبهم وإخراجها من النكبات والأزمات والتخلف، وهم في مختلف القارات والأديان والأحقاب، لكي نشاهد أن أشخاصا من ذوي الطموحات والعزائم الصلبة يُحدِثون التغيرات الكبرى في الأمم، فمثل هذه النماذج تذكّي المشاعر ونتذكَّر أننا من أمة لديها قيم ودين يوجب علينا القيام بمثل هذه الأعمال الراقية، وأن الاستسلام لظروف القهر ليس قانونًا مفروضًا علينا، بل نحن قادرون على التحدّي ومقاومة المظالم المتراكمة وتجديد حياتنا فهمًا وواقعًا.

وليس هدفي هنا التقويم الذي يستوجب ذكر السلبيات والإيجابيات، وإنما العبرة في هذه المناسبة هو الوقوف على الجوانب المضيئة من تاريخهم والوقوف أمام جبروت أعدائهم، وهذا ما نحتاج إليه في مرحلة الانحطاط التي نمر بها ويعيش شعبنا وأمتنا في كوابيسها المقلقة والمحزنة.

(٢) محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٢، ص:٥١.

مولده ونشأته: ولد السلطان عثمان بن أرطغرل أو (عثمان الأول) بن سليمان شاه (٦٥٦ هـ. ١٢٥٨م ) مؤسس الدولة العثمانية وأول سلاطينها وإليه تنسب[١]، وهو العام الذي سقطت فيه الخلافة العباسية، ولد في أجواء مضطربة والأمة الإسلامية في حالة ضعف واضطهاد وتسلط من أعدائها، فتفتحت عيناه على مآسي المسلمين وزوال هيبتهم وضياع خلافتهم، وتفتحت أيضًا على عدو صليبي عتيد مرابط على ثغور قبيلته، فنشأ عثمان محبًا للجهاد، مشحونًا بالإيمان، وبرغبة عارمة في استعادة أمجاد المسلمين والانتقام من أعداء الإسلام[٢].

أذّن أرطغرل غازي في الأذن اليمنى وأقام في الأذن اليسرى، ثم قال: (أسميك عثمان اسم الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ وأتمنى أن تنشئ دولة كالتى رأيتها في "رؤياي[٣]" يا ولدي)[٤].

---

(١) علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامي، بورسعيد،٢٠٠١.

(٢) ابن الكثير، البداية والنهاية، الجزء ١٣، ص: ١٩٢- ١٩٣.

(٣) رأى عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه رؤيا عجيبة دلت على مجد وسلطان أحفاده العثمانيين.. فما قصتها؟

دولة آل عثمان أو العثمانيين تعود أصولها إلى مؤسسها عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه زعيم أفراد قبيلة قايى إحدى القبائل التركية التي استقرت بالأناضول (تركيا الآن). ولعثمان بن أرطغرل جد العثمانيين قصة ورؤيا عجيبة حدثت له؛ حيث كان عثمان -رحمه الله- يتردد على شيخ له اسمه إده بالي، كما اعتاد أن يفعل منذ صغره لينتفع بعلم الشيخ، وفي إحدى المرات رأى عثمان بن أرطغرل ابنة الشيخ وكانت تدعى مال خاتون فتعلق بها ورغب أن يتزوجها، ولكن والدها الشيخ رفض أن يزوجها له، فحزن عثمان لذلك ولم يرغب في الزواج بغيرها حتى وافق أبوها الشيخ؛ وذلك بعد أن قص عليه عثمان مناما رآه ذات ليلة.

وكان الحلم أنه رأى القمر صعد من صدر هذا الرجل الصالح وصار بدرًا، ثم نزل في صدر عثمان ثم خرجت من صلب عثمان شجرة نمت في الحال حتى غطت الأجواء بظلها عبر جبال القوقاز والبلقان وطوروس (غرب تركيا الآن) وأطلس، وخرج من جذعها أنهار دجلة والفرات والنيل والدانوب (في البلقان بشرق أوروبا الآن)، ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف، تحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية، فتفاءل الشيخ من هذا المنام وزوّج ابنته عثمان بن أرطغرل..

وبشّر الشيخ عثمان بأن أسرته ونسله سوف يحكمون العالم في المستقبل، ثم قال له واصفا ما الذي ينبغي أن يكون عليه الحاكم الصالح.

(٤) **صالح كولن**، راية حلما كان- وواقعا صار قصة مؤسس الدولة العثمانية، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة- ٢٠١٤، ص: ١٣.

**تعليم عثمان في الصغر**: كان تعليم عثمان مهمًا جدًا، وكان أرطغرل غازي يود لو حصل ابنه على تعليم أفضل منه، فشاور فقهاء الدولة في هذا الشأن، فقال: أيها السادة، أمنيتي أن يتربى أبنائي ويتعلموا العلم والأدب ومكارم الأخلاق والفنون العسكرية، لكن تعليمي وسني يحولان دون أن أقوم بذلك، فلا تبخلوا عليهم بمساعدتكم من الآن فصاعدا[1]. فعين أربعة أساتذة لتعليم عثمان، استدعى أرطغرل غازي ابنه عثمان، فقال يا بني ينبغي أن تتعلم الفنون العسكرية، فقد تعلمت قراءة القرآن الكريم، يا بني استدعيتك للحديث في أمر آخر، من الآن أساتذتك سيعلمونك العلم والأخلاق وفنون القتال.

وأكمل أرطغرل حديثه قائلا: اسمع يا بني، للتعليم خمسة أسس هي: العلم والأخلاق والأدب والقوة والشجاعة، من لا علم له فهو جاهل يسير على حافة الهاوية مغمض العينين، ومن السهل جدًا خداعه، ومن لا أخلاق عنده لا سيما أخلاق الإسلام فهو كالشوكة، لا يصلح لأي عمل ولا يفيد أحدًا، ثم إن الإنسان الوقح عفن كريه الرائحة، ينفر الناس منه، والقوة سيف قاطع يمكن لليد التى تحمله أن تجاهد به أو تظلم، فإذا كان لدى من يحمل القوة بيده علم وأخلاق وأدب، فلن يضار أحد من تلك القوة، ثم اعلم أن الإقدام رأس الشجاعة، فمن اجتمعت فيه تلك الصفات دون الشجاعة، فهو جسد بلا روح، خاملٌ لا يتحرك، فلا تنس كلامي يا بنيَّ[2].

**توليته الإمارة**: استقرت القبيلة التركمانية بقيادة "أرطغرل بن سليمان" في غرب الأناضول بعدما سمح لهم سلطان الدولة السلجوقية "علاء الدين السلجوقي" بالاستيطان بإمارته وعقد حلفًا مع "أرطغرل" للدفاع المشترك ضد العدو البيزنطي، وأمضى أرطغرل بعد ذلك باقي عمره في الجهاد والرباط؛ حتى سمي في المصادر التاريخية بـ"غازي الثغور" وبعد وفاته ٦٨٧ هجرية كتب السلطان علاء الدين لابنه عثمان بالإمارة من بعده، وأرسل إليه خلعة وسيفًا كعادته عند تثبيت الأمراء، فبدأ يوسع أملاك القبيلة ناحية الغرب بموافقة "علاء الدين" سلطان الدولة السلجوقية[3].

---

(١) **صالح كولن**، راية حلما كان- وواقعا صار قصة مؤسس الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص: ٢٥.

(٢) صالح كولن، نفس المرجع، ص: ٢٧.

(٣) عبد الملك بن حسين المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٨،ج ٢، ص ٣١٢.

**أعمال عثمان بن أرطغرل:** (وكان عثمان خير خلف لأبيه، وبدأ يُوَسِّع إمارته؛ فتمكَّن من أن يضمَّ إليه عام (٦٨٨هـ= ١٢٨٩م) قلعة قره حصار (القلعة السوداء)، فسُرَّ الملك علاء الدين سلطان السلاجقة بهذا كثيرًا، فمنحه لقب (بك)، والأراضي التي يضُمُّها إليه كافَّة، وسمح له بضرب العملة، وأن يُذكر اسمه في خطبة الجمعة. وتابع فتوحاته، ففتح مدن "اينه كولي" و"يني شهر" و"كوبري حصار" و"بلجك" وغيرها)(١).

وفي عام (٦٩٩هـ / ١٣٠٠م) أغار المغول على مقر الدولة السلجوقية، ففرَّ السلطان علاء الدين من وجههم، والتجأ إلى إمبراطور بيزنطة، وتُوُفِّيَ هناك في العام نفسه، وإن قيل: إنَّ المغول قد تمكَّنُوا من قتله، وتولية ابنه غياث الدين مكانه. ثم إن المغول قد قتلوا غياث الدين، ففسح المجال لعثمان، وقيل: إنه لما مات السلطان علاء الدين السلجوقي في قونية، ولم يكن له ذرية، اجتمع الوزراء والأعيان وقرروا أنه لا يليق للسلطنة سوى عثمان الغازي، فعرضوا عليه هذا الأمر فأجاب طلبهم، وصار سلطانًا من هذا التاريخ، وجعل مقر سلطنته " يني شهر"(٢).

وكانت سياسة عثمان في توغله داخل الدولة البيزنطية قائمة على: مواجهة كل إقليم على حدة، واتباع أسلوب الحصار طويل المدى، ثم إقامة الحاميات العسكرية في المناطق التي يتم فتحها ليضمن عدم تمردها عليه، ثم نشر الإسلام بين أفرادها، فضلًا عن المعاملة الحسنة التي كان يعامل بها أهالي تلك المناطق(٣).

**من صفاته القيادية: عندما نتأمل في سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة في شخصيته كقائد عسكري، ورجل سياسي، وحكيم بارع، ومن أهم هذه الصفات:**

١- الشجاعة: عندما تنادى أمراء النصارى البيزنطيين في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته، وكستله في عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م لتشكيل حلف صليبي للقضاء على الدولة الناشئة تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه

---

(١) د. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق- ٢٠١٢، الطبعة الثالثة، ص: ١٤-١٥.

(٢) صالح كولن، راية حلما كان- وواقعا صار قصة مؤسس الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص: ١٥٥.

(٣) د.محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص: ١٦.

وشتت الجيوش الصليبية وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين[1].

٢- النضج السياسي: لقد رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين. وسمح له بسك العملة باسمه، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحته[2].

٣- الإخلاص: عندما لمس سكان الأراضي القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سدًا منيعًا أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين [3].

٤- العدل: تروي معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام ٦٨٤هـ، وأن عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان: كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك؟ فأجابه عثمان: بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذي نعبده، يقول لنا: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)؟ فاهتدى الرجل وقومه إلى الإسلام. لقد استخدم عثمان العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجوار أو التعسف أو التجبر، أو الطغيان، أو البطش[4].

ومات الغازي عثمان عام (٧٢٦هـ الموافق ١٣٢٦م)، رحمه الله بعد حياة عامرة بالغزو والجهاد، حيث قضى في السلطنة ما بين ٢٦ و٢٧ سنة. وقد عهد لابنه أورخان بالحُكم من

(١) زيادة أبو غنيمة، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ص: ١٩٧.

(٢) د. عبد اللطيف عبد الله دهيش، قيام الدولة العثمانية، مكتبة النهضة الحديثة، الطبعة الثانية، مكة المكرمة – ١٩٩٥، ص: ٢٥.

(٣) د. عبد اللطيف عبد الله دهيش، نفس المرجع، ص: ٣٦.

(4) J.VON HAMMER, OSMANLI İMPARATORLUĞU TARİHİ, C1,İTANBUL - 2013, P:33-35

بعده، وانتقل بدولته من مجرد إمارة صغيرة إلى دولة قوية فتية، قدر لها بعد وفاته أن تصير حامية الإسلام، ولذلك صار يعتز به كل سلاطين الدولة العثمانية، وآثروا أن ينسبوا إليه دولتهم. كما ترك سيرة حسنة لكل حاكم يطمح للجمع بين حظ الدنيا وحظ الآخرة، فكان مثلا للعدل. كما كان محسنا للفقراء والمساكين، حتى قيل: إنه كان يجمع أنواع الطعام وأصناف الحلوى لهم، ويطبخ لهم بعد كل ثلاثة أيام سماطا عظيما يأكل منه الخاص والعام ممن ذكر وغيرهم، وبلغ من حبه للإنفاق أنه ما ترك عند موته سوى فرس وسيف ودرع ونحو ذلك من اللباس والفراش[1].

لم يكن نجاح مشروعه صدفة حظ، بل نلاحظ هنا قوة الرجل في الحرب والسلم وكيف كان يتصرف بأسلوب يتناسب مع أحداث السياسة الداخلية والخارجية مما منحه التمكين وبناء دولة كانت في صدارة العالم بضعة قرون تلت.

**من أقوال مؤسس الخلافة العثمانية:** لقد وردت حكم بالغة من خلال وصيته لابنه أورخان وكانت تلك الوصية دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد، ومنها:

يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين. وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلًا. يا بني: أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود. ولا يغرك الشيطان بجندك وبمالك.

وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة. يا بني: إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وأنه بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله، يا بنى: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة الحكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا ونموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل)[2].

لقد كانت هذه الوصية منهجًا سار عليه العثمانيون، فاهتمُّوا بالعلم وبالمؤسسات العلمية، وبالجيش والمؤسسات العسكرية، وبالعلماء واحترامهم، وبالجهاد الذي أوصل

(١) عبد الملك بن حسين المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص: ٣١٢.

(٢) د.محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص١٦.

فتوحاته إلى أقصى مكان وصلت إليه راية جيش مسلم، وبالإدارة وبالحضارة، وعند تتبع جهود العثمانيين في القارات الثلاثة تجد آثارهم الحضارية ماثلة بكل وضوح، فكما نجد الفن المعماري التركي في جميع المناطق التي وطأتها أقدام العثمانيين من خلال المساجد والعمائر السكنية نجد دورهم القوي في حماية الثغور والديار من القوى المعادية مما خلد ذكرى الخلافة العثمانية في ذاكرة الشعوب المسلمة في القارات المعمورة، لقد صمدوا أمام جحافل أوروبا شرقها وغربها قرونا عديدة، وبسبب العثمانيين دخلت في الإسلام كثير من الشعوب الأوروبية والإفريقية بصفة خاصة، ولم تتمكن القوى الأوربية من تقسيم العالم الإسلامي إلا بعد صراع مرير أدى في النهاية إلى انهيار الدولة العثمانية في بداية الحرب العالمية الأولى، وعندها خلت الأجواء للدول المستعمرة لكي تمزق الأمة وتستخدم بعضها ضد البعض وتستغل خيراتها لبناء اقتصادياتها، لقد كان العثمانيون آخر كيان وحد الأمة المسلمة. ولقد سجل أمير الشعراء أحمد شوقي رثاءه بقصيدة طويلة عبر فيها عن حزنه ومدى خسارة الأمة بفقدانها واختار لها اسم: رثاء الخلافة وكان مطلعها:

**عـادت أَغـاني العـرسِ رَجْـعَ نُـواح *** ونُعيـــتِ بـــين معـــالم الأَفـــراحِ**

**كُفِّنـــتِ في ليـــلِ الزفـــاف بثوبـــه *** ودُفنـــتِ عنـــد تـــبلُّج الإِصـــباح**

**شُـيِّعتِ مـن هَلَـعٍ بعَـبْرةِ ضـاحكٍ *** في كـلِّ ناحيـةٍ، وسـكرةِ صـاح**

**ضـجَّتْ عليـكِ مـآذنٌ، ومنـابر *** وبكـت عليـك ممالـكٌ، ونـواح**

**الهنــدُ والهــةٌ، ومصـــرُ حزينـــةٌ *** تبكـي عليـك بمـدمعٍ سَـحّاحِ**

**والشـامُ تسـأَلُ، والعـراق، وفـارسٌ *** أَمَحَـا مـن الأَرض الخلافـةَ مـاح؟**

**وأَتـت لـك الجُمَـعُ الجلائـلُ مأْتمًـا *** فقعـــدن فيـــه مَقاعـــدَ الأَنـــواح**

**يـــا لَلرّجـــال لحُـــرة مَـــوءُودة *** قُتلــت بغــير جريــرة وجُنــاح**

**إِنَّ الَّـذين أَسَـتْ جراحَـكِ حـربُهم *** قتلتْــكِ ســلهمُ بغــير جِــراح**

**هتكــوا بأَيــديهم مُــلاءَةَ فخــرهِم *** مَوْشِـــيَّةً بمواهـــب الفتـــاح**

**نزعـوا عـن الأَعنـاق خـيرَ قِـلادة *** ونَضَوْا عن الأَعطاف خير وِشاح**

حَسَـــبٌ أَتـــى طــولُ الليــالي دونَــه *** قــد طــاح بــين عشــيةٍ وصبــاح
وعَلاقَــةٌ فُصِــمَت عُــرَى أَسبابها *** كانـــت أَبـــرَّ علائـــقِ الأَرواح
جَمَعَت علـى البرِّ الحُضـورَ، وربـما *** جَمَعَـتْ عليـه سرائــرَ النُّـــزَّاح
نظمت صفوفَ المسلمين وخَطْوَهم *** في كـــلِّ غُـــدوةِ جُمعـــة ورواح
بكـت الصـلاةُ، وتلـك فتنةُ عابثٍ *** بالشــرع، عِرْبيـدِ القضـاءِ، وَقـاح
أَفتـــى خُزَعْبِلَـــةً، وقـــال ضـــلالةً *** وأَتـــى بكفـــر في الـــبلاد بـــواح

إلى آخر أبيات القصيدة.

## الزعيم الصيني ماو تسي تونغ

ولد ماو في ٢٦ دسيمبر ١٨٩٣في مقاطعة هيوفن من أب فلاح، وفي ٩ سبتمبر ١٩٧٦ توفي الزعيم الصيني ماو عن عمر ناهز (٨٢) عامًا، بدء كفاحه من أجل بناء الصين العظيم وتحريرها من التبعية اليابانية والاستغلال البشع من قبل القوى الاستعمارية في وقت مبكر من عمره بسبب الأحداث المتسارعة في الصين والفوضى العارمة فيها، وعندما كان في الثامنة عشرة من عمره قامت الثورة ضد سلالة تشينغ وبعد شهور من قيامها انتهت الملكية، وأعلنت جمهورية الصين، التي لم تعرف حكومة مستقرة، فكانت قاعدة لحرب أهلية مسببة الفوضى وظلت الصين كذلك حتى ١٩٤٩.

أراد ماو أن يصبح أستاذًا فدخل جامعة بكين في ١٩١٨وهناك اعتنق الشيوعية كونه يساريًا في أفكاره. وفي ١٩٢٠ كان واضحًا أنه ماركسي راديكالي كعشرات الصينين. وفي يونيو ١٩٢١أصبح واحدًا من الاثني عشر الذين أسسوا الحزب الشيوعي في شنغهاي. وترقى فيه ببطء حتى صار زعيما له في ١٩٣٧[1].

هذه القيادة أخرجت الشعب الصيني العظيم من تخلف شنيع كان مضرب المثل إلى دولة نافست القوى العظمى في القرن العشرين، وفجرت القنبلة النوية، وكان يوم ٢٤ إبريل ١٩٧٠يوم أحدثت الصين المفاجئة المدوية حين أطلقت أول قمر صناعي محققة

(١)للتعرف على المزيد من حياة ماو تسي تونغ راجع:
Rebecca E. Karl, MAO ZEDONG AND CHINA IN THE TWENTIETH-CENTURY WORLD, Duke University Press, Durham and London, 2010.

بذلك توجيه الرئيس ماو تسي تونغ: "علينا أن نطلق الأقمار الصناعية أيضًا" حتى أخذت مقعدها من الأمم المتحدة وأصبحت واحدة من الدول الخمسة الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي، وهي تمثل اليوم أكبر قوة اقتصادية في العالم وهذا بفضل فئة قليلة من القيادة الطموحة عاشقة التغيير والتي أعدت نفسها للتضحية الجسيمة من أجل تحقيق المصلحة العامة.

**من أقوال ماو تسي تونغ:** لا نحقق الأعمال بالتمنيات إنما بالإرادة تصنع المعجزات. من يقوم بنصف ثورة كمن يحفر قبره بيده. على الشعوب والأمم المضطهدة ألا تبني آمالها على التحرر من الإمبريالية وعملائها إذ إنها لن تكسب النصر إلا بتدعيم وحدتها والمثابرة على النضال.

## جورج واشنطون الرئيس الأول للولايات المتحدة الأمريكية

منذ نشأته من أسرة تمتهن مهنة الزراعة وانضمامه إلى جيش بريطانيا العظمى في أمريكا حقق شهرة من خلال عمله وأدت قيادته إلى انتصارات كبيرة، ومنحت جهوده تلك رتبا عسكرية متقدمة في الجيش البريطاني، وكان في البداية من أقوى المؤيدين لحكم بريطانيا في أمريكا، لكنه غير رأيه في المسألة وقاد الحروب الشرسة ضد الجيش البريطاني، الأمر الذي أهله في نهاية الأمر لقيادة الجيش الأمريكي المقاتل من أجل الانفصال عن بريطانيا.

كان ناجحًا جدًا في عمله عندما كان القائد الأعلى في الجيشِ القاريِ في الحرب الانفصالية الأمريكية من ١٧٧٥ إلى ١٧٨٣ ومنها قيادته حملة نيويورك ونيو جيرسي، فبعد قيادة النصر الأمريكي في الحرب الثورية، رفض قيادة النظام العسكري، وعاد إلى الحياة المدنية.

في ١٧٨٧ ترأس الاتفاقية الدستوريةَ التي صاغت الدستور الأمريكي الحالي، وفي ١٧٨٩ انتخبه الأمريكيون أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، تولى جورج واشنطن رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية بالإجماع وبذلك يكون الرئيس الأمريكي الوحيد الذي يفوز بالانتخابات الرئاسية بنسبة ١٠٠٪، وانتخبه الأمريكيون مرة ثانية.

لقد وضع واشنطون الكثير من السياساتِ والتقاليد التي لاتزال حتى الآن متبعة، بسبب دورِه المحوري في تأسيس الولايات المتحدة، ولهذا فإن مدينة واشنطن تطلق عليه في أغلب الأحيان اسم (أب البلاد).

حدد مجلس الشيوخ الأمريكي راتب جورج واشنطن بـ ٢٥,٠٠٠ دولار في العام (كان رقما ذو قيمة أكبر ذلك الوقت)، لكنه رفض الراتب حيث كان يرى نفسه خادما عامًا للدولة والوطن، لكنه وافق في النهاية بعد حث طويل ومستمر من مجلس الشيوخ الأمريكي.

**من أقوال جورج واشنطن:** "**لا** تنم بينما غيرك يتكلم، ولا تجلس وغيرك واقف، ولا تتكلم في موقف يستدعي الصمت". "أرجو أن أتمتع دائما بالعزم والفضيلة الكافيين لكي أحافظ على أكثر الألقاب التي يحسد المرء عليها وهو لقب إنسان شريف". "إدارة العدالة هي أمتن أركان الحكومة". "الدستور هو المرشد الذي لن أتخلى عنه أبدًا". "الاستعداد للحرب هي أفضل الوسائل فعالية للحفاظ على السلام". "السعادة والواجب الأخلاقي متصلان لا ينفصلان". "اجتهد دائما أن تحافظ على تلك الشعرة الإلهية التي تضيء القلوب وهى الضمير". "الصداقة الحقيقية نبات بطيء النمو". "أموت بصعوبة ولكنني لست خائفًا". "أن تكون وحيدًا أفضل من رفقة سيئة". "اذا سلبنا حرية التعبير عن الراي فسنصبح مثل الدابة البكماء التي تقاد إلى المسلخ". - جورج واشنطن (أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية)[(١)].

## الزعيم الكوبي فيدل كاسترو

فيدل أليخاندرو كاسترو ولد ١٣ أغسطس عام ١٩٢٦ وتوفي ٢٦ نوفيمبر عام ٢٠١٦.

كان رئيسا لكوبا منذ العام ١٩٥٩بعد إطاحته بحكومة فولغينسيو باتيستا بثورة عسكرية حتى عام ٢٠٠٨ عند إعلانه عدم ترشحه لولاية جديدة وانتخاب أخيه راؤول كاسترو مكانه. وكان كاسترو في ١٩٦٥أمين الحزب الشيوعي في كوبا وقاد تحويل البلاد إلى النظام الشيوعي ونظام حكم الحزب الوحيد. وكان أعلى قائد عسكري للدولة. توفي في ٢٦ نوفمبر ٢٠١٦، عن عمر يناهز ٩٠ عامًا بموتة طبيعية بعد أن نجا من ٦٣٨ محاولة

---

(١) للمزيد من سيرة جورج واشنطون راجع:

https://www.biography.com/people/george-washington-9524786

وكذلك:

https://www.britannica.com/biography/George-Washington.

اغتيال فاشلة والتي أهلته لدخوله موسوعة غينيس بسببها. وكان يقول مازحا: أخشى عندما تأتي منيتي ألا يصدق ذاك أحد.

لقد حكم كاسترو كوبا على ما يربو٥٧ عامًا، بعد أن أطاح رئيسها السابق بثورة مسلحة في ذروة الحرب الباردة بين القوى العظمى، وأيا كان نظام الحكم وأساليبه فقد تمكن الرجل مع رفاقه من بناء دولة مستقرة حققت بعض النجاحات النادرة مثل نجاح كوبا في محو الأمية والعلاج المجاني لكل الكوبين، والحياة المستقرة والاستقرار السياسي ورفض التبعية المهينة للدول العظمى.

وبكفاحه يعتبر الرجل من القيادات العالمية النادرة من حيث التضحية لبلاده والقيام للعمل الطوعي المطلوب من الشباب في المجتمعات البشرية لإخراج بلدانهم ومواطنيهم عندما يواجهون الأزمات الحادة والمخاطر الداخلية والخارجية والانهيارات والفوضى العارمة، إنها مواقف بطولية تتطلب إلى رباطة الجاش والعزيمة والصبر.

"أنا لها" لا يستطيع أن يقولها كل إنسان في اللحظات الحرجة، وإنما العظماء وحدهم هم القادرون على ذلك، وكان كاسترو واحدا ممن قالوا ذلك في لحظة الإحساس بالمذلة.

**من أقوال الزعيم الكوبي فيدل كاسترو:** "لا قيمة لأحكامكم ضدي لأن التاريخ سيبرئني حتمًا "، "ما أقوله هنا لا يرضي الجميع، ولكني سأقول كل ما أفكر به، وسأنفذ ذلك مع احترامي للآخرين"، "لو كانت القدرة على البقاء على قيد الحياة بعد محاولات الاغتيال من الرياضات الأولمبية لكنت حصلت على الميدالية الذهبية"، " لينظر الوطن إليكم بفخر واعتزاز". "لا تخشوا الموت المجيد". "الموت في سبيل الوطن يعني الحياة". "النصر هو المثابر". "من لا يستطيع الكفاح في سبيل الآخرين لن يتمكن أبدًا من النضال في سبيل نفسه". "بدأت الثورة ومعي ٨٢ شخصا، ولو اضطررت لتكرار ذلك لكتفيت بـ١٥ أو ١٠ أشخاص". ١٠ أشخاص وإيمان مطلق.

" الثورة ليست فراشا من الورود". "الثورة صراع بين المستقبل والماضي". "البشرية متعطشة للعدالة". "المقاتل يمكن أن يموت ولكن فكرته تبقى خالدة". "الأفكار لا تحتاج لدعم السلاح إذا حظيت بدعم الناس". ومن أشهر الجمل التي كان يرددها عند قرار عودته إلى كوبا من منفاه في مكسيك الجملة التالية: "إذا ذهبتُ سأصل، وإذا وصلتُ

سأدخل، وإذا دخلتُ سأفوز". وفقًا لأولئك الذين كانوا معه في منفاه في المكسيك، كانت هذه الكلمات الأكثر تكرارًا من قبل فيدل كاسترو قبل أن يبحر في عام ١٩٥٦ على اليخت غرانما مع ٨٠ شخصًا لبدء حرب العصابات في كوبا، في محاولة لهزيمة فولغينسيو باتيستا رئيس كوبا آنذاك. كان التفاؤل من صفات فيدل كاسترو الذي كان يقول دائمًا أن الثوري لا يجب أن يكون متشائمًا[١].

---

(١) للمزيد اطلع على الموقع الإلكتروني :

https://www.britannica.com/biography/Fidel-Castro

# المبحث الثالث

# سلّم عشاق التغيير هو العمل

الميزان الدقيق والسلّم الذي يصعد به عشاق التغيير إلى عالمهم هو العمل الصالح فقط لا غير. يقول رسول الله ﷺ "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"رواه مسلم في صحيحه.

هذه الجملة النبوية الرائعة وكل كلامه رائع تمثل ميزانًا دقيقًا في السباق الجاري بين بني البشر في حياتهم، لأنها تضع الإنسان حيث يستحق أن يوضع، وتعبر عن الفرد الحر واستقلاليته النوعية وتميزه عن الآخرين، والمطلوب منه أن يكون ذلك الذي يواصل يومه بليله لكسب الوقت والوصول لمراتب العظماء في الدارين، كما توضح لنا أن قيمة الإنسان ما يحسن إنجازه في لحظات عمره الغالية، وأنفاسه المتتابعة لا ما يتمناه، وأن السباق في الحياة البشرية أمر طبيعي حقًا، بل هو ضرورة ملحة لإحداث التغيرات المنشودة في مسيرتنا، والتنمية المطلوبة في كل عصر من العصور، (فليتنافس المتنافسون) منهج ثابت تتعامل الأمم بحق أو بباطل كل حسب رؤيته للحياة وقوانينها. كما أن التنافس والتسابق من العوامل المهمة للتجديد والإبداع، ومقاومة التزمت والجمود، ورفض اتباع التقاليد البالية التي لا تحمل البرهان والمنهجية العلمية والمنطق السليم في حياتنا اليومية أيا كان مصدرها ومنبعها.

إن أصحاب النفوس الضعيفة هم الذين يكتفون بالمراتب السفلى والسير دومًا خلف القافلة المجدة، متذرعين بحجج واهية تتناسب مع معنوياتهم المنهارة، وتغذي نفوسهم المريضة، ويبذلون كل جهد ممكن للدفاع عن أمراضهم الاجتماعية وثقافاتهم الموروثة الخاطئة وتقاليدهم البالية المنحرفة، مرددين، فعلًا أو قولًا، المقولات التي سجلها القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف]، رافضين اتباع الطرق السوية والمستقيمة، والتي يرشدنا إليها القرآن ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة]. وهذا شأن العاجزين الذين لا يجدون لذة البحث عن الحقيقة، وتوظيف طاقاتهم وإمكاناتهم المادية والمعنوية من أجل

العمل الجاد، والإنتاج المثمر، وكأنهم لا يعنيهم ما يدور حولهم من التطورات المتسارعة، وأسباب القوة والغلبة والتمكين.

انظر إلى هذا الحوار بين الرسل وبين العاكفين على أباطيلهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزخرف] منطق مقلوب وميزان معكوس مبني على عناد الحق والحقائق والرضى بالأوهام الآسرة قلوبهم والتي تهيمن على أحوالهم وتتحكم على مجريات حياتهم اليومية، وتجعلهم يهربون من أضواء الصباح إلى دهاليز الجحور المظلمة.

**ولله درّ شاعر النيل حافظ إبراهيم القائل:**

**وهـم يقلـد بعضـهم بعضـا بـه *** وقيـود هـذا العـالم الأوهـام**

**صـور العمـى شـتى وأقبحهـا *** إذا نظـرت بغـير عيـونهن الهـام**

"من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه"، قالها رسول الله ﷺ، وهي جملة واحدة من حديث طويل متفق عليه يقول الرسول ﷺ: وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سَهل الله لديه طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه).

هذه العبارات الجليلات الواردة في هذا الحديث الشريف تجمع بين جزالة الألفاظ ورقي المعاني المفيدة والمفعمة بقوة الترابط والتساند، وحكمة الشمولية واتساع رقعة التعاون على البر والتقوى، وهو ما يضمن قوة وتماسك المجتمع الإنساني عندما يتبع سنن هذا الدين وتعاليمه. فتنفيس الكرب عن الناس جميعًا من سنن الهدى، بل الشفقة والرحمة تشمل الحيوانات والبيئة، وما أكثر الكرب التي تحتاج إلى التنفيس والتفريج في حياتنا،

وتخفيف المعاناة ومحاربة الفقر ومساعدة ذوي الاحتياجات الخاصة، إنها مجالات إنسانية تسعى إلى تحقيقها البشرية بوسائل متنوعة.

وكلمة (من ستر مسلما) تعني أمورًا كثيرة، أولها حفظ الأسرار وصون الألسن من الولوغ في أعراض الناس وحماية المجتمع من القيل والقال، والسعي إلى نشر فضائله وجمالياته المتوفرة، وتلك خصال كريمة تساعد المجتمعات على غرس معاني الأخوة والمحبة والأمن الجماعي والاستقرار المادي والمعنوي، بدل التفكك والكراهية والأحقاد التي تنشأ عن الاشتغال بإذاعة الفواحش ونشر الأكاذيب، وهدم بنيان الأمة وقواعد الأمن والسلام.

أما العبارة: (وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) فإنها تفتح أبواب الخير كلها أمام الإنسان، وتشمل كافة مجالات الحياة للتقرب إلى الله وحصول عونه ومدده، ومهم جدًا ألا نبخل بفعل الخيرات على أنفسنا، وفي الحديث: فضل العلم، وفضل طلبة العلم وما يحوزونه من شرف وسعادة ورحمة ودعاء الملائكة لهم، كما أن إعلان شرفهم في الملأ الأعلى جائزة ذات قيمة عالية، يمنحها الله لأهل المراكز العلمية، مثل: المساجد، والمدارس، والجامعات، ومنازل الخير، أو أي مكان على الأرض، يتداول فيه العلم النافع. لأنها المنارات التي تبدد الجهالات وتخلق المناخ الذي يهيئ الحياة الكريمة والسعادة في الدارين.

إن الوصول إلى هذه الرتبة العالية، المضمون عواقبها، المحمود نتائجها حلم لكل العقلاء الشرفاء، وساحة تنافس للعظماء العاملين، أصحاب الهمم العالية والأحلام الجميلة، والنفوس الأبية، لأن هؤلاء هم الذين لا يتسرب إلى نفوسهم اليأس والعجز مهما تعاظمت الصعاب وتراكمت الأزمات، وأظلمت الدنيا عليهم. يقول الشاعر ما يتوجب على هؤلاء العظماء حسب خبراته:

**اصبر على مضض الإدلاج في السحر *** وللرواح على الحاجات والبكر**

**لا تعجزن ولا يضجرك مطلبه *** فالنجح يتلف بين العجز والضجر**

**إني وجدت وفي الأيام تجربة *** للصبر عاقبة محمودة الأثر**

**وقل من جد في شيء يطالبه *** فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر**

**الحصول على وسام الشرف:**

إن نظرة سريعة على هذا الحديث تدل على المعاني الجليلة الجميلة التي تملأ الكون عبقًا وطيبًا، وتبعث فيه الروائح الزكية. غير أن القيام بهذه الأعمال العظيمة يتطلب منا جميعًا، أن نعمل بشغف وتواصل ورغبة صادقة لا تعرف الكلل ولا التردد، حتى نستحق أن نتبوأ تلك المراتب العالية أو نحوم حولها.

والعمل الصحيح الناجح يمكن أن يتحقق فقط في بيئة تزدهر فيها العلوم والمعارف، وتبرز في ساحتها طبقات من الرجال والنساء الذين يعقدون العزم على التغيير الإيجابي، الأمر الذي لا يمكن أن يحققه الجاهلون أو الغافلون، أو أن يطمح إليه القاعدون عن العمل الجاد، أو أن يقوم به المنشغلون بتوافه الأمور وسفسطائياتها الممجوجة.

ولابد من الكفاح المستمر من أجل إسعاد البشرية ورفع لواء القيم الحضارية والتقدم المنشود، ومعلوم أن الخروج من النفق المظلم والمخازي التي نحن وأمثالنا فيها لا يتحقق إلا عبر المعارف ونشر فنون العلم، وتدريب المجتمع على العمل الجاد والكسب المحترم، والصبر على متاعب الحياة، وتضافر جهود المجتمع، وهو مطلب مستحيل إنجازه وبعيد المنال حقًا إلا من خلال تنادي وتوافر همم العظماء من أبنائنا وبناتنا الذين يتخذون القرارات المصيرية من أجل المشاركة في بناء صروح العلوم والعمل المتواصل على مقتضياتها الهادفة إلى التغيير، وذلك عبر التمسك بثوابتنا الإسلامية والانفتاح الواعي على العلوم والتجارب النافعة في عالمنا المعاصر.

ويقبلون دخول السباق المحموم بكل اعتزاز وثقة وفهم واستيعاب لما يدور في الساحة المحلية والدولية، عاملين طواعية، بغية إزالة الركام والأوساخ والأتربة، التي شوهت حياتنا وحضارتنا، وغيرت معالم ديارنا وشردت الملايين من أبنائنا بدون وجه حق، وتركت الملايين في حالة يرثى لها من العوز والخوف والجهل والبطالة، مما أدى إلى تكون مجتمع من الكراهية والأحقاد الدفينة.

ومع الأسف الشديد فإن مليارات من إخواننا في الإسلام والإنسانية يعيشون اليوم في أوضاع مزرية للغاية يندى لها الجبين وتقشعر منها الأبدان، والسبب الجوهري لحدوث مثل هذه الأوضاع الكارثية ناتج عن فشل تلك المجتمعات في إنتاج قيادة

ناضجة تتمتع بقدرات تمكنها من إدارة وقيادة وتنمية المجتمعات والدول ومعالجة أزماتها الطارئة وغير الطارئة.

إن المجتمعات البشرية الراقية في فهمها وفي استيعاب متطلبات المرحلة لا تختلف حول قيمة نشر العلوم وأهميتها القصوى ورصد ميزانيات ضخمة لها للخروج من الأزمات وحل المشكلات الاقتصادية والأمنية والاجتماعية والثقافية، لأن فهم المعضلات المستعصية وإدراك حقيقة وقيمة ما يعمله الإنسان دائما، ووضع خطط هادفة واستراتيجيات طموحة، والقدرة على تنفيذ البرامج والمشاريع المرحلية، وتجنب المزالق المثبطة للهمم العالية لهي أمور لا تستغني عن التخصصات الدقيقة والخبرات التراكمية.

كما أن نجاح البرامج المختلفة يرتبط بالعمل المنطلق من أرضية صلبة تقودها المعرفة الشاملة لما تحتاجه الأمم والإستراتيجية المرسومة الواضحة التي تحدد معالم المسيرة في مختلف جوانب الحياة، ويرتبط تحقيق تلك المعاني بالحكمة التي يستطيع المرء من خلالها وضع القضايا المصيرية في مكانها المناسب وتنفيذها في الوقت المناسب، حسب حاجة الأفراد والمجتمع في كل ظرف من الظروف.

والمسلمون يشتركون مع غيرهم من البشرية في الحاجة إلى التنمية ونشر العلوم والتغيير الإيجابي، ولكننا حتمًا مرتبطون بمعايير إضافية توجهنا إلى المقاصد الشرعية الكبرى وإلى توفر سلامة القصد ووضوح الرؤية الشاملة حسب المعاملات المالية والأخلاقية، وانطلاقًا من هذه المفاهيم فلابد من السعي الحثيث من أجل تغيير واقعنا المؤلم إلى واقع جديد يوجهنا نحو الحياة ويرفعنا إلى درجة الآدمية، والتي نحن بالفعل في أمس الحاجة إلى الوصول إليها.

إن بلوغ مرتبة عالية من العلم والفهم ومعرفة أوضاع المجتمع والاهتمام به إلى درجة الغوص في أعماق مشاكله، والرغبة الدائمة في تقديم الحلول الناجحة يتطلب منا توفر إرادة قوية وعزم لا يلين، وقرار لا يحسن اتخاذه إلا العظماء من رجالنا ونسائنا، الذين يستطيعون تغيير أنفسهم من الداخل أولًا، وتبديل العادات السيئة والمثبطة لعلو الهمة إلى عادات حسنة ورائدة. وهو أمر ممكن إذا اتخذ القرار وصدق العزم، وإن وجود هذا الصنف من الناس هو الضمان الوحيد الذي يحرك الهمم ويوقظ المجتمع من سباته لتجديد الحياة.

معلوم أن الحياة مليئة بالمنغصات وأنها دومًا تستقبل الأحداث الجسام التي تعكر صفوها وتحدث تغيرات جوهرية محبوبة أحيانًا، وتشوه رونقها وجمالها أحيانًا أخرى، ومن هنا تحدث المنعطفات للشعوب، ويعرف نضجها من عدمه، وقدرة قياداتها على مواجهة الكوارث والأزمات والصعاب، أوعدم قدرتها على ذلك، وتكمن أهمية الشرفاء العظماء في أزمنة المحن والامتحانات عندما يواجهون كافة التحديات بالعمل الشجاع والتضحية الهائلة والعقلية المبتكرة المتحررة من القيود المكبلة للإنسان، وتأتي تلك القيادة القوية الواثقة بنفسها فقط عندما تكون الخارطة مبسوطة أمامها، وتكون الطرق السالكة معبدة والرؤية صافية لا غبار ولا ضباب يحجبها، ويعوق المسيرة فهم مثل المشاعل وهم الرواد يرون مالا يراه الآخرون لأن الخارطة الذهنية عندهم مفصلة ومكشوفة وهذا سبب إقدامهم وارتكاب المغامرات والتضحيات الضخام.

وعندما يكون الإنسان محررًا من الأمراض النفسية والمخاوف، والتشويش الذهني، ولديه الثقة الكاملة بأنه سينتصر ويصل نهاية المشوار ويحقق آماله عندها فقط تستمر رحلته إلى ما لا نهاية، لأنه سيمهد الطريق لمن بعده من بني جلدته، وهؤلاء العظماء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يورّثوا الأجيال المتعاقبة أسباب الحياة والسير على طريق النصر، لأنهم لا يعيشون لأنفسهم بل يعيشون لبناء مستقبلهم الحقيقي ومستقبل أمتهم وابنائهم.

والآيات الكريمات تعبر عن العظماء الرواحل الذين تحملوا المسئولية الجماعية والتحولات التاريخية ثبتوا عندما انتكس المنافقون الضعاف أمام زحف جبابرة المشركين، صمدوا أمام الهجمات العاتيات مختارين غير مكرهين، متعاملين مع الحقائق والثوابت مدافعين عن المصالح العليا للأمة وكرامتها، استجابة لنداء الله ورسوله. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران].

هذه الآيات نزلت في غزوة حمراء الأسد والتي جرت أحداثها بعد يوم واحد من غزوة أحد حيث عزم جيش المشركين أن يهاجم العاصمة ليجتثوا الإسلام من جذوره،

فجعل الرسول ﷺ يعد العدة لمطاردة فلول المشركين والمبادرة بالهجوم فأعلن الجهاد والخروج إلى معسكر جيش العدو في موقع الروحاء، لقد روى الطبري في تاريخه فقال رحمه الله تعالى: (وكان رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة يوم السبت، وذلك يوم الوقعة بأحد، كان يوم أحد للنصف من شوال، فلما كان يوم الأحد لست عشرة ليلة خلت من شوال أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه: ألا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبًا للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم؟

وقد مر بجيش المسلمين معبد الخزاعي، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة رسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم معه، لا يخفون عليه شيئا كان بها- ومعبد يومئذ مشرك- فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله كان أعفاك فيهم! ثم خرج من عند رسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: أصبنا أحد أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم، لنكرن على بقيتهم، فلنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبدا، قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط قال: ويلك ما تقول! قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل قال: فو الله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإنى أنهاك عن ذلك، فو الله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتا من شعر، قال: وماذا قلت؟ قال: قلت:

**كادت تهد من الأصوات راحلتي *** إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل**

**تردي بأسد كرام لا تنابلة *** عند اللقاء ولا خرق معازيل**

**فظلت عدوا أظن الأرض مائلة *** لما سموا برئيس غير مخذول**

**فقلت ويل ابن حرب من لقائكم *** إذا تغطمطت البطحاء بالجيل!**

**إني نذير لأهل البسل ضاحية *** لكل ذي إربة منهم ومعقول**

**من جيش أحمد لا وخش قنابله *** وليس يوصف ما أنذرت بالقيل**

قال: فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

**أي عظمة هذه؟**

**يروي لنا المؤرخون وأصحاب السير هذا النموذج من التضحية:**

(إن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان شهد أحدًا، قال: شهدت مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي وقال لي:

أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟! والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحا منه، فكنت إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون، فخرج رسول الله ﷺ، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، فأقام بها ثلاثا: الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة)(١).

لنقف قليلا على عظمة هذا الصنف من البشر، وتلك النماذج الفريدة من نوعها، إنهم خرجوا من معركة طاحنة استشهد خلالها أكثر من سبعين صحابيًا، وجرح منهم أضعاف ذلك في غزوة أحد، وهم بهذه الحالة الخطيرة مشغولون بدفن الشهداء ومداواة الجرحى ويعانون من آلام من فقدوا، فإذا يعلن قائد الأمة رسول الله ﷺ خروجًا لمعركة أخرى جديدة، وهي غزوة حمراء الأسد للخروج إلى جيش قريش الذي عزم احتلال المدينة المنورة واجتثاث جذور الإسلام، فلبى الجميع نداء القداسة ولم يترددوا، ولم يشترك في هذه الغزوة غير الذين خاضوا غمار غزوة أحد، فكيف كانت الاستجابة؟ كانت تتناسب مع مقام الرعيل الأول وتلامذة رسول الله ﷺ، تتناسب مع الأحرار، سمتهم البارزة الخدمة المتفانية لمقتضى منهجهم ورسالتهم ولا يهمهم غير ذلك، يرددون بكل ثقة وعزم حسبنا الله ونعم الوكيل، فانتصروا على أعدائهم وأمثال هؤلاء يستحقون ثناء الله جل ثناؤه بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الناشر:تاريخ التراث – بيروت– الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ، الجزء الثاني، ص: ٥٣٤-٥٣٦.

لا يلتفتون إلى ذواتهم ولا يبالون ما يصيبهم أثناء قيادة الحياة، ولا يتهافتون على حطام الدنيا ولا ينخدعون بزخارفها وغرورها، إنهم تاج الحياة، وهم الذين يصنعون الفروق بين الأمم والشعوب وبين الأفراد والعائلات، وبين الدول والإمبراطوريات، والإيمان بفلسفة الحياة والتضحية من أجلها والتجرد لقيادة المجتمعات ونكران الذات، هي الصفات التي تقرب بين العظماء لدى الأمم المختلفة في عاداتها وتقاليدها، وفي مبادئها وأديانها، وتلك الصفات هي التي تقنع الشعوب بعظمة هذا الإنسان أو قزامته، وهي التي تعطي الشهادات الحقيقية للذين يستحقونها حيث ترفع أناسا إلى مرتبة الشرف الأولى، يصبحون نجومًا في كبد السماء يستهدي بأنوارهم الآخرون في شئون حياتهم، أو في دنياهم ودينهم.

## الفروق بين المجتمعات

ليست الحظوظ هي الفروق بين الأمم، لا توجد المحاباة بين الخالق والمخلوق، ولا توجد شرائح أو أفراد وشعوب وقبائل ولدت نابغة عبقرية متقدمة، وغنية لحظة ولادتها! وأخرى غبية حمقاء متخلفة، وفقيرة، بل تحكمها سنن ربانية واحدة في الحياة كلها، في بطن الأمهات وحتى في باطن الأرض بدأ ونهاية، الكل يأتي إلى الحياة عاريًا فقيرًا أميًا وهذا هو الأصل، هكذا يأتي الإنسان إلى هذا الكوكب، كما ورد في هذه الآية الكريمة ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

تتساوى الشعوب والمجتمعات والدول في حياتها الفطرية، لأنها من هؤلاء الأفراد الذين تتحدث عنهم الآية الكريمة، تخضع لقانون واحد لا تعدد فيه، تنمو وتتطور تدريجيًا من خلاله، وتواجه أنواعًا من العقبات المتشابهة، من بينها الحروب والأزمات الداخلية، والصراعات الدولية، والاجتياحات العسكرية المدمرة، والتدخلات الخارجية التي لا حدود لها، تواجه الأمم الكساد الاقتصادي والاضطرابات الأمنية، والزلازل والبراكين والفيضانات والجفاف وغيرها بشكل دورات متعاقبة، وما من أمة في تاريخها إلا مرت بمثل هذه المعاناة، طبعًا تتفاوت الدرجات.

**أين تكمن الفروق بين الأمم؟**

تكمن الفروق في ثقافة المجتمعات ومدى اهتماماتها بالعلوم والمعارف، ومتانة أنظمتها السياسية وقوة بنيانها الاقتصادي، واتجاه عاداتها وتقاليدها في الكسب والإنتاج، ومدى صلابة مؤسساتها وأنظمتها وقوانينها، وشروعها التي من خلالها تبرز القيادات في مختلف مجالات الحياة، تلك القيادة التي تتصدى لكل المعضلات والنكسات والمخاطر المهددة لكيانها، من هنا نجد مجتمعًا واجه التهديد المباشر في تاريخه أكثر من مرة، ولكنه في كل مرة يواجه المشكلة بصبر وثبات وحكمة، خارجًا من أزماته التاريخية بانتصار باهر وبوحدة شرائح شعبه، ومعالجًا التحديات الاجتماعية بحكمة بالغة.

ولا يأتي هذ الأمر إلا من الثقافة العلمية التراكمية والعادات الأصيلة التي تغذيها المراكز العلمية، والمناهج الوطنية الهادفة، والثقافة الاجتماعية الراسخة، والأدب بمعناه الواسع من نثره وشعره وحكمه وأمثاله، التي أوصلت هذا المجتمع إلى درجة القناعة المجتمعية بضرورة التصرف والتصدي للأحداث مستخدمًا كافة إمكاناته، منقادًا لتوجيهات قيادته حسب المصلحة العامة.

بينما نجد مجتمعًا آخر ربما لا يختلف كثيرًا عن الذي سلف ذكره يواجه المشكلات نفسها ولكنه سرعان ما ينهار، ويعجز عن مواجهتها، ويفشل في تقديم الحلول الناجحة، ويتعرض لانهيارات مزلزلة، وتستمر الأزمات معه أحيانًا عقودًا طويلة إن لم تكن قرونًا، والسبب ناتج عن الضعف الداخلي من الناحية الثقافية والمؤسساتية، ومن حيث الأنظمة والقوانين ومن حيث التماسك الاجتماعي، هذه الأمثلة حاضرة في مختلف القارات المتباعدة، وترتبط الحالتين إلى حد بعيد بمستوى المجتمع ومدى رشده العام ونوعية المؤسسات التي تدير دفة شئون الحياة.

**محورية القيادة في الفشل والنجاح:**

ومن الجانب الآخر فإن العنصر الحاسم الذي يعول عليه في صناعة التاريخ، والتصدي لعظائم الأحداث هو نضج القيادة، وعيًا واستيعابًا، وحنكة وحكمة، وشجاعة وجسارة، وتضحية وإيثارًا، وصبرًا وتحملًا في مجمل تعاملاتها مع الأحداث الدولية والإقليمية والمحلية، وهنا تبرز ميزة العظماء في التاريخ البشري، والأهمية

القصوى للقيادات المتميزة صاحبة القدرات والإمكانات الفائقة في أحلك الظروف وأشدها قسوة.

إن هؤلاء العظماء لا يأتون عن فراغ، بل هم من إنتاج بيئتهم ومجتمعهم وأسرهم، ومن محيط يساهم في تنشئتهم وتربيتهم، ويساعدهم على الإعداد المتواصل، وعلى هذا فهم يتخرجون من معامل التنمية البشرية ومختبراتها ومراكزها التي تجلّي لنا نوعية وقدرات ومعادن الرجال والنساء، تحنكهم التجارب وتصقلهم من خلال الدربة والممارسة في الخدمات الاجتماعية المتنوعة.

من هنا نلاحظ الفروق بين المجتمعات عجزًا وقدرة على صناعة العظماء، لأنهم جزء من مجتمعهم، لذا فإن المجتمعات الجاهلة والفاشلة المتخلفة قلما تنجح في إنتاج القيادة الصالحة، لأن مثل هذه البيئة تقتل المواهب، وليس لديها معايير ومقاييس دقيقة توزن بها وتفرق بين الأقوياء والضعفاء وبين العظماء والأقزام، وبين الشرفاء والأشرار، وبين الصالحين والفاسدين، ومن هنا تتبين الأمور في مدى التلازم بين العمل في التنمية والتطوير الاجتماعي وبين صناعة الكفاءات القيادية الفاعلة.

**العمل معيار دقيق:**

تتقدم الأمم والشعوب دومًا بقدر ما تقدم من عمل، فتكون قادرة على التعامل مع الحقائق المجردة في تصرفاتها مع نفسها ومع غيرها، وهي التي تستطيع التضحية من أجل سيادتها ومبادئها، وتتقدم بقدر ما تقوى على التنافس في الساحة العالمية في مختلف مجالات الحياة وتخصصاتها، وتتقدم بقدر ما تستفيد من مصادر المعرفة الثابتة والمتجددة التي تفجرها وتحركها اليوم بسرعة مذهلة الثورة المعلوماتية، والشبكة العنكبوتية بتفجير الطاقات وتغيير نمط الحياة، وتتقدم بحسن الاستفادة من الخبرات العالمية المتوفرة، وبقدر ما تحافظ على سلامة مسيرتها وتقدمها التنموي وتماسكها الاجتماعي.

وفي المحصلة النهائية لابد من قيادة قوية تمثل مجتمعها وتتصدى لحل المعضلات والمشكلات المتفاقمة، وهو دور العظماء والقيادة الصالحة، فبدونهم يحدث التخلف وتتعاظم العقبات وتتراكم الأزمات، ويحرم المجتمع من استفادة الفرص الموجودة على ظهر البسيطة، وهنا تظهر الفروق الشاسعة بين الأمم والشعوب، والسبب الوحيد هو

العمل أو عدمه! وليس الحظ العاثر أو الحظ السعيد، كما تروجها الشعوب المتخلفة التي تعتمد على التواكل، تنتظر قرونًا متتالية ظهور المهدي المنتظر ليخرجهم من الظلمات ويقيم لها الدول والحياة السعادة ويقدم الحلول السحرية لمشكلاتهم، أو تنتظر لحلول أزماتها ببروز معجزة تخرج من المجهول مثل الكرامات وخوارق العادات والإمام المختفي والمهدي المنتظر!!![1].

---

(١) لقد كنت في المدينة المنورة في السنة التي حاولت فيها مجموعة جهيمان قلب نظام الحكم في السعودية عبر إعلانها داخل المسجد الحرام بظهور المهدي المنتظر بعد صلاة الفجر من أيام التشريق مباشرة وأجبروا المصلين على البيعة عبر مكبرات الصوت.فرح الكثيرون ظانين بتحقق ما انتظره المسلمون مئات السنين واستغرب الآخرون، ولقد أريقت دماء الأبرياء أيامها بغزارة بسبب قوة وكثافة الأسلحة التي كانت المجموعة تمتلكها داخل الحرم، وأيا كانت درجة الأحاديث الواردة في حق المهدي المنتظر إلا أن الجهد المبذول في تتبع رواياتها وأسانيدها والجدل العقيم الناتج عن ذلك يعتبر هدر طاقات كان من المفترض أن ننفقها في الواجبات المضيعة أو نصحح سوء الفهم الذي يجعلنا نتهرب من واقعنا إلى الأوهام والأحلام الخائبة الأمر الذي أخرجنا من دائرة الكرامة الإنسانية.

ليس المهم هنا سرد القصة وهي مشهورة وكتبت عنها الكثير، ولكني الذي يهمني هنا قصة قصيرة دارت بيني وبين أحد الطلبة في الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. قبل بضعة أيام من الحدث الهمجي دار نقاش بيني وبين زميل لي في الدراسة حوار ساخن وطويل جدًا، كان يحاول أن يقنعني بالذهاب إلى مكة المكرمة لنشارك بيعة المهدي في الحرم المكي: سألته ما معنى بيعة رجل مغمور غير معروف في الساحة السياسية والدعوية والاجتماعية؟ فقال إنه المهدي المنتظر الذي بشر به الرسول ﷺ فمجرد ظهوره وإعلانه للعالم يعم العدل في العالم الإسلامي كله. قلت له فهل هو أفضل من أبي بكر وعمر وبلال وحمزة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم الذين أنهكتهم المتاعب وأرهقهم الجهاد فمنهم من استشهد ومنهم من مات موتة طبيعية؟ فسكت قليلًا فقال ولكن الرسول بشر به بروايات حسنة في مجموعها تكون قوية. فقلت له إن السنن الربانية في الحياة مبنية على الكفاح المتواصل مثل كفاح وجهاد الأنبياء والرسل والصحابة والحواريين والأولياء وعموم الصالحين فمنذ نبي الله آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ومع أنهم هم الصفوة المختارة لكنهم تعرضوا للابتلاءات الشديدة والمحن بسبب رسالتهم المقدسة.

ويذكر القرآن الكريم في مواقع عديدة أنواعا من صنوع العذاب ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ =

**الفشل في الأداء صناعة للفشل:**

كما أن التميز في الأداء والإتقان شرط أساسي للخروج من التخلف والبؤس والشقاء، ويؤدي إلى رضى الله ووجوب محبته للإنسان المتقن لعمله وهذا الذي يشير إليه الحديث النبوي الشريف، يقول رسول الله ﷺ: (إِنَّ الله يُحِبُ إذا عَمِل أَحَدُكُم عَمَلا أنْ يُتْقِنَه). والأعجب أن المسلمين هم أبعد الناس عن الإتقان والأداء المتميز في وقتنا الحاضر!!! ومهما يكن من أمر فإن غياب العلماء العظماء والقيادات الفاضلة للشعوب عن مراكزالقيادة والتوجيه مؤشر قوي على انهيار الأمم واختفاء سيادتها وزوال منعتها وقوتها وملكها، وهو ما يشير إليه الحديث النبوي الشريف: فعن عبد الله ابن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا) رواه البخاري ومسلم.

---

=فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ [آل عمران]، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

إن النصر المؤزر للمبادئ يأتي عن هذا الطريق وليس غيره إنه طريق واضح لا لبس فيه، فقلت لمحاوري أنا لا أفهم معنى المهدي الذي يحكم العالم بدون إيمان وعمل صالح معًا وبدون امتحان وجهاد مادي ومعنوي وبدون الخوض في مختلف التجارب ليصبح مؤهلا وتتكون لديه الخبرة والدربة الضرورية للقيادة والحكم والإدارة، فقال محاوري أتكذب الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر وأنت طالب في الدراسات العليا؟ فقلت له إذا كانت تخالف القرآن الكريم والعقل والمنطق السليم فما العمل عندها، وانتهى الحوار بدون فائدة وحدث ما حدث مع الأسف الشديد.

إننا أمة تخلفت عن الحياة عندما ساء فهمنا لطبيعة الحياة وانحرفت عن سننها وقوانينها، وحدث جمود قاتل لنا عندما أصبح الإسلام في مجتمعاتنا طقوسًا لا حراك لها وأحكامًا تبرر المظالم الاجتماعية، من هنا خرجت أمتنا من دائرة الإنسان السوي لأنها اختارت أن تعيش في سجون الأوهام، المهدي المنتظر والإمام المختفي وحدوث المعجزات عند اشتداد الأزمات في انتظار المجهول.

فلك أن تتخيل عندما يتولى الجاهلون زمام أمور المجتمع والدولة والعائلة والأفراد، ويدير الأميون الشركات الاقتصادية الضخمة والجامعات العريقة، فكيف تسير الأمور وإلى أين نتوجه؟ وما هي المعايير التي نتعامل من خلالها فيما بيننا ومع العالم الخارجي؟!

صدق رسول الله (فضلوا وأضلوا)! لأن كل من يحاول قيادة السيارة قبل أن يتعلم السواقة ويتدرب على قيادتها فإنه لا محالة سيقع في حوادث وسيرتكب جرائم لا حدود لها، في حق نفسه وفي حق الآخرين، فما بالك في قيادة أمة ومجتمع؟! لذا فإن الحديث النبوي يشير إلى هذا المؤشر. فشعار الحياة واستقامتها هو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل]. وأهل الذكر هم أهل التخصص في الفنون المختلفة مثل الرياضيات، والفقه، واللغات، والطب، والهندسة، والسياسة، والإدارة، والعلوم العسكرية وغيرها، فبقيادة العلماء الأكفاء شعب الحياة تستقيم الأمور وتثمر الجهود.

**العلم شرط في أهلية المجتمع:**

إن المجتمع الذي لا يحترم العلم والعلماء، ولا يقدر التخصصات والمؤهلات العلمية، هو مجتمع فقد أهلية القيادة والكفاءة في تطوير نفسه وتنمية موارده، وبحكم مستواه الذي يجعله يختار القيادات الجاهلة والأمية بدل العلماء والمتعلمين كما يشير إليه الحديث فإن هذا المجتمع يتوجه حتمًا نحو الهاوية والانهيار، أنظر إلى هذا الحديث: (أن رجلًا قال لرسول الله ﷺ متى الساعة؟ فقال: "إذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظر الساعة". قال: وكيف إضاعتها؟ قال: " إذا أسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة)، يواجه أي مجتمع فقد القيادة الرشيدة مخاطر الانهيار أو الفوضى العارمة بعد أن آلت الأمور إلى غير أهلها، وهذ تحذير للشعوب بألا تهمل التربية الناجحة، وأن تعطي الاهتمام المناسب للقيادات المستقبلية، حتى لا تخسر حياتها وتحكم نفسها بالإعدام.

**فليتنافس المتنافسون:**

إن العالم في تنافس دائم وهو يخوض المعارك الشرسة من أجل الصدارة في الساحة الدولية عبر المؤسساتية وصناعة القيادة وتهيئة البيئة المناسبة التي تتنفس برئتين من الحرية والتنافس التي تحميها القوانين والشرعية، إننا جزء من هذا العالم، فماذا ننتظر منه؟ إن

العالم لا يستطيع أن يمنح الكسالى القابعين في أوهامهم، والجاهلين الأقزام أو سمة شرف، ولا يتعامل مع الفاشلين في حياتهم بقدم المساواة والكرامة مع المجدين الطموحين.

إن الخيار خيارنا، كما هو خيار الجميع، إما أن نتقدم إلى الأمام ونعد أنفسنا للسباق المحموم، وإما أن نعد ونتجهز للوفاة، والخروج عن ساحة الحياة والأحياء. وهذه هي الفروق بين الشرف وعدمه، بين التقدم والتخلف، وبين الحياة والموت، وهو الفرق بين الخيرين والأشرار، وبين المفسدين والمصلحين، وبين الأقزام والعظماء.

**صنفان من الناس في مركز قيادة المجتمعات:**

نشاهد صنفًا من البشر في حالة قلق وحيرة وتذمر عند اضطراب الأحوال وتغير الأوضاع وأثناء التحولات المفاجئة والأحداث المصيرية. نشاهدهم يدورون حول أنفسهم ومصالحهم الضيقة، محاولين إخضاع مصالح الأمة برمتها لأنانيتهم العفنة، وطموحاتهم الشخصية القذرة، ونزواتهم الحائرة المجنونة، مرتكبين كل صعب وذلول من أجل ذلك الهدف، متناسين أنهم لا يستطيعون تحقيق رغباتهم إذا انهار المجتمع، وتصدعت أركان حياته، واختفت المصلحة العامة. ونجد في ساحة أمتنا أمثلة حية على هذه النماذج الممسوخة. ولعل الصومال الجريح دليل صارخ على وجود آلاف من قياداته التي تصرفت يوما وكأنها وحدها تملك مصير الكون، وتواجه اليوم فقرًا ومهانة وذلًا في كل ركن من أركان العالم، ولم تسعفهم ملايين الدولارات التي استحوذوا عليها وحرموا منها أصحابها، سواء في عهد الحكومات المتعاقبة أو في عهد الحروب الأهلية .

ونجد صنفًا آخر من البشر يتمتعون بقدرات فائقة وهمم كالجبال الراسيات، وعزيمة لا تلين عند اشتداد الأمور وسيادة الفوضى في الساحة، ينسون أنفسهم ويلغون ذواتهم للدفاع عن القيم، ويقدمون المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ويسعدون لمساعدة الآخرين ونصرة المظلومين وحماية البيضة والتضحية لنصرة معتقداتهم، لا يأبهون بما يواجهونه من متاعب في مسيرتهم، ولا يخافون لأنهم تحرروا من الخوف، ﴿ ...وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة].

قرروا أن يحدثوا أكبر تغيير في الحياة الإنسانية من أجل جلب المصلحة لمجتمعاتهم، والأمثلة كثيرة لمواقف العظماء وقراراتهم وإنجازاتهم التاريخية في مختلف العصور

والأوطان وفي مختلف الأديان والمذاهب والفلسفات المتنوعة، وفي ظروف متشابهة أو غير متشابهة. يقول الصديق ﷺ: (أينقص الدين وأنا حيّ؟) إنها همة لا يتسرب إليها اليأس أبدا.

وكم من الأشخاص المغمورين في زحمة الحياة ارتحلوا من بلاد إلى آخر لكسب عيشهم عبر التنقل والتجارة، ومع ذلك أحدثوا تغيرات اجتماعية ودينية في الساحة العالمية، وتركوا بصماتهم الجلية أينما حلوا، إنهم نماذج من الشرفاء، اقرأ تاريخ دخول الإسلام في إفريقيا وآسيا ترى العجائب في سيرة هؤلاء العظماء، إذ كانوا أناسا يحملون قلوبًا حية ورسالة واضحة.

**في التاريخ عبر:**

فإذا درسنا وتتبعنا صفحات تاريخ الأمم في أنحاء العالم، نجد قادة استطاعوا تأسيس دول وإمبرطوريات مترامية الأطراف من مجموعة قبائل متناحرة متنازعة، غيروا الحياة العلمية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية. كما نجد قادة استطاعوا إنقاذ دولهم ومجتمعاتهم من أزمات حادة عصفت بها لأسباب معينة، وتمكنوا من إعادة بنائها من جديد على أسس ضمنت لها البقاء قرونا طوالا.

كم في تاريخنا الإسلامي من علماء عاملين ومفكرين عباقرة، وقادة أفذاذًا غيروا معالم الحياة البشرية وساهموا في بناء حضارة عملاقة أنارت القارات المظلمة. كم نجد في الحضارة الأوروبية من مفكرين بنوا دولًا وأسسوا مدنًا عملاقة وفائقة الجمال، أو أضافوا بعدًا جديدًا في المسيرة الإنسانية، بمبتكراتهم واكتشافاتهم العلمية التي تفوق على كل التصورات حتى غيروا معالم الحياة ونمط معيشتها وأساليب تفكيرها. ولو ذهبنا إلى الصين أو القارة الهندية، أو القارة الإفريقية سنجد رموزًا لها قدر عظيم وشرف مروم، وريادة ناجحة لأممهم وأقوامهم وحضاراتهم.

**القاسم المشترك بين العظماء:**

إن العظماء لا يشتركون في مسيرة الحياة في المعتقدات أو الأيدلوجيات أو الرؤية السياسية والاقتصادية، وليسوا من لون واحد أو جنس واحد أو من قارة واحدة، ولا يقاسون بالطول والعرض، ولا بالثروة والفقر، إنهم فقط يشتركون في صفة واحدة، ألا وهي: عظمة قدرهم التي تصنع عظائم الأمور عند ما يعجز عن تحقيق ذلك الآخرون كما قال أبو طيب المتنبي رحمه الله تعالى:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم *** وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتكبر في عين الصغير صغارها *** وتصغر في عين العظيم العظائم

(وقد حاولت بعض الدراسات تحليل العلاقة بين العمل التطوعي ونمط الشخصية وخصائصها ومدى استعداد المتطوع للتضحية في سبيل ما يؤمن به، وترى أن العمل التطوعي لا يستطيع أن يقوم به كل إنسان وإنما يقوم به أشخاص معينون يتمتعون بمقدرات معينة، وأدرجت مجموعة من الصفات للمتطوع منها: المرونة، التفاؤل، الشفافية، الشجاعة، الحماسة. وتنصح الدراسة أولئك الذين لا يستطيعون مواجهة مواقف غامضة مربكة والإحباطات بأن لا يحاولو إدارة أي برنامج تطوعي أو المشاركة فيه)[1].

فالتضحية ونكران الذات ومواجهة الصعاب في أوقات الأزمات والشدائد والرغبة الملحة في التغيير الإيجابي، والتحرر من المخاوف والمثبطات، والعمل بدأب وشغف من أجل إدخال السعادة والسرور في قلوب مجتمعاتهم، تلك هي وسائلهم لبلوغ أهدافهم، مما جعل شعوبهم تكن لهم الاحترام والتبجيل دومًا.

وهذا دأب العظماء في كل عصر من عصور التاريخ، وتلك نظرة شعوبهم ومجتمعاتهم تجاههم رغم تباين الأزمان، واختلاف المعتقدات، وتباعد المنطلقات الفكرية والفلسفية لبرامجهم واستراتيجياتهم.

وهذا هو ما جعلني أجلهم وأغير بعضًا من أفكاري أو نمط حياتي عند ما أقف على سيرهم ومواقفهم وإنجازاتهم وتضحياتهم، وهو ما يجعلني أقدرهم وأقف لهم إجلالًا واحترامًا لإسهاماتهم الضخمة في الحياة البشرية في مختلف مناحي الحياة ودروبها الوعرة وقضاياها المعقدة.

**وفي الختام أقف إجلالا لهؤلاء العظماء:**

أقف إجلالا لكل العظماء الذين تحرروا من عوامل اليأس محطم خلايا الحياة، وأسباب الهوان المذلة لكرامة هذا الإنسان.

---

(١) قيادة العمل التطوعي، هارنت نايلور، نيويورك،١٩٧٦م، ص٩-١٢.

أقف إجلالا لكل العظماء الذين عشقوا الحرية بمعناها الواسع ومضامينها الجميلة، وقيمتها العالية، وقدرها المبجل.

أقف إجلالًا لكل العظماء الذين أحبوا الإنسان واستخدموا قدراتهم لإسعاده دومًا، وبذلوا الجهود لحفظ وصون كرامته.

أقف إجلالًا لكل العظماء الذين يجدون متعتهم وراحتهم النفسية من خلال ما يقدمونه من خير وخدمات جليلة إلى البشرية.

أقف إجلالًا لكل العظماء الذين ضحوا بأرواحهم وأموالهم وأوقاتهم النفيسة لنصرة قضايا شعوبهم، وإخراجها من هاوية التخلف والفقر والتناحر والجهل والمظالم الاجتماعية وكل صفة تساهم في خلق البيئة الفاسدة وزراعة الكراهية في الأرض.

أقف إجلال لكل العظماء الذين لا يقبلون الخضوع والاستسلام للتيارات الجارفة، والنظرات السطحية المعاكسة، ويرفضون ركوب موجات التهور، رافضين التهافت على البريق الخادع وغرور الحياة.

أقف إجلالًا لكل الذين أناروا الشموع في أزمنة الظلمات المادية والمعنوية لإحياء الآمال في النفوس البائسة، ولنفخ الروح في الهياكل الميتة، أناروا الشموع لإزالة الأوهام الخيالية وتراكماتها التي حجبت الحقائق عن الملايين، وغيرت ماهية الأشياء وصورها، أناروا الشموع ليقولوا بصراحة ووضوح لا غموض فيها إن الظلمات واليأس والدجل والأكاذيب والشعوذة وإدمان الفتن والحروب والبطالة، لا يمكن أن تمثل الحياة، أو أن تكون بديلًا عن الحقائق وجمالها، وعن العقول وقوة إدراكها، وعن العاطفة السليمة وقدرة تأثيرها، وعن عظمة هذا الإنسان وقدرته على التغيير، التغيير الإيجابي، التغيير الذاتي، التغيير الاجتماعي، التغيير الثقافي، وتغيير نظرة المجتمع إلى حياة أفضل.

أقف إجلالًا لكل العظماء الذين تركوا بصماتهم على جبين الحياة، وخلدوا ذكراهم العطرة بعد مماتهم حتى تروي الأجيال تلو الأجيال قصص حياتهم ومواقفهم ويومياتهم. لقد تركوا وراءهم ميراثًا خالدًا لا يستطيع الأعداء والأقزام وأشباه البشر بعدهم إزالته من ذاكرة شعوبهم وشعوب العالم، لأنهم كتبوها في سجلات تتحدى عاديات الزمان وآفاتها وأحقادها، فتظل شامخة غير مبالية بما يحدث بمرور الأيام، لأن الحقائق أقوى من الأوهام.

أقف إجلالًا لهؤلاء العظماء الذين حزموا أمرهم لقيادة العالم بأفكارهم وتضحياتهم وقدراتهم من أجل إسعاد البشرية وإخراجها من ظلمات الجهالة وضيق الحياة إلى أنوار المعارف الساطعة وسعة الحياة البهيجة، ومن خراب المعيشة ونكدها إلى عمرانها واخضرارها وابتسامتها.

أقف إجلالًا لكل العظماء، لأنهم يمثلون صفوة المجتمعات البشرية وقممها الشاهقة وذروتها السامقة، وهم صناع الأجيال والقيادات في كل عصر، وهم يتقنون صناعة الأمل، ويوقدون الشمع المضيئة والتي تبدد دياجيرالعصور المظلمة لتخرج شعوبهم وأممهم من ويلاد التخلف إلى ذروة التقدم، ومن التشتت والفوضى، إلى الالتحام وسيادة القانون، ومن قاع التبعية المذلة إلى سدة القيادة المشرفة!

أقف إجلالًا لهؤلاء العظماء الذين قاموا بما قاموا عبر أعمالهم التطوعية التي ليس لهم من ورائها غرض مادي يجنونها بل عشقوا التطوع من قلوبهم ليحققو المصلحة العامة والتي هي بدونها لا تستقيم الحياة ولا تصمد أمام الأعاصير العاتية يجاهدون في مختلف مناحي الحياة ويلقنوننا دروسًا غير قابلة للنسيان ويعلموننا معنى الواجبابت العامة من خلال العمل التطوعي والذي هو حجر الزاوية في تحقيق المصلحة العامة، مصلحة الأمة أفرادا وجماعات، شعوبًا ودولًا، رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا.

فهل نطمح أن نكون في ركاب العظماء ونسلك سبيلهم ونتخذهم قدوة ومنارة لنظفر بالحياة السعيدة وتبقى الذكرى العطرة في قلوب أبنائنا وبناتنا وقلوب كل الأجيال بعد موتنا؟ وننال وسام الشرف الذي لا يجده إلا هذا الصنف من الناس، وهم الرواحل الذين تشير الأدلة الناطقة في القرآن الكريم إلى مقامهم الرفيع.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الشعراء]. أي فوز هذا، وأي عزة تلكم، وأي عاقبة تتحقق لهذا الصنف من الناس؟!

ويقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الفرقان].

**من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه:**

لقد قال هذه الجملة رمز العمل التطوعي ومعلم البشرية الخير كله، وخاتم الأنبياء والرسل صاحب اللبنة المكملة لجميع الرسالات السماوية، صدقت يا رسول الله حقًا من أبطأ به عمله يخسر الحياة كلها، لأن أركان الحياة ومقوماتها هي العمل الصالح لا غيره، العمل الدائم والمتقن، العمل الجماعي لا الفردي، العمل القائم على منهج مخطط ومتكامل لا العمل المنطلق من الفوضى والارتجالية والعفوية، عمل يقوم به مجتمع يملك استقلاليته في اتخاذ قراراته ويؤمن بقدسية وطهارة ما يقوم به، فبدون تلك المرتكزات والأركان تنهار الحضارات ولا يبقى عمرانها، فبدونها يصعب إعادة بنيانها والتحرر من الإذلال والخروج من النفق المظلم، وتحقيق هذا يتطلب وجود الاستشعار بالمسؤولية الفردية والجماعية وبدافع إيماني قوي يجعل أفراد المجتمع يؤدون الفروض العينية والكفائية بلا تفريق بينهما، ويتسابقون إلى تنفيذ الأوامر الربانية والإرشادات النبوية طواعية وبدون أن ينتظروا من غيرهم الأجور المادية، ومن هذا العمل تتجدد الحياة ومن ينابيعه تزدهر الحضارة وتصان المقاصد الشرعية من الضياع، وهذا العمل هو حجر الزاوية في تحقيق المصلحة وانتشال أمتنا من الوضع المتردي والتبعية لغيرها، وتحويلها من العمل الفردي إلى تحمل المسؤولية الجماعية التي تتحقق فيها درجة الإصلاح، وهذا هو النهج الذي ينقذنا من الأوضاع المزرية في حياتنا الحالية البائسة، وهلاك شعوبنا وأوطاننا بسبب فقدان المصلحين مصداقا لقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود].

# الخاتمة

بحمد الله قد اكتملت محاور الكتاب، ولقد تطرقت إلى موضوع شغل بالي فترة من الزمن وهو العمل التطوعي في حياتنا، وحاولت الوقوف على التطوع وما يترتب عليه من آثار إيجابية أو سلبية في رحلة الحياة حسب حضور المتطوعين قوة أو ضعفًا، ومعاني التطوع في اللغة ودلالاتها في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الشريفة حيث تم إلقاء نظرة عامة على المقتضيات اللغوية والتعريفات الفقهية المقننة بشأنه وكيف تنظر المجتمعات المعاصرة إلى التطوع.

وبعد تفحص سريع لدلالات مفردة (تطوّع) في القرآن الكريم يتضح أنه وردت في سياق الحديث عن أحكام ركنين من أركان الإسلام متشابكا مع لفظة (الخير) التي تشمل أركان الإسلام وجميع الفروض العينية والكفائية، كما تشمل الفضائل والأخلاق والآداب والسنن المستحبة، بالإضافة إلى ذلك فإن الخير بصيغه المتنوعة يتحقق من خلال اجتناب الكبائر وجميع المنهيات الأخرى.

ووقفت على تعامل أصحاب رسول الله ﷺ متطوعين بكل ما يقومون به مع التوجيهات الربانية والنبوية كأمر واجب التنفيذ والالتزام بغض النظر عن التفريق بين الأوامر والنواهي، بل كان تعاملهم تعامل إذعان واستسلام تنفيذا للأوامر من أجل نشرالمعروف، وتجنبا عن ارتكاب المنهيات لمحاربة المنكرات، وكان يتم ذلك فور تلقّي التوجيهات من رسول الله ﷺ، ومبعث هذا هو الإيمان الراسخ، والفهم الصحيح، والعزيمة الصادقة، مما مكنهم من الانقياد التام لمقتضيات الإسلام، ولا نرى عندهم واجبات مضيعة أو مقسمة بطريقة توهم بوجود واجبات تخص ببعض الناس دون البعض الآخر كما استقر في الأذهان في العصور المتأخرة بأسباب كثيرة من بينها التعريفات الفقهية.

فبمجرد نزول آية أو صدور توجيه من رسول الله ﷺ أمرًا أو نهيًا كان همّ الصحابة رضي الله عنهم ينحصر بكيفية حفظها والعمل بها دون أي تأخير، بل يتسابقون في ساحتها كل حسب قدرته، وأما الذين يعجزون عن تلبية تلك الأوامر بسبب من الأسباب فإن الحزن والبكاء كان ديدنهم، بل تأكل الحسرة أكبادهم مع أنهم معذورون كما

تشير إليه هذه الآية: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة].

فمن خلال تتبع سيرة الصحابة رضي الله عنهم يتبين لنا أن التفاضل بين الصحابة كان مبنيًا على الأعمال الاختيارية بدافع العمل التطوعي والرغبة الداخلية بدون أمر يوجب ذلك على آحاد الناس، وتقع تلكم الأعمال في محيط الفروض الكفائية أو السنن أو المباحات، لأن التفاضل بين الناس في عصر الصحابة والعصور التي تلته لم يكن يظهر جليًا في المجتمع من خلال الفروض العينية، لأنها مطلوبة من كل شخص مكلف غير معذور بعد دخوله في الإسلام، ولهذا لا توجد هنا ميزة يستحق بسببها أي فرد منهم فضلًا أكثر من غيره فهم في ظاهر الأمر يتساوون في ذلك، فهم يؤدونها رغبة أو رهبة فليس أمامهم خيار في تأدية تلك الفروض.

هناك جملة من القضايا في هذا البحث تساند وتؤيد رفع درجة التطوع إلى درجة الوجوب والفرض بجانب كونه يدخل في درجات الندب والمباح في الحياة البشرية، ومن بين هذه القضايا:

### أولًا: الإيمان بالله عمل تطوعي

كون الإيمان بالله يأتي من الاختيار والتطوع لا من الإكراه والإجبار مسألة في غاية الأهمية، فالشهادة هي البوابة الوحيدة لدخول الإسلام، والمفتاح الوحيد هو الاختيار، ولا تصح هذه الشهادة من مكره أجبر على دخول الإسلام، فإكراه الناس على الإسلام يتنافى وجميع القيم لهذا الدين وهو مرفوض وغير مقبول، فما قيمة أمة تشرّع للنفاق والجبن في دستورها؟ وما وزن المجتمع الذي يعمل في ظل منهج لا يؤمن به بل يساق كرها لبناء حضارة ما ؟ ومن هنا ندرك أن العمل التطوع هو الأصل في الإسلام.

### ثانيًا: الأنبياء والرسل هم رواد التطوع في الحياة

الأنبياء والرسل هم حملة رسالة الله إلى البشرية فهم أكثر الناس ثقلًا، ولقد قاموا بما قاموا به متطوعين، ولم يكونوا يطلبون العوض والأجور ممن أرسلوا إليهم، لقد قص علينا القرآن ذلك وورد هذا المعنى ست عشرة مرة على لسان ستة من رسل الله عليهم السلام.

ومع أن تبليغ الدعوة فرض على الأنبياء بعد إيمانهم بما أنزل إليهم وإرسالهم إلى الأقوام أو العالمين إلا أن تكرار المعنى الذي تشير إليه هذه الآية ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس] له دلالة قوية على كيفية تحملنا ثقل ما ورثناه من الرسول عليه السلام، وكيف نكون شهودًا بصدق على البشرية، فبدون اليقظة لعظمة هذه المسؤولية من كل فرد مؤمن بهذا الدين ستظل أعمالنا ناقصة.

## ثالثًا: ورثة الأنبياء يجسدون التطوع تجديدا للمفاهيم

كون العلماء في مختلف تخصصاتهم العلمية ورثة الأنبياء والرسل هو ما يقوي دور الأعمال التطوعية في حياتنا، فهولاء الورثة حري بهم أن يتبعوا سبيل الأنبياء دومًا وأن يبذلوا كل جهد ممكن من أجل الحفاظ على ما ورثوه، فمحاولة القيام بما كان الأنبياء يقومون به في حياتهم هو الاستقامة على المنهج المؤدي إلى اتباع خاتم الرسل، ويحقق لهؤلاء المحظوظين حب الله وحب رسوله ﷺ، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران].

## رابعا: العمل التطوعي من لوازم جلب المصالح ودرء المفاسد

الهدف الذي نسعى إليه من أجل تحقيقه هو المصلحة، تارة ينصب تركيزنا على المنافع والخدمات الشخصية، وتارة على المنافع والخدمات العامة، ونجد هنا اختلافا بينا ومذاهب شتى لدى المجموعات البشرية في توجهاتها ومقاصدها، فبما أن المصلحة هو القطب الذي نطوف حوله فإننا نحتاج إلى معرفة العوامل المساعدة على الوصول إلى الهدف المنشود، وبهذا جاء دور العمل التطوعي في المقدمة، لأنه هو العمود الفقري لتحقيق تلك المصالح وصيانة المقاصد الكبرى والتي جاء الإسلام من أجلها، فبدون العمل التطوعي فإنه لن يكون للمصالح وجود مشرف أبدا سواء المصلحة الخاصة أو العامة كما أنه لا يمكن درء المفاسد.

## خامسا: خلق المجتمع الصالح:

يتطلب تكوين المجتمع الصالح مشاركة فعالة من قبل جماهير الأمة بوعي ورغبة طوعية قوية،لأن الصراع بين الصلاح والفساد في الوجود جزء من الحياة، والسعي إلى

الغلبة أمر فطري في الإنسان أيًا كانت المبررات والدوافع، فالله يأمرنا بالصلاح والإصلاح في شئوننا كلها وهذا يستلزم تجميع القدرات للمجتمع من أجل إصلاح مجالات الحياة وبناء سدود منيعة أمام زحف الفساد والإفساد، فأهمية ذلك من الواضحات في القرآن الكريم حين ربط صلاح الحياة كلها بالإيمان والعمل الصالح: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهي واردة فيه حوالي ٥٠ مرة. بينما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وردت فيه حوالي ٨٩ مرة، فلك أن تتخيل كم الجهود المطلوبة لتلبية نداء رب العالمين بفعالية مؤثرة، إنها أكبر من أن تقوم به فئة قليلة العدد ومجهولة الهوية غير معروف منهجها خارجة عن دائرة السلطة والنفوذ، إنه يحتاج إلى أمة ذات رسالة تؤمن بها القاعدة العريضة، ومنهج مطبق في الواقع العملي، ووعي سياسي تقوده قيادة راشدة، وتلك أمور غير متوفرة لدى الساحة الإسلامية اليوم وهو ما يوجب على الأفراد كل الأفراد التحرك والانخراط في العمل التطوعي بدون انتظار الأوامر من المجهول.

**سادسا: التطوع ضرورة بعد عجز دولنا عن تقديم الخدمات للمجتمع:**

في الأصل وجدت الدول لخدمة الشعوب بما يتيسر لديها من الإمكانات في الدفاع الوطني عن المخاطر الخارجية والداخلية ورفع مستوى التعليم والتنمية بصورة عامة، وتقديم المساعدات الضرورية إلى الشرائح الأضعف وذوي الاحتياجات الخاصة، والسوال الذي يطرح نفسه هو: إلى أين تنتقل تلك المسئوليات الخطيرة إذا انهارت الدولة أو فقدت القدرة على تقديم الخدمات الضرورية للمجتمع ؟ كلنا ندرك الظروف الحرجة التي تمر بها أمتنا المسلمة وكيف أن الأغلبية الكبيرة من دولنا استقالت عن هذه المسئولية الجماعية بسبب الفشل السياسي والأمني والاقتصادي الطاغي على أوطاننا! أنها تنتقل إلى أفراد المجتمع إلى كل فرد غير معذور نساء ورجالا بما فيها الأطفال وكبار السن والمرضى، بكون الوجود مهددًا بأكثر من سبب.

فلننظر إلى اليمن وسوريا وفلسطين والصومال والعراق وليبيا ومصر، والمسلمون في كثير من دول آسيا وإفريقيا يواجهون مشاكل لا حدود لها، إن التواكل وخفوت الأنشطة التطوعية في العالم الإسلامي إلى أبعد حد، وسوء فهمنا للمقاصد الكبرى في ديننا هي التي أورثتنا إلى هذه الأوضاع المتردية، وهو أمر يستدعي كشف العلاقة بين الواجبات وبين الفعاليات التطوعية، فوضع الحواجز السميكة بين التطوع وبين الفروض الدينية أيا كانت

الأسباب هو تشويه للدين لانعدام أية فروق جوهرية بين الواجبين في التطبيقات العملية، كما أن اعتماد الموظفين في الأجهزة الرسمية وحدهم للقيام بالواجبات الوطنية الكبرى سوء فهم وجهل لحقيقة الدولة ودورها في الحياة، فهذا يعطل القدرات الكامنة في جماهير شعوبنا، ويخلق قطيعة بين الدولة وبين الشعب من الناحية النفسية والفعلية.

**سابعا: ضمور المصلحة العامة مؤشر على ضعف التطوع:**

هيمنة المصلحة الفردية على المصلحة العامة سمة بارزة في أغلب المجتمعات الإسلامية حيث ينشغل معظمنا بهموم ليست ذات جدوى، فبدل أن تطوف أفكارنا حول نفع الآخرين وبذل النفس والنفيس في سبيل التضحية للمصالح العامة يطوف كل واحد منا حول نفسه، وكأننا نعبد أنفسنا بدل عبادة الله سبحانه، ولقد أمرنا الرسول عليه السلام بالعناية بكل مكونات البيئة والمجتمع، وأخبرنا بأن رعاية العاهرات وسقي الكلاب من أسباب دخول الجنة، وإن تعذيب القطط وأمثالها من أسباب دخول النار، وأن مجرد تحقير فرد من البشرية هو فسق، هذه الأمة هجرت منذ قرون عن هذه القيم الراقية التي استطاع بها البدو في الجزيرة العربية تغيير العالم وقيادته قرنًا بعد قرن، وهذا الضمور المخجل للهمم له أسبابه، ومن بينها: نقص الوعي لدى المسلمين بقيمة المصلحة العامة، والفهم المشوّه للواجبات الدينية، وعدم الالتزام بالقيم الدينية والدستورية، وضعف التنسيق بين الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني، بالإضافة إلى ما سبق فإن فقدان الحريات الأساسية في الساحة السياسية جمّد بصورة شبه كلية روح الإبداع في المجتمع، وقتل نظام الأوقاف ومؤسساته التي كان التطوع وفاعليته النابعة عن قوة وعي الأمة وتضامنها، وتمسكها بما أمرها ربها سبحانه.

**ثامنا: العظماء بنّاة الحضارات:**

عند تتبع التطورات والتغيرات الحضارية فإن روادها ليسوا هؤلاء المشغولين بهمومهم الخاصة، هم عادة إما أنهم من اصطفاهم الله وهم الرسل والأنبياء وهم قادة الخير للبشرية وحملة الأنوار والهداية، أوأنهم من أصحاب الهمم الرفيعة والطموحات الخارقة الذين يضحون بكل ما يملكون من أجل الوصول إلى أهدافهم السامية أيا كانت عقائدهم وأفكارهم، فنجد هنا أهمية العمل التطوعي في مختلف الشعوب قديمًا حيث يحتل الصدارة في الدول المتقدمة وتشارك نسبة تتجاوز ٤٠٪ من إجمالي السكان في بعض

الدول الأوروبية ويدر على الخزينة العامة مليارات الدولارات، ففي الجانب الآخر لا وجود للعمل التطوعي المنظم في الدول المتخلفة.

**تاسعا: أرقى نموذج للعمل التطوعي بقيادة الرسول ﷺ:**

العمل التطوعي بقيادة الرسول ﷺ وفهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم لمقاصد هذا الدين هو النموذج الذي يحتذى به، فبالعمل التطوعي غير المسلمون الأوائل حياتهم البائسة في الجزيرة العربية ثم انتقلوا إلى مختلف قارات العالم، لأن فعالية المؤمنين وقوتهم الذاتية تنطلق من مفهوم التطوع، فمن خلال مشاركة الجميع عبر تنظيم الدولة وعبر الاستشعار بالمسئولية الفردية والجماعية يمكن أداء الواجبات على حد سواء، ولا يوجد أية فروق جوهرية تصمد أمام الحوار والنقد البناء، والتأمل الهادي يعطينا تلك النتيجة، لكوننا مطالبين بأداء الفروض العينية والفروض الكفائية، وكما تسقط الفروض العينية بعدم القدرة على أدائه تسقط الفروض الكفائية بعدم القدرة على أدائها، بالإضافة إلى ذلك فإن كل فرد تجب عليه الصلاة والصوم والحج والزكاة يجب عليه القيام بالفروض الأخرى- بطبيعة الحال - ما دام قادرًا على المساهمة في هذا الأمر.

ففي هذه الظروف الحرجة لا يستثنى أحد حتى المرضى والفقراء والجهال والأطفال من الناحية الشرعية والمنطقية والمصلحية، لأن جميع هؤلاء لديهم قدرات وطاقات كبيرة تجعلهم يشاركون في تقوية المتطوعين الذين يقومون بأنواع الفروض المتصلة بتخصصاتهم ومجالات عملهم لمساعدة المجتمع والدفاع عنه ضد ما يتعرض له، فإذا كان من المفترض أن تتحمل الدولة معظم مسئولية الخدمات فليس معنى ذلك أن الواجبات الكفائية تسقط عن الأفراد، أما إذا عجزت الدولة عن ذلك فتصبح كافة الفروض الكفائية واجبة على أفراد المجتمع، فيأثمون جميعًا إذا ما قصروا في هذا الواجب.

ليس خافيا على أحد أن ما تعاني به أمتنا اليوم ناتج جزئيا عن سوء فهم في المقاصد الكبرى لديننا وكأن الواجبات تنحصر فقط في أركان الإسلام وبعض الواجبات العينية الأخرى، وبهذا الفهم المعوج لا نقوم بأغلب الواجبات في الإسلام حيث تشعر الأغلبية الساحقة بأنها غير معنية بالواجبات الكفائية، ولا تحس بالحرج لإهمالها هذه الواجبات والفروض بسبب ما ترسخ في الأذهان من أن الواجبات الكفائية لا تختص بأحد بعينه.

وكل واحد ينتظر أن يقوم غيره بالواجبات حسب الفهم المعوج للقاعدة الفقهية ( إذا قام به البعض سقط عن الباقين) فمعظمهم لا يضعون أنفسهم في فعل الشرط في الجملة، ولكنهم باختيارهم يضعون أنفسهم في جواب الشرط في الجملة وبهذا أسقطوا هذه الواجبات عن أنفسهم؛ فهم يعيشون بكل الأريحية والرضى النفسي مع ترك واجبات تمثل جل أوامر الله ورسوله في ديننا الحنيف، وبإهمال الواجبات عن قصد أو عن جهل وعدم استجابة الغالبية العظمى من المسلمين لتلكم الأوامر فهذا من الناحية العملية رفض لمقتضيات الدين وعصيان لنداء الله المتكرر يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ [الأنفال].

إن التدين المنقوص لا يشفع للأمة، وإن وجود قلة من أفراد مستقيمين على النهج لا يقوّم ذلك الاعوجاج المهول والانحرافات التراكمية، ولا يمكن أن تتحقق مصالحنا العامة ولا الخاصة بواسطة هذا التدين المغشوش في أحسن الأحوال، بل إن الأمر يستوجب الاستنفار والتعبئة التي تبدء من تصحيح المناهج وتقويم الأفهام وجعل المصلحة العامة فوق المصالح الخاصة من أجل تحقيق المقاصد الكبرى لديننا من خلال الانقياد التام للتوجهات العامة لهذا الدين. يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ [البقرة].

# قائمة المصادر والمراجع

## المصاد والمراجع العربية

- إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، الموافقات، الجزء الثاني للمحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء ١٣.
- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المجلد ٢٨.
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، تاريخ الطباعة: ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت.
- أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، الجزء الأول، دار مكتبة الحياة ١٩٨٦ الميلادي.
- أبو السعود العمادي بن مصطفى، تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- أبو القاسم محمد بن محمد الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، الجزء الأول، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة الأرقم بن أبي الأرقم، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، الجزء الأول.
- أبو حامد محمد الغزالي، المستصفى، حققه: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، تاريخ الطباعة ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م.
- أبو حفص سراج الدين النعماني، اللباب في علوم الكتاب، الجزء الثالث، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت تاريخ الطباعة: ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م، الطبعة الأولى.

- أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، الجزء التاسع، المحقق: جميل صدقي محمد، دار الفكر، بيروت، تاريخ النشر: ١٤٢٠ هـ.
- أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، المحقق صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠ هـ، الجزء٣.
- أبو عبد الله الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، الجزء الثامن، دار الكتبي ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، الجزء الثالث، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة،تاريخ الطباعة: ١٣٥٨ الهجري، ١٩٤٠ الميلادي، الطبعة الأولى، مكتبة الحلبي– القاهرة، .
- أبو عبد الله يوسف بن عبد الله بن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، المحقق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكريم، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية المغرب ١٣٨٧ الهجري، الجزء التاسع.
- أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، الجزء الأول، المحقق، خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت.
- أبو محمد عبد القادر بن حبيب الله السندى،الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك، الجزء الأول، مطابع الرشيد، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية .
- أبو محمد مكي بن أبي طالب الأندلسي القرطبي المالكي، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن، الجزء العاشر، مجموعة البحوث للكتاب والسنة، الطبعة الأولى، الشارقة: ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م.
- أبو نعيم، حلية الأولياء، الجزء الأول.

- أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن،، حققه الإمام أبي محمد ابن عاشور، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، ١١٤٢٢ الهجري، ٢٠٠٢ الميلادي الطبعة الأولى، الجزء الخامس.

- أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، الجزء: ١١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥ هـ- ١٩٤٦م.

- أحمد حسن الزيات باشا، مجلة الرسالة، عدد :١٠٢٥.

- الحسن بن الحسن الحليمي، المنهاج في شعب الإيمان، الجزء الثاني، المحقق حلم محمد فودة، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م.

- الدكتور أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الشاطبي، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م، الطبعة الثانية.

- الدكتور عثمان ناصر منصور، العمل التطوعي خدمة للمجتمع وتعزيز الانتماء الوطني، جريدة الرأي الأردنية، يوم الخميس، ٥ يوليو ٢٠١٢ .

- الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، تفسير الوسيط، الجزء الثالث، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى- ١٤٢٢هـ.

- الرازي زين الدين أبو عبد الله بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، معجم الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية.

- الشيخ محمد الغزالي، نظرة على واقعنا الإسلامي المعاصر، الطبعة الثانية، دار ثابت، القاهرة ١٩٨٣ م.

- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الناشر: تاريخ التراث – بيروت- الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ، الجزء الثاني.

- الفارابي، أبو النصر إسماعيل بن حماد، منتخب من صحاح الجوهري.

- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، الجزء الثاني، المحقق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الجزء الثاني، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م.
- جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ج١، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى.
- د. عبد اللطيف عبد الله دهيش، قيام الدولة العثمانية، مكتبة النهضة الحديثة، الطبعة الثانية، مكة المكرمة، ١٩٩٥.
- د. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق- ٢٠١٢، الطبعة الثالثة.
- زيادة أبو غنيمة، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.
- سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري، مختصر شرح الروضة، الجزء الأول، المحقق: الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، تاريخ الطباعة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧ م.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الأول، دار الشروق، الطبعة ١٧، بيروت، تاريخ الطباعة: ١٤١٢.
- شمس الدين الحافظ الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني، حققه مجموعة من المحققين باشراف الشيخ أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- صالح كولن، راية حلما كان- وواقعا صار قصة مؤسس الدولة العثمانية، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة- ٢٠١٤.
- عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الإتقان في علو القرآن، الجزء الثاني.
- عبد الرحمن بن محمد النجدي، الروض المربع، الجزء: الأول، دار المؤيد – مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

- عبد القاهر الجرجاني، درج الدرر في تفسير الآي والسور، مجلة الحكمة البريطانية، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م.
- عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات تفسير القشيري، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة.
- عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، الجزء الأول، دار الفكر العربي، القاهرة.
- عبد الملك بن حسين المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٨،ج ٢.
- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثاني، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م.
- عز الدين بن عبد السلام، تفسير القرآن، الجزء الأول، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت: ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م.
- عز الدين بن عبد السلام، قَوَاعِد الْأَحْكَام في مصالح الأنام، الجزء الأول، راجعه وعلَّق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة: ١٤١٤ هـ، ١٩٩١ م.
- علي محمد الصّلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامي، بورسعيد،٢٠٠١.
- فخر الدين الرَّازي، التفسير الكبير، الجزء الخامس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.
- فخر الدين الرَّازي، المحصول في علم الأصول، الجزء الأول، المحقق الدكتور: طه جابر العلواني، تاريخ الطباعة ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م، الطبعة الثالثة، دار الرسالة.
- فيروز أبادي، قاموس المحيط.
- محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، الجزء الثالث، دار الكتاب العربي لبنان- بيروت.

- محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، طريق الهجرتين ودار السعادتين، الجزء الأول، دار السلفية- القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٩٤هـ.

- محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، زهرة التفاسير، الجزء الأول، دار الفكر العربي، القاهرة.

- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء السادس.

- محمد بن إسماعيل بن صلاح، التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ، الجزء الرابع، المحقق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١، المحقق: محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠ م.

- محمد بن محمد الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، دار الهداية.

- محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)،ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

- محمد طاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، الجزء الثالث، حققه محمد الحبيب الخوجه، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - دولة قطر ١٤١٥هـ/ ٢٠٠٤م.

- محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الفكر.

- محمد فريد، تاريخ الدولة العلّية العثمانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٢م.

- محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، عالم الكتب، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار طيبة.

- نظام الدين الحسن النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الجزء الثاني، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العربية، الطبعة الأولى، بيروت: ١٤١٦هـ.

- نعمة الله الشيخ العلوان، الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للحكم القرآنية والحكم الفرقانية، الجزء الأول، دار الركابي للنشر، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

## المصادر والمراجع الأجنبية

- Bjarne Ibsen 1992.

- Estonian Ministry of the interior, 2006.

- https://www.biography.com/people/george-washington-9524786

- https://www.britannica.com/biography/George-Washington

- J.VON HAMMER, OSMANLI İMPARATORLUĞU TARİHİ, .C1,İTANBUL -2013

- MAO ZEDONG AND CHINA IN THE TWENTIETH-CENTURY WORLD, Duke University Press, Durham and London, 2010.

- rom Wikipedia, the free encyclopedia.

- Statistics Canada, 2006.

- U.S. Bureau of Labor Statistics 2008.

- VOLUNTEERING IN THE EUROPEAN UNION, Educational, Audiovisual & Culture Executive Agency (EAC-EA), Directorate General Education and Culture (DG EAC), Final Report submitted .by GHK, *17 February 2010*

| | |
|---|---|
| رقم الإيداع | ٢٠١٨/١٣٩٠١ |
| I.S.B.N<br>الترقيم الدولي | 978-977-10- 3401-8 |